هنري ترويًّا

سلسلة روايات نور العادلين



سيدات سيبيريا

ترجمة

علي باشا

دار علاء الدين



Henri Troyat

كاتب ومؤلف روسي الأصل كان يسمى (ليف تاراسوف) ولد في موسكو عام ١٩١١ ، وهاجر مع أسرته إلى فرنسا في عام ١٩١٨ ، نال شهادة الإجازة في الحقوق وبدأ سيرته الأدبية بعملين هما:

Faux Jour (1935)

و(L'Araigne (1938 التي حاز بفضلها على جائزة غونكورت Prix Goncourt في العام ذاته.

نشر سلسلة من الروايات الرومانسية التي عاصرت التاريخ الروسي آنذاك منها:

Tant que la Lumière durera (1947 - 50).

La Lumière des Justes (1959-63).

Le Pain de l'Etranger (1984).

Les Héritiers de l'Avenir (1968-70).

أما عمله (Les Vivants (1946

فقد كتب للمسرح.

نشر ايضاً عدداً من بيوغرافيات مشاهير وأعلام روس منها:

Dostoevsky (1940).

Peter the Great (1979).

Maupassant, Zola, Verlaine (1993).

Flaubert, and Baudelaire (1994).

أصبح عضواً في الأكاديمية الفرنسية عام ١٩٥٩.

سيدات سيبيريا

Henri Troyat

Les Dames De Sibérie

La Lumière des Justes

هنري تروَيّا

سيدات سيبريا

سلسلة روايات نور العادلين

ترجمة

علي باشا

منشورات دار علاء الدين

- سيدات سيبيريا.
- تأليف: هنري ترويًا.
- ترجمة: علي باشا.
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩.
- عدد النسخ /١٠٠٠/ نسخة.

- تمت الطباعة في دار علاء الدين للنشر.
- هيئة التحرير في دار علاء الدين:
  - الإدارة والإشراف العام: م. زويا ميخائيليلينكو.
  - المتابعة الفنية والإخراج: أسامة راشد رحمة.
  - التدقيق اللغوي: صالح جاد الله شقير.
  - الغلاف: م. محمد طه.

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص. ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١، فاكس: ٥٦١٣٢٤١

البريد الإلكتروني: ala-addin@mail.sy

الجزء الأول

١

كان «نيقولا» نائماً وهو يمشي عبر صراخ الحراس وقرقعة السلاسل التي تصطدم ببعضها. وفي الباحة، لفحه برد الفجر على وجهه، فارتعش، وقد انبهر من الضوء الذي نفذ إلى أعماق عينيه. وتوقف رفاقه معه وأخذوا يهزّون رؤوسهم التي ما زال يثقلها النعاس. وفي ضوء الصباح، بدا سجن «تشيتا» وكأنه ملكية مسوّرة، جميلة المنظر. كانت قطرات الضباب المتجمدة تلمع كمسحوق فضي على أوتاد الحاجز، العالية. وأخذت كرة الشمس الحمراء تخرج متوهجة من بين سحب الغيوم الكثيفة. والسماء لا تزال رمادية اللون، ولكن، كانت تتراءى خلف هذا اللون الرمادي، مساحة شاسعة الأبعاد، لا تحدّها حدود، زرقاء اللون، ليالٍ صقيعية، ونهارات حارة، تلك هي قاعدة الأحوال الجوية السائدة في سيبيريا، مع اقتراب فصل الصيف.

وكانت العصافير، تزقزق، وهي ترفرف حول برك المياه الصغيرة التي تغطيها قشرة رقيقة شفافة وهشّة.

وبكبرياء، صاح ضابط صف:

- انتظموا بالصف: اثنين، اثنين، ورتّبوا سلاسلكم!

فانصاع السجناء للأمر ببطء وتراخ: يستحيل العمل وهذه القيود الثقيلة في أرجلهم. ولكي يخففوا من عبئها، عليهم أن يعلقوا السلاسل بواسطة سير من الجلد، في أحزمتهم أو في أعناقهم. كانوا ينحنون ويستقيمون كما لو أنهم كانوا يتلقّفون أحشاءهم.

ربط «نيقولا» الحلقة الوسطى في الحبل الذي يطوق خاصرتيه، كان الجوع يعذبه. فعند الاستيقاظ، بالكاد أتيح له الوقت ليحتسي كأساً من الشاي الدافئ، ويقضم قطعة من الخبز الأسود. كان السائل يتحرك ويقرقر بحزن في معدته. ومع ذلك، فهو بصحة جيدة. إذ إنّ المناخ الجيد والهواء الطلق، والطعام الثقيل والوافر، والتمارين الرياضية اليومية، كلها، قد حسّنت صحته، التي كانت قد ساءت بسبب الأربعة عشر شهراً التي أمضاها في الزنزانة. وكان معظم رفاقه يبدون هم أيضاً أحسن حالاً مما كانوا عليه في سجن قلعة «القديس بطرس والقديس بولس». ولأنه لم يكن هنالك لباس رسمي، ونظامي للمجرمين السياسيين، كان كل منهم يرتدي الملابس التي تروق له، والتي يستطيع تأمينها بوسائله الخاصة: أثواب من جلود الخراف، معاطف «ريدنفوات» بالية، قبعات تغطي الآذان، قبعات، أحذية من اللباد، صنادل مصنوعة من لحاء القنب، بحيث يخيل للمرء أنّ لمّام الخرق والملابس العتيقة، قد تقاسم معهم ما جمعه من خرق وملابس رثة وبالية. وكان «نيقولا» وهو يمشي بين هؤلاء المتسولين، تساوره الشكوك أحياناً، فيما إذا كانوا حقاً، فيما مضى، نبلاء من الطبقة الأولى، ضباطاً في الحرس، موظفين كباراً، أو أبناء عائلات عريقة، وحسب. وقد أوقعهم انقلاب الرابع عشر من كانون الأول «ديسمّبر» الفاشل، جميعهم، دون تمييز في البؤس، وسبب لهم هذه المصيبة الكبرى. وقد مضى عامان ونصف على انتفاضتهم، وتمردهم، باسم حقوق الإنسان، على طغيان واستبداد القيصر. فمن يتذكّر الآن هذا المشروع الجنوني، سوى هؤلاء الذين يدفعون ثمنه من حريتهم؟

ومن حسن الحظ أنّ الانضباط في «تشيتا» كان يمكن تحمله، لأنه لم يكن شديداً. وكان السجناء الذين تجمعوا في الباحة، يبدون وكأنهم يتأهبون للقيام بنزهة خلوية. كان بعضهم يحملون تحت آباطهم كتباً،

صحفاً، وآخرون يحملون بساطاً ملفوفاً، لوحة شطرنج، منضدة صغيرة يمكن طيها، علبة صغيرة، أو «سماور»... وكما هي العادة، كان الضابط يغض الطرف عن هذه المعدات التي تصلح للنزهات الخلوية. وكان بعض محكومي القانون العام السابقين، يدفعون عربات نقّالة تحمل معاول «السادة المحكومين السياسيين».

الأمر الذي حدا بـ «نيقولا» إلى التفكير، والتساؤل: «إلى أي درجة يهبط التسلسل الطبقي الاجتماعي في روسيا، طالما أنه حتى السجناء مع الأشغال الشاقة مثلنا، يجدون أناساً ذوي وضع أقل انخفاضاً، لكي يخدموهم؟».

أحاط بعض الجنود المسلحين بالبنادق بمجموعة السجناء، ووقف الضابط في المقدمة، وامتشق سيفه بأناقة. ولكن لم يكن هنالك أحد ليبدي إعجابه به. وبناء على أمره، فتح الباب الكبير على مصراعيه. فسار السجناء وعددهم الإجمالي نحو خمسين، يجرّون أرجلهم، عبر طقطقة قوية تنبعث من سلاسلهم الحديدية. وعند اجتيازهم القرية كانوا ينظرون إلى البيوت الخشبية الصغيرة المصطفة على يمين وعلى يسار الشارع، لكي يروا فيما إذا كان يبدو من إحدى النوافذ وجه يعرفونه. وقد أصبح يوجد في «تشيتا» سبع من زوجات السجناء: الأميرة «تروبيتزوكوّي»، الأميرة «فولكونسكي»، السيدة «مورافييفّ» السيدة «فونفيزين» السيدة «دافيدوف»، السيدة «ناريشكين» و «صوفيا» بالإضافة إلى خطيبة «أنّانكوفّ» الصغيرة، الآنسة «بولين جيبل»، حيث سيتم عقد قرانهما قريباً.

وربما وصلت زوجات غير هؤلاء، أيضاً، إذا لم يضع القيصر حداً لهذه الهجرة الغرامية. وعندما اقترب «نيقولا» من «الايسبا» التي تقيم فيها «صوفيا» شعر بانقباض في صدره. كانت قد تحدثت معه، في اليوم السابق، كما تتحدث معه كل مساء، عبر حاجز السجن. ولكنّ هذا لم يكن

كافياً. كان يشعر بالحاجة لأن يلمحها، هذا الصباح، ولو كان لطرفة عين، لكي يستعيد شجاعته. لم يكن أحد على عتبة الباب، ولا أحد على النافذة، فالوقت مبكر جداً، وهي لا تزال نائمة.

فأحنى «نيقولا» رأسه، وأخذ يتصور «صوفيا» وهي في سريرها، وقد أغمضت عينيها، مبتسمة، وهي ربما تكون تحلم به. وانتشرت، بشكل مفاجئ الحرارة في أوردته. وشعر برغبة شديدة لأن يركض. ويخلع الباب، ويلقي بنفسه على هذا الجسم الذي خدّره النوم. فاصطدمت نظرته بالحراس، الذين كانوا يمثلون الواقع الذي يسير. ومن جديد شعر بوطأة ثقل سلاسله وقيوده.

وكان مراقب الصف يصيح:

- يسار، يمين! يسار، يمين!

ولكن لم يكن هنالك عشرة رجال يسيرون بخطوات منتظمة.

اختفى مسكن «صوفيا» وراء رأس جندي كان يمضغ تبغاً. ووصل السجناء إلى آخر القرية، حيث لم تعد الكلاب تشعر أنها في بيوتها، وأخذت تتردد بالنباح على المارة. كانت المنازل الوضيعة الأخيرة تبدو مدعّمة بقناطر وأقواس لكي لا تنزلق على منحدر الرابية، الرملي. وفي الأسفل، كانت تتلألأ المياه الجارية في أحد الأنهار، والمياه الهادئة، في بحيرة هناك. كانت البراري تبدو منبسطة بلونها الأخضر الريان، وبمجموعات شجيراتها التي تغوص أقدامها في الوحل. وفي الأفق ترتسم نصف دائرة تشكلها جبال زرقاء ومسننة.

ولأنه، كان لا بد من إشغال السجناء بعمل مّا، كان الجنرال «ليبارسكي» مدير السجن، يرسلهم كل يوم إلى مشارف القرية ليردموا وهدة كبيرة. ولكنّ أول هبة ريح، أو أول مطر عاصفي ينهمر، كان يجرف التراب الذي كدّسوه بمشقة وصبر، ومنذ اليوم التالي، كان عليهم أن يعاودوا العمل نفسه من جديد. وعدم جدوى هذا العمل، واستمراره،

كانا يعفيان الإدارة من البحث عن عمل آخر. وتزيل من أذهان السجناء الرغبة بإبداء الجدية والحماسة في العمل. كانوا قد أطلقوا على هذا المكان لقب: «قبر الشيطان»، ربما لاعتبارهم أنّ الشيطان ذو طبيعة تتسم بالقسوة والعناد، وأنه لم يستطع أحد الانتهاء من عملية دفنه.

وكان «نيقولا» عندما يفكر بساعات الفراغ التي تنتظره، ينتابه الغثيان. وهل يمكن الاستمرار في العيش، مع هذا القدر الضئيل من الأمل؟ وأخذ يراقب رفاقه، ولاحظ أنهم أكثر إحباطاً من اليوم الذي أدينوا فيه.

ففي تلك الفترة، كانوا لا يزالون قريبين من الانتفاضة والتمرد، تبث فيهم الحماسة آخر نفحة حارة من مثلهم الأعلى السياسي. أما في سيبيريا، فإنّ بسالتهم وإيمانهم قد بليا مع مرور الأيام. وكان «نيقولا» يستطيع أن يضع رقماً على كل وجه: «هذا؛ سيبقى في السجن سبعة عشر عاماً، وهذا الآخر سيبقى فيه اثني عشر عاماً...» وهو نفسه الذي ينتمي إلى الفئة الرابعة، كان عليه أن يمضي نحو ثمانية أعوام في سجن الأشغال الشاقة، وبعد ذلك، سوف يقضي بقية حياته في المنفى.

وغمغم جاره القيصر «يوري ألمازوف»:

- تبدو منزعجاً! أليس الأمر على ما يرام، في هذا الصباح؟

فقال له «نيقولا»:

- كلاّ!

- كلّ منا بدوره! البارحة، كنت أنا خائر العزيمة. وغداً سيكون دور سجين آخر. يجب أن نقاوم، ونقتدي بـ «لورير». فهو مرح على الدوام! و «لورير» الذي كان يمشي أمامهما، التفت، صحّح على كتفه وضع السير المثبّت بسلاسله، وأضاءت وجهه النحيل، ابتسامة طفولية، ذلك الوجه الذي يزينه شارب ضخم، وعارضان أشقران. كان ينتمي إلى اتحاد الجنوب، ولكنّ له كثيراً من الأصدقاء بين جميع المتآمرين، بسبب طبعه المرح.

وقال:

- إنّ إبداء الندم والأسف، لا جدوى منه، يا عزيزي، كلّ منا عليه أن يكّون سعادته، بما يجده في متناول يده، حتى ولو لم يكن يتاح له من أجل ذلك سوى قطعة خبز، وجانب من السماء الزرقاء. هل ننشد أغنية؟

فقال «نيقولا»، دون حماسة تذكر:

- هيا بنا!

وصاح «يوري ألمازوف»:

- إيه! أين المردّدون؟ انتبهوا! واحد، اثنان!...

فجلّس «لورير» قامته، وأخذ ينشد، بصوت صاف وقوي كصوت أحد المغنين على المسارح أو في دار الأوبرا:

«في أعماق مناجم سيبيريا،

ظلوا مزهوين وصابرين...

كان هذا مطلع رسالة، أرسلها الشاعر «بوشكين» سراً إلى سيبيريا بواسطة الأميرة «فولكونسكي»، وحوّلها «جماعة كانون الأول» إلى أغنية ينشدونها، وهم يسيرون على الطريق.

وأخذت الرؤوس ترتفع والنظرات تتوهج. وانضمت بعض الأصوات إلى صوت «لورير»:

السلاسل الثقيلة ستسقط!

والسجون سوف تفتح! هيا، إلى الخارج!

الحرية تنتظركم!

وأخوتكم سينصفونكم، ويعيدون لكم سيوفكم...

أخذ الجميع الآن يسيرون بانتظام وإيقاع، والسلاسل تطقطق على إيقاع السير. ولا يمكن أن توجد أفضل من هذه المصاحبة للمرافعة والدفاع عن التخريب. وبدافع التروي والحكمة لم يكن السجناء يلفظون بوضوح تام،

الكلمات الأكثر إثارة للشبهات. ولكن كان من السهل تبيّنها بسرعة وعلى الهواء.

وكان الضابط يظل هادئاً، لا يتدخل، وربما كان يتظاهر بأنه لا يفهم شيئاً من كل ذلك، لكي لا يضطر إلى اتّخاذ إجراءات شديدة أو تطبيق عقوبات قاسية. وهو يدعى: «فاتروشكين»، وكان بطبيعته كسولاً ويكره القصص والمشكلات! أما جنود المرافقة والحراسة، فكانوا مسرورين جداً بهذا الفاصل الترفيهي. وكان غباؤهم يمنعهم من التفكير بالحيطة والحذر. وعلاوة على ذلك. فمن عادتهم، هم أيضاً، أن يغنّوا أي أغنية كانت وهم يمشون. ولولا شيء من الخجل، لعمدوا إلى ضم أصواتهم إلى أصوات المساجين، وأحياناً، كان يبدو، بجانب الطريق قروي أو عامل، حُكم عليه سابقاً بالسجن مع الأشغال الشاقة، ويحمل علامة المذلة والعار على جبينه، وعندما يرى الموكب وهو يمرّ، يرفع قبعته، ويرسم إشارة الصليب، معتقداً، دون شك أنّ السجناء السياسيين ينشدون ترتيلة دينية.

وصاح «إيفان بوشين»، وهو يقف على رؤوس أصابع رجليه:

- إيه! أيها الأصدقاء، ماذا لو أعطينا الجواب الآن؟

كان الجواب على قصيدة «بوشكين» قد كتبه في السجن «أودويفسكي» ومن جديد، انطلق «لوريز»، منشداً الكلمات الأولى، وتبعته جوقة المردّدين:

وصلت أخيراً إلينا، أيها الشاعر!

نغمات القيثارة الملتهبة، حاملة النبوءات!...

و «نيقولا» الذي بدأ يغني دون حماسة تذكر، انطلق، بعد ذلك يغني بأعلى صوته. ولم يعد رأسه، ذراعاه، ساقاه ملكاً له. لقد أصبح بكليته أحد عناصر الجمهور، محزوماً، مسوقاً، مبحراً، محمولاً ومدفوعاً مع الآخرين، بالقوة الواحدة نفسها:

«سوف تستخدم سلاسلنا لصنع سيوف أخرى!

وستشعل أيدينا وهج الحرية في كل مكان!

وسنقوم بمهاجمة خصومنا الأنذال!...»

كان يعلم أنّ هذا نوع من الكلام، وطريقة للحديث، وأنّ جدران السجون لن تنهار، وأنّ «متمردي كانون الأول» لن يندفعوا أبداً، والسيوف بأيديهم لمهاجمة الحاكم المستبد، الذي سيرتجف خوفاً منهم، وأنّ أنوار الحرية لن تضيء العالم في القريب العاجل، ولكن، كان يبدو له بدهياً أنّ مثلاً أعلى يتغنى به سويةً كثير من الأفواه، لا يمكن أن يزول ويختفي. والفكر يبقى حياً، بعد موت البشر، كما تبقى شرارة النار حية، بعد أن يتهدم البيت. ونفخة على الجمر، وتلتهب النار من جديد. كانت الأقدام تدق الطريق الرملي. كانوا يتقدمون عبر الغبار الداكن الذي يتصاعد من حولهم. وتلت برودة الصباح حرارة جافة، هبطت من السماء الزرقاء. والخضرة أخذت تشحب عبر ذلك الضوء اللاهب. والرجال المقيدون بالسلاسل اللاهثون والذين يتصبّبون عرقاً، ما زالوا يغنّون معبّرين عن إيمانهم بمستقبل يسوده العدل. وتوقفوا بالقرب من «قبر الشيطان»، وطفت على أناشيدهم طقطقة السلاسل.

وصاح الضابط:

- أنزلوا حمولة العربات!

فتقاسم السجناء الأدوات. أمامهم يمتدّ وادٍ عميق، جوانبه الرملية منهارة. وبدأ العمل. وأخذت المعاول تحفر الأرض بضربات ضعيفة ومتباطئة. وعندما تمتلئ إحدى العربات النقّالة تفرغ حمولتها في الحفرة، حيث تضيع في الحال، كما يتبدّد الدخان ويضيع في الجو. كان «نيقولا» و «يوري المازوف»، يلهثان جنباً إلى جنب وهما يستخدمان معولين ثقيلين ومفللين. ولكنّ هذا التمرين الذي يُعَدّ رياضة بدنية لم يكن يزعجهما. والجنود،

بعد أن شبكّوا أسلحتهم، توزعوا على مجموعات صغيرة، بجانب الوادي. وبدت بين أيديهم أوراق اللعب الوسخة والممزّقة، وأخذوا يلعبون الورق، لقاء رهان يؤدونه من بذور عباد الشمس. وبقي منهم أربعة خفراء، يقفون باسترخاء، مستندين على بنادقهم. والضابط استلقى وتمدد على معطفه، واضعاً يديه تحت رأسه، وأخذ يتثاءب وهو ينظر إلى السماء. وبعد برهة، استغرق في النوم، وهو فاغر الفم.

فتمتم «نيقولا»:

- إنه لمن السهل الهرب!

فقال له «يوري ألمازوف»:

- نعم، ولكنهم سيلحقون بنا بسرعة ويلقون علينا القبض من جديد. و «أودويفسكي» و «اياكوبوفيتش» لديهما مشروع آخر.

- أي مشروع؟

- سيتحدثان لك عنه، بعد قليل، هما بنفسيهما.

- إني أحذر «اياكوبوفيتش» وأرتاب فيه، فهو مجنون!

- لقد تعقّل كثيراً، منذ بعض الوقت...

وأخذا يحلمان بعملية الهرب، هذه، التي كانت تشغل بال الجميع، وإن كان، لا أحداً منهم، يعتقد في قرارة نفسه، أنه من الممكن القيام بها، وأرسل الضابط شخيراً أجشاً، واستيقظ مذعوراً، وكأن الصوت الذي أحدثه هو، قد أخافه. كان المساجين يعملون بتراخٍ متزايد، وبدت حركاتهم وكأنها متباطئة بسبب حرارة الجو ولزوجته. وبعد قليل توقفوا عن العمل.

فقال لهم الضابط:

- هيا، أيها السادة! عليكم أن تبذلوا جهداً بسيطاً آخر!...

فردّت عليه غمغمة تنم عن التذمر والتعب، ولم يفكر بأن يستاء منها. فهذا العمل الإجباري لم يكن له سوى قيمة رمزية بالنسبة للجنود وكذلك

بالنسبة للمساجين. كان القصد منه أن يقتلوا الوقت سوية، بينما البعض منهم يحرسون الآخرين، والمهم هو المحافظة على المظاهر، وما تبقى لا أهمية له. وكان «نيقولا» يقول في سره إنّ نظام السجن عبارة عن مزيج غريب من القسوة والسذاجة. وبقدر ما تكون القاعدة دقيقة وصارمة، بقدر ما تبدو التسويات متعدّدة.

وقال الضابط:

- ما زال على كل فريق أن يملأ عربتين، وبعد ذلك تتوقفون للاستراحة!

فانصاع المساجين للأمر. وبعد عشر دقائق، توجهوا، بعد أن تركوا أدواتهم في مكان العمل، إلى غابة صغيرة تظلّل أرضها أوراق أشجار الحور، الفضية، وأوراق أشجار الزان الأرجوانية.؟ كان الجو في ذلك الظل لطيفاً، والأرض طرية ومرنة، لأنها مفروشة بالأعشاب والحشائش القصيرة. وكان هذا مكاناً يشتهيه ويحلم به المرء، ليخلد إلى الراحة. فارتمى بعض الرجال على الأرض وأغمضوا أعينهم، وجلس آخرون، وقد أسند كل منهم ظهره على جذع شجرة، وفتح كتاباً على ركبتيه، بينما أخذ آخرون يتبارون بالشطرنج، أو يكتبون، أو يتحدثون فيما بينهم بصوت خافت، وانضم «نيقولا» و «يوري ألمازوف» إلى «اياكوبوفيتش» والأمير «أودويفسكي» اللذين كانا جالسين قرب صخرة، تجمّع النمل حولها.

فقال لهما «نيقولا»:

- هل تتلقيان دروساً بالعلوم الاجتماعية، وأنتما تتأملان كيف تعيش هذه الحشرات؟

فنهض «اياكوبوفيتش» بقامته الطويلة والنحيلة، وقد جحظت عيناه، وبدا حاجباه أسودين، وله شامة عند منبت أنفه، وشارباه معقوفان، وقال:

- نعم، ولكني أتساءل فيما إذا كانت هذه التي نراها هنا، هي عاصمة النمل أم سجنها!

وأطلق ضحكة عصبية. وألقى «يوري ألمازوف» نظرة من فوق كتفه وهمس في أذنه:

- اشرح المشروع لـ «نيقولا».

فسأله أودويفسكي:

- وهل يهمه هذا المشروع؟

فقال «نيقولا»:

- كثيراً، وأودّ الاطلاع بدقّة على بعض التفاصيل.

ساد الصمت برهة طويلة، أخذ «أودويفسكي» خلالها، يفكر وهو يداعب ذقنه بيده النحيلة ذات الأظافر السوداء بسبب التراب، وكانت عيناه المنحرفتان تشعّان عذوبة. وشفته السميكة والوردية اللون، تلمع تحت طنف شاربه، الصغير.

وقال متأوهاً:

- أوه! لا يزال المشروع فكرة في الأذهان، ولكنّ هذه الفكرة يمكن أن ينتج عنها شيء مّا! فهل لاحظت، يا «نيقولا»، كم يبدو الجنود الذين يحرسوننا، في مجملهم، متساهلين معنا؟

والحقيقة هي أنهم يحبوننا ويرثون لحالنا، ويشعرون، وهم في بؤسهم وبلاهتهم، أنهم أقرب إلينا من قربهم لرؤسائهم. فلماذا لا نستغل هذا الوضع؟

- كيف، وبأي طريقة؟

فقال «اياكوبوفيتش» وهو يغمز بعينه:

- فكّر!

- لا أرى كيف يمكن القيام بذلك!

فاستأنف «أودويفسكي» الكلام:

- حتى الآن، كان أولئك، الذين يريدون الهرب، يفكرون أن يفعلوا ذلك، بصورة إفرادية. وهذه طريقة تؤدي إلى فشل محقّق وأكيد! فكيف

يستطيع شخص بمفرده تأمين معيشته والبقاء على قيد الحياة في صحارى سيبيريا؟

علماً بأنّ أفراد «البوريات» يتلقون مكافأة عندما يمسكون بأيّ هارب. وعندما يعلمون بوجود أحدهم فإنهم ينطلقون لملاحقته وإلقاء القبض عليه، فهذه بالنسبة لهم، قضية تجارية. ويجب أن يكون المرء أحمق، أو يائساً تماماً، كي يحاول القيام بالمغامرة حسب هذه الشروط وأفضل طريقة للقيام بها بنجاح، هو استخدام القوة!

فردّد «نيقولا» مندهشاً:

- استخدام القوة؟!

فبدت الحماسة على ملامح وجه «اياكوبوفيتش»، وتطاير الشر من عينيه الجاحظتين:

- نعم، يا عزيزي! باستخدام القوة! فهذا أمر بدهي! ماذا لو انتفضنا وثرنا كلنا معاً، وأسرعنا إلى مركز الحرس، لن يبدي الجنود ضدنا أي مقاومة. فمن جانب، لمامة من البسطاء المساكين، وفي الجانب الآخر سبعون أو ثمانون رجلاً، أقوياء وشجعان، على شاكلتنا جميعهم، على وجه التقريب، ضباط سابقون، مصمّمون بقوة وبشراسة على فتح الطريق والمرور... وبسرعة وسهولة، سنجرّدهم من أسلحتهم!

فسأله «نيقولا»:

- وبعد ذلك؟

- سنحتجز «ليبارسكي» وضباطه، ونستولي على البنادق والذخيرة، وعلى التموين الضروري لرحلة طويلة، ونحمّل الكل على عربات، و، وداعاً يا «تشيتا»!... وهنالك أمر مؤكد: من بين الجنود المئة الذين يشكلون حامية الموقع هنا، نصفهم، على الأقل، سينضمون إلينا، والآخرون..

فقال «نيقولا»:

- الآخـرون سيـسرعون إلى «ايركوتـسك» يعلنـون النبـأ ويـستنفرون المسؤولين!

- قبل أن يصلوا إلى هناك، نكون قد ابتعدنا كثيراً! وبما أننا نشكل جيشاً مسلحاً ومتحداً، فلن يجرؤ أي شخص من قبيلة «البوريات» على مهاجمتنا!

- والنساء؟

- سوف نصطحبهن معنا، بالتأكيد!...

وصمت، لأنّ الأمير «تروبيتزوكوّي» أخذ يتقدم نحوهم، وهو يتمايل. كان يحني قامته الطويلة لكي يمر تحت أغصان الأشجار. كان قد نحف كثيراً، وأصبح وجهه كأنه منقار طويل وحسب، بين عيني طائر، صغيرتين. ومع أنه كان يرتدي «ريدانفوت» عتيقة ومهلهلة، وسروالاً من قماش سيئ ورخيص، يبدو عليه الوسخ عند الركبتين والقيود في رجليه، ويحمل كيساً معلقاً في نطاقه، كان لا يزال يحتفظ بأساليب، وطابع الرجل النبيل.

وقال عندما اقترب منهم:

- أيها السادة، أتريدون تناول الشاي معي؟ لقد أرسلت لي زوجتي بعض الحلوى، ولا أريد أن أتناولها بمفردي.

فقال له «نيقولا»:

- بكل طيبة خاطر، وسرور، أيها الأمير، وأضاف، وهو يلتفت نحو «أودويفسكي»:

- فكرتك مهمة، يجب أن نجري مناقشة عامة حولها، هذا المساء، في القاعة، مع الموجودين فيها من رفاقنا.

واتجهوا، مع الأمير «تروبيتزوكوّي»، نحو فرجة فسيحة في الغابة، حيث كان يتصاعد الدخان من «سماور» نحاسي عتيق، جوانبه محدّبة،

ومدخنته مائلة. وكان «إيفان بوشين»، الزاهي والمرح على الدوام، يقوم بالخدمة. ولم يكن هنالك أقداح تكفي الجميع، لذلك كانت الأقداح الخشبية تنتقل من يدٍ إلى أخرى. وبلّل «نيقولا» شفتيه بماء ساخن، تكاد تشم منه رائحة الشاي، وناول القدح إلى «يوري ألمازوف». والحلوى التي تحدث عنها الأمير، كانت فطائر محشوة بالآس، بالخوخ وبالتوت.

وهذه الوجبة الخفيفة، بين الفطور والغداء، كانت قد أصبحت، منذ بعض الوقت، إحدى العادات التي يمارسها السجناء، وقام الأمير «تروبيتزوكوي» وهو يبدو كمضيف يشرف على مائدة ضيوفه، بدعوة ضابط الحرس ليحتسي الشاي ويتناول الحلوى معهم، هو أيضاً. فقبل «فاتروشكين» أن يتناول فطيرة. وتحت أشجار الغابة، كان المساجين يبدون وهم يتحركون ذهاباً وإياباً، مرقّطين بالظل وبالضوء. وكان للملابس، عبر هذا الجو، ألوان الفطر الداكنة، ولكن عندما كان أحد المساجين يخرج إلى ضوء الشمس، كانت قوة الضوء تحيل لونه، من رأسه إلى قدميه، وتلمع سلاسله، كما تلمع الحلي والمجوهرات. وبعد أن ابتلع ضابط الحرس آخر لقمة من فطيرته، مصّ أصابعه بانتظام، بادئاً بالصغرى، ومنتهياً بالإبهام. ثم نسي طعم الحلوى، قطّب حاجبيه، لكي يستعيد أهمية مركزه وسلطته، وقال:

- أيها السادة، هيا إلى العمل!

☆☆☆

بعد أن عاد المساجين من العمل، اجتمعوا في باحة السجن، بانتظار موعد طعام العشاء. وبينما وقف العزاب منهم في وسط الباحة، اتجه المتزوجون، متظاهرين بالمرح واللا مبالاة، نحو الحاجز. وكانت الأوتاد التي تشكل هذا الحاجز عالية جداً ومتلاصقة تماماً، فيما عدا بعض الأماكن في الواجهة الشمالية، حيث شُبح الخشب ونجّر، لإحداث ثغرات وفتحات.

وعنـد هـذه الفتحـات كانـت تحـصل اللقـاءات الـسرية بـين المحكـومين السياسيين وزوجاتهم. وكان الضابط الذي يشرف على الحراسة، يتظاهر بأنه لا يلاحظ هذه التحركات، بينما كان الخفراء ينظرون إلى جهات أخرى. ولكن كانت تحدث أحياناً يقظات مفاجئة من قبل هؤلاء، فتحت تأثير الحماسة التي تحدثها المشروبات الكحولية، يستاء أحد الجنود، ويأتي فيفرّق بين الزوجين. وكان على المساجين وزوجاتهم أن يتحاشوا إثارة انتباه الحراس، باستمرارهم بالحديث فترة طويلة، أو بصوت أقوى ممّا ينبغي. واقترب «نيقولا» من المكان الذي كان يلتقي فيه، عادةً، مع «صوفيا». وكان الأزواج قد أخذوا أماكنهم، الواحد بعد الآخر، بمحاذاة الحاجز، كل منهم في محله المعتاد، كما تذهب الأحصنة الحسنة التدريب، كل منها إلى مربطه، مباشرة. وبعد أن ألصق «نيقولا» عينه على فتحة واسعة، بين ركيزتين، شعر في البداية بخيبة الأمل، لأنّ المكان أمامه كان خالياً، فلماذا لم تأتِ «صوفيا»؟ وألقى نظرة إلى اليمين وإلى اليسار، فتبيّن له أنّ جميع النساء كنّ موجودات هناك. وكانت السيدة «مورافييفّ» تحاول تمرير علبة من فتحة عند سطح الأرض. والأميرة «فولكونسكي»، ذات الوجه الأبيض الجميل، كانت تبدي بعض حركات الغنج والدلال، من وراء الحاجز. والأميرة «تروبيتزوكوّي»، وهي بدينة، بعض الشيء كانت تتعب وتلهث بسرعة، ولذلك أحضرت معها كرسياً يسهل طيه، وأخذت تثرثر وهي جالسة عليه، مع زوجها، الذي كان ينحني كثيراً لكي يظلّ على مستواها. ومن السيدة «دافيدوف» لم يكن يلمح عن بعد، سوى ذيل فستانها. وتلك السلّة هناك، لابد أنها لـ «بولين جيبل»، خطيبة «أنّانكوف» وهي خياطة فرنسية صغيرة، كانت تقيم وتعمل في موسكو. وبعنادها وإصرارها، تغلّبت على جميع العوائق الإدارية والعائلية لكي تأتي إلى سيبيريا، وتنضم إلى الرجل الذي ترغب بأن

تتزوجه. هذا وإن كان لم يمض زمن طويل على وصولها إلى «تشيتا»، فإنها هي التي كانت «صوفيا» تشعر نحوها بالمزيد من المودّة والتعاطف، أكان ذلك، لأنهما نشأتا في وطن واحد، وحسب؟ وأراد «نيقولا» في البداية أن يسأل «بولين» فيما إذا كانت تعرف لماذا لم تحضر «صوفيا» للقائه في الموعد المعروف. ثم عدل عن ذلك، لأنه لم يجرؤ على إزعاج «أنّانكوفّ» والفتاة، والتشويش على وشوشتهما الغرامية. وهمّ بالابتعاد عن الحاجز، عندما قفز قلبه فرحاً: كانت «صوفيا» تعبر الطريق، مسرعة نحوه، وهي تتعثر بالحفر وبالأخاديد. وفجأة أصبح ذلك الوجه المحبوب، على مدى ومتناول أنفاسه. كانت جوانب الفتحة غير المنتظمة تحجب جوانب الرؤيا العجيبة. ولكنّ ذلك أضفى على عيني المرأة الشابة والجميلة، مزيداً من الأهمية والوضوح: عينان واسعتان، طافحتان باللون الأسمر، الذي يكاد يكون أسود، حتى مستوى الأهداب، وتمتزج فيهما انعكاسات الشفقة والمحبة.

وهمست له:

- اعذرني، فقد أخّرتني «بولشيري»، من أجل الغسيل...

أهذا كل ما هنالك؟! وكعادته دائماً، كان قد تصور الأسوأ، وبعد أن اطمأنّ وارتاح، أخذ بالكاد يسمعها وهي تحدثه عن بعض المشكلات المنزلية. وكانت الأعجوبة تكمن في كونها موجودة هناك خلف ذلك الحاجز، بجسدها الأنثوي الجميل. وسألته كيف أمضى نهاره، وبدلاً من أن يجيبها على سؤالها، همس لها:

- أحبك، يا «صوفيا».

فتأملته بدهشة شديدة، وكأنها مسرورة وخائفة، في آن معاً، من عنف هذا الاعتراف.

وقالت أخيراً، بصوت مخملي ناعم:

- وأنا أيضاً أحبك.

- ما زال علينا أن ننتظر يوماً وليلتين!...

كان يشير بذلك إلى لقائهما المقبل: إذ إن النظام يسمح للرجال المتزوجين بزيارة زوجاتهم، وهم تحت الحراسة، مرتين في الأسبوع.

فقالت له:

- نعم، بعد غد.

- إنه بعيد!

- بعيد جداً، يا «نيقولا».

وأخذ يتأملها بانتباه. ألم يحمرّ وجهها؟ وهذا القدر الكبير من الحياء أثار إعجابه ومشاعره، فقرّب شفتيه من الكوّة التي فتحت بالسكين، بين أوتاد الحاجز، باحثاً عن مكان تمرّ منه القبلة، عبر ذلك الخشب القاسي. كان، وجهه ملتصقاً بالخشب، لا يرى شيئاً، ولكنه يشعر بعذوبة الهواء على فمه.

وأخذ يتمتم:

- يا عزيزتي! يا عزيزتي!

ظلت «صوفيا» خلال فترة طويلة، صامتة لا تجيب. ثم شعر بلمسة حية تداعب شفتيه، نفخة دافئة، مقطّرة عبرت كيانه. كان محتجزاً في تابوت، مع نقطة التماس هذه بالضبط بين بشرته وبشرة زوجته، وكما هي العادة دائماً، فقد حصل ذلك بأسرع مما ينبغي! ونحّت وجهها، لأنها، دون شك، كانت منزعجة من إبداء هذا القدر الكبير من الحب، علناً وعلى مرأى من الآخرين. لم يكن بإمكانه أن ينقم عليها بسبب خجلها. وخلف ظهره، سمع طقطقة السلاسل، فالتفت. كان المساجين العزاب يتمشون، يتناقشون بحماسة شديدة كان كثيرون منهم يتألمون من السعادة الزوجية التي ينعم بها رفاقهم. وكانت الغيرة والرغبة والغيظ، كل ذلك يجعلهم يبدون بمظهر

الجائعين. فهم يتجولون حول الوليمة، يشمون رائحتها، وكأنهم يأملون الحصول منها على بعض الفتات. ثماني نساء مقابل ثمانين رجلاً. كان «نيقولا» يشعر بالخجل من حظه السعيد، عندما يلاحظ جولات كل هؤلاء المحرومين من العطف والحب، وهم يمرون بقربه، ذهاباً وإياباً. وتوقفت نظرته على أحدهم. «يوري ألمازوف» الذي لاحظ ذلك هنالك رسالة أخرى يجب أن تكتب باسمه! فلأنّ المحكومين السياسيين لم يكن لهم الحق بأن يراسلوا مباشرة أقاربهم الباقين في روسيا، كانت النساء هن اللواتي يكتبن نيابة عنهم، وحسب إرشاداتهم. وهكذا فقد كانت كل زوجة تعمل كسكرتيرة لعشرة مساجين، على وجه التقريب. وكان «يوري ألمازوف» من بين «زبائن» «صوفيا»، وعلاوة على ذلك، فهو بالتأكيد مغرم بها. ولم يكن «نيقولا» يستاء من ذلك، بل كان مزهواً من كون امرأته تلاقي إعجاباً ونجاحاً لدى الآخرين.

وقال «يوري ألمازوف» وهو يقترب من الحاجز:

- ألا أزعجكما كثيراً؟

فترك له «نيقولا» المكان، لبعض الوقت.

وهمس لها «يوري»:

- اعذريني، يا سيدتي، ولكني أريد أن أرسل رسالة أخرى إلى أمي. فأنا متأكد أنّ رسالتي السابقة لم تصلها. وقد وضعت الأفكار الأساسية في هذه المسودة...

فقالت له «صوفيا»:

- أعطني إياها بسرعة!

- كيف أستطيع أن أشكرك؟

وأدخل الورقة عبر الفراغ الكائن بين وتدين، قفز جانباً، وابتعد بسرعة. وتعالت الصيحات خلف الحاجز. فعرف «نيقولا» صوت الملازم «بروكازوف»

الذي أتى وحلّ محلّ «فاتروشكين» في مركز الحراسة. و «بروكازوف» هذا، وهو سكير محدود التفكير، كان قد حصل على رتبته خلال مراقبته سجون المجرمين العاديين، وكان يرفض أن يكون نظام السجن في «تشيتا» الذي لا يوجد فيه سوى المحكومين السياسيين، أكثر تسامحاً من نظام السجون الأخرى. وحالما يشرب كان يعمد إلى ارتكاب الحماقات والتصرفات الوقحة. وشعر «نيقولا» وعينه ملتصقة بفتحة الحاجز، باقتراب ذلك الرأس الذي يعصف به هياج الخمرة. وعندما اقترب، ابتعدت السيدات عن الحاجز، مذعورات.

وكادت الأميرة «تروبيتزوكوي» تسقط وهي تنهض عن كرسيها. وبدا «بروكازوفّ» قصيراً، أشقر الوجه، بارز البطن، كثيف الشعر، عندما وقف بين أولئك النساء المذعورات، وقد هربن كالدجاج، وانقضّ على «صوفيا» وانتزع منها الرسالة التي كانت بيدها.

فصاحت «صوفيا»:

- هذه الرسالة تخصني، أيها السيد! تفضل بإرجاعها لي على الفور!

فغمغم «بروكازوفّ» مزمجراً:

- ليس عليّ أن أتلقى أوامر من زوجة رجل محكوم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة.

- سأشتكي إلى الجنرال «ليبارسكي»!

- حاولي فقط أن تفتحي فمك لأجعلك تبولين دماً، عند جلدك بالسوط!

وأمسك «صوفيا» من ذراعها، وأخذ يهزها بعنف.

فصرخت، متأوّهة:

- اتركني!

- كلا! ستتبعينني! أيتها الفرنسية القذرة!...

فاستشاط «نيقولا» غضباً، لأنه لا يستطيع الدفاع عن «صوفيا»، وصاح وهو يقرع بقبضته، ركائز الحاجز:

- ملازم «بروكازوفّ»، أنت وغد، عديم الكرامة!
وتلطّخ بالعار بزتك العسكرية!..

وكأن «بروكازوف» قد تلقى صفعة جعلته يصحو من سكرته، فترك «صوفيا»، والتفت نحو الحاجز، وقال، بتمهل وبطء:

- من الذي تكلم؟ من الذي تجاسر على الكلام؟

وكان الجواب على سؤاله، صمتاً مطبقاً. فاخذ وجهه الأحمر الممتلئ، يرتعش غيظاً وكراهية. وكان على استعداد لاختراق الحاجز بجبهته. ونسي النساء، وركض مهرولاً نحو مركز الحراسة. وبعد ثلاث دقائق، عاد إلى الباحة، يرافقه ستة جنود، وقال، وهو يقف وقد باعد ما بين ساقيه، واضعاً يديه في خصره، أمام المساجين:

- على الذي تكلم، أن يعلن عن اسمه، بنفسه!

فهمس «يوري ألمازوف» في أذن «نيقولا»:

- إياك أن تبدي أي حركة!

فاستأنف «بروكازوفّ» الكلام:

- سأعدّ إلى العشرة.

وعندما عدّ إلى العشرة، ولم يتلقّ جواباً، صاح، بأعلى صوته:

- حسن! سأحل لكم عقد ألسنتكم! إذا لم يعلن المذنب عن اسمه على الفور، سآمر رجالي بأن يطلقوا النار على عليكم جميعاً!

كان واضحاً، أنه قد فقد صوابه، لأنّ كل سلطته كانت في الميزان ومعرضة للامتهان. كان «أبطال كانون الأول» يقفون أمامه، في صفوف متراصّة، رافعي الرؤوس، نظراتهم تعبر عن السخرية والاستهزاء. فلم يعد يستطيع السيطرة على نفسه مزيداً من الوقت، وأصدر أمره للجنود:

- سدّدوا!

وعلى الفور، أراد «نيقولا» أن يعترف ويعلن عن اسمه، ولكنه لاحظ، وقد انتابته دهشة شديدة، أنّ الجنود ظلّوا ساكنين، لم تبدر منهم أي حركة. فلا شك بأنهم أدركوا أنّ رئيسهم ثمل، فلم يجرؤوا على الانصياع لأمره.

فكرّر «بروكازوفّ» الأمر:

- سدّدوا! ماذا تنتظرون؟ سدّدوا! سدّدوا!

والجنود، وقد ازدادوا تردداً وحيرة، أخذوا ينظرون إلى بعضهم، يتهامسون، ويدفع بعضهم البعض الآخر بالمرافق، فأدرك «نيقولا» عند ذلك أنه يستطيع إنقاذ كل شيء، بإبدائه بعض الجرأة، ولذلك قال، بأعلى صوته:

- إنّ الملازم الذي يرأسكم مجنون!

كان لقوة لهجة «نيقولا» وصلابتها تأثير كبير على رجال الحرس. وفجأة، لم يعد رئيسهم، الرجل الذي يرتدي البزة العسكرية، بل ذلك الرجل الذي يحمل السلاسل والقيود. وذهب أحد الجنود، مسرعاً.

فصرخ به «بروكازوفّ»:

- لأمر من تنصاع، يا ابن الكلبة؟ ألأمر سجين محكوم بالسجن مع الأشغال الشاقة؟ سأجلدك بالسوط! ارجع! ارجع! إلى الحرس! تمرد وعصيان!...

وأخذ يضرب الأرض برجليه، شاهراً مسدّسه، وهو يرغي ويزيد مردّداً الشتائم، حتى بدا وكأنه يكاد يختنق. ولكنّ الجندي الذي ذهب، كان قد اختفى عن الأنظار. عند ذلك، هدأ، بشكل مفاجئ، غضب «بروكازوفّ» شحب خداه، وبدا الضعف والانهيار على ملامحه. فهل شعر بأنه ذهب بعيداً وتمادى كثيراً، وأنّ هذا الإفراط في الغضب والانفعال، يمكن أن يسبب له توبيخاً من قبل الجنرال «ليبارسكي»؟ فرشق المساجين

بنظرة باهتة غير مميزة، خفض مسدسه، وعاد إلى مركز الحراسة. وبعد قليل، جاء الملازم «فاتروشكين» إلى الباحة. وقال:

- أيها السادة، لا أريد أن أعرف ماذا حدث هنا، أثناء غيابي.

فقال «نيقولا» وهو يبتسم:

- ذلك، لأنه، بالتحديد، لم يحدث شيء، أبداً.

فبدا الارتياح على الملازم «فاتروشكين» وكأنّ عبئاً قد أزيح عن كاهله.

☆☆☆

أثناء تناول العشاء، تحاشى الجميع، باتفاق مشترك، أيّ ذكر أو إشارة إلى ما حدث في ذلك اليوم. وطالما أنّ المعدات لم تمتلئ، فالأذهان لا تكون حرة وطليقة. وكان السجناء يختارون واحداً منهم ليصبح مسؤولاً عن المطبخ لمدة ثلاثة أشهر، بعد أن يختاره بالانتخاب زملاؤه، للقيام بهذه المهمة. وهو يقوم بشراء الأطعمة والمواد الغذائية من مبلغ يؤديه جميع المساجين، ويشارك كل منهم في هذه التعاونية في حدود إمكاناته. وعلاوة على ذلك، كانت السيدات يقدمن بعض المواد الإضافية، كالبنّ والشاي والشوكولا، والمربى، وغيرها من المواد الترفيهية. كان هذا التنظيم يسمح بتحسين الطعام العام والمشترك، إذ إن «الكوبيكات الستة» المخصصة لكل رجل في اليوم لا تكفي لحساء بالملفوف، ولحم بقر مسلوق. ولأنّ استعمال السكاكين ممنوع في السجن، كان الخبز يقدم للمساجين مجزأً إلى قطع صغيرة، كذلك لم يكن هنالك شوكات. كانوا يمزّقون اللحم بأصابعهم. وكانت المائدة منصوبة على حوامل في وسط القاعة. يجلسون حولها، متلاصقين، على مقاعد خشبية، وعلى حافة الأسرّة، فمنهم من كان فيما مضى من هواة الطعام الجيد، عندما كانوا طلقاء، ومنهم من كان طعامه أقل جودة من هذا الطعام الذي يتناوله حالياً في السجن. ولكنهم، جميعاً،

يهتمون، هنا على قدم المساواة بما تحتويه صحونهم. وبمجرّد أن يشبعوا، يصبحون أكثر جلبة وضوضاء، وتدوّي تحت سقف القاعة المنخفض، نبرات الأصوات وطقطقة السلاسل. وتيار الهواء الضعيف الذي يمر من النوافذ التي تتخلّلها القضبان الحديدية، لم يكن يكفي لطرد رائحة أطباق الأطعمة الباردة.

كان لا يزال يبدو بعض الضوء، والأمسية ستكون طويلة، ولا شك في أنّ رفاقاً آخرين سيأتون بعد قليل، وقد جذبتهم الضجة والأصوات المتصاعدة من تلك القاعة. وبسبب النشاط الذي يسود عادة فيها فقد أطلق عليها «جماعة كانون الأول» اسم: «نوفغورود - لاجراند» وهي المدينة التي اشتهرت قديماً بمجالسها الشعبية. والقاعة المجاورة لها أطلق عليها اسم: «بسكوف»، لأنّ هذه المدينة كان لها في القرون الوسطى مثلها في ذلك مثل: «نوفغورود- لاجراند» دستور جمهوري، وفي القاعة الثالثة المسماة: «موسكو»، كان يوجد جماعة، معظمهم شباب من عائلات عريقة، يتحلّون بطباع وأخلاق السادة النبلاء.

والقاعة الرابعة، التي تعرف باسم: «فولوجدا» كانت تضم سجناء من طبقة وأوضاع أكثر تواضعاً: «بعض صغار الموظفين، ضباط مجهولون، ذوو رتب بسيطة، لا يجيدون حتى التكلم باللغة الفرنسية.

وكان «نيقولا» سعيداً بانتمائه لقاعة «نوفغورود- لاجراند» لأنها هي التي كانت تهيمن على مجمل نشاطات السجن والتحركات التي تحصل فيه. وأخذ يراقب مجاوريه، فلاحظ أنّ أكثرهم قد أوشكوا على الانتهاء من تناول الطعام. وكان «لورير» المرح يمسح صحنه بقطعة خبز. و«زفاليشين»، الكثيف الشعر، الروحاني التقي. والذي يتغذى بالأطعمة النباتية فقط، وضع كتاب التوراة، مفتوحاً على ركبتيه. و «ناريشكين» البدين كان يشعل غليونه. وعلى طرف المائدة، كان الأمير «أودويفسكي» الشاعر،

ورجل الخدمة، في ذلك اليوم، قد أخذ يكدّس الصحون الوسخة أمام دلو ماء كبير. ووجّه «يوري ألمازوف» نظرة ذات مغزى إلى «نيقولا»: لقد حان الوقت للبدء بالمناقشة.

وسأل بصوت جهوري:

- ما رأيكم أيها الأصدقاء، بمشاحنتنا مع «بروكازوف»؟

فقال «زفاليشين» دون أن يرفع نظره عن توراته:

- أعتقد أنه مغفّل يخشى جانبه، وأنه، عند أول فرصة تسنح له، سينتقم منا لكي يثأر للفشل الذي مني به.

كان يتربع على سريره. وشعره ينسدل كالستائر على جانبي وجهه الشاحب.

وقال «نيقولا»:

- هذه ليست سوى تقديرات واعتبارات ثانوية، ولكني أريد أن ألفت نظركم إلى واقعة مهمة: فالجنود لم يطيعوا «بروكازوف»، الجنود معنا!...

فغمغم «ناريشكين»:

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك؟ ولكن إذا كان الوضع هو هكذا، فيمكننا أن نأمل كل شيء!

اشرح فكرتك يا «أودويفسكي».

والأمير «أودويفسكي» وقد شمر عن ساعديه، ووضع وزرة واقية حول خصره، وضع صحناً في الماء، أخرجه، جفّفه، وقال:

- يجب أن نخبر «اياكوبوفيتش»، لأنّ الفكرة الأساسية للقضية بدرت منه.

فقال «نيقولا»:

- لا بأس بذلك! اذهب وأحضره من القاعة: «موسكو»

- وماذا لو أراد آخرون من المقيمين في تلك القاعة، أن يحضروا؟

- فليحضروا، بالتأكيد! فليس لدينا أسرار نكتمها عنهم!

وقال «إيفان بوشين»:

- وبذهابك إلى هناك، عليك أن تسألهم فيما إذا كان لديهم منشفة نظيفة يعيرونك إياها! تأملوا بأي خرقة قذرة يجفف صحوننا!

فهي تجعلنا نشمئز من الأكل فيها!

فهزّ الأمير «أودويفسكي» كتفيه وخرج- خادم وسخ طرده أسياده- عبر تعليقات، وقهقهات الجميع بالضحك. وعاد بعد قليل، وبرفقته «ياكوبوفيتش» الذي بدا صامتاً أكثر من عادته، والأمير «تروبيتزوكوّي»، والأمير «أوبولنسكي» والأمير «فولكونسكي»، وآخرون من المقيمين في القاعة «موسكو» ومن طبقة أدنى من طبقة أولئك. فتجمعوا ورصّوا الصفوف وهم يجلسون على الأسـرّة وعلى المقاعد الخشبية لكي يفسحوا أماكن للقادمين الجدد. وبإمعان «نيقولا» النظر في هذه الوجوه التي يبدو عليها الانتباه الشديد، حصل لديه انطباع غريب عن التسامح والأخوة. آه! حقاً، لم يكن جميع أفراد هذه الجماعة، أبطالاً! ولكن، حتى أولئك الذين بدوا يوم الرابع عشر من كانون الأول «ديسمبر» غير جديرين بمهمتهم، لم يعودوا آنذاك يختلفون عن الثوريين الحقيقيين الأكثر عنفاً وشراسة. ولم يكن هنالك أحد، في الوقت الحاضر، يتبادر على ذهنه أن يلوم الأمير «تروبيتزوكوّي» ويعيب عليه تخليه عن مركزه، مع أنّ ذلك التخلي كان قد عرض المشروع كله للإخفاق والفشل. ولا أن يعتب على «ياكوبوفيتش» بسبب نذالته في آخر الأمر، بعد تبجّحاته السخيفة والمضحكة، ولا أن يعاتب «زفاليشين» بسبب لعبته المزدوجة بين الإمبراطور والمتمردين. ولأن المتردّدين والخونة، هم أيضاً تعرضوا لقسوة القيصر، فلهذا السبب وحده، كانوا واثقين من أنّ رفاقهم قد صفحوا عنهم. وقسوة العقوبة

وظلمها، دفعت بالجميع إلى الاتفاق. وأمال الأمير «فولكونسكي» إلى الجهة اليمنى رأسه الكبير الذي يشبه رأس الببغاء المتعب، وسأل:

- ماذا هنالك، وعمّ تتحدّثون؟

فقال له الأمير «أودويفسكي»، وهو يعود إلى غسل الصحون:

- الكلام أصبح الآن لـ «اياكوبوفيتش»!

جلس «اياكوبوفيتش» بصورة جانبية على زاوية المائدة، والتصميم بادٍ على ملامحه، وردّد، بصورة حرفية تقريباً، ما شرحه هو و «أودويفسكي» لـ «نيقولا» صباح ذلك اليوم، في موقع «قبر الشيطان». وبسماع «نيقولا» هذا الشرح للمرة الثانية، وجده أكثر جدية وإقناعاً. ولم يكن موقف جنود مركز الحراسة، غريباً وغير ذي تأثير على رأيه، وعلى ما كان يشعر به من تفاؤل. وكما كان لابد من أن يتوقع المرء ذلك، فمنذ أن أنهى «اياكوبوفيتش» كلامه، انهالت الاعتراضات:

وكان أول المعترضين الأمير «تروبيتزوكوّي» الذي قال:

- لنفترض أننا توّصلنا إلى الاستيلاء على أسلحة جنود الحراسة، وسيطرنا على مركزهم، بل ولنفترض أيضاً أننا استطعنا الفوز بأربعة أو خمسة أيام في السباق مع ملاحقينا، ولكن إلى أين سنذهب؟

فقال الأمير «أودوّيفسكي»:

- ليس هنالك مشكلة تربكنا سوى مسألة اختيار المكان الذي ينبغي أن نذهب إليه! نستطيع الاتجاه نحو الجنوب، عبر «منشوريا» ومنها إلى الصين...

فقاطعه الأمير «فولكونسكي» قائلاً بحدّة:

- سيكون الصينيون سعداء بإلقاء القبض علينا وبيعنا إلى الروس!

وقال «نيقولا»:

- هنالك خط سير آخر يقضي بأن نتابع السفر في القوارب عبر نهري «تشيتا» و «أنفودا» وحتى بلوغ نهر «أمور»

فقال الأمير «تروبيتزوكوّي» بلهجة ساخرة:

- هذا غير معقول! فعددنا كبير! تصوروا هذا الأسطول الطويل من القوارب وهو يسير مع مجرى الماء! حيث تصبح رؤوسنا معرضة للخطر! لأنّ المقيمين على ضفاف الأنهار سيطلقون النار علينا!

وتساءل الأمير «فولكونسكي»:

- ثم، ماذا يمكننا أن نفعل، إذا تحققت المعجزة ووصلنا إلى المحيط الهادي؟

فقال «نيقولا»:

- نحاول الإبحار إلى أمريكا!

وتصوّر في مكتب «ريلييف» عشية يوم التمرد، أمام مصور سيبيريا المعلق على الجدار. وعليه خط منقّط يبين الطريق الذي تسلكه قوافل الشركة «الروسية- الأميركية». فتابع الكلام، قائلاً:

- ما كان لـ «ريلييف» أن ينصحنا بأن نعمل شيئاً آخر، ولا أن نسلك طريقاً غيره: أن نذهب إلى ألاسكا أو إلى كاليفورنيا. وهناك، نكون قد نجونا.

فقال «ناريشكين» مؤمّنا على كلامه.

- هذا صحيح، ولكن، يا لها من رحلة شاقة وحافلة بالمخاطر!

علينا أن نجتاز نصف سيبيريا، يطاردنا الجنود القوقازيون، وأن نقنع قبطاناً بأن يقلّنا بسفينته إلى شاطئ المحيط الهادئ، الآخر!...

كلاّ، إنّ هذه الخطة لا تبدو واقعية، ولا يمكن تنفيذها، وأنا، من جهتي، أفضل الاتجاه نحو روسيا الأوروبية.

فقال «يوري ألمازوف»:

- عند ذلك، يكون علينا أن نمشي مسافة أربعة آلاف «فرست» لنصل إلى جبال «الأورال». وفي كل مكان المخافر والدوريات، وإذا اتجهنا شمالاً،

فهنالك «التوندرا» السهوب الصحراوية المتجمدة، وهي مقبرة حقيقية! كلا، فالحكمة تقضي بالسير باتجاه بحر «أورال» وبحر «قزوين» لكي نصل إلى القوقاز...

فصاح بعض السجناء:

- نعم! نعم! إلى القوقاز، سيكون ذلك في منتهى الروعة!

فحميت الوجوه، وبرقت العيون، وكأنها أثيرت بحرارة الكحول.

حتى أولئك الذين كانوا ينتقدون مشروع الهرب، أخذوا يشعرون بنسيم الحرية يهب في أذهانهم. وعند سماع «نيقولا» تلك الاقتراحات المتناقضة، أعتقد أنه قد انتقل إلى تلك السهرة التي ناقشوا فيها عملية التمرد، ليلة الثالث عشر من كانون الأول، سنة ١٨٢٥. فرفاقه يناقشون اليوم فرص وطرق هربهم. بالاستخفاف نفسه وبالحماسة نفسها التي ناقشوا بها فرص وطرق انقلابهم.

وقال «يوري»:

- لا شيء يجبرنا على السير جميعنا في اتجاه واحد. يكفي فقط أن تكون لدينا القوة للتغلب على مركز الحراسة. وبعد ذلك، نستطيع أن نفترق...

- والتفرق يضعفنا!

- على أي حال، أيها السادة، يجب أن نختار رئيساً...

كانوا يستعدون لمهاجمة «قصر الشتاء»، لم يكن هنالك سوى ضباط، بألبستهم العسكرية الرسمية، ولولا القليل لانتخبوا الأمير «تروبيتزوكوّي» قائداً، مطلق الصلاحية لفريقهم. و «نيقولا» الذي انتابه دوّار، حيال تذكّره ذلك الماضي، أخذ ينظر إلى السلاسل التي تقيد رجليه، ولكنّ هذا لم يكن كافياً، لإيقاظه من أحلامه وجعله يتخلص من أوهامه، فقد كان مندفعاً في الأحلام مع الآخرين. وهي أحلام، كان يعرف أنها غير معقولة، وتتضمن الكثير من المخاطر، ولكنه لا يستطيع ولا يريد أن ينسحب أو أن

يتملّص منها. ولاحظ، أنّ الرجال المتزوجين وحدهم، يبدون، عبر تلك البلبلة العامة، شيئاً من التردد والتحفّظ، ضد مؤامرة الهرب.

وتجرأ الأمير «فولكونسكي» على التصريح بأعلى صوته، بما كان يفكّر به بعض المتزوجين الآخرين:

- وماذا سيحل بزوجاتنا في هذه المغامرة الخطيرة؟

فتذكر «نيقولا» أنّ هذا السؤال نفسه، كان على شفتيه، منذ الصباح.

ومع ذلك، فإنه لم يكن بحاجة لاستشارة «صوفيا» لكي يعرف أنها، بطبعها الذي يتّسم بالعزم والتصميم، ستؤيد مشروع الهرب، وتتحمل كل المخاطر والمتاعب، المتوقعة أثناء القيام بتنفيذه. وربما كانت بقية الزوجات أقل جرأة واقل تحملاً للمتاعب منها؟

وقال:

- زوجاتنا سوف يتبعننا!

فصاح الأمير «تروبيتزوكوّي»

- إلى أين؟ عبر الصحراء؟ أم عبر الغابات؟ تصوروا هؤلاء البائسات ملاحقات ومطاردات مثلنا، طوال أسابيع بكاملها، جائعات، منهكات من التعب، ينمن في العراء، ربما لكي ينتهي بهنّ الأمر للوقوع تحت أسواط الجنود القوقازيين، أو في مرمى نبال وسهام أشقياء قبائل «البوريات»؟!

- إذا كنا نتصور دائماً الكوارث، ونتوقعها، فإننا لن نقوم بأي عمل على الإطلاق. وقد قدّمت رفيقات عمرنا الدليل عما يستطعن القيام به!

فردّ عليه الأمير «فولكونسكي»، قائلاً:

- لذلك بالضبط، وبعد التضحية التي تفوق قدرة البشر التي قدمنها بمجيئهن إلى هنا للانضمام إلينا، فليس لنا الحق بأن نفرض عليهن تجربة، بل محنة أخرى أكثر قسوة وفظاعة!

فقال «أنّانكوف»:

- أنا أشاطرك تماماً الرأي وأؤيده.

فقال له «يوري ألمازوف»، وهو يقهقه ضاحكاً:

- لا يحق لك إبداء الرأي في هذا الموضوع، فأنت لست متزوجاً!

فلم يفهم «أنّانكوف» المزحة، واستاء:

- سأصبح متزوجاً، في غضون شهر، على أبعد تقدير، يا عزيزي، ومهما كانت رغبتي شديدة بالحصول على الحرية، فإني لن أورّط «بولين» أبداً في مغامرة كهذه.

وقال «زفاليشين» وهو يوجّه إلى السقف نظرات شاردة تنم عن الذهول:

- أمّا أنا، يا أصدقائي، فإني أعتقد أنّ الإنسان يجب عليه أن يبقى في المكان الذي وضعه فيه الله!

وحمي النقاش، وتصاعدت اللهجات وقويت. وأخذ الزائرون يأتون في كل لحظة، قادمين من القاعات الأخرى، فيصغون إلى النقاش، يقولون كلمتهم، يذهبون، يعودون ثانية مع صديق أو عدة أصدقاء. وفي وقت قصير امتلأت القاعة، واصطفت الوجوه متراصة عبر الغبش الذي يسود القاعة. ورفع «فونفيرين» رأسه الكبير، بشعره المجعد، محاولاً التغلب على جلبة المناقشات، وصاح:

- العزّاب يستطيعون الهرب والذهاب حيث يشاؤون، ونحن لن نمنعهم من ذلك!

فقال «نرشكين»:

- والعقوبات، والأعمال الانتقامية؟ هل فكرت بها؟

إذ إنّ الذين سيبقون هنا، سيكونون مسؤولين أمام السلطات، عن هرب رفاقهم!

فقال الأمير «تروبيتزوكوّي» بعصبية ظاهرة، مؤيداً رأي «نرشكين»:

- بالطبع، سندفع نحن الثمن، وسنعاقب عنهم، وسيصبح الانضباط أشدّ دقة وقسوة! وربما منعونا من رؤية زوجاتنا، بعد ذلك!...

لم يكن «نيقولا» قد فكّر بهذا الاحتمال. وكاد يتعاطف مع الخصم، ويؤيده «فهو لديه، على الدوام، هذا الهوس يتقبل وتفهم وجهة نظر الغير» ولكنّ «اياكوبوفيتش» تدخل بقوة وحزم، قائلاً:

- هذا كلام يدل على الغباء والحمق! فلم يسبق أبداً، في أي سجن، عندما يحدث تمرد أو هروب، أن عواقب الذين لا يتحركون، عن الآخرين! بل، إنّ النقيض لهذا، هو الذي يحصل بالفعل! فالعاقلون والمنصاعون للنظام لهم الحق بالحصول على رضا السلطات وامتنانها!

فصاح «نيكيتا مورافييفّ!»:

- أيها السادة! أيها السادة! أنا أطلب الكلام!

وصعد على المنضدة. فصمت الجميع حوله. كان وجهه نحيلاً، مشرقاً، ويداه ترتجفان وكأنه مصاب بحمى شديدة؛ وتمتم، قائلاً:

- أريد أن أقول لكم، ما يلي: أنا متزوج، وسعيد لأني تزوجت. ولكني أعتقد أنه من غير المناسب أن أحاول ردع رفاقي العزاب ومنعهم من تنفيذ مشروعهم، بحجة أنّ تنفيذه يمكن أن يسيء إلى وضعي ويجعل مصيري أكثر صعوبة وخطورة. وجميع أولئك الذين هم مثلي، وزوجاتهم بالقرب منهم، عليهم أن يوافقوا وأن يعترفوا بأنهم متميزون ومحظوظون بالنسبة للآخرين. ونحن أقل من أيّ كان حقاً، بالتذمر والشكوى!

وأنا آسف، أيها الأمير، لأنك رفعت صوتك بما قلته!...

فصاح «اياكوبوفيتش»:

- مرحى! مرحى!

وتعالى التصفيق، وضرب الأرض بالأرجل عبر طقطقة السلاسل، قال الأمير «تروبيتزوكوّي» بتبرّم واستياء:

- إنك لم تقنعني، حتى لو كنت أنا غير متزوج، فإني كنت أحذركم، صائحاً؛ ومنبهاً إلى الخطر، وقائلاً بأنها مغامرة فيها هلاككم!

فقال «يوري ألمازوف» بجرأة تشوبها الوقاحة:

لقد سبق لك أن نبّهتنا إلى الخطر، مساء يوم الثالث عشر من كانون الأول «ديسّمبر»، سنة ١٨٢٥.

فانتفض الأمير، وشحب وجهه، غيظاً وغضباً، وقال:

- لو أنكم أصغيتم لي، مساء يوم الثالث عشر من كانون الأول، لما كنّا هنا اليوم!

فردّ «يوري ألمازوف» بعنف:

- وأنت، لو أنك أتيت إلى ساحة مجلس الشيوخ، يوم الرابع عشر من كانون الأول سنة ١٨٢٥، ربما كنا قد أصبحنا اليوم، حكام وسادة روسيا!

كان نوع من الفضول المشوب بالقلق يحيط بالرجلين اللذين أخذ كل منهما يحدّق بالآخر. ولأول مرة، منذ وصول الأمير «تروبيتزوكوّي» إلى «تشيتا» يتجرأ أحد متمردي كانون الأول، على أن يعيب عليه ويلومه على تصرفه. وخشي «نيقولا» من أن تؤدي هذه المشاحنة إلى شرح وتفسير كل شيء بصورة عامة وعلنية يمكن أن يسبب لكل منهم بعض الإساءات والخسائر، ولو حصل ذلك لقضي نهائياً على التفاهم الرائع الذي كان يسود بين المعتقلين.

وتمتم الأمير «تروبيتزوكوّي» بصوت غير مميّز، ولا نبرة فيه:

- ماذا ترغب أن تدّعي بتلميحاتك وبافترائك؟

فهل تبيّنت لـ «يوري ألمازوف» خطورة متابعته لسرد الاتهامات؟ حتى إنه هزّ كتفيه، وغمغم:

- وما جدوى ذلك؟ كل ذلك أصبح الآن من القصص القديمة، وما يهمني في الوقت الحاضر، ليس معرفة لماذا فشلنا، سنة ١٨٢٥، بل كيف نستطيع أن نهرب، سنة ١٨٢٨.

هدأ الأمير «تروبيتزوكوّي» بأسرع مما ينبغي، دون شك، بالنسبة لرجل ليس لديه ما يلوم نفسه عليه. ولأنّ النفوس والأذهان ظلت ثائرة ومتهيّجة، فقد اقترح الأمير «أودويفسكي» رفع الجلسة، قائلاً:

- القضية ليست ناضجة وجاهزة، وهي بحاجة لمزيد من التفكير، ولدراسة حسناتها ومساوئها، إيجابياتها وسلبياتها، ووزن كل منها وتقييمها على حدة...

وصرّح «اياكوبوفيتش»؛ قائلاً:

- على أي حال، أنا أطالب بالكتمان المطلق، وبالسرية التامة!

ويجب على المتزوجين أن يؤدوا القسم، بأنهم لن يبوحوا بشيء من كل هذا لزوجاتهم!

فتعالت قهقهات الضحك حول المائدة. وتمايلت الرؤوس الفرحة فوق كل تلك الملابس الوسخة والمرقّعة. التي ينامون فيها، ويتمرّغون، ويقومون بأعمال السخرة وحفر التراب، وهم يلبسونها. وعلى مضض، أدّى الأزواج القسم، الواحد بعد الآخر. كان الظلام قد خيم تقريباً. وأخذت مفاتيح الحراس تطقطق في الممر، وقد حان موعد إغلاق الأبواب، فعاد الزائرون إلى غرفهم، يلاحقهم صراخ ضابط الصف: «بسرعة! بسرعة! كل منكم إلى مكانه، أيها السادة! أرجوكم أن تسرعوا لقد حان موعد تفرقكم!».. ثم أُدخلت المزاليج في أماكنها، وسُمع صرير الأقفال، وأصبح السجن حيزاً مغلقاً من كل جهاته.

وعندما استلقى «نيقولا» على فراشه القشّي، شعر بشيء قاسٍ تحته. كان ذلك عظماً، تركه أحدهم، سهواً، هناك، وكثيراً ما كانوا يجدون بعض بقايا وجبة الطعام في الأسرّة. وبعد إغلاق الأبواب بخمس دقائق، كان أكثر المساجين قد أخذوا يشخرون. وبالمقابل، كان بعضهم يتململون ويتقلّبون، ويلقون همومهم، من جهة إلى أخرى، عبر قرقعة السلاسل. هذا

وإن كان جدل هذا المساء لم يؤدّ إلى نتيجة، فقد كان لدى «نيقولا» أمل كبير، بما سيحدث فيما بعد. فهنالك في فكرة الحرية، قوة تقود الإنسان، على الدوام، بعيداً، إلى الأمام، كما يدفع الثقل الحجر في اتجاه المنحدر. ومشروع الهرب إن كان معقولاً أم لا. فإنه سيأخذ طريقه في الأذهان. وحتى أولئك الذين كانوا يعارضونه اليوم، سينتهي بهم الأمر لتقبّله، غداً. و «يوري ألمازوف» الذي كان سريره ملاصقاً لسرير «نيقولا»، قال بصوت خافت:

- أرأيت كيف أفحمت «تروبيتزوكوي»، فهو منذ زمن طويل، يغيظني بغروره وكبريائه، وكأنه نبيل كبير!

فقال «نيقولا»:

- لا يوجد أحد، هنا، بلا عيب، حيال أحد. ويجب علينا، قبل كل شيء أن نتحاشى المشاحنات وأن نتجنّب أن يهاجم بعضنا بعضاً الآخر.

- أنت، إذن، تُعَدّني مخطئاً؟

- أعتبرك محقاً في أفكارك، ومخطئاً في كلامك.

- أتعتقد أننا سنفوز؟

- لا يستطيع المرء أن يفوّت دائماً كل شيء، في هذه الحياة!

فقال «يوري ألمازوف» متأوهاً:

- أما أنا، فتساورني الشكوك، وأتساءل فيما إذا كنا قد أصبنا بإطلاع كل أولئك الناس، على السر!

- كان ذلك ضرورياً، لأن نيّتنا هي القيام بعمل جماعي!

فغمغم «يوري ألمازوف»:

- نعم، نعم، بالطبع!

واستغرق في النوم، بينما ظل «نيقولا» مستيقظاً عبر الظلام، وكأنه يجلس على صخرة في وسط البحر، وأخذ يستعرض في ذهنه جميع مراحل

وأوجه المناقشة، بينما كان يتسرب إلى ذهنه خوف، يحاول أن يبعده ويتخلص منه: الخوف من أن يكون كل هذا، مرة أخرى ومن جديد، ليس سوى بناء وهمي. فعدم الوعي، وتوقّد الحماسة والسذاجة التي يتصف بها أصدقاؤه، وهو نفسه أيضاً، كل هذا، كان يبدو له أحياناً، كمرض وراثي تعاني منه النخبة في روسيا. وسمع تمتمة لم تكن بعيدة عنه: كان ذلك هو «زفاليشين» الذي أخذ يرتّل صلواته وأدعيته، بصوت خافت. ولا شك في أنه كان يتضرّع إلى الله أن يستبقي رفاقه في «تشيتا». فجثا «نيقولا» على فراشه القشّي، وأخذ يصلي ويتوسل إلى الله أن يساعدهم على الفرار.

٢

قرأت «صوفيا» مرة ثانية رسالتها التي كتبتها إلى أهل «يوري ألمازوف»، ووضعتها في أحد الأدراج مع الرسائل الأخرى التي كتبتها نيابة عن مساجين آخرين، ثم تناولت ورقة جديدة، وفي الحال كتبت رسالة إلى أخت «ايفاشيفّ»، وتكون هذه الرسالة هي ثامن عمل كتابي، إضافي تقوم به وكأنه عقوبة فرضت عليها. وهي تستخدم العبارة نفسها لجميع من تكتب لهم: «لقد قابلت لتوّي أخاك «أو ابنكِ أو زوجكِ، أو ابن عمك...» وطلب مني أن أقول لك...» وفيما يتعلق بالتتمة، كانت «صوفيا» تعتمد على المعلومات التي يبلغها إياها شفهياً أصحاب العلاقة، أو على ورقة مسودة. وبفضل هذه الحيلة يظل السجناء على اتصال مع ذويهم، وغير منقطعين تماماً عن العالم الخارجي.

وليس هنالك من شك، في أنّ النسيان كان من الممكن أن يطويهم ويغرقوا في بحره، لولا أنّ بعض النسوة المخلصات قد أمسكن رؤوسهم وأبقينها خارج الماء. وبواسطة هؤلاء النساء هم يعيشون ويثبتون وجودهم، وعن طريقهم ما زالوا يستطيعون أن يتكلموا وأن يتنفّسوا. ولأنّ جميع الرسائل يقرؤها الجنرال «ليبارسكي»، لذلك كانت «صوفيا» تخفّف من حدّة لهجتها، وتزن كلماتها. وكان يبدو لها غريباً أن تراسل كثيراً من الناس لا علاقة لها بهم، وأنها نادراً ما تكتب لحسابها هي ولمن يخصّونها. والرسائل التي بعثتها إلى فرنسا، لوالديها، يبدو أنها فقدت، أو أن الرقابة قد أوقفتها واحتفظت بها، لأنها، منذ زمن طويل لم تتلق منهما أي إشارة

تدل على أنهما ما يزالان على قيد الحياة. وبالمقابل، كانت تتلقى كل شهر رسالة من عمها، الذي لم تكن تردّ أبداً على رسائله، لأنها لم تكن تستطيع أن تغفر له كراهيته لـ «نيقولا»، واللعبة المزدوجة التي قام بها لكي يفرّق بينها وبين ابنه، والوشاية التي أرسلها إلى حاكم «ايركوتسك»، آملاً أنّ هذا الحاكم سيحتجزها هناك ويمنعها من متابعة رحلتها للانضمام إلى زوجها...

ومع ذلك، لو أنّ هذا الرجل الذي تكرهه، توقّف فجأة عن الكتابة إليها، لحزنت وشعرت بالتعاسة، لأنه هو الوحيد الذي يستطيع أن يقدم لها الأخبار والمعلومات عن الصغير «سيرج». كان الطفل قد بلغ السنة الثالثة من العمر. وكان «ميشيل بوريسّوفيتش» يؤكد، عندما يتحدث عنه في رسائله: «إنه يثبت حقاً أنه من آل أوزاريف، فهو لم يرث شيئاً من سمات أبيه وطباعه، بل ورث كل شيء عن أسرتنا!»

وأخذت «صوفيا» تحلم بذلك الرضيع الذي عهدت بها إليها «ماري» قبل موتها، وكيف أنّ نساءً غيرها يشرفن الآن على تربيته. وحتى ذلك اليوم كان لا يزال تركها له ثقيل الوطأة على ضميرها، وبينما هي مستغرقة في هذه الذكريات، وجدت نفسها متوقفة عن الكتابة في وسط الصفحة، والريشة في يدها، دون أن تعرف إلى من كانت توجه الكلام الذي تكتبه: «سيكون أخوك سعيداً جداً، لو استطعت أن ترسلي له قاموساً فرنسياً، هو بأمس الحاجة له...» آه! نعم، إنها تكتب نيابة عن ذلك المسكين «ايفاشيف» إلى شقيقته، وهو شاب لطيف، يعاني من مشكلات كثيرة، مثله في ذلك مثل جميع المساجين، بالتأكيد! إنه لأمر مزعج جداً وشعرت أنها متعبة، فألقت بالأوراق جانباً وألقت رأسها على مسند كرسيها. لقد ملّت من الاهتمام بالآخرين ومن العمل من أجلهم. وبدا لها أنها تعاني من الوحدة أكثر من أي شخص من أولئك الذين تخلص لهم الودّ، وتخدمهم

بكل تفانٍ وإخلاص. كانت الغرفة الصغيرة، ذات الجدران المبنية من «اللاطات» والألواح الخشبية، والسقف المنخفض الذي صبغه الدخان باللون الأسود، تبدو معتمة، ولكنّ البرية، عبر النافذة، كانت تتلألأ وقد غمرتها أشعة الشمس. كان ذلك اليوم، هو المخصص للزيارات وبعد ساعة سيأتي «نيقولا». وفجأة شعرت بالرغبة لأن تكتب إلى «نيكيتا»، لكي تطلب منه أن يزوّدها بأخباره، ثم قالت لنفسها إنّ ذلك سيكون بلا جدوى، وجهداً ضائعاً. وسبق لها أن حاولت ذلك ثلاث مرات. وفي المرات الثلاث لم يكن لرسائلها أي صدى، لأنها ربما تكون قد فقدت، أو أنّ الرقابة أو الشرطة قد استولت عليها واحتفظت بها. كما أنها كتبت أيضاً إلى صاحب الفندق، الفرنسي، في «ايركوتسك» «بروسبير رابودان»، وهذا، على الأقل، ردّ على رسائلها، ولكنه كان يتحدث دائماً عن كل شيء. دون أن يذكر كلمة عن «نيكيتا» وكأنه لا يعرفه، ولم يسبق له أن استخدمه في فندقه، وأنه لم يلتق به أبداً. وكان التفسير الوحيد لذلك، هو أنّ صاحب الفندق كان يخشى إثارة انتباه السلطات وشكوكها إذا ذكر اسم الشاب في رسائله.

وربما يكون هذا قد ارتكب حماقة أخرى، واختفى، محاولاً أن يجعل الناس ينسونه ويجهلون مكان وجوده، وهي بإلحاحها لمعرفة مصيره وماذا حدث له تجازف بالإساءة إليه والتسبب بضياعه، بسبب عدم تحفّظها! ولكنها لم تكن تعتقد أنّ هنالك جواسيس يدسّون أنوفهم في كل شيء، ويطّلعون على رسائلها، وأنها بإبدائها المزيد من الاهتمام بشخص مّا، يمكن أن تسبّب له الأذى، وأنّ صداقتها للآخرين أشد خطورة وأكثر ضرراً من كراهيتها لهم! فكأنها موبوءة، ومصابة بالطاعون!

وعادت إلى رسالة «ايفاشيف» إلى شقيقته، لا يزال عليها أن تكتب سطرين تتحدث فيهما عن بعض الأمور التافهة والمبتذلة، وفجأة بدا «نيكيتا» أمامها: طويل القامة، مفتول العضلات، أشقر الوجه، تلوح

السذاجة والبراءة على محياه، ومن عينيه الزرقاوين تشعّ نظرات طافحة بمحبة لا تقاوم. ولكم كان رائعاً كرفيق درب في تلك الرحلة الشاقّة! لم يكن عبداً، أو خادماً، بل رجلاً موثوقاً، يكاد يكون صديقاً. وشعرت بالأسف لكونها تركته في «ايركوتسك» لكي لا تتأخر بضعة أيام وهي في طريقها إلى «تشيتا»، ولكنها، شعرت بسرعة بعد ذلك بالرضا عن نفسها لكونها وجدت له عملاً مناسباً وجيداً. ولا بدّ أنه تقدم في عمله، ورقّي إلى عمل آخر، أفضل من الأول، منذ زمن طويل... وعندما أنهت رسالتها شعرت بالخلاص والفرج، كما لو أنها لم تكن تكتب إلى شقيقة «ايفاشيف»، بل إلى «نيكيتا»، وكما لو أنه كان سيقرأ أفكارها بين السطور. وفوجئت بقرع على الباب. فهي لم تكن تتوقع أن يأتي «نيقولا» في هذا الوقت المبكّر. نهضت بسرعة، ألقت نظرة على المرآة: شعرها مشعَّث: لا بأس! وفتحت الباب لزوجها، ولكنها وجدت نفسها أمام ثلاث نساء. وقالت لها «ماري فولكونسكي»، وهي تدخل:

- أعلمت بالخبر؟ لقد ألغيت الزيارات!

فظلّت «صوفيا» صامتة، لا تقوى على الكلام ولا على تبيّن ما الذي يحصل في داخلها: فبدلاً من الثورة التي كانت تتوقعها، أُصيب ذهنها بخضوع غريب. وشعرت بالبرود وبالاستخفاف إزاء نبأ هذا اللقاء الذي لن يحصل.

وتمتمت:

- لماذا؟

فصاحت «كاترين تروبيتزوكوّي» بأعلى صوتها:

- بسبب القصة السخيفة التي حصلت قبل البارحة مع الملازم «بروكازوفّ» وقد علمنا بهذا القرار بمحض المصادفة، بينما كنا نتحدث مع «فاتروشكين».

فهذا أمر لا يمكن قبوله!

وأيّدتها «أليكسندرين مورافييفّ»، قائلة:

- يجب أن نذهب حتماً، للاحتجاج لدى الجنرال «ليبارسكي»!

و «صوفيا» التي تاهت عبر هذا الفيض من الكلام، لم تتوصل بعد للتعبير عن غيظها، وسألت:

- وكم من الوقت ستستمر عقوبتنا؟

فتأملتها «ماري فولكونسكي» بدهشة:

- ولكن، ألا ترين أنها لو استمرت يوماً واحداً! لكانت كافية، بل وزائدة!

فقالت «صوفيا» متأوّهة:

- آه! لقد خفت!

والحدث إذا ردّ إلى حجمه الحقيقي واقتصر عليه، فهو يبدو لها مؤسفاً، ويدعو إلى الاستياء حقاً، ولكنه لا يشكل أي خطورة بالنسبة للمستقبل. والأمر الذي يحزنها، على الخصوص، هو تفكيرها بخيبة الأمل التي سيمنى بها «نيقولا» الذي كان ينتظر موعد لقاءاتهما بفارغ الصبر! ولكي تهدّئ من غلواء النساء اللواتي تتحدث إليهن، قالت وهي تبتسم:

- إذا أكثرنا من تقديم الاحتجاجات إلى الجنرال «ليبارسكي» أخشى أن يملّ منا ونفقد العطف الذي يبديه نحونا. ألا ينبغي أن نحتفظ بهذا النوع من الشرح والاعتراض، لكي نستخدمه في حالات أكثر أهمية؟

فقالت «كاترين تروبيتزوكوي» وهي ترفع وجهها المستدير والمورّد، فوق عنقها القصير:

- ألا تبدو لك هذه الحالة مهمة بما فيه الكفاية؟! إنك تدهشينني يا عزيزتي! وبالنسبة لي فإنّ كل ما يتعلق بحق زيارة زوجي، أعتبره مقدساً!

فتمتمت «صوفيا»:

- ولكنّ... الحال هي هكذا، بالنسبة لي أيضاً!

وشـعرت بأنهـا أخطـأت بإظهارهـا الـبرود بـين هـؤلاء الزوجـات الـثلاث المتحمّسات، اللواتي أخذن ينظرن إليها بريبة وحذر، بل وبشيء من الجفاء والقسوة، وكان هذا يبدو تصرفاً سخيفاً ومضحكاً، منهن!

واستأنفت الكلام:

- وبطبيعة الحال، إذا قررتنّ الذهاب لمقابلة «ليبارسكي» فإني سأذهب معكنّ.

فقالت «ماري فولكونسكي»، وهي تزمّ شفتيها:

- إننا لا نريد أن نرغمكِ على ذلك!

فألقت «صوفيا» وشاحاً على كتفيها، وخرجت وراءهن. ومن منزل إلى آخر، قمن باستدعاء الزوجات المحرومات من حق الزيارة. وكنّ سبع، عندما دخلن إلى قاعة الانتظار، في مكتب الجنرال، الذي جعلهن ينتظرن هناك ثلاثة أرباع الساعة، لأنه ربما كان يأمل أنّ هذه المهلة التي أتاحها لهن للتفكير، ستهدئ من غلوائهن، ولكن عندما فتح الباب، لكي يستقبلهن الجنرال، تقدمن سوية بخطوات ثابتة وبشكل ينم عن العزم والتصميم لدرجة أنّ الرجل العاجز الذي يعمل كحاجب في مكتب الجنرال التصق بالجدار، وهو يرفّ بجفنيه، وقد أذهله تيار الهواء الذي أحدثته كل تلك الفساتين التي أخذت تسير وهي تدخل إلى المكتب. كان «ستانيسلاس رومانوفيتش ليبارسكي»، يقف خلف منضدة عمله، مرتدياً البزّة الخضراء الخاصة بالقناصة الخيالة، الذين كان فيما مضى قائدهم، وقد برز صدره الذي تغطية مجموعة من الأوسمة، وقطّب حاجبيه لكي يضفي القسوة على نظرته. وكانت التجاعيد منتشرة كالندوب في وجهه، وعلى جبينه انسدلت خصلات من شعره المستعار الأشيب.

وقال:

- تفضلن بالجلوس، أيتها السيدات.

ولكن، لم يكن هناك سوى أربع أرائك. فتبادلت النساء المجاملات فيما بينهنّ، وأخيراً، بعد الكثير من الاعتذارات، وافقت الأميرتان «فولكونسكي» و «ترووبيتزوكوّي» والسيدة «مورافييفّ»، والسيدة «فونفيزين» على الجلوس، وبقيت النساء الثلاث الأخريات واقفات خلف مساند الأرائك. وبانتظامهنّ هكذا على صفين، بدوْن وكأنهنّ على استعداد، لإنشاد إحدى الأغاني، سوية وبصوت واحد. وكان «ليبارسكي»، الذي ظل يبدو ودّياً بشكل ينم عن البرود، هو الذي أعطى إشارة البدء، قائلاً:

- هل أستطيع معرفة سبب تشريفي بزيارتكنّ؟

ردّت عليه مجموعة متناغمة، تتضمن الكثير من اللوم والعتاب. فبدرت منه حركة إلى الخلف، كما لو أنّ أفعواناً خرافياً بسبعة رؤوس قد بصق النار من وجهه. ومع ذلك، فهو معتاد على هذه الأمور: فلم يكن يمرّ أسبوع، دون أن تخاصمه فيه السيدات، وكانت تتردد، في معظم الأحيان، خلال احتجاجاتهن، عبارات: «فضيحة لا مثيل ولا سابقة لها»، «تعذيب نفسي ومعنوي»، «شكوى إلى المقامات العليا».

ومع أنّ «صوفيا» شاركت بالاحتجاج مع بقية النساء، ألا أنها ظلت معجبة بحاكم «تشيتا» لما أبداه من صبر وسعة صدر. كانت تنظر إلى قبعة «كاترين ترووبيتزوكوّي» المصنوعة من القش الأصفر والمزدانة بالشرائط الزرقاء، التي تجلس صاحبتها أمامها، دون أن تشعر بأنها مؤيدة لهذا اللغط، وهذا النزاع النسائي الصاخب. وفجأة صاحت «ماري فولكونسكي» بصوت أقوى من أصوات رفيقاتها:

- أتعرف من أنت، يا صاحب السعادة؟ إنك «هدسون لوّي» جديد!

وأدهش هذا الاتهام الجميع، بدءاً بالتي وجهته، وخيم، على أثر ذلك صمت دام برهة طويلة، بدا لـ «صوفيا» وكأنه ينذر بعاصفة قوية.

فقد تمادت «ماري فولكونسكي» وذهبت بعيداً في اتهامها الجنرال، الذي أحنى رأسه واستغرق في التفكير. وليس هنالك أي شك في أنه كان يحاول أن يتبيّن ماذا لديه من مشترك مع «سجان نابليون» وبماذا هو يشبهه. وأخيراً رفع جبهته، واتخذت ملامحه طابع الهزء والسخرية، وقال:

- أنّ إعجابك بزوجك وتعلقك به، يجعلك تخطئين وتضلّين سواء السبيل في تفكيرك. وإذا كنت ترين أنّ زوجك هو نابليون أو أنه يشبهه فهذا لا يسوغ لك أن تُعَدّيني «هدسون لوّي» أو أن تشبهيني به. ولو أنّ «هدسون لوّي» كان مكاني لكان ردّ على شتائمك ولومك لي بمنعك من زيارة الإمبراطور.... عفواً، من زيارة الأمير، طوال ستة أشهر! وأنت تنسين بسرعة التسهيلات التي أقدمها لك ولرفيقاتك! وأنا أبذل جهداً كبيراً، على الدوام، لتحسين وضعكنّ وطريقة معيشتكنّ! وأغمض عينيّ وأغضّ النظر عن الكثير من تصرفاتكن المخالفة للنظام!

فقالت «ماري تروبيتزوكوّي»:

- أنت لا تغمض عينيك، والدليل على ذلك أننا عوقبنا اليوم على جريمة كلامنا بالأمس مع أزواجنا، عبر الحاجز!

- هذا مخالف للنظام!

- ولكننا نفعل ذلك كل يوم، ومنذ عدة شهور!

- ما كنت لأقول شيئاً لو أنّ الملازم «بروكازوف» لم يراكنّ!

فصاحت «صوفيا»

- إنه فظ جداً! لقد عاملني بقسوة لا مثيل لها! وهدّدني بـ....

فغمغم الجنرال «ليبارسكي»

- أعرف ذلك، أعرفه جيداً، ولذلك فقد عاقبته، ولكن، بعد أن عاقبته على إفراطه باستخدام القوة، فأنا مضطر تماماً لمعاقبتكن، أنتنّ أيضاً بسبب عدم تقيّدكن بالنظام!

- أنت مضطراً!؟ ومن يجبرك على أن تفعل ذلك؟

- كيف؟ من يجبرني على أن أفعل ذلك؟ الذي يجبرني.... هو..... ضميري كحاكم للسجن!

فتبادلت السيدات ابتسامات واضحة، لاحظها الجنرال وأخذ ينظر إلى السيدات بحزن، كما لو أنه اعتبرهن قاسيات جداً عندما تساورهن الشكوك بأن يكون لدى حاكم السجن ضمير.

- أنت لا يمكن أن تنتزع من أذهاننا اقتناعنا، أيها الجنرال، بأنّ كل شيء هنا تتحكم به إرادتك، ويتوقف على إرادتك وعلى نواياك الحسنة.

فردّ «ليبارسكي»:

- كل شيء هنا، كما في كل مكان آخر، تتحكم به «سان بطرسبورغ» ويتوقف على إرادتها!

فقالت «كاترين تروبيتزوكوّي» معترضة:

- ولكن «سان بطرسبورغ» تقع على مسافة ستة آلاف «فرست». ومن هذا البعد الشاسع، لا يمكن أن يرى أحد ماذا يحدث هنا، في دائرة عملك!

- لا تخطئي، أيتها الأميرة: «إنهم» هناك، لا يجهلون شيئاً عني، ولا يجهلون أي شيء مما يحدث هنا، لا شيء أبداً! فهنالك من يراقبني ويتجسّس علي!

- ومن يتجسّس عليك؟

- يا للسذاجة! أعواني ومساعديّ بالطبع! فالوشايات مستمرة وعلى جميع المستويات! وعليّ أن أخشى هؤلاء الذين أقودهم، أكثر من أولئك الذين يتحكمون بي، وهم رؤسائي!

فاعتقدت «صوفيا» في بداية الأمر، أنه عرضة لهذيان الاضطهاد. ثم قالت في سرها، إنّ كل الإدارة الروسية تقوم بالفعل وتستمر في عملها بفضل هذا

الخـوف الـذي يـشعر بـه الموظفـون مـن أن يـشي بعـضهم بـالبعض الآخـر، وبالاعتمـاد عليـه. وصـلابة الدولـة وتماسـكها لا يحـصلان عـن طريـق تعـاون وترابط موظفيها وخدمها، بل عن طريق الريبة والحذر المتبادلين فيما بينهم. فهم يعيشون ويعملون وأنظارهم متجهة على الدوام نحو القمة، يعانون من قلق دائم، كما يراقب سكان أحد الوديان الغيوم التي تتكاثف وتتلبد حول قمم الجبال، لكي يتنبؤوا بالأحوال الجوية، وكيف ستكون حالة الطقس.

وقالت «ألكسندرين مورافييفّ»:

- إنك، مع كل هذا، لن تدعي بأنّ حادثة الأمس، سوف تُنقل وتبلّغ بحذافيرها، إلى الإمبراطور!

- بلى، أيتها السيدة! فهنالك رسائل سرية، تصدر من هنا، على الدوام، إلى العاصمة! ولديّ الدليل الذي يثبت ذلك! وليحمنا الله من لجنة تحقيق، تصل إلى «تشيتا» بشكل مفاجئ! وقد يكون من السهل عليهم أن يتأكدوا من أني كنت متساهلاً أكثر مما ينبغي معكنّ، وسأنقل إلى موقع آخر، ويُعين مكاني هنا، جنرال، متشدّد! وصدّقوني إذا قلت لكنّ إنّ هذا الحاكم الجديد لن يقبل بأن يستمع لعشر ممّا سمعته الآن!

وسيعمد إلى تطبيق النظام بكل شدته وقسوته! وعند ذلك تصبح حياتكنّ جحيماً لا يطاق! وحينئذ، تستطعن التحدث عن «هدسن لوّي»!

وصمت وهو يلهث. وتزعزع تضامن السيدات. إذ إنّ بعض القلوب أخذت تخفق متأثرةً ومؤيدةً للجنرال الذي كان اعترافه بالضعف أقوى في تغلبه على السيدات وعلى إقناعهن بوجهة نظره، من إظهاره للقوة والسلطة. وبدر من «ماري فولكونسكي» رد فعل ضد هذا التأثير الذي أحدثه حديث الجنرال، إذ إنها قالت:

- الخلاصة، هي أنّ المخاوف تساورك بشأن مستقبلك في خدمتك العسكرية، أليس كذلك؟!

فأجابها «الیبارسکي»:

- لم يعد لديّ مستقبل، فقد انتهت خدمتي، وقد بلغت الرابعة والسبعين من عمري. ولم تعد الأوسمة والمزايا المختلفة تغريني أو تهمني. ولم أعد أتمنى سوى الراحة الأبدية!

- في ظروف كهذه، وفي هذه الحالة، ينبغي ألاّ تهتم أو تشغل بالك بعد الآن بما يفكر به القيصر أو «بنكندروف» ـ بشأن أعمالك وتصرفاتك وعليك ألاّ تبالي برأيهما في كل ذلك، بل برأي الله، وبحكمه على تصرفاتك وأعمالك.

- ومن قال لك إنّ الله ليس بجانب القيصر وبجانب «بنكندروفّ»؟

فردّت عليه «ماري فولكونسكي» قائلة:

- نحن نعرف كل شيء عن السيد المسيح، ومنه، أيها الجنرال.

ونهضت متمايلة. فتبادر إلى ذهن «صوفيا» وهي تنظر إليها، أنّ قامتها المشوقة، ووجهها الأسمر، ونظرتها السوداوية الحزينة، كل هذا، يبدو جميلاً، ولكنه ليس جذاباً. بينما كانت «كاترين تروبيتزوكوّي» و «أليكسندرين مورافييفّ» تختلفان عنها بجاذبيتهما ورصانتهما.

وقال «ليبارسكي»:

- أعدكنّ بإتاحة الفرصة لكنّ لرؤية أزواجكن، بصورة طبيعية، في المستقبل. وهذا كل ما أستطيع قوله!

فقالت السيدة «فونفيزين»:

- يمكن أيضاً أن تعدّل قرارك، وتجعلنا نلتقي بهم، هذا المساء، قبل أن تُغلق الأبواب، ويُمنع التجول، يا سيد «ستانيسلاس رومانوفيتش».

فغمغم مزمجراً:

- كلا، لن أتراجع عما قلته. الانضباط مطلوب... ولا بد من الانضباط... حتى بالنسبة لكنّ، أيتها السيدات!

واتجه نحو الباب، وهو يعرج متمايلاً على ساقيه المقوستين بسبب ركوب الخيل. وقد انتهت المقابلة، ولم يكن لها من نتيجة سوى إزعاج الجنرال، وإقناع السيدات بعجزهن، فاتجهن بوقار نحو الباب.

وعندما همّت «صوفيا» باجتياز العتبة، استبقاها «ليبارسكي»، قائلاً:

- أودّ أن أتحدث إليك، بشكل خاص، أيتها السيدة.

فرأت الفساتين المتعددة الألوان، تعبر سوية الباب، وألفت نفسها لوحدها مع الجنرال، في جوّ هادئ. عاد إلى مكانه، وهو يتنهّد، وجلس خلف مكتبه، وجلست «صوفيا» أمامه، على الأريكة التي كانت لا تزال دافئة، والتي كانت تجلس عليها «كاترين تروبيتزوكوّي».

وقال:

- عليك أن تعذريني لبحثي معك بعض الأمور المالية، ولكنّ الذي يحصل هنا، يجعلني بحكم القانون، خازناً مؤتمناً على نقودك!

فابتسمت «صوفيا» وأحنت رأسها. وبموجب النظام، كان حاكم السجن هو الذي يحتفظ بنقود المساجين وبنقود زوجاتهم. ولا يسلّم هذه النقود، إلاّ على دفعات وبمبالغ صغيرة، وبناءً على تبرير للحاجة إلى إنفاق هذه النقود. ولكن، إلى جانب هذا الرأسمال الرسمي، كانت كل زوجة تحتفظ، بصورة سرية، ببضعة آلاف من الروبلات، تخبئها في منزلها دون أن تصرّح عنها. و «صوفيا» التي أنفقت الكثير أثناء رحلتها، ولم تتلق أي معونة من أحد، كانت، بالتأكيد، أفقر الزوجات. وكانت عندما تعمل حسابها، تقدّر أنها في أفضل الأحوال، لديها ما يكفي لتأمين معيشتها خلال ستة أو سبعة أشهر أخرى... وبعد ذلك، سيكون عليها أن تعمل لكي تستطيع تأمين ما ستحتاج إليه. ولكن، ما هو العمل الذي يمكنها أن تجده في هذه القرية الصغيرة النائية، والتي يبدو سكانها أكثر فقراً وبؤساً من أن يستطيعوا دفع أيّ مبلغ

لقاء أي خدمة؟ كان هذا هو الهم الكبير الذي يشغل بالها بشأن المستقبل. وكانت تتحاشى أن تتحدث عنه إلى «نيقولا». وتناول الجنرال بطاقة من أحد الأدراج، وضع نظارته على أنفه، فبدت إحدى عدستيها مشقوقة، وبعد أن ثبّتها جيداً، قال:

- أتدرين كم بقي من النقود، في حسابك؟

فقالت:

- أربعمائة وسبعة وسبعون روبلاً.

- إيه! يسرني جداً أن أخبرك أني تلقيت للتوّ، بالبريد الخاص خمسة آلاف روبل، لحسابك.

فأصبحت أكثر ذهولاً ودهشة، من أن تفرح على الفور،

وتمتمت:

- لابد أنّ هنالك خطأ مّا، يا صاحب السعادة...

- أبداً، وعلى الإطلاق، ليس هنالك أي خطأ.

- ومن يمكن أن يكون قد أرسل هذه النقود؟

- أهلك.

- من فرنسا؟

- ليس من فرنسا بالضبط. لقد كتبوا إلى عمك وكلفوه بأن...

فقاطعته، بغضب:

- هذا ليس صحيحاً!

- وكيف؟ لديّ هنا رسالة من «ميشيل بوريسوفيتش»، يشرح لي...

- إنه يكذب!

- اقرئيها، أنت بنفسك!

وناولها مغلفاً مفتوحاً. فعرفت خط عمها، وأعادت الورقة.

ثم استأنفت الكلام:

- إنه يكذب! فالرقابة لا تسمح بمرور أي رسالة من سيبيريا إلى فرنسا ولا من فرنسا إلى سيبيريا، ولذلك فإنّ أهلي لا يعرفون حتى أين أنا موجودة الآن، فكيف يعرفون أني بحاجة لنقود؟!

فقال لها «ليبارسكي»:

- تماماً! فلأنهم لا يستطيعون مراسلتك مباشرة، فقد كتبوا إلى «ميشيل بوريسّوفيتش» يستطلعون منه أخبارك، ولكي يرسل لك ما قد تحتاجينه...

- وأنا أقول لك إن هذا المبلغ ليس منهم بل منه!

- وأي مصلحة له بالاختباء خلف أهلك؟

- لأنه يعلم أني لن أقبل «كوبيكاً» واحداً منه!

- لماذا؟

كان الغضب يعصف بها، كما تعصف الريح بأوراق الأشجار، وبقدر ما كنت تحاول أن تسيطر على أعصابها وأن تتمالك نفسها، بقدر ما كانت تشعر أنها مضطربة وضعيفة:

- لأنه بدر منه حيال زوجي وحيالي أنا أيضاً تصرف مشين، ومعيب، لا يغتفر!...

فانتظر «ليبارسكي» برهة، ليدع لـ «صوفيا» مجالاً لتحديد اتهامها لعمها، ولكنه عندما أدرك أنها لن تفصح عنه ولن تضيف شيئاً على ما قالته، تمتم:

- أياً كانت الأخطاء التي ارتكبها عمك، فإني لا أؤيدك في موقفك. ولو أني كنت متأكداً أنّ هذه النقود منه، لقلت لك إنه نادم على ما فعل وإنه يعبّر عن ذلك بطريقته الخاصة، وإنّ ليس لك الحق كمسيحية مؤمنة، أن تمنعي رجلاً من القيام بعمل الخير. ولكن أياً كان رأيك في موضوع هذه النقود، فإنّ هنالك شكاً يظل قائماً: فهذه النقود يمكن أن تكون،

بالحقيقة أيضاً من أهلك، ولذلك فأنت ترتكبين جريمة وحماقة، إذا رفضتها.. وفي الحالتين، عليك أن تقبليها.

فهوّت رأسها، نافية ورافضة ذلك بشدة، ولكنّ جانباً من ذهنها تأثر بهذه الحجة المقنعة، فلاحظ «ليبارسكي» ذلك، وركّز على هذا الفوز الذي حققه، فقال بصوت أقوى مما كان في السابق ومع نظرة أكثر جرأة وتأثيراً:

- اعترفي إذن: إنك بدافع من الكبرياء، مازلت تعاندين وتصرّين على رأيك!

- ربما كان الأمر كذلك. فالكبرياء، هو كل ما تبقى لنا، نحن البائسات، فلا تطلب منا أن نتخلى عنه!

- عندما تتكلمين هكذا، فأنت لا تفكرين إلا بنفسك!

- على النقيض من ذلك، فأنا لديّ انطباع...

فقاطعها:

- آه! كم أنت سريعة الغضب، أيتها السيدة، وكيف تقعين بسرعة في الخطأ! فأنت تنسين أنّ رفاهية زوجك، ورفاقه أيضاً تتوقف على المبلغ الذي يدفعه كل منهم للصندوق المشترك. أولا تعتقدين أنّ الوضع المأساوي الذي تعانين منه، ينبغي أن يجعلك تترفّعين عن هذه القصص العائلية، وتغضّي الطرف عنها، وأن تعلمي أنّ المجاملات وأباطيل الزهو والغرور، والتصرفات التي تمس أو حتى تجرح الكرامة، والأحقاد القديمة، كلها تُلقى جانباً، هنا في «تشيتا»، وأنّ الأمر الوحيد المهم هو التعاون، بكل الطرق والوسائل بين أولئك الذين جمعهم سوء الطالع، في هذا المكان؟

وتلقّت الدرس، دون أن تنبسّ ببنت شفة، بنوع من الامتنان المشوب بالخجل، وبتسليم ودّي وحار، نابع من قرارة نفسها. ولم يمنعها من الاعتراف بأنّ «ليبارسكي» محق فيما قاله، سوى بقية من الكبرياء. وبمهارة فائقة أعفاها من ذلك، قائلاً:

- وعلاوة على كل هذا، فلست مضطراً لأن أطلب منك أن تبدي رأيك في هذا الموضوع. لقد سجلت لحسابك خمسة آلاف «روبل» وأنت حرة بأن تتصرفي بها، أو بأن تتركيها ترقد في حسابك.

وهذه اللهجة التي تنم عن السلطة أراحتها وشجعتها، ولم تشأ أن تفكر بالنتائج العملية للقضية، بل شعرت بارتياح عميق يشبه الأمل، ولولا شيء من الخجل، لشكرت الجنرال الذي كان يراقبها آنذاك عبر نظارته، بلطفٍ يتسم بالمجاملة والمراوغة. فنهضت، وهي تشعر بالاضطراب.

فسألها:

- هل أنت في عجلة من أمرك؟

- كلا.

- امنحيني إذن، خمس دقائق أخرى من وقتك، فلدّي... كما يقال... خدمة... أو بالأحرى نصيحة، أريد أن أطلبها منك.

فقالت له:

- لا أدري، بماذا أستطيع أن أفيدك، وأنا في وضعي الحالي؟!

- الأمر يتعلق بموضوع زواج «أنّانكوفّ» و «بولين جيبل».

فقد قبلت أن أكون عرّاباً في حفل عقد القران، حسب التقاليد والطقوس الأرثوذكسية...

والحقيقة هي أنّ الجميع في «تشيتا» كانوا يعرفون أنه هو الذي طلب أن يكون العراب، لكي يثبت ويظهر لطفه وحلمه حيال المساجين. وأنّ «أنّانكوفّ» لم يجرؤ على رفض هذه الخطوة المربكة.

فقالت «صوفيا» باختصار، متهربة من متابعة الحديث:

- إني أهنّئك.

فسعل سعالاً خفيفاً، نزع نظارته، وهمس بلهجة تنم عن التأثر:

- ولكني أعتنق المذهب الكاثوليكي... ولم يسبق لي أن تعرضت لموقف كهذا...

- وتريد أن تعرف كيف ستقوم بمهمتك في الكنيسة!

- هو ذاك! وكان يمكنني طبعاً أن أحصل على المعلومات التي أحتاجها من بعض أولئك السادة... ولكني أعترف لك أني خشيت أن تدهشهم أسئلتي وأن يبتسموا ساخرين بي... ففكرت بأنك أنت، التي تعتنقين مذهبي نفسه، سوف تتفهّمينني بشكل أفضل...

فقالت، ضاحكة:

- اطمئن! سيكون دورك في غاية البساطة!

وأخذت تتساءل، وهي تشرح له ماذا سيكون عليه أن يفعل، عما إذا كان لا يتظاهر بالجهل، لكي يطيل أمد الحديث، فتنبهت على الفور وأخذت حذرها. وإذا كان من الممكن تصور حصول بعض التقدير بين المساجين وسجّانهم، فلم يكن وارداً، أن تسود الثقة المتبادلة بين الطرفين. ومهما عمل هذا الرجل، لكي يبدو محباً وودوداً بالنسبة لهم، فهو موجود هناك، أولاً، وقبل كل شيء، لكي يمنع رجالاً آخرين من التمتع بحريتهم، ومن العيش أحراراً.

وعندما كان يحاول التقرب منهم، كانت تتدخل في مودته دوافع الوظيفة، وتعقّدها. فهو لم يكن يعاملهم بلطف إلاّ لكي يهدّئهم، ويجعلهم أكثر استسلاماً وخضوعاً. وعبرت هذه الأفكار ذهن «صوفيا» بسرعة فائقة وعجيبة، ولا شك بأنّ انعكاساتها قد بدت في عينيها. فألقى عليها الجنرال «ليبارسكي» نظرة حادة، وبدا عليه أنه قد أدرك مشاعرها وما يدور في خلدها، فتجهّم وجهه، وطغت على ملامحه تعابير الوظيفة، الرسمية، وانحنى أمام «صوفيا»، قائلاً:

- لا أريد أن أحتجزك لمزيد من الوقت، أيتها السيدة. لا تنسي أنّ موعد إرسال البريد هو بعد غد. ما إذا كان لديك رسائل لتقديمها لي...

وخرجت. وبدلاً من أن يعود ويجلس أخذ يتمشى في الغرفة. كان يفتح منخريه ويشم عطراً ناعماً ولطيفاً كان يتغلب على الروائح القوية التي تفوح عادة في مكتبه من الورق العفن والأحذية الحارّة وقماش البزّات العسكرية. كانت السيدات قد تركت هذه الذكرى التي تفوق الوصف، بعد مغادرتهن مكتبه، مع أنه كان متأكداً من أنّ أيّ واحدة منهن لا تتعطّر، وتبادر إلى ذهنه أنّ تلك هي رائحتهن الطبيعية، كنساء من منبت حسن، ونشأة طيبة وعريقة. وأخذ يقارن في ذهنه بينهن، ويتساءل أيهنّ يفضّل. فالثمانية وحدهن، كنّ أكثر تحركاً وأكثر جرأة وإرباكاً من جميع السجناء مجتمعين. ولا جدال بأنّ لديهن عجزاً خلقياً وفطرياً عن تحمل النظام والانضباط، وأقل ضغط أو مضايقة تزعجهن، وأي تنازل لا يرضيهن. وكلمة «الظلم» تتردّد على شفاههن، على الدوام. و «ليبارسكي» وقد تعرض لنقدهنّ اللاذع، كان يقضي معظم وقته محاولاً التوفيق بين قسوة نظام السجن وبين رغبته بأن يكون لطيفاً معهنّ. وكثيراً ما كان يتوصل إلى ذلك، ولكن لم يكن أحد، على ما يبدو، راضياً عنه وممتناً منه، من أجل كل هذا، لم تكن هذه اللا مبالاة الظاهرية لتثبط من عزيمته وتجعله يستاء ويشعر باليأس.

وهو لا يرغب أبداً، وعلى الإطلاق، مبادلة مركز عمله الحالي، بمركز آخر أكثر راحة وهدوءاً.

فيا لها من نهاية غريبة لخدمته الطويلة! إنه بولوني، تلقى تربيته وتعليمه عند الآباء اليسوعيين. وحصل على رتبة في الجيش الإمبراطوري، رتبة بعد الأخرى، وعلى التوالي، لكي يصبح، بعد خمسين سنة أمضاها في الخدمة، قائداً لفوج القناصة الخيالة، في «سيفرسك». وكان على أهبة الإحالة على التقاعد، عندما استدعاه القيصر «نيقولا الأول» ليعرض عليه أن يتولى هذا المنصب المخيف في «تشيتا»:

حديث على انفراد مع عاهل روسيا استمر زهاء ساعتين:

«ستانيسلاس رومانوفيتش، أنت مدين لي بتقديم هذا الدليل الأخير على ولائك وإخلاصك! تناسَ سنّك! سافر إلى سيبيريا! وليحفظك الله!...» وحتى اليوم، لا يستطيع «ليبارسكي» أن يتذكر هذه الكلمات دون أن يشعر بتأثر شديد. وكان القيصر قد قبّله، وأهداه علبة لتبغ السّعوط... وبطرف أصابعه أخذ يتحسّسها في جيبه.

وعند وصوله إلى «تشيتا»، كان قد استعد للقيام بأعمال الإصلاح والمراقبة، الشاقة. ولكنه، منذ الأيام الأولى، انجذب نحو أولئك الذين أتى لمراقبتهم وإصلاحهم. فلم يكن بينهم سوى شباب من أسر عريقة، وذوي ثقافة عالية. وبسبب غيظه الأعمى، حرم القيصر روسيا من خيرة وأفضل خدمها: نخبة من الضباط، والكتاب والمؤرخين، وعلماء الرياضيات والبحّارة، والعلماء، الذين كان عليهم أن يعملوا من أجل رفعة وعظمة الإمبراطورية، يُجرون الآن على حفر التراب والرمل في أعماق سيبريا. ومع ذلك، فإنّ هؤلاء الرجال، على الرغم من بؤسهم، استطاعوا بقوة ذكائهم، أن يكوّنوا في «تشيتا» مجتمعاً صغيراً يعيش بقوةٍ حياةً فكريةً. وكان تبادل الأفكار فيما بينهم يجري بحماسة ونشاط شديدين، وكان كل منهم متحمساً لتعليم جاره. وكان «ليبارسكي» يأسف أحياناً لكونه لا يستطيع أن يرسل إلى «سان بطرسبورغ» تقريراً عن وجود هذا المركز التعليمي الأعجوبة، في قلب الصحراء. لأنه كان يمكن أن يُتهم بالتعاطف المشبوه مع مجرمين تآمروا ضد أمن الدولة. والحقيقة هي أنه كان يُعَدّهم تقريباً كأبنائه. وكانت زوجاتهم، على الخصوص، توقظ لديه مشاعر الأبوّة. فهو الذي لم يتزوج أبداً، وجد نفسه فجأة، وهو في الرابعة والسبعين من العمر، وقد رُزق ثماني بنات مشاكسات.

وكان معجباً بهن لشجاعتهن، ويتأثر كثيراً ويعطف بحزن على صباهنّ. وكنّ يشكلن حوله زوبعة من الفساتين الزاهية، وجوقة ذات

أصوات رخيمة ومتناغمة، كنّ يتشاجرن معه ويصنّفنه، ويبتسمن له، ويحردن ويزعلن منه، وفي اليوم التالي يجد باقة من زهور الحقول على منضدته. فمن أحضرها؟ فيقول له الحاجب: فتى من القرية، هو الذي أحضرها، ويستحيل عليه أن يعرف عنها أكثر من ذلك. وعلاوة على كل شيء، فما هي الجدوى من تلك المعرفة؟ فقد كان عليه أن يصبح حاكماً لأحد السجون، لكي ينعم بالسعادة التي يحصل عليها من شعوره بأنه لم يعد وحيداً على سطح الأرض، وأن يقول في سرّه، وكأنه في حلم: «هذه هي الحياة العائلية!» وبدت ابتسامة مرحة على شفتيه. وفتح إضبارة الرسائل التي تكتبها تلك السيدات، خلال الأسبوع. وكان يجب عليه أن يقرأها ويؤشر عليها، قبل إرسالها إلى دائرة البريد، لأنّ نظام السجن يفرض عليه القيام بذلك. ومع استنكاره لهذا العمل التجسّسي، فإنه كان يشعر بمتعة معيبة، لا يمكنه الاعتراف بها، من جراء اطلاعه بشكل دائم على أسرار المساجين الخاصة والحميمة، وأسرار زوجاتهم.

وفي البداية، حلّقت نظرته فوق كل تلك الكتابات والخطوط النسائية الدقيقة والأنيقة، المتشابكة والجريئة... وكالشخص الشره الذي ثبّت منشفته على عنقه، وأخذ يتردد من أي نوع يأكل من أنواع الطعام التي أمامه، كان «ليبارسكي» لا يعرف بأي رسالة يبدأ القراءة. كانت «ماري فولكونسكي» تكتب بأسلوب شيّق ورشيق، يضفي أهميةً وإثارةً على أبسط القصص العادية والمبتذلة. ورسائل «بولين غليب» لم تكن تخلو من الدعابة والظرف.

وربما كانت «أليكسندرين مورافييفّ» أكثر الزوجات شاعرية.

ومن المؤسف ألاّ يكون بين تلك الرسائل، رسالة من «صوفيا»! ولكن سترد منها رسالة، غداً، دون شك. وقرّر أن يقتطف كيفما اتفق، متنقلاً من صفحة إلى أخرى، فعلم أنّ «كاترين تروبيتزوكوّي» بحاجة ماسة

لقماش «ناعم جداً» تخيط منه قميصاً للنوم، وأنّ «زفاليشين» يقوم بترجمة التوراة من اللغة العبرية إلى اللغة الروسية، وأنّ السيدة «فونفيزين» رأت في الحلم، وفي ليلتين متتاليتين هراً أسود نائماً على الثلج، وأن هذا يُعَدّ فألاً سيئاً. وأنّ «اياكوشكين» يشعر بحموضة وحرقة في معدته، وأنّ «أودويفسكي» يعاني من سأم مميت، ويطلب بعض الكتب. وأنّ «بولين غليب» سعيدة بشكل جنوني لأنها ستتزوج، وفستانها الذي خاطته هي بنفسها سيكون رائعاً، «له صدارة فيها عدة طيات، وغبنات على الكمّين، وعلى ذيله قطع تزينية من الجوخ»...

وعلاوة على ذلك، فإنه لم يكن يطّلع على حياة وأحوال الناس المقيمين في «تشيتا»، وحسب، بل أيضاً على شؤون الناس الآخرين الذين تُرسل إليهم الرسائل والمقيمين في «سان بطرسبورغ»، في «بسكوف» أو في «موسكو» عبر ما تبوح به النساء من أسرار وأحاديث، ومن خلال الأسئلة والأجوبة المتبادلة. كان لرحلاته سرعة توارد الأفكار في الذهن. ويهذب إلى كل مكان وهو في مكتبه، يرفع أسطحة المنازل مثلما تُرفع أغطية الطناجر، يتعرّف على جدّات، على أعمام وأخوال، على أبنائهم وبناتهم، على مجموعات متشابكة من الأقارب، الكثيري الحركة والنشاط، يطلع على مشاجرات ومصالحات، وعلى مشاريع زواج، على أمراض أحدهم وعلى الصعوبات والمشكلات المالية التي يعاني منها شخص آخر، ويعود ليجد نفسه فجأة، وقد استبدت به الدهشة، جالساً على أريكته، بعد أن عاش، مشاركاً خمسين حياة خلال عشر دقائق. وحالما كان يطلع على مضمون إحدى الرسائل، يضعها إلى يساره، فتتكدّس كلها فوق بعضها، وبعد قليل، شعر بالتعب، والتعاقب السريع لتلك الرؤى والمشاهد شوّش بصره. وقُرع الباب كان القادم هو «جوزيف ليبارسكي» ابن أخيه، وهو فتى ثقيل الظل، معتل، ونكد المزاج، اتخذه معاوناً له، في «تشيتا».

وقال «جوزيف» وهو يجلس بجانب المنضدة:

- دعني أساعدك، يا عمي.

وجذب نحوه رزمة من الرسائل لكي يتصفّحها. وعندما رأى الجنرال «ليبارسكي» يدي ابن أخيه الضخمتين تعبثان بتلك الأوراق، غضب وتجهم وجهه، كما لو أنّ شخصاً وقحاً وفظاً تجرأ على أن يمدّ يده على السيدات في حضوره. كان يريد أن يكون وحده مطلعاً على أسرارهن، فلماذا بحق الشيطان، سبق له أن طلب من «جوزيف» فيما مضى أن يساعده في مراقبة الرسائل؟

وسأله «جوزيف»:

- هل قرأت رسالة «أليكسندرين مورافييفّ»، هذه؟

إنها رائعة!

وماذا يستطيع أن يفهم منها؟ إذ إنّ «أليكسندرين» تكتب بالفرنسية وهو لا يكاد يستطيع التكلم بهذه اللغة. كانت نظرته تنزلق على الورقة ببطء شديد ينساب البصاق اللزج موسّخاً كل شيء.

فغمغم الجنرال «ليبارسكي»، حانقاً:

- أعطني إياها! سأقرؤها أنا، وأنجز قراءة بقية الرسائل بنفسي!

- ولكن، يا عمي...

- أعطيني إياها، قلت لك!

وانتزع الورقة من يديه، فنظر إليه «جوزيف» بدهشة. فأسف الجنرال «ليبارسكي» على ما بدر منه من غضب واستياء، ودفع بعض الأضابير نحو ابن أخيه، وطلب منه أن يذهب ويدرسها في الغرفة المجاورة.

وبعد ذلك بساعة، عندما دخل الحاجب إلى المكتب ليشعل المصابيح، وجد الجنرال، جالساً على إحدى الأرائك، بالقرب من النافذة، نظارته على أرنبة أنفه، وعلى شفتيه ابتسامة غامضة، وعلى ركبتيه رسالة، ورسائل أخرى، ملقاة على السجادة.

٣

كانت كل من الأميرة «تروبيتزوكوّي»، الأميرة «فولكونسكي» والسيدة «مورافييفّ» قد اصطحبن معهن خادمتين من روسيا. ولكنّ إخلاص هؤلاء الفتيات لم يستطع الثبات ومقاومة تأثير ظروف سجن الأشغال الشاقة الصعبة والمثبّطة للهمة وللعزيمة. فعندما كنّ يرين سيداتهن مرتديات الملابس البسيطة والمتواضعة، ويقمن في منازل حقيرة، وأسيادهن يحملون السلاسل والأغلال في أرجلهم كالمجرمين، لم يعدن يشعرن نحوهم بأي قدر من الاحترام، وأخذن يجبنهم بلهجة تتّسم بالوقاحة ويرفضن العمل، ويقضين معظم الوقت في التجول والتسكع، بشكل ينم عن الغواية والاستهتار، حول مراكز حراسة السجن، وبسرعة تورطن في علاقات مع بعض عناصر الحرس، وصف الضباط، الأمر الذي جعل عقولهن تختل في نهاية الأمر. ولذلك كان لابد من إعادتهن إلى روسيا، تحاشياً لحدوث المشكلات والفضائح الخطيرة. ووقع الجنرال «ليبارسكي» الأوراق الضرورية لتنفيذ ترحيلهن. وشهدت السيدات بحزن وبقلوب منقبضة رحيل الخادمات، اللواتي ساعدهن الحظ على العودة بسرعة إلى بلادهن. وعندما جلسن، جنباً إلى جنب في العربة، وقد عقدت كل منهن خمارها حول عنقها، بَدوْن مزهوات بهذه الرحلة، لأنهن يعرفن جيداً، أنّ اللواتي يصرفنهنّ من الخدمة، يتعرضن لعقوبة أشد وأقسى من عقوبتهن.

وبدلاً منهن، اتخذت السيدات، لخدمتهن، فتيات ريفيات، جاهلات وخاملات، دون أن يدفعن لهن أجرة تذكر. وكنّ ينمن في الحجرة الكائنة

تحت الدرج. وإذا كانت «صوفيا» مرتاحة نسبياً مع «زكاريتش» وزوجته «بولشيري» اللذين تسكن عندهما، فإنّ زوجات المساجين، الأخريات كانت الخدمات التي تقدم لهن، سيئة، وكان عليهن أن يعوضن النوعية، بالكمية، فكان لدى كل سيدة في نهاية الأمر، أربع أو خمس فتيات، من أولئك الخاملات، الجاهلات، بأجرة بسيطة وغير محدّدة. وكانت بعض السيدات يفضلن القيام بأنفسهن بالأعمال الدقيقة والمهمة، بدلاً من أن يرشدن أولئك الجاهلات للقيام بها، وينصرفن للإشراف عليهن أثناء العمل. ولكنهن، وقد نشأن في بيئة تتسم بالترف والرفاهية، فلم يكن بينهن، عندما وصلت إلى «تشيتا» من تعرف أن تشبك زراً، أو تقلي بيضة، بشكل جيد. و «صوفيا» نفسها، لم تكن مرتاحة في قيامها بالأعمال المنزلية. فهي، كبقية السيدات زوجات المساجين، اندفعت بهمة وحماسة في هذه المغامرة، وأتلفت كثيراً من الأشياء في بداية علمها، ولكنها اكتسبت، فيما بعد، بالممارسة والتجربة، بعض الخبرة في مجال الطبخ والخياطة وتدبير المنزل، وكانت «بولين غليب» وهي من منبت أكثر تواضعاً، تساعد رفيقاتها على تحسين طريقتهن في القيام بالأعمال المنزلية. وكان نوع من الحماسة يستولي على هؤلاء السيدات ذوات الأيادي البيضاء. وكن يجتمعن، عند هذه أو عند تلك، وبعد أن يتناولن وجبة خفيفة، يتحدثن عن أطباق وأطعمة شهية، ولكن لا يمكن تحضيرها في «تشيتا». وبعد الظهر، عندما يسمح الطقس بذلك، كنّ يذهبن، سوية، للقيام بنزهة، في الأماكن المجاورة. وللتغلب على رتابة هذه المعيشة، كنّ يحدّدن لأنفسهن هدفاً في المستقبل، وهكذا أخذن جميعهن، ينتظرن، حفل زفاف «بولين» وزواجها، كما لو أنّ مصير كل واحدة منهن يمكن أن يتغير بسببه.

وحلّ أخيراً ذلك اليوم المهم والمنتظر. فتدفّق جمهور غفير، على الكنيسة الصغيرة، ذات الجدران الخشبية المطلية باللون الأزرق. وفي الأيقونات التي

تزين الحاجز، كانت وجوه القديسين تبدو وقد اكتست الملامح القروية، والهالات التي تحيط بها اصطفت جنباً إلى جنب، كالصحون في خزانة الأطباق. وفجأة ارتعش الحاضرون، وبحركة واحدة، التفتوا نحو الباب. كان هنالك قرقعة حديد تقترب من مدخل الكنيسة.

فوقفت «صوفيا» على رؤوس أصابع رجليها لكي ترى بشكل أفضل. وكموجة تندفع إلى داخل كهف، انتشر المساجين في جناح الكنيسة. وقد سمح لهم كلهم بحضور حفل الزفاف. وقد حلقوا ذقونهم، وارتدوا الملابس النظيفة، فبدوا وكأنهم في عيد، على الرغم من السلاسل المكبّلة بها أرجلهم وكان البعض منهم يضعون زهرة في عروة سترتهم، ولوحظ حتى أنّ هنالك من يضع ربطة عنق بيضاء مقتطعة من المناديل. ودفع بعض الجنود المسلحين، مجموعة من المساجين، نحو الجهة اليمنى. ولمحت «صوفيا» «نيقولا» فأومأت له بيدها. ومن حولها، كانت بقية زوجات المساجين يتبادلن الابتسامات مع أزواجهنّ، وكانت هذه الابتسامات تشبه تلك التي يتبادلها فيما بينهم طلاب وطالبات المدارس الداخلية. كنّ متهيّجات وقد أثارت أهمية الحدث، حماستهن، فأخرجن من الحقائب أجمل الفساتين. وتعاونّ فيما بينهنّ على تسريح شعرهن بطريقة تليق بالاحتفال. وتبرعت السيدة «ناريشكين» بكل الشموع التي كانت تحتفظ بها بصورة احتياطية، وقد فعلت ذلك من أجل إنارة صور القديسين بصورة لائقة. ولم يسبق لسكان قرية «تشيتا» أن شاهدوا في كنيسة قريتهم مثل تلك النوار الساطعة. وحيث تمتمة تعبّر عن الإعجاب دخول «بولين» مستندة على ذراع إشبينها، الجنرال «ليبارسكي». وكان الناس الذين يعرفون علاقة الفتاة بـ أنّانكوف، أكثر عدداً، من أن تستطيع معه الادعاء بأنها تتزوجه بشكل عفوي ودون معرفة سابقة. كانت متوسطة القامة، شعرها أشقر، عيناها سوداوان ونفّاذتان، بارزة الصدر ترتدي فستاناً ليلكيّ اللون، تبدو عليه تموجات وانعكاسات

متغيّرة. وقد زينت تسريحة شعرها بإكليل من الزهور، وبدت وهي تبتسم لإخفاء تأثرها وانفعالها. وبدا القلق على الجنرال بسبب غياب العريس الذي كان ينبغي أن يكون قد حضر، آنذاك. ووصل في الحال، وهو يلهث، بين حارسيه المسلحين. كان هو أيضاً يضع ربطة عنق بيضاء، ويحمل السلاسل والقيود في رجليه. فتعالت الاحتجاجات بين السيدات:

- لا يمكن عقد قران رجل وهو مقيد بالسلاسل!... فليس في ذلك شيء من الديانة المسيحية، وهي لا ترضى بذلك!...

هيا، يا «ستانيسلاس رومانوفيتش»!... تصرّف وافعل شيئاً لتحلّ هذه المشكلة!...

فبدا الانزعاج على ملامح الجنرال: ها هي مرة أخرى، عليه أن يحاول فيها التمرد ومخالفة الأنظمة والتعليمات، وتبادر إلى ذهنه أنّ السيدات يملكن فن إثارة الجدل بين الإنسان وضميره في الوقت الذي لا يتوقع فيه ذلك. ألن يدعنه يرتاح أبداً! وتنهد بعمق، ثم نادى أحد ضباط الصف، وقال له:

- انزع عنه هذه القيود!

فانتزع ضابط الصف مفتاحاً من حزامه وجثا أمام «أنّانكوف»، فسمع صرير معدني وسقطت السلاسل، رفع العريس كمّ سرواله وأخذ يجسّ ويدلك عرقوبيه.

وقالت «ماري فولكونسكي»:

- أين حرس الشرف الذي سيرافق العريسين؟

فغمغم الجنرال، وهو يشير بيده إلى «بيير سفيزتونوفّ» و «أليكنسدر مورافييفّ» اللذين كانا يقفان وراء العروسين:

- نعم، نعم، هذان الاثنان، ها هما أيضاً!

والكاهن، الذي كان شاباً، لحيته شقراء، بدا متهيباً من الموقف وخائفاً من القيام بعقد قران غريب إلى هذا الحد، في حضور أناس يعرفون

العادات والتقاليد المتّبعة في المدن. وأخذ يرتّل الصلاة وهو منكمش في ثوبه الكهنوتي، بصوت خافت، دون أن يحوّل نظره عن الجنرال، لكي يتأكد من رضاه، ومن أنّ ليس لديه ما يلاحظه عليه أو يطلبه منه.

ولعدم وجود جوقة مرتّلين، كان الشماس هو الذي يردّد، متلعثماً، أناشيد حفل الزفاف، وهو يؤرجح مبخرة ضخمة. وعبر ستارة دخان البخور، كانت «صوفيا» تلمح رأس «بولين» و «أنّانكوف» المنحنيين تحت التاجين اللذين رفعهما حارسا الشرف، فوق رأسيهما. فتذكرت حفل زفافها الذي أقيم في باريس. قبل ثلاث عشرة سنة. وهذه الذكرى تركتها هادئة بشكل غريب، بحيث يكاد المرء يعتقد أنّ ماضيها لم يعد يعني لها شيئاً. وبالقرب منها، كانت «كاترين تروبيتزوكوّي» تبكي، والسيدة «فونفيزين» تعض شفتيها. وعند تناول الخواتم، حصل بعض الاضطراب. فقد كان حملها ممنوعاً في السجن، وقد صودرت خواتم الرجال المتزوجين عند وصولهم إلى «تشيتا». فهل سيستثنى من ذلك «أنّانكوف»؟ ومن جديد، أخذ الكاهن ينظر إلى جهة «ليبارسكي» كأنه يطلب منه النصيحة وإبداء رأيه، فهز الجنرال رأسه بصورة سلبية.

فهمست «ماري فولكونسكي»:

- يا له من حش!

وقال الكاهن للعريسين، وهو ينحني نحوهما:

- تظاهرا بأنكما تفعلان ذلك!...

فكررا ثلاث مرات الحركة الشعائرية، بخاتم واحد، هو خاتم «بولين» الذي احتفظت به، فيما بعد، بإصبعها. وأثناء ذلك، كان الكاهن يناديها باسم: «ياراسيّف»، لأنّ اسم «بولين» لا وجود له في قائمة الأسماء الأرثوذكسية». وعندما انسحب الكاهن، بعد أن هنأ الزوجين وبارك الحاضرين، ظهر ضابط الصف من جديد، حاملاً السلاسل في

كيس. فانتفض الجنرال، وأخفى انزعاجه خلف قناع يعبر عن السلطة، وقال:

- هيا، أسرع!

وعبر صمت عميق وجليدي، وضع صف الضابط السلاسل الحديدية في رجليّ «أنّانكوف» وفي رجليّ حارسي الشرف. وأثناء هذه العملية، كان «ليبارسكي» يتحاشى توجيه نظره نحو زوجات المساجين.

كان يشعر أنّ نظراتهن موجهة نحوه كرؤوس الحراب. وأنها، عند أقل حركة، يمكن أن تخترق جسمه. وأخذت «صوفيا» تتساءل من الذي كان، في تلك اللحظة، يرثى له أكثر، أهو أم المساجين؟

واقترب من العريسين، وتمتم:

- أهنئكم، آملاً أن تنسيكما سلاسل وقيود الزواج اللطيفة، هذه السلاسل وهذه القيود!

فسألته «بولين»:

- ألاّ يستطيع زوجي تمضية هذه الأمسية معي؟

وبالطبع، كانت تعني «بالأمسية»: «الليلة». فلوّن دم بنفسجي خدّي «ليبارسكي»، وقال:

- كلا، أيتها السيدة، فالنظام يسري على الجميع. ويجب على زوجك أن يعود فوراً إلى السجن، مع رفاقه. وسترينه يوم الزيارة.

ثم حيّا الجميع، وابتعد، يتبعه أعوانه ومساعدوه، سائرين بين صفين من الوجوه التي اصطبغت بالتعابير العدائية. وبعد ذلك بدأ مرور الأصدقاء. وعندما خرج العريسان من الكنيسة، تعالت الهتافات، وأخذ المساجين يهزّون سلاسلهم بإيقاع موزون. ووسط تلك الجلبة الناجمة عن قرقعة السلاسل المعدنية، أخذ الملازم «فاتروشكين» يصرخ:

- اسكتوا! وانتظموا في الصف!...

وفصل الجنود العريسين عن بعضهما، فالتحق «أنّانكوف» ببقية المساجين، وانضمت «بولين» إلى مجموعة السيدات.

- إلى الأمام، سر!..

فسار المساجين، وهم يغنّون:

«في أعماق مناجم سيبيريا

ابقوا صابرين ومزهويين!...

وتابعت «صوفيا» «نيقولا» بنظراتها. كان يسير بجانب «أنّانكوف» وأخذ الاثنان يلتفتان من وقت لآخر، يقفزان في مكانهما، وقد التوى عنق كل منهما. كانت «بولين» تبتسم، تبكي، وتلوّح بيدها. ورافقتها السيدات إلى مسكنها الذي كان عبارة عن غرفة صغيرة، أهم ما فيها من أثاث، سرير صغير وحقيبة كبيرة، غطاؤها محدّب. وجلست الزائرات على وسائد مطروحة على الأرض، حول صندوق يقوم مقام المنضدة وقدمت لهن «بولين» الشاي، وأقراص الحلوى، التي صنعتها هي بنفسها.

وعلى الرغم من فرحتها، بعقد قرانها أخيراً، على الجميل، المقلق والغامض «إيفان أنّانكوف» فهي كانت تتألم، لأنها كان عليها أن تفارقه في الحال، بعد الانتهاء من الاحتفال بعقد القران.

وقالت، متأوّهة:

- لا أستطيع أن أصدّق أني قد تزوجت! فماذا تغيّر بالنسبة لي؟

ولكي تواسيها وتسلّيها، سألتها «كاترين تروبيتزوكوّي» عن الذكريات التي تحتفظ بها عن فرنسا. وعندما ألحّت عليها بالأسئلة. روت «بولين» أنّ والدها الذي كان تابعاً لحاشية الملك «جوزيف»، قتل في أسبانيا، وأنّ أمها التي حرمت من أي تعويض أو راتب تقاعدي. بسبب سقوط الحكم الإمبراطوري لاقت عناءً ومتاعب كثيرة في تنشئة وإعاشة أولادها الأربعة، وأنها، هي التي كانت الكبرى بينهم، كانت تعمل أربعة

عشر ساعة في اليوم في مخازن من الكفاح، قبلت وظيفة بمرتب جيد في مخزن فرنسي في موسكو.

وأضافت، أخيراً، وقد صبغت حمرة الخجل خدّيها:

- وهناك التقيت بـ إيفان أليكسندروفيتش أنانكوف». وبعد ذلك بستة أشهر، حدث تمرد الرابع عشر من كانون الأول «ديسمبر» فهل كان من الممكن أن أتزوجه، لو لم يُرسل إلى سجن الأشغال الشاقة؟ لديّ انطباع بأنّ لولا ذلك، لما حصل هذا الزواج، لأنّ أمه كانت ستعارض وترفض الموافقة على هذا الزواج الذي تراه غير مناسب وغير متكافئ... ولكن، أنت نفسك، يا كاترين إيفانوفنا، عشت أيضاً فترة طويلة، في باريس، على ما أعتقد...

فقالت «كاترين تروبيتزوكوّي»:

- نعم، وتلك الفترة التي أمضيتها هناك، هي بالتأكيد، أجمل سنين حياتي...

وأخذت تبوح بأسرارها، وتبث نجواها، قائلة أنها كانت ابنة مهاجر فرنسي، هو «جان لوبروري دولافال» وأنّ أمها روسية، ورثت عن ذويها ثروة طائلة. وفرنسا الأرستقراطية، التي تعيش حياة البذخ والرفاهية والدعة، التي تصفها وتتحدث عنها، لم يكن لها أي علاقة مع فرنسا التي تتصف بالعمل والجد، التي تحدثت عنها «بولين» ولا تشبهها بأي حال من الأحوال، فبالنسبة لكاترين، لم يكن هنالك سوى حفلات الرقص في قصر «التويلري»، والاستقبالات في قصور ضاحية «سان جيرمان»، والنزهات بالعربات، التي تجرها الخيول المطهمة، في شارع «الشنزيلزي» الشهير، ومشاهدة المسرحيات والحفلات الموسيقية في دار الأوبرا، وسباق الخيل في «لونشامب»، والنزهات في حدائق «سان كلو» الفنّاء.

كانت تتحدث بصوت خافت، نظرتها شاردة في الفضاء، وهي تسند مرفقيها على الصندوق المصنوع من الخشب الأبيض الرخيص:

- كـان الأمير «تروبيتزوكوّي» لا يفارقني، ويـرافقني إلى كل مكـان أذهب إليه. وأعتقد أني أذكر تماماً أنه في مقصورتنا، ونحن نشاهد إحدى المسرحيات، صرّح لي بحبّه...

فقالت «صوفيا» في سرّها إنّ فرنسا التي تخصّها هي، شخصياً، لا تشبه فرنسا التي تخصّ الأميرة، ولا تلك التي تحدثت عنها «بولين» التي كانت تعمل في مخازن الأزياء.

واستأنفت «كاترين تروبيتزوكوّي» حديثها، وهي تلتفت نحو «صوفيا»، قائلة:

- أليس مستغرباً أني لم ألتق بك أبداً في باريس، طوال إقامتي فيها؟

أتـذكرين موسـم سـنة ١٨٢٠، المهـم، وكيـف كانـت دوامـة العمـل والنشاط قوية في جميع المجالات؟!

فقالت «صوفيا»:

- لقد غادرت باريس سنة ١٨١٥، بعد زواجي مباشرة.

- ولكن، من المؤكد أنّ لدينا أصدقاء مشتركين فيما بيننا: «كآل جرامون» و «آل كوستين»، وآل شارلاز»، و «آل مالوفير جوّي»...

فأومأت «صوفيا» برأسها، وقالت: «نعم، نعم...» كانت جميع الأنظار متجهة نحوها، ولا شك أنّهن كن يتوقعن منها أن تُفرغ جعبتها أيضاً وتبثّهنّ أشجان قلبها؟! ولكنها أدركت فجأة أنه يستحيل عليها أن تتذكر حياتها في باريس وتتحدث عنها وعن لقائها مع «نيقولا» وزواجها، دون أن يسبب لها ذلك حزناً شديداً لا يطاق، كانت أعصابها متوترة، وأخذت عضلاتها تتقلّص، وبدا لها كأنّ هنالك حاجزاً لديها يعيق مرور الكلام من فمها. فأنقذتها السيدة «فونفيزين» من ارتباكها، باقتراحها على «بولين» أن تبصّر لها وتستطلع لها مستقبلها بواسطة ورق اللعب. وفي الحال أبدت جميع السيدات حماسة شديدة لهذه اللعبة المسلّية. وتخلين بسرعة عن الماضي، لكي ينطلقن في غياهب المستقبل.

وبينما كانت السيدة «فونفيزين»، وهي التي تّدعى أنها متخصصة بفك رموز الأحلام وتفسيرها، تستقرئ بعينين مأساويتين أوراق اللعب: الصبي «الأعرج»، البنت، الملك، المصفوفة أمامها على الصندوق، كانت «صوفيا» منطوية على نفسها ومستغرقة في صمت ينم عن الأسى وخيبة الأمل. وبجانبها، كانت بقية السيدات يتنهّدن يصحن ويضحكن، مع شيء بسيط من القلق يكتمنه ويتجاهلنه. حتى أولئك اللواتي يدّعين أنّ الشكوك تساورهنّ حول صحة تلك التنبؤات، كنّ يتأثرن بأقوال العرافة وتأكيداتها، مع أنّ بعض تلك التوقعات كانت تبدو ذات طابع غريب، وهي تصدر في ذلك البيت القروي الروسي، «الايسبا»، على بعد خطوتين من السجن الذي يقبع فيها المساجين المكبلين بالسلاسل والأغلال:

- هنا، رجل أسمر، متقدم في السن، يبدو كبير الأهمية، يريد لك النفع والخير... عليك أن توليه ثقتك... نجاح في مجال الأعمال...

نجاح في مجال الحبّ والغرام... ثرثرات ونمائم كثيرة... خداع... نساء... طيش، فسق وفجور... كل ذلك سينتهي بصورة عجيبة... ثلاثة، أربعة، خمسة... رحلة طويلة مع المحبوب... الثروة... طفل...

كانت عينا «بولين» تبرقان، وقد حبست أنفاسها، استطاعت أن ترى سعادتها تُنسج كالدنتيلا على الطبلة.

وبعدها، وُعدت «كاترين تروبيتزوكوّي» و «ماري فولكونسكي» بسعادة ومسرات مختلفة ولكنها مرغوبة جداً ويُحسدن عليها.

وعندما أتى دور «صوفيا»، اعتذرت ورفضت عرض السيدة «مونفيزين» وأرادت أن تودّعهن وتنصرف. فاحتجت «بولين» وقالت شاكية:

- إنك لن تتركيني منذ الآن! وبذهابك تطلقين إشارة الانصراف، فيذهب الجميع!

وعلى النقيض من أولئك الزوجات الشابات العديمات الصبر، اللواتي يسرعن بصرف جميع الناس والتخلص منهم، كانت «بولين» تحاول احتجاز ضيفاتها واستبقاءهن أطول مدة ممكنة، لكي تؤخر الحزن الذي ستشعر به، بسبب تمضيتها بمفردها ليلة عرسها. وبقيت «صوفيا» بعد ذلك، لبعض الوقت، بدافع من الشفقة. وعندما مالت الشمس للمغيب، نهضت من جديد. فلحقت بها «ماري فولكونسكي»، و «كاترين تروبيتزوكوّي» وأدركتاها في الشارع.

وتمتمت «كاترين تروبيتزوكوّي»:

- يا لها من مسكينة، زميلتنا «بولين»!

وسرن عشر خطوات، دون أن تضيف أيّ منهن، على ذلك شيئاً، ثم انحنت «ماري فولكونسكي» نحو «صوفيا»، وسألتها، بصوت خافت:

- هل سمعت شيئاً بشأن ما يقال عن مشروع للهرب من السجن؟

فأجابتها «صوفيا» وهي منصرفة للتفكير بأمر آخر:

- كلا!

- الأمر في غاية الجدّية! فالمساجين... وعلى الأقل، البعض من بينهم.... يريدون القيام بحركة تمرد.... ينوون انتزاع أسلحة الحراس... وزوجك، وأنا أبلغك هذا، بالمناسبة، وبصورة عابرة، يؤيد هذه الفكرة ومقتنع بها تماماً!

فحملقت «صوفيا» بعينها، وكأنها استيقظت مذعورة، على حين غرّة، وتمتمت:

- دعك من هذا! لو كان الأمر كذلك، لكان حدثني عنه!

- إنه لا يستطيع أن يحدثك عنه، فقد أقسموا جميعهم على المحافظة على سرية هذه القضية، حتى أولئك الذين عارضوها! وهكذا، فإنّ الأمير «تروبيتزوكوّي» لم يذكر لكاترين شيئاً عنها، وكان ذلك بطريق المصادفة، أن أفلتت بالأمس، عند الحاجز، كلمة من «سيرج» عن هذا

الموضوع، في حضوري. وبالطبع، فقد ألححت عليه بالأسئلة عند ذلك، وكان عليّ أن أعده بألا أروي شيئاً لأحد مما قاله لي!... سيقومون بذلك في شهر تموز «يوليو»... وإليك كيف سينفذون هذه العملية...

وروت لـ «صوفيا» تفاصيل المؤامرة، ولكنّ هذه كانت في شغل شاغل عن تلك التفاصيل، ولم تكن تصغي لها. ومن مشروع الهرب كله، الأمر الذي شغل بالها بشكل خاص هو أنّ «نيقولا» لم يخبرها به. فهذا الكتمان من قبل إنسان يدّعي أنه يتقاسم معها كل شيء ويشركها في أفكاره، أحزنها كثيراً، واعتبرته بمثابة الكذب. وعلى الرغم من أنها قالت لنفسها إنه مضطر لأن يلزم الصمت بسبب القسم الذي أداه والوعد الذي قطعه على نفسه حيال أصدقائه، فقد ظل لديها انطباع بأنها قد خُدعت. فأي مسافة باعدت فجأة بينهما، في حين أنها كانت تعتقد أنه قريب جداً منها، منصهر في حرارتها، عاجز عن العيش إذا لم تسمع هي وتدرك رجع وصدى أفكاره وحركاته!

وأنهت «كاترين تروبيتزوكوّي» الحديث قائلة:

- الخلاصة، إذا كان جميع الرجال والنساء سيقومون جميعهم بالهرب سوية، فسيلحق بنا الحراس ويدركوننا بسرعة، وإذا كان المساجين غير المتزوجين وحدهم سيهربون، فسوف يتعرض أزواجنا للانتقام، وسيعاقبون بدلاً عنهم!

فتمتمت «صوفيا»:

- نعم، نعم، فكل ذلك غير معقول!...

فقالت لها «ماري فولكونسكي»:

- أنا مسرورة لأنك تفكرين مثلنا وتشاطريننا الرأي! ويجب ردع هؤلاء السادة، بأي ثمن، عن تنفيذ مشروعهم. فهل نستطيع الاعتماد عليكِ من أجل التحدث مع «نيقولا ميكايلوفيتش» بهذا الخصوص؟

- أعدك بأني سأفعل ذلك، منذ الغد.

- ولكن لا تخبريه من أين حصلت على هذا الخبر، لأنّ الرجال لديهم مفهوم غريب جداً عن الاستقامة والشرف! فهم يفضلون أحياناً ارتكاب أي حماقة، على أن يحنثوا بقسمهم!...

وقالت «كاترين تروبيتزوكوّي»:

- قولي له بأنها إشاعة منتشرة في القرية، وإنك سمعت بها من الجماعة الذين تقيمين عندهم...

- سأتدبر الأمر.

فشدّت «كاترين تروبيتزوكوّي» بحرارة على يدها، قائلة:

- يجب أن نكون متحدات أكثر من أي وقت كان!

كانت الشمس عند الغروب تطيل الظلال على الأرض. والطريق، على البعد، يبدو ورديّ اللون، بين حقول مخضرّة. وتوقفت النساء الثلاث أمام بيت «صوفيا». وحتى آخر لحظة ظلت تبذل الجهد لكي تشاركهنّ في الحديث.

وعندما أصبحت في غرفتها، شعرت بغمّ شديد، كما لو أنّ حدثاً مهماً قد حصل، وشوّش حياتها وقلبها رأساً على عقب، وأنها عاجزة، ليس عن التخلص منه وحسب، بل وعن تبيّنه وتحديد ماهيته أيضاً.

وجلست أمام النافذة المفتوحة، وأخذت تنظر إلى السماء، وقد بدأ يكتنفها الظلام، وإلى الأشجار وهي تغيب عبر غبش المساء. كان مشروع الهرب يبدو لها حافلاً بالمخاطر، ومع ذلك، فهي لم تكن تنفر منه وتعارضه بدافع من الحكمة والتعقل وحسب. فقد كان لديها في ذهنها وفي قرارة نفسها نفور شديد عن التغيير والتشويش والمغامرة. فهل كان هذا، من جانبها، خوفاً من العيش، ومللاً وتعباً جسدياً حصلوا لها بسبب رحلتها الطويلة والشاقة التي قامت بها كي تنضم إلى «نيقولا»؟ أنها ما كانت

تستطيع أن تقول ذلك: كانت تدرك فقط أنّ فكرة التغيير تخيفها، وأن لم تكن سعيدة بمصيرها، ولا راضية عنه: «عدم التحرك... على الخصوص، يجب عدم التحرك!...

ودوّى صوت البوق من جهة السجن. كانت تلك النغمات الحادّة تعبّر عن الانضباط، عن الصلابة والثبات. فأغمضت عينيها، وبشكل غريب، شعرت بالراحة والاطمئنان.

★★★

قال «نيقولا»:

- أعرف جيداً أنها خطة جريئة، ولكن كوني مطمئنة، فنحن لن نتصرف إلاّ إذا كانت جميع الأمور في جانبنا ومواتية لنا...

كان يتكلم بالفرنسية، وبصوت خافت، لكي لا يفهم حديثه الجنديان اللذان يتولان حراسته، خلف باب الغرفة. وكانت «صوفيا» وهي جالسة على حافة السرير، وقد أحنت رأسها وضمت يديها على ركبتيها، تبدي حياله لا مبالاة شديدة، آلمته بها أكثر مما لو أنها وجّهت له نقداً صريحاً ولاذعاً. فهو لم يسبق له أن رآها حائرة وفاترة الهمة إلى هذه الدرجة، إزاء اتخاذ أي قرار. وأخذ يسير جيئة وذهاباً، بين جدار وآخر، منتظراً رداً لم يصدر، فاستأنف الكلام بحرارة وحماسة:

- ليس لك الحق بأن تلوميني على تكتّمي: فقد أقسمت لأصدقائي على التزام الصمت! وهذا، بين الرجال، أمر له أهمية كبيرة، ولا بدّ من أن يؤخذ بالحسبان! وعلاوة على ذلك، فلا أهمية لديّ لمعرفة من الذي أطلعك على هذا الموضوع! لأني أعتقد أنّ جميع زوجات المساجين أصبحن مطّلعات عليه الآن! وهنّ اللواتي حرّضوك ضدي وأوغروا صدرك عليّ؟!...

فردّت بصوت ضعيف:

- كلاّ، يا «نيقولا»!

- وأنا أقول لك: بلى! لأنك لو فكرت بمفردك ومن تلقاء نفسك لاختلف رأيك ولتصرّفت بشكل آخر!

فلا يمكن أن تحبي الحرية وتقبلي أن يظل زوجك زمناً طويلاً في السجن. ومع طباعك وقناعاتك المعروفة، كان عليك، بصورة طبيعية أن تشجعيني وتؤيديني، وتهيئي كل شيء كي نستطيع أن نهرب سوية! لأنك تعرفين جيداً، بأنني لن أهرب بمفردي، ودون أن أصطحبك معي!...

وانحنى إلى الأمام ووضع يديه على كتفي «صوفيا». فتمكنت بصعوبة من تحمل تلك النظرة التي كانت تنساب عليها بحب وحنان يتّسمان بالأقل. وبعد برهة، استأنف الكلام، فوجدت نفسها مضطرة إلى الاقتناع بأنه محق، وعلى صواب فيما يقول. ولكي تكون مخلصة وصادقة مع نفسها، ينبغي عليها أن تساعده، بجميع الطرق والوسائل على استعادة حريته واستقلاليته. أليست هي، التي كانت، على الدوام، تدفعه إلى العمل وتحثّه عليه؟ وأرادت أن تثبت له أنها لا تحاول أن تقنعه بالتخلّي عن مشروعه، بل بوجوب اتخاذ كافة الاحتياطيات الضرورية من أجل إنجاحه، وأنّ هذا هو كل ما ترغب به، ولذلك بدأت حديثها، قائلة:

- إني أفهمك جيداً، يا «نيقولا»!...

وفجأة، اتخذ تفكيرها منحى آخر، وسمعت نفسها تتمتم:

- ومع ذلك، ألا تعتقد أنه من الأفضل أن تضع أملك في تخفيف عقوبتك؟

فصاح:

- ماذا؟ أتتصورين أنّ الإمبراطور، سيشعر بتبكيت الضمير، ويعمد فجأة إلى إظهار الرحمة نحونا؟

- ولماذا لا يفعل ذلك؟ يكفي أن تسنح إحدى الفرص، أو مناسبة من المناسبات... انتصار كبير على الأتراك، مثلاً... إذ يبدو أنّ الجيش الروسي مكلّل بالعار في البلقان!...

- كلا، يا «صوفيا» لقد نسينا القيصر في سيبيريا، ونحن أموات بالنسبة له، أو على الأقل منبوذين ومنسيون!

فاعترضت «صوفيا» واحتجت دون اقتناع ومع إحساسها بالخطأ، ولم تكن تعرف في هذه المرأة الحائرة، الفزعة، التي كانت تصفّ الحجج والبراهين أمامها، كما تُصف أحجار «الدومينو»:

- وأنا، من جهتي، فإني متأكدة أنك مخطئ! ولا بدّ أن يكون القيصر قد أخذ علماً بأنّ سلوكك جيد، وكذلك رفاقك، وبتمردكم اليوم، تفقدون إلى الأبد فرصة العفو وإطلاق سراحكم مسبقاً، قبل أن تنقضي مدة عقوبتكم...

- سنحرر أنفسنا مسبقاً، بأنفسنا! وهذه طريقة مضمونة ومؤكّدة!

- وإلى أين ستذهبون؟

- كما قلت لك: إمّا إلى الشرق وإمّا إلى الغرب...

- بمجموعات؟... ومع النساء؟... سوف نُكتشف، على الفور... ونُطوّق ويلقى علينا القبض!... لو أننا نستطيع أن نسير، كل اثنين معاً!...

- سيكون الأمر أكثر خطورة!

- يلزمنا... يلزمنا... لا أدري ماذا يلزمنا... آه! يلزمنا دليل...

- مقابل عشرة روبلات، يسلّمنا دليلك إلى جنود القوزاق.

كلاّ، إنّ أفضل حل هو أن نذهب جميعنا، سوية.

ولكنّ «صوفيا» لم تعد تصغي لبقية الحديث، كان قد تراءى لها حلم، سقط عليها وكأنه شبكة صياد الطيور: وشعرت بالأسف، لأنّ «نيكيتا» لم يكن بجوارها، لكي ينظّم عملية الهروب. فهو قوي، يستطيع أن يقتل أيّ حيوان أو وحش، ويعرف أن يبني كوخاً من أغصان الأشجار، يصلح كمأوى، يستقرئ الرياح لمعرفة تقلّبات الجو، وأحوال الطقس، يجيد مناقشة الفلاحين، يخيف الأشرار والمؤذين، يستطلع اتجاهات الطريق

بواسطة النجوم. وبشكل مفاجئ جعلتها فكرة الرحيل من دون ذلك الفتى، تضطرب وتشعر بحيرة شديدة. وأن كانت لا تزال لا تعرف شيئاً عن أخباره، فقد ظلّت تأمل، بأنه سيأتي، عاجلاً أم آجلاً، إلى «تشيتا»، فهل عليها أن تتخلى، برحيلها، عن هذه الفرصة الأخيرة؟ وقد تبادر إلى ذهنها: «إذا ذهبنا، فإني لن أراه بعد ذلك أبداً...»

فشعرت بعد ذلك بموجة من البرد تلامس قلبها. «هذا غير ممكن!... هذا مستحيل!...» وقد دهشت، هي نفسها، من عنف اضطرابها، فهل احتل «نيكيتا» في حياتها موقعاً على هذه الدرجة من الأهمية؟...

وتحكّمت باضطرابها وارتباكها، وحاولت أن تنتبه وتهتم بما يقوله زوجها:

- سوف نهيّئ الزاد والمؤن، ونتدارك بعض البوصلات والمصورات...

وابتعدت هذه التمتمة، تشوشت، أصبحت غير مفهومة كصوت خرير مياه الينابيع. وتصاعدت بعض الذكريات من أعماق ذاكرتها، فلم تستطع كبتها: قميص وردي حائل اللون، يد سمراء موضوعة على يدها، شعر أشقر تداعبه وتتلاعب به ريح السهوب، ضحكة تتفجر فتوة وشباباً. كانت الصور شديدة الوضوح، بارزة ومزعجة، لدرجة أنه قد حصل لديها انطباع بأنها لم تعد وحدها، على انفراد مع «نيقولا»، وأنّ هنالك شخصاً ثالثاً حاضراً، يسمع حديثهما. ولم تكن تخشى سوى أمر واحد: وهو أن يبدو «نيقولا» أكثر محبة وعطفاً مما ينبغي! كانت زيارة يوم الأحد تدوم، بصورة رسمية، ساعتين. وكان قد أضاع أكثر من ساعة في الحديث والنقاش. وقد بدا واضحاً أنه على عجلة من أمره ليضمها بين ذراعيه. وبدا وجهه المتجه نحوها معبراً عن رجاء محدّد ودقيق، وقال لها:

- سترين، إنك ستألفين، شيئاً فشيئاً، هذه الفكرة، يا عزيزتي...

وعلى أي حال، فنحن لن نقوم بذلك في الغد القريب... فلدينا كثير من الوقت للتفكير به والتحدث عنه مراراً في العديد من المناسبات...

فقالت له، بسرعة:

- كلاّ، كلاّ! علينا أن نتحدث عنه الآن، فهو أمر بالغ الأهمية!...

- ولكن، لقد قلت لك، وكررت القول أنّ...

- انتظر! لقد قلت لي... قلت لي إننا يمكننا أن نذهب قاصدين الوصول إلى شاطئ المحيط الهادئ، مبحرين نزولاً، عبر «النهر»... ولكن لكي نقوم بهذه الرحلة، علينا أن نشتري قوارب ونهيئ طوافات وعوامات... فهل فكرت في ذلك؟...

كانت تحاول كسب الوقت. هل أدرك، هو، ذلك؟ لقد قطّب حاجبيه، وقال بصوت أجشّ:

- عوامات وقوارب، نعم بالطبع، ولماذا لا نشتريها؟

ولامست نفحة حارّة صدغ «صوفيا»، فقالت وهي تلتفت محوّلة وجهها قليلاً:

- وجماعة «البوريات» الذين سيطاردوننا؟!

فلاحقتها تلك النفحة، في حركتها.

وأجابها «نيقولا»:

- «البوريات» هؤلاء، سنجعل منهم حلفاء لنا!

- وكيف ذلك؟

- بأن ندفع لهم، ونشتريهم بالنقود.

- وبأي نقود؟

- بالنقود التي نكون قد سرقناها من صندوق الحاكم!

وانزلقت شفتان حارّتان على خدّ «صوفيا» والتصقتا على منبت عنقها، فبدرت منها ارتعاشه، وهمست في أذنه:

- «نيقولا»!... كلاّ... كلاّ!... الحارسان!...

وأدركت، في الحال، أنّ اعتراضها سخيف ومضحك.

لأنه قال لها:

- إيه! وماذا في ذلك؟! إنهما خلف الباب، وتعلمين جيداً أنهما لن يدخلا إلى هنا. أرجوك وأتوسل إليك يا «صوفيا»!... «صوفيا»! إني أحبك!...

ودفعها، فقلبها على السرير، ومع اقتراب المعركة، بدا لها جميلاً، بوجهه النحيل الذي ينمّ عن العنف، وخدّيه اللذين لوّحتهما الشمس، وعينيه الخضراوين اللتين جعلهما التذمر ونفاذ الصبر تبدوان شرّيرتين. ولكن، بقدر ما كان يبدي، هو، من الشوق والاندفاع، كانت هي تتجمد في تمنع واعٍ، فتبادر إلى ذهنها، وقد شعرت بالقلق: «ماذا بي؟ لم يسبق أن حصل معي شيء كهذا فيما مضى!» واستسلمت له لكي يعريها ويداعبها، ثم أمسكت جبينه بيديها، وأخذت تضحك وتقبله، وتبذل كل ما في وسعها أن تبذله لكي تبدو سعيدة. فصعد على السرير عبر قرقعة السلاسل المعدنية.

وكانت العادة، أنها هي، بدافع من العطف والمحبة، ترغمه على تناسي تلك السلاسل، التي كان يتألم منها كأنها عجز قد ابتلي به. أما، هذه المرة فإنّ قرقعة السلاسل قد أحدثت لديها مفاجأة مدهشة ومزعجة. وعلى الرغم من أنها حاولت كثيراً أن تتعقّل وتستمع لصوت العقل، فإنّ كل الشفقة، وكل الحب اللذين كانت تحملهما في ذهنها وفي قلبها، لم يستطيعا إرغام جسدها على الشعور بالرغبة وعلى تقبلها. وشعرت بثقل السلاسل الحديدية وهي تتجرّ على ساقيها. كانت هي أيضاً مقيدة بالسلاسل، مقيدة معه، على مدى الحياة.

«هذا حسن جداً! لا أريد شيئاً آخر!»

كان يلهث:

- عزيزتي!... أطلب منك أن تصفحي عني!...

كان الحارسان يتمشيان، ويتحدثان، خلف الباب. لم يكن «نيقولا» قد أغلقه بالمزلاج: فهذا ممنوع. ولكنه وضع وراءه كرسياً، وحسب.

وبعد عشر دقائق ينتهي اللقاء، وعند ذلك سيذهب مسروراً.

وبدا أكثر ثقلاً من المعتاد، بالنسبة لها، وأخذ يئن بهدوء، وأمسك فمها. تنحنح أحد الجنديّين وبصق. وأخذ الجندي الآخر يضحك. وطال أمد قبلة «نيقولا». وانزلقت إحدى ركبتيه بين ساقي «صوفيا» التي كان قد تبادر إلى ذهنها: «يجب منع هذا الهروب!»، وأغمضت عينيها.

٤

كان ناقل البريد الحكومي مسمّراً في وقفة الاستعداد، وقطرات العرق الكبيرة تتصبّب على جبهته، وهو يوجه نحو الجدار نظرة خالية من أي تعبير أو حياة. وكان وجهه المستدير ينضح بالحرارة والتعب، وطبقة كثيفة من الغبار غطت بزته حتى الكتافيات. كانت ضرورة الإسراع بإيصال الرسالة التي يحملها، شديدة، لدرجة أنه لم يكلف نفسه عناء إزالة الغبار عن بزته، قبل أن يدخل مكتب «ليبارسكي».

وللمرة الرابعة كرّر الجنرال قراءة الرسالة التي تحمل «ترويسة» الشعبة الثالثة، وعاودته من جديد ثورة الغضب: فالكونت «بنكندروف»، القائد العام للشرطة، يخبره، بأنه بعد أن أُقيم حفل ديني في كاتدرائية « Notre- Dome- De- Kazan» «سيدة قازان». بمناسبة انتصار الجيش الروسي على الأتراك، قرّر الإمبراطور، بدافع من أريحيته الكريمة تخفيف العناء عن بعض المحكومين السياسيين. وقد صدر الأمر إلى حاكم سجن «تشيتا» بأن ينزع السلاسل والقيود من أرجل المساجين الذين، يرى هو، أنهم يستحقون هذه الخطوة، نتيجة لحسن سلوكهم.

وغمغم الجنرال، مزمجراً:

- إنهم، في «سان بطرسبورغ» لا يعرفون سوى ابتكار المشكلات لكي يعقدوا حياتي! كيف يمكنني أن أختار؟! فالجميع سلوكهم جيد، ويتصرفون بشكل لائق! ولا أستطيع حتى أن أختار بالقرعة البعض منهم!

كان ابن أخيه «جوزيف» ومساعده الثاني النقيب «روز نبيرج» يصغيان إليه باهتمام دون أن يكون لديهما فكرة عن المسألة، فتبادر إلى ذهنه: «ليس لديّ من يساعدني!» ووجّه ضربة بقبضته إلى المنضدة. فارتعش «جوزيف» وبدا الاهتمام على وجهه اللدن.

فسأله «ليبارسكي»:

- ما رأيك في هذا الأمر؟

فتمتم «جوزيف»

- يجب أن نفكّر به جيداً، يا عمي، وسنتوصل في النهاية إلى إيجاد الحل المناسب. أتريد أن أضع جدولاً؟

- واسم من ستضع في هذا الجدول؟

- إيه، مثلاً... الأمير تروبيتزوكوّي»، الأمير فولكونسكي، الـ.... الأمير «أوبولنسكي»...

- أنت ترى أنّ سلوك هؤلاء أفضل من سلوك الآخرين؟

- ليس هكذا بالضبط... ولكنّ هؤلاء يحملون أسماء كبيرة!...

- إنهم لم يطلبوا منا أن نضع تقويماً للنبلاء الموجودين في السجن! وعلاوة على ذلك فإن «بنكندورف» قد امتنع تماماً عن القول كم هو عدد الرجال الذين يحق لي أن أحرّرهم من القيود!

فاقترح النقيب «روز نبيرج»، قائلاً:

- واحد من اثنين، فهذا يبدو لي، منصفاً.

- ولماذا لا يكون اثنان من ثلاثة؟ فجميعهم أصدقاء، ومتساوون، وفجأة في السجن نفسه، يتمشّى بعضهم بأرجلٍ حرةٍ ورشيقةٍ، بينما يستمر الآخرون بحمل وجرجرة قيودهم وسلاسلهم الحديدية!...

وبسرعة اعترف النقيب «روز بيرج» أنّ رئيسه كما هي الحال دائماً، محق، وعلى صواب فيما يقول. وتناول «جوزيف» الرسالة من يدي عمه،

وأخذ يقرؤها بجدية ووقار، لكي يحدد موقفه. أما المراسل أي ناقل البريد الحكومي، فبعد أن أثار العاصفة، أخذ يحلّق فوق السحاب، شارد النظرات.

فقال له «ليبارسكي» بحنق:

- اذهب واسترح، وكن على استعداد لمعاودة السفر، مساء اليوم.

فأدّى الرجل التحية، وخرج.

وسأل «جوزيف»:

- أيمكن أن تكون قد اتخذت قراراً مّا، يا عمي؟

فأجابه «ليبارسكي»:

- دعني لوحدي، فأنا بحاجة للتأمل والتفكير. وبعد ذلك بخمس دقائق، كان في طريقه إلى السجن. فدبّت الحركة في مركز الحرس، عند اقترابه. واندفع عشرة جنود، مسرعين من أمكنتهم، وهم يتدافعون لكي يقدموا له السلاح. وانتصب الملازم «بروكازوفّ» واقفاً أمامه، كان من النادر أن يزور «ليبارسكي» السجن.

وسأله:

- هل عاد المساجين من العمل؟

- لقد عادوا منذ ساعة تقريباً، يا صاحب السعادة.

- وماذا يعملون الآن؟

- إنهم يرتاحون، فهل تريد أن تراهم؟

- نعم، ولكن دون أن ترافقني أنت!

وبعد أن أبقى «ليبارسكي» ضابط الحرس هناك، دخل أولاً إلى الباحة، حيث أحدث ظهوره هناك، هرجاً ومرجاً. فابتسم عندما رأى الرجال المتزوجين يبتعدون عن الحاجز. فهل يمكنه أن ينقم عليهم إذا تحدثوا خلسةً وبالسرّ مع زوجاتهم؟ وكانت مجموعة من السجناء تحيط بـ «نيقولا

بيستوجيف» الذي كان جالساً على أسكملة، وعلى ركبتيه قطعة من الورق المقوى، أخذ يرسم عليها بالألوان المائية، صورة «يوري ألمازوف». والحقيقة هي أنه كان ممنوعاً، حسب النظام، إدخال الورق والأقلام والريش والحبر، وبخاصة الألوان، إلى السجن. ولكن، هنا أيضاً، كان «ليبارسكي» يرى أنه ينبغي تفسير أوامر العاصمة، وترجمتها بتفهّم وذكاء. فهل هنالك تسلية أكثر سلامة وصحيّة من الرسم والتصوير. وبانصراف «نيقولا بيستوجيف» وأقرانه ومنافسوه - لأنه أصبح له أقران ومنافسون- إلى العمل وممارسة هذه الهواية، فإنهم يتسلّون ويلهون، ويتخلصون من رتابة حياتهم، وينسون السياسة التي سببت لهم كثيراً من الأذى.

واقترب الجنرال من الفنان، واضعاً يده على شكل منظار صغير أمام عينه اليمنى. كانت الصورة بسيطة وأوّلية، ولكنها تشبه صاحبها.

فتمتم «ليبارسكي»:

- إنها الموهبة! هنالك قدر كبير من الموهبة!

فتوقّف «نيقولا بيستوجيف» عن العمل، وسأله:

- هل توافق، يا صاحب السعادة، أن تجلس ذات يوم أمامي لأرسمك؟

فصاح الجنرال، مسروراً:

- ولماذا لا أوافق؟

وفي الحال، أخذ يتساءل عمّا سيفكر به المسؤولون في «سان بطرسبورغ» وماذا سيقولون عنه إذا علموا أنه يجلس أمام أحد المتآمرين ضدّ أمن الدولة، لكي يرسم له صورةً. كان عليه أن يحترس ويراقب نفسه، على الدوام لكي لا ينساق، ويبالغ في التسامح، فيصبح الأمر خطيراً، بالنسبة له.

وبعد أن وزّع النظرات والابتسامات، ذات اليمين وذات اليسار، اتجه نحو قطعة الأرض المسوّرة التي كان المساجين يزرعون خضرواتهم، التي

لم يسبق له أبداً أن رأى أجمل منها عند فلاحي «تشيتا». كان الملفوف والجزر والبطاطا، كل هذه الخضروات تنبت بغزارة وتبدو زاهية في تلك الأرض الخصبة. بل وكان يوجد هناك الخيار أيضاً، وهو لم يكن معروفاً في سيبيريا قبل قدوم متمردي كانون الأول «ديسمّبر» إليها. وعند مرور الجنرال، كان هؤلاء البستانيون ذوو الأيدي السوداء، الوسخة، والوجوه المتعبة، والشاحبة، يلتفتون نحوه ويقفون، وكان بينهم الأمراء، والنبلاء، وضباط سابقون في الحرس القيصري. فكان يحييهم في وسط بستانهم، كما لو كان من الممكن أن يحييهم في أورقة وممرّات «قصر الشتاء».

وداخل السجن، وجد، في غرف نظيفة وهادئة، يسود فيها الصمت، مساجين آخرين، منصرفين إلى القراءة أو إلى الكتابة. وفي بداية الأمر، وطبقاً لإرادة القيصر وأوامره، كان «ليبارسكي» قد منع إدخال الكتب إلى السجن. ولكن النساء كنّ يتدبّرن الأمر لإيصال بعض الكتب خلسةً إلى أزواجهن. وعندما علم «ليبارسكي» أنّ هنالك مكتبات حقيقية قد أقيمت في السجن، لم يشعر بأن لديه الشجاعة على إتلافها. وبعد ذلك أصبح السجناء يحصلون على الكتب التي يحتاجونها بموافقته. وكل طرد بريدي كان لابد من أن يحتوي منشورات روسية أو أجنبية. وكان الجنرال يضع تأشيرته: «قرئ» على الغلاف وصفحة العنوان، ويوقّع تحتها. والحقيقة هي أنه لكي يستطيع قراءة كل ما يتلقاه المساجين من الكتب، كان عليه أن يعرف، بالإضافة إلى اللغتين الروسية والفرنسية، الإنكليزية، الألمانية، اللاتينية الأسبانية، الإيطالية، اليونانية والعبرية... ولذلك، فإنه، بعد مرور بعض الوقت، استبدل كلمة: «قرئ» بكلمة: «شوهد» التي كان يرى أنها بالنسبة له، أقل تعريضاً للشبهة وللمسؤولية.

وتوقّف، وهو يسير بين الأسرّة، أمام «زفاليشين» المنهمك في نصوص «الفليبيّات»[1] وكان «بارياتنسكي» يسجل بالطبشور معادلات على لوح صغير من «الأردواز». أمّا «ايفاشيف» فكان يتربّع وسط ما يقرب من عشرة كتب مبعثرة على الأرض: «بحث في علم الآثار»، «معجم مدرسي في العلوم الطبيعية، دراسة عن ثورات سطح الكرة الأرضية» فلفتت كلمة «ثورات» نظر «ليبارسكي» فتحركت لديه غريزة الصياد وجعلته يرتعش بسرور، وتناول الكتاب. فهل تركه يمر سهواً؟ فها هي تأشيرته موجودة عليه في مكانها المناسب. وبحث عن اسم المؤلف: إنه «كوفييه» فلم يعن له ذلك شيئاً، فارتاب في الأمر، وأخذ يتصفّحه: كانت خشيته في غير محلها! فالثورات التي يتحدث عنها الكتاب مشروعة تماماً: فالموضوع يتعلق بالتاريخ الطبيعي وعلم طبقات الأرض. وكان «ايفاشيفّ» يراقب الجنرال، بسخرية، فأعاد له «ليبارسكي» الكتاب، وابتعد وهو يكتم ضحكته. وبمروره من قاعة إلى أخرى، التقى بالدكتور «وولف» الذي كان يشعل غليونه، وخلفه، كان يقف الأمير «أودويوفسكي»، شاحب الوجه، متوتر الملامح، وحول يده ضمادة كبيرة. فسألهما «ليبارسكي»، دون اهتمام:

- أليس هنالك أي خطورة؟

فأجابه الدكتور «وولف»:

- كلا، كان في إصبعه «داحوس»، وقد شققته له، قبل قليل.

فتمتم «ليبارسكي»:

- آه! هذا حسن، حسن جداً!

ثم استدرك، وأبدى ملاحظته، قائلاً:

١- «الفليبيّات»: مجموعة خطب «ديموستين» ضد «فيليب المقدوني»، وخطب «شيشرون» ضد «مارك انطوان»، وهي، بصورة عامة خطب تقريع وهجاء - المترجم

- أتعلم، أنك، من حيث المبدأ، ما كان ينبغي أن تفعل ذلك..

فقال الدكتور، بلهجة مقتضبة:

- أعرف ذلك، ولكنّ الحالة كانت تستدعي السرعة.

وفكر الجنرال بأن من حسن حظ المساجين أن يكون هذا الرجل المتميز بينهم، الذي كان فيما مضى رئيس أطباء هيئة الأركان العامة والطبيب الخاص للقائد العام الكونت «ويتّجنستين». وقد حكم عليه بالسجن خمس عشرة سنة، مع الأشغال الشاقة لاشتراكه بحركة «بيستيل»، ولذلك لم يعد له الحق بصورة رسمية أن يمارس المهنة، ولكنه كان يداوي رفاقه بموافقة الحراس، الضمنية.

حتى إنّ الدكتور «جوتشكوف»، طبيب «تشيتا» الرسمي- وهو عاجز وكسول- كان مسروراً لاستراحته من جانب من عمله ومسؤوليته، بسبب وجود هذا الزميل المتألق، الذي يروى عنه أنه درس في ألمانيا، وأنه كان صديقاً لـ «شيلّنغ» الفيلسوف الألماني المشهور، وأنّ لديه أدوية لجميع الأمراض المعروفة بأنها مستعصية وغير قابلة للشفاء. ورافقه «ليبارسكي» إلى الغرفة الصغيرة التي أقام فيها صيدليته. كان الدكتور «وولف» يوصي على أدويته ويحصل عليها من «ايركوتسك»، من «سان بطرسبورغ» ومن «موسكو» وكان هنالك صف طويل من الأواني الزجاجية ملأى بالمساحيق وبالسوائل المتعددة الألوان، وكلها تحمل بطاقات كتبت عليها أسماء المواد باللغة اللاتينية.

فدهش الجنرال بما رآه، وطلب بعض المعلومات والتفسيرات العلمية والتقنية، ثم تذكر، من جديد، أنّ كل هذا كان مخالفاً للتعليمات الحكومية، فقال للطبيب:

- كن مطمئناً، فأنا لم أر شيئاً!

فقال له الدكتور «وولف» وهو يحني قامته الطويلة:

- أشكرك يا صاحب السعادة!

كان وجهه النحيل الذي يحيط به عارضان أسمران كثيفان، تعبّر ملامحه بصورة طبيعية عن القسوة. وقد غطى رأسه بطاقية من المخمل الأسود.

ونزع صدّارة العمل، فبدا مرتدياً «ريدنفوت» بالية ويضع ربطة عنق عريضة، شرائطها مزدوجة، بدت منتفخة تحت ذقنه.

وقال، وهو يناول الأمير «أودويّفسكي» كيساً ورقياً صغيراً:

- عليك أن تتناول هذا، مع قليل من الماء.

وبعد ذهاب «أودويفسكي»، فكر الجنرال، وهو يشكو أحياناً من خفقان في القلب، أن يستشير الدكتور «وولف»، ثم عدل عن ذلك وهو يشعر بالحزن: فباعتباره يمثل القانون، فهو يستطيع أن يتسامح، ويتقبل أن يخالفه الآخرون، ولكن ليس له الحق بأن يخالفه، هو بنفسه.

وسأله الطبيب:

- كيف هي الحالة الصحية في الدار؟

«كان يحلو له أن يستعمل اسم الدار بدلاً من السجن»

فأجابه الدكتور «وولف»، وهو يرافقه إلى الباب.

- جيدة، وسليمة تماماً، يا صاحب السعادة. ولكن، ستنقصنا عما قريب بعض المواد. وينبغي أن توصي لنا عليها، كي يمدّنا بها صيدلي «ايركوتسك». وسأقدم لك قائمة بها...

كان يجرّ قيوده وسلاسله الحديدية، وهو يمشي وهذه الطقطقة، كانت تزعج الجنرال، كثيراً، فهو لم يسبق له أن أعارها انتباهه، بشكل مؤلم، إلى هذه الدرجة. وبعد أن عاد إلى الباحة، لم يعد ينظر إلى وجوه المساجين، بل إلى أرجلهم: سلاسل، سلاسل، سلاسل!...

ممّن سينتزعها، ولمن سيتركها؟... لكم كان يودّ أن يمسك «بنكندورف» من ذراعه، ويصطحبه بالقوة إلى هنا، ويرغمه أن يجري الانتقاء، هو بنفسه. وقال في سره: «إنه لأمر غريب، فأنا فخور بمساجيني!» وبدلاً من أن يحضر قراره لكي يتخذه، فإنّ هذه الجولة في السجن، جعلت اتخاذ القرار، أكثر صعوبة.

وكان يغمغم وهو يمرّ بين مجموعات المساجين:

- لا تزعجوا أنفسكم!

وانحنى نحو «نيقولا» ونحو «اياكوبوفيتش» اللذين كانا جالسين على الأرض، قرب الحاجز، يلعبان بالشطرنج.

فسأله «نيقولا»، وهو ينهض:

- ألديك أخبار عن الجبهة، يا صاحب السعادة؟

واقترب منهم سجناء آخرون، ومعظمهم ضباط سابقون، ولهم العديد من الرفاق الذين يقاتلون الأتراك. وهم وقد استبعدوا من المشاركة في تلك الحرب، فإنهم لا يستطيعون الامتناع عن أن يحلموا بالتقدم والترفيع وبالأوسمة والمجد، وبكل هذا الذي كان بإمكانهم أن يحصلوا عليه، والذي يفوز به الآن، آخرون بدلاً منهم. وخيّب أملهم «ليبارسكي» عندما قال لهم إنّ العدوّ الذي تزعزع وتراجع، في بداية الأمر، أخذ الآن يبدي مقاومة عنيفة ومتزايدة، وإنّ الجنود الروس يعانون من سوء المناخ.

وتبادر إلى ذهنه: «وماذا لو ساورتهم الشكوك بأني تلقيت الأمر بنزع السلاسل والقيود من أرجل البعض منهم؟!»

وعلى الفور، وبشكل مفاجئ، كان قراره قد اتخذ. فقطع حبل الحديث، وأسرع بخطى صغيرة وموزونة نحو الباب. فهو لم يعد يرى شيئاً ولا يسمع شيئاً، كان يكتب، في ذهنه، رسالة إلى «بنكندورف». وعندما وصل إلى مكتبه، كانت الرسالة قد أُنجزت. ولم يكن عليه إلاّ أن

يُسقطها على الورق، وقد خلت من عبارات المجاملة، وتخلّصت منها، واقتصرت على ما يلي:

«جميع المساجين يستحقون بالتساوي الخطوة التي منحها القيصر، ينبغي إذن لكي نكون عادلين، إما ألاّ ننزع السلاسل من أرجل أحد منهم وإمّا أن ننزع السلاسل من أرجلهم، جميعاً. فلتقرر جلالته الحلّ الذي تفضّله. ومن جهتي فإني أرى أنّ الحل الثاني هو الذي يتفق وحده مع نية الرحمة والعفو التي أبداها عاهلنا.»

كان مسروراً وراضياً عن نفسه، فاستدعى مساعديه وقرأ لهما نص رسالته، بصوت متهدج ضخّمه التأثر الشديد والانفعال. فأذهلهما ما سمعاه، وسأله «جوزيف»:

- أليست لهجتها حادة بعض الشيء؟ تبدو من خلالها وكأنك تعطي درساً للقيصر...

فقال «ليبارسكي»:

- سوف نرى! احضر الساعي!

ومع ذلك، فإنه عندما همّ بوضع الخاتم على مغلّف الرسالة، ساورته الخشية: ربما كان «جوزيف» مصيباً فيما قاله. فليس لحاكم سجن بائس، الحق بمناقشة القرارات الإمبراطورية. ولكن لقد فات الأوان. فها هو ناقل البريد الحكومي أمامه، وقد أزال الغبار عن بزته، وأخذ قسطاً من الراحة، وهو على أتم استعداد للانطلاق، حاملاً الرسالة التي ناوله إياها «ليبارسكي» إلى العاصمة.

☆☆☆

اضربني، يا صاحب السعادة، ومهما ضربتني، فسأظل أصرخ بملء صوتي أنّ هذه هي الحقيقة، هذا ما قاله متأوهاً العجوز «فاسّيوك» وهو يجثو على ركبتيه، وأضاف: «عندما علمت أنّ ذلك البائس ولدي أراد أن يساعدهم

لكي يحصل على بعض النقود، لم أقل له شيئاً، وأتيت مسرعاً لأخبرك بذلك، فهذا واجب كل أب أن يمنع ابنه الشاب من ارتكاب الحماقات!..

فجلس «ليبارسكي» متثاقلاً خلف مكتبه، وأخذ يجفّف العرق عن وجهه، بمنديله، مع أنّ المعلومات التي أفضى له بها «فاسيوك» لم تحدث لديه مفاجأة كبيرة، لأن عشية ذلك اليوم، كان الملازم «فاتروشكين» قد أخبره إنه سمع، أثناء استراحة المساجين، خلال عملهم، بالقرب من «قبر الشيطان» بعض أحاديثهم التي تتعلق بمشروع للهرب من السجن.

وسأل «ليبارسكي» العجوز:

- مع من كانت علاقة ابنك؟

فتغضّن وجه «فاسيوك» في محاولة منه لكي يتذكر. كانت بشرته الحمراء وشعره الأبيض يتراءيان عبر طبقة رقيقة من اللون الأسود، فهو يسكن في بيت متواضع يقع في أطراف «تشيتا» ويشتغل، كجميع القرويين المقيمين في المنطقة بصنع فحم الحطب وبيعه إلى معامل «نيرتشنك».

وقال:

-إني لا أتذكر الأسماء، وحسب ما فهمت من ابني، فإنّ جميع المساجين سوف يتمردون، وينقضّون على الحراس، يوثقون أكتافهم، ويهربون...

ولذلك طلبوا منه أن يجلب لهم بلطات، حبال، بارود، رصاص، وأشياء أخرى كالشاي... ولا أدري ماذا غير ذلك!.... وهو يشتغل بالقرب من «قبر الشيطان» حيث يشتغلون، هم... وهذا ما سهّل عليهم الاتصال به!... وقد وعدهم بالعمل على تأمين ما طلبوه منه، فيا له من مغفّل!... إنه لم يتجاوز العشرين من العمر!... وهذه هي معذرته الوحيدة!...

- عد إلى بيتك، وعلى الخصوص، عليك ألا تقول إلى ابنك إنك حدثتني عن هذا الموضوع!

- أقسم لك على ذلك، يا صاحب السعادة! ولكن، ماذا أعمل لو أنه بدأ بتهيئة كل تلك المعدات، وأخذ يخبئها في بيتنا؟

- دعه يفعل ذلك.

- وهذا الذي سيفعله، ألن يسبب لنا بعض المتاعب؟

- كلا.

- فنهض العجوز «فاسّيوك» وهو يكشّر ويتأوه:

- لا ينبغي أبداً التعامل مع المساجين المحكومين بالسجن مع الأشغال الشاقة، ولا الاهتمام بهم إن كانوا من السّادة، وإن لم يكونوا كذلك، فليس بلا سبب وعبثاً، وضعت القيود والسلاسل في أرجلهم!

ولمست هذه الجملة وتراً حساساً لدى «ليبارسكي»، ولأنه عجز عن النطق بأي كلمة، فقد أشار إلى «فاسيوك» بأن ينصرف. ولكنه، عندما رأى أنّ القروي أصبح على بعد خطوتين من الباب، تمالك نفسه، وقال له:

- أخبرني، إذا حدث شيء جديد!

وعندما بقي لوحده، أخذ يفكر بالوضع، ويقيّم مدى تعقيده: لقد مضى أسبوعان على إرساله رسالة إلى العاصمة، يطلب فيها السماح بنزع السلاسل والأغلال من أرجل جميع «متمردي كانون الأول»! ولو طلب الآن إلغاء السماح بتنفيذ هذه الخطوة، لأصبح لدى الحكومة الحق بأن تفترض بأنه قد حصل حدث خطير، جعله يغيّر رأيه. والحال هي أنّ احتمال حصول هذا الهروب ربما لم يكن يستند إلا على إشاعات وأقاويل! إذا إنّ جميع المساجين في كل سجون العالم، يحلمون بشكل أو بآخر وبدرجات متفاوتة، بالهرب من سجونهم. وهذه المشاريع بل هذه الأحلام، تبدو بعيدة عن الحقيقة والواقع. فهل ينبغي له، هو، حاكم سجن «تشيتا» أن يتخذ ذريعة من بعض الوشايات غير المؤكدة، لكي يحرم هؤلاء الرجال الذين يُعَدّون من النخبة ومن خيرة الرجال، ويحجب عنهم حظوة أبدى القيصر

استعداده لمنحهم إياها! كان حسّه بالاستقامة وبالشرف يمنعه من اتخاذ إجراء كهذا. ولكنه، من جهة أخرى، كان يستولي عليه الذعر عندما يفكر بالذي يمكن أن يحدث، عندما يهرب المساجين مباشرة بعد أن تكون قد نُزعت، بفضل مساعيه، القيود والسلاسل من أرجلهم. فلا بد من أن يُظهر التحقيق، أنه كان على علم بنواياهم، وأنه قد نُبّه إلى ذلك. فكيف يمكنه أن يشرح ويفسر لـ «بنكندورف»، أنه على الرغم من كل هذا وعلى الرغم من الشكوك التي ساورته، فقد عمد إلى نزع السلاسل والأغلال من أرجلهم؟ ألن يتّهم بأنه أراد تسهيل هربهم؟ وخمسون سنة أمضاها في تقديم الخدمات التي تتسم بالإخلاص والولاء، لكي ينتهي به الأمر للوصول إلى هذه النتيجة!...

كان تقدير «ليبارسكي» للقيصر الذي يتصف بالتقديس، مزيجاً من الإعجاب والرعب. فهو وإن كان بولونيّ الأصل وكاثوليكي المذهب، فقد اكتسب خلال خدمته في الجيش الروسي، مفهوماً يكاد يكون دينياً للسلطة المطلقة. وإغضاب القيصر يعني، بالنسبة له، السقوط في هاوية يسودها البرد والظلام واليأس. ويستطيع «متمردو كانون الأول» العيش بعيداً عن هذا الجو وعن كل ما سيعانيه!... ومع تقديره لهم، ومع اعتباره لعقوبتهم أنها أقسى مما ينبغي، فإنّ «ليبارسكي» لم يكن يتبعهم في الميدان السياسي. وكانت ثورتهم ضد النظام القائم تتجاوز إدراكه وتقبّله: «مجانين، إنهم مجانين! وأطفال أغرار!» وكان يشعر نحوهم بغيظ يتسم بالمحبة الحقيقية. وينقم عليهم لكونهم لم يستحقوا الثقة التي أولاهم إياها: «لقد سحروني، خدعوني وسخروا مني!... لم أكن أعرف ماذا أعمل وماذا أبتكر لكي أتودّد إليهم وأبدو لطيفاً حيالهم وحيال زوجاتهم، وفي غضون ذلك، كانوا يستعدون للهرب ومفارقتي، دون كلمة شكر أو عبارة وداع! فهل يوجد واحد فقط بينهم، سأل نفسه عما سيحدث لي بعد هربهم؟ وعما

إذا كنت سأحال إلى محكمة عسكرية، وأجرّد من رتبتي، وأسجن في إحدى القلاع المظلمة؟! كلاّ، بالتأكيد! فجميعهم لم يفكروا إلا بأنفسهم، في هذه القضية! وربما اعتبروني مخطئاً إذا انزعجت من فعلتهم!»

وشعر بأن رأسه يكاد يلتهب، فبرى ريشته، وهيأ ورقة كبيرة، وأخذ يبحث عن الجملة الأولى التي سيبدأ بها رسالته إلى «بنكندورف». فهو ببضع كلمات، يستطيع أن يصبح في منأى عن اللوم والتقريع. وبعد أن بلغ هذه السن، فهو يشعر أنّ من حقه أن يخلد إلى الراحة، متمتعاً بالسمعة الطيبة وبالكرامة.

«لي الشرف أن أحيطكم علماً، أنه بسبب بعض الأحداث التي طرأت بعد أن أرسلت تقريري الأخير، يبدو لي أنه يفضل إبقاء المجرمين ضد أمن الدولة مقيّدين بالسلاسل، حتى إشعار آخر...»

وأعاد قراءة الرسالة، فوجدها خرقاء، وغير لائقة، فمزّقها، هل يكتب رسالة أخرى، بدلاً منها؟ وما جدوى ذلك؟ فهو يعلم مسبقاً أنه لن تكون لديه القوة على الوشاية بهؤلاء الرجال، الذين ربما كانوا، مع ذلك، يستعدون للقيام ضده بأسوأ لعبة وأشنع حيلة عرفهما طوال خدمته في الجيش. فهل الشيخوخة هي التي جعلته يصبح حائراً، متردداً، إلى هذه الدرجة؟ فهو يشعر أنه مكبل ومقيد عبر تتابع أحداث ترغمه على الذهاب إلى حيث لا يريد. وأخذ يحسّ بضغط شديد على صدغيه، وأنّ لسانه جاف، فهزّ جرساً صغيراً، وطلب إبريق ماء وكأساً، فأحضرهما له الحاجب. والجرعة الأولى، بدلاً من أن تبل ريقه وتروي عطشه، زادت من انزعاجه وارتباكه، وأخذ يفكر: «هذه القصة سببت لي الحمى، فلم تعد لدي الوسائل ولا القدرة الجسدية على أن أنزعج وأن تثور أعصابي هكذا، ومع ذلك، فإني لم أعد أعرف ماذا سأفعل!» ونزع «باروكته» التي كان يشعر بالحرّ بسببها، وهوّى بها على وجهه، ثم أعادها إلى رأسه، وفتح النافذة.

كان في الحديقة اثنان من المحكومين سابقاً بموجب القانون العام، بسبب جرائم عادية سبق لهما أن ارتكباها، منهمكين بتنظيف المشى الرئيسي، وفجأة شعر «ليبارسكي» بالارتياح: فبنزعه السلاسل من أرجل المساجين، ألا يجعلهم يتخلّصون من الرغبة بالهرب؟ وفي بداية الأمر، بدت له هذه الفكرة سخيفة وغير معقولة، ولكنها أعجبته، بعد ذلك، وخلبت لبّه: إذ إنّ الإعلان عن الحظوة الأولى التي يمنحها لهم القيصر، يجب أن تحثّهم منطقياً على البقاء في أماكنهم، آملين أن يُطلق سراحهم، بموجب حظوة أخرى، أو عفو، ربما صدر قريباً...

نعم، نعم! يجب المحافظة على سرية هذه القضية، وانتظار جواب «بنكندورف» وتشديد إجراءات الحراسة والمراقبة..

وشعر بالسعادة، لتوصله إلى اتخاذ هذا القرار، فاتجه نحو الباب لإصدار بعض الأوامر. ولكنّ خطاً أسود انتصب أمامه، وشعر كأنه يمشي على أسنان مسلفة. وأخذت أرض الغرفة تهتز وتتمايل، وتشوّش كل شيء في ذهنه، الإمبراطور، «متمردو كانون الأول»، السلاسل، الكتافيات وانهار على إحدى الأرائك، أحنى رأسه على صدره، وأصبح غريباً وبعيداً عن حركة الحياة.

★★★

وعندما استردّ وعيه، كان مستلقياً على سريره، وقد انحنت عليه ممرضتان، بشاربين أسودين، تنفثان عليه لهاثهما الذي يحمل رائحة الخمر.

فيا لها من عقوبة!

وهمس له «جوزيف»:

- إنه لا شيء، يا عمي، مجرد توعّك بسيط...

وقال «روزنبرج»:

- لقد أخبرنا الدكتور «جوتشكوف»، وهو لن يتأخر بالوصول.

فجمّع «ليبارسكي» قواه، وبرز من بين السحاب، قائلاً:

- لا أريد صاحبك «جوتشكوف» هذا، إنه حمار!

- وهل تفضل أن أستدعي طبيباً من «ايركوتسك»؟

- ثمانمائة وسبعة وسبعون «فيرست» «أي ما يقرب من ألف كيلومتر» للذهاب، ومثلها للعودة. فعندما يصل الطبيب، أكون إمّا شفيت وإمّا دُفنت! كلا! استدع «وولف»، في الحال!

وأغمض عينيه بعد أن أتعبه الجهد الذي بذله في الكلام، وغاص عمودياً في الظلام، ومرت عليه قرون، وقرعت أذنيه قرقعة مزعجة، إنه كابوس آخر. فقرقعة السلاسل، هذه، تلاحقه إذن في كل مكان! وفتّح عينيه من جديد، فرأى قرب سريره، رجلاً نحيلاً، حدقتاه داكنتان ويقظتان، عارضاه كثيفان ومشعثان: إنه الدكتور «وولف». فارتفع صدر «ليبارسكي» بتنهيدة تنم عن الفرح، وتمتم:

- آه! ها أنت، شكراً، لأنك أتيت.

- أنا الذي أشكرك، لأنك شرفتني بثقتك.

هذا ما قاله الدكتور «وولف»، وأضاف:

ومع ذلك، يستحيل عليّ أن أعالجك.

- ولماذا؟

- بسبب النظام...

- ولكنك تعالج رفاقك!

- إنهم في نظر السلطات، أشخاص أقل أهمية منك، فلو حصل لك مكروه، فسوف ألاحق بتهمة ممارسة الطب بصورة غير مشروعة!

فشعر «ليبارسكي» بالحيرة في بادئ الأمر، ثم تنبّه فجأة، وتمتم:

- هنالك وسيلة لحل هذه المشكلة... افترض أنّ الدكتور «جوتشكوف» يوقع وصفاتك، ويصدّقها...

فقال الدكتور «وولف»:

- في هذه الحالة، بالطبع... ولكنه لن يقبل أن يفعل ذلك، أبداً!

- وأنا، أراهنك أنه سيقبل! «روزنبيرج»، هيا بسرعة...

اذهب واشرح له الموضوع...

فذهب «روزنبيرج» مسرعاً، وعاد بعد قليل، ومعه موافقة الطبيب الإداري. عند ذلك بدأ الدكتور «وولف» فحصه. كانت حركاته بطيئة، هيئته تنم عن التفكير، صوته جادّ وهادئ. و «ليبارسكي» وقد نسي أنّ الرجل الذي تجسّ يداه بشرته العارية وتتحسّسها، هو سجين محكوم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة، لم يخجل من بطنه الكبير، ولا من ذراعيه النحيلين، ولا من ساقيه اللتين تبدو فيهما الأوردة الزرقاء، والورم في بعض الأماكن. وتبادر إلى ذهنه، بحزن: «هل قرر، هو أيضاً، أن يهرب؟ وهل يستطيع حقاً أن يعمل بصدق وإخلاص على شفائي، وهو في الوقت نفسه يفكر بعملية الهروب التي سيكون لها أسوأ العواقب، بالنسبة لي؟ أليس لي صديق واحد بين جميع هؤلاء الناس؟» وغاب عن باله، وهو مستغرق في التفكير، أنه مريض. وذكّره الدكتور «وولف» بواقعه، محدّثاً إياه عن قلبه. وهو قلب هش وطري، نزوي ومتقلب، معرض للتشنجات ولتوقّفات لا يمكن توقعها أو التنبؤ بها، كالتي أصابته صباح هذا اليوم، ولكن ليس هنالك مجال للإفراط في الخوف، والقلق أكثر مما ينبغي. عشرة أيام من الراحة التامة، بعض النقاط المهدّئة، عند الاستيقاظ، ومع كل الوجبات، ونظام يراعى بدقة، تجنب أي إثارة، عدم تناول الكحول، واتّباع معيشة منتظمة في المستقبل، هادئة وخالية من المشكلات والهموم.

فأخذ «ليبارسكي» يقول ويكرر:

- هذا مستحيل! مستحيل! في وضعي الحالي!... مع كل ما لدّي من مسؤوليات وأعمال!... فقال الدكتور «وولف»، بكل طيبة قلب:

- إيه! إذن عليك أن تحاول أن تعتقد تماماً بأنّ ليس هنالك من هو بحاجة إليك، وأنّ المساجين لديهم من سنهم ووعيهم، ما يجعلهم يستطيعون مراقبة أنفسهم بأنفسهم...

فوجّه إليه «ليبارسكي» نظرة حادة وثاقبة، ألا يوجد شيء من الميكيافيلية والانتهازية في هذه الكلمات المهدّئة؟ «علينا أن نخدّر يقظة وحذر الرجل العجوز لكي نهرب!...»

وحتى نهاية الزيارة، ظلّ «ليبارسكي» حذراً، متوجساً، يتنازعه شعوران: التعاطف والقلق.

وفي الأيام التالية تغير كل شيء، وأخذ يستقبل طبيبه كصديق ينتظره بفارغ الصبر. وكانت أحاديثهما تسحره، تخلب لبه وتقنعه. والدكتور «وولف» الذي غذى ثقافته وأغناها بقراءات ومطالعات علمية وفلسفية، كان يبدي ميلاً إلى مبدأ الشك، بشكل ينم عن الازدراء والاستخفاف، ولكن مع ادعائه بأنّ الحياة ليس لها معنى، وأنّ الإنسان عاجز عن القيام بعمل نزيه، لا غاية له فيه ولا غرض، كان يكرس نفسه بسخاء وبصورة استثنائية، ويقع في عالم الأحلام أمام زهرة، أو حشرة، ولا يستطيع أن يتحدث عن الحرية والمساواة، دون أن يخالج صوته ارتعاش ينم عن الشغف والهوى. وتحت سلطته، تبين أنّ الجنرال كان مريضاً مثالياً: كان يتناول أدويته، ويلزم بكل تعقل سريره، ويفرح لعودة شهيته للطعام، وقوته، شيئاً فشيئاً، وبصورة تدريجية.

والأمر الذي ساعده أيضاً على استعادة صحته، كان علمه أنّ زوجات المساجين، كنّ يأتين كل صباح لاستطلاع أخباره وللاطمئنان عن صحته. كان يتأثر كثيراً بما يبدينه من اهتمام به، لدرجة أنه كان أحياناً ينسى مشروع الهرب.

وفي اليوم الذي سمح له الدكتور «وولف» بأن ينهض ويغادر السرير خصّص كثيراً من الوقت للعناية بزينته وبهندامه، وارتدى أجمل بزاته،

وخرج من غرفته، شاحب الوجه، ضعيفاً، ولكنه بدا مرحاً متألقاً، يرافقه «جوزيف و «روزنبيرج» اللذان كانا يمشيان وراءه، لخدمته ومساعدته عند الحاجة. وفي الرواق، حيث كان يقف الحاجب عادةً، فوجئ بوجود «صوفيا أوزاريف» هنالك، التي قالت له:

- إني أنتظر الرائد «روزنبيرج» لأسلمه بعض الرسائل.

فقال لها، مجاملاً ومشجعاً:

- إيه! أنا الذي سأحظى بشرف استلامها من يديك!

فسأله «جوزيف»:

- أليس الوقت مبكراً الآن، بالنسبة لك، يا عمي، على استئناف عملك؟

فهزّ «ليبارسكي» كتفيه، دون أن يردّ على «جوزيف» وفتح باب مكتبه، ودعا «صوفيا» للدخول.

فقالت، وهي تجلس على الأريكة التي أشار إليها:

- ما كنت أودّ إزعاجك.

والحقيقة، هي أنها كانت مسرورة جداً بهذه الفرصة التي سنحت لها لمقابلة الجنرال، لأنّ هنالك فكرة كانت تلاحقها وتلازمها منذ عدة أسابيع:

طالما أنّ الهرب لم يحصل، فسوف تظل لديها الفرصة لمحاولة إحضار «نيكيتا». فالآن وإلاّ فلا، عليها أن تقوم بهذا المسعى، وأن تغامر بكل شيء، لكي تحصل على كل شيء، لكي تحاول إنقاذ «نيقولا» وإنقاذ نفسها أيضاً، وكانت متأكدة من أنّ «نيكيتا» يستطيع الحضور في الوقت المناسب لكي يهرب معهم. وبينما كانت هذه الخطة الجريئة تدور في ذهنها، كانت تسأل «ليبارسكي» عن مرضه وعن صحته، وتمتدح له مزايا الدكتور «وولف» وكفاءته، وترجوه بأن يداري نفسه في المستقبل.

وكان هو، وقد أغمض عينيه نصف إغماضة، يبدو كهر صغير، يشرب الحليب.

فتبادر إلى ذهنها: «كم هو وحيد، في عزلته هذه!»

وفجأة، همست له، بهدوء:

- هل أجرؤ على أن أطلب منك خدمة، يا صاحب السعادة؟

وأخافتها هذه الجرأة التي بدرت منها. فهي لم يسبق لها أن شعرت أنها وضعت رهاناً ضخماً إلى هذه الدرجة، على ورقة ضعيفة إلى هذا الحدّ.

فقال لها:

- بكل طيبة خاطر، إذا كان باستطاعتي مساعدتك...

- الموضوع يتعلق بعبد رق، رافقني في رحلتي، وكان عليّ أن أتركه في «ايركوتسك» السنة الماضية، لأنّ الحاكم «زيدلير» رفض إعطاءه تأشيرته. وأنا لا أعرف شيئاً عن أخباره، منذ ذلك الحين. مع إني بحاجة ماسة لخدماته، هنا، في «تشيتا»...

وتوقفت عن الكلام، وقد أخذ قلبها يخفق بشدّة، كما لو أنّ هذه الكلمات التي لفظتها بصوت سويّ وطبيعي، قد أظهرت ما تعاني من عذاب، في قرارة نفسها. وظلّت ابتسامة تنمّ عن الرجاء معلقة على وجهها وبين شفتيها، بينما كان يتصارع في داخلها، الخجل، الأمل والخوف.

فقال لها «ليبارسكي»:

- إيه! وماذا في ذلك؟ يبدو لي الأمر في غاية البساطة!

فأنا علاقتي جيدة مع «زيدلير». وإذا كان ليس هنالك ما يلام عليه عبدك الفتى، فسأحصل له على الأذن بالحضور إلى هنا.

فغمرت الفرحة «صوفيا» وانتشرت في جسمها كدفقة من الحرارة سرت فيه، ولم تدع شيئاً منها يبدو عليها وقالت بلهجة لا تنم عن أي اهتمام:

- أتعتقد حقاً، أنّ هذا سيكون ممكناً؟

- أنا متأكد من ذلك!

- أشكرك، يا صاحب السعادة.

وبعد أن لفظت هذه الكلمات، شعرت بأنها فقدت القدرة على التنفّس.

ثم استأنفت الكلام، قائلة:

- سأعطيك بعض المعلومات عنه: اسمه «نيكيتا» وهو في الخامسة والعشرين من العمر...

كانت تبدو فرحة، متألّقة. وأخذ «ليبارسكي» يدوّن المعلومات الضرورية التي كانت تمليها عليه. وفجأة سألها:

- ولماذا، بحق الشيطان، لم تحدثيني عن هذه القضية، قبل الآن؟

فأجابته مواربةً، متهربةً من ذكر الحقيقة:

- لأني لم أفكر بذلك.

ثم أضافت، متابعة سرد المعلومات عن «نيكيتا»:

- شعره أشقر، عيناه زرقاوان، أرثوذكسيّ المذهب..

٥

وكما يحصل كل مساء، بعد الانتهاء من تناول طعام العشاء، كان أنصار وخصوم مشروع الهرب يتناقشون ويتجابهون. بأصوات مبحوحة، عبر قرقعة السلاسل وأواني المطبخ. وأخذ «أودويفسكي» يصيح باللغة الفرنسية محاولاً التغلب على ذلك الضجيج:

- أيها السادة، أيها السادة، أودّ أن أقول لكم.. يجب أن تعرفوا... لقد قمنا ببعض المساعي والإجراءات لتأمين نجاح مشروعنا...

وبفضل مساعدة بعض قرويّي المنطقة، سوف نستطيع الحصول على بعض المعدات، والمؤن الاحتياطية...

فصاح به «ناريشكين»:

- وبماذا ستدفع لهم ثمناً؟

- بنقود الجمعية التعاونية.

- ولكنّ هذه النقود ملك لجماعة المساجين كلهم!

فقال له «نيقولا»:

- ولكنّ الجماعة، ستمنحنا، بالتصويت، الأذن بالتصرف بها!

فردّ عليه «نيكيتا مورافييفّ»:

- وبنتيجة التصويت، لن نحصل على الأغلبية.

- بلى، سنحصل عليها!

- كلا!

وفي تلك اللحظة، صفر «أفراموفّ» بين أصابعه، وهو المناوب في ذلك اليوم، وكان يقف مترصداً الباب. فصمت الجميع على الفور، كمجموعة من صغار العصافير كانت تتشاحن وتزقزق في عشها، وقد فوجئت بطلق ناري. وعبر الصمت الذي خيم على المكان، همس «أفراموفّ»:

- تفتيش!.. الحاكم العجوز، شخصياً!..

فتبادل الرجال، فيما بينهم، نظرات تنمّ عن القلق. كانت تلك هي المرة الأولى التي يقوم فيها «ليبارسكي» بزيارتهم في مثل تلك الساعة المتأخرة من المساء. وبعد ذلك بدقيقتين، دخل الملازم «بروكازوفّ» إلى القاعة، كالمجنون، وصرخ بأعلى صوته:

- إلى صفوفكم، قفوا باستعداد!

كان المساجين قد قرروا سابقاً عدم الانصياع لهذا الأمر، على الإطلاق، وأن يقفوا فقط، بدافع من الاحترام والمراعاة.

وأضاف «بروكازوف»:

- تجمعوا! اجتماع عام! يجب أن يحضر الجميع إلى هنا

وبالفعل، فقد تراكض الرفاق من قاعات «موسكو» «فولوغدا» و «بيسكوف» مسرعين، وانتشروا، في الحال، مع قرقعة السلاسل، في ذلك المهجع، كانوا يتدافعون بمحاذاة المنضدة وبين الأسرّة، وهم يغمغمون:

- ماذا هنالك؟ ماذا حدث؟

- يبدو أنّ مراسلاً قد وصل عند الساعة السادسة، من «سان بطرسبورغ».

- بالتأكيد، إنه أتى ليطلب أحداً ما..

- أليست، بالأحرى، عملية تفتيش؟..

- على أي حال، يبدو أنّ الأمور قد أصبحت سيئة، يا أصدقائي!..

فصاح «بروكاروف»:

- اسكتوا!

واعتدل في وقفته، احتراماً، وحملق بعينيه، وحبس أنفاسه عندما دخل اللواء «ليبارسكي» يتبعه ابن أخيه والرائد «روزنبيرج» وهو بكامل هندامه العسكري، وبجميع أوسمته وأشرطة الزينة التي تلمع على صدره. وبدت على وجهه المترهل تعابير العطف والاهتمام. ناول قبعته إلى ابن أخيه، سعل سعالاً خفيفاً، وقال:

- لقد جمعتكم هنا، لأبلغكم خبراً مهماً. لقد وصل من العاصمة قبل قليل، رسول يحمل أمراً أصدره القيصر، وجلالته وقد أخذت بالحسبان التقرير الذي وجهته إلى المسؤولين في العاصمة، الشهر الماضي، فقد صدر الأذن لي بأن أنزع من أرجلكم، جميعاً- وأعني تماماً ما أقول: جميعاً! - السلاسل التي تقيدها. وهذه اللفتة الكريمة، من قبل القيصر، ستتلوها عما قريب، وعليكم ألا تشكّوا بذلك، إجراءات أخرى أكثر أهمية وفائدة لكم. فأنا أهنئكم، أيها السادة!

وقوبل هذا الكلام بصمت عميق. ومرت بضع ثوانٍ، على «نيقولا» قبل أن يشعر بالفرح يتدفق بشكل عنيف في كل كيانه. ومن حوله، كان رفاقه ينظرون إلى بعضهم، وقد تجمدوا في أماكنهم، وبدا عليهم الذهول والاضطراب. و «ليبارسكي» لم يستطع، هو أيضاً، التغلّب على تأثره وانفعاله، بحيث كان يخيل لمن يراه أنه المستفيد الأول والرئيسي من تلك الحظوة: كان خدّاه يرتعشان، وعيناه طافحتين بالدموع، وأشار بيده إلى عناصر الحرس، فاصطف أمامه ثلاثة من ضباط الصف، في وقفة الاستعداد. فقال لهم:

- انزعوا السلاسل، في الحال، عدّوها، وسلموها بموجب إيصال إلى مكتب اللوازم والمعدات.

ودفع «يوري ألمازوف» «نيقولا» بمرفقه، وقال له:

- اقرصني! فأنا في حلم!..

وقال «أنّانكوف»:

- يجب أن نشكر الجنرال!

فردّ عليه «نيقولا»، قائلاً:

- ولماذا نشكره؟ فهذه ليست هدية تُقدّم لنا، إنهم يحاولون أن يحكموا بالعدل وأن ينصفونا، ويعترفوا لنا ببعض حقوقنا، وهذا كل ما هنالك!

ولكنه كان يشعر برغبة قوية لمصافحة «ليبارسكي» وليشدّ على يده. وكان ضباط الصف، بأيديهم المفاتيح، ينتقلون من سجين إلى آخر، فتسقط السلاسل محدثة قرقعة خفيفة. والتقط «نيقولا» سلاسله، وأخذ يروزها ويتفحّصها بانتباه ودّي، كما لو أنها كانت تشكل جزءاً منه.

ثم حرك رجليه، تمايل على ساقيه، ودهش من سهولة وخفة حركاته. وكانت حاجته للركض، للقفز والرقص، تعصف بعضلاته وتشدّ بها. والتفت نحو النافذة، فاصطدمت نظرته بالقضبان الحديدية. وعندما نزعت السلاسل من أرجل جميع الرجال، تعالت أصوات متنافرة، وغير منسجمة، وأخذت تصيح:

- شكراً، يا صاحب السعادة!... شكراً لك يا «ستانيسلاس رومانوفيتش»!... شكراً!... مرحى لك!...

وأخذوا يتدافعون حوله، يشكرونه، يمتدحونه ويعانقونه، وكان «ليبارسكي» يدافع عن نفسه، وهو يضحك، عبر ذلك الازدحام، ورأسه يقفز بينهم كسدادة زجاجة تتقاذفها أمواج اليّم، كان «نيقولا» يقف في ركن بعيدٍ بعض الشيء عن فوضى ذلك التزاحم، ويسمع نتفاً من توصيات الجنرال:

- أيها السادة، إني أعتمد عليكم، من الآن فصاعداً، بشأن المستقبل... فالكفالة الأخلاقية والمعنوية التي قدمتها للسلطات بشأنكم

ولمصلحتكم... تقضي بأن تبرهنوا على الدوام بأنكم جديرون بمزيد من الثقة الإمبراطورية التي ستحصلون عليها...

وبعد أن ذهب، نقل الرجال الأدوات المنزلية، فكَكّوا المنضدة الكبيرة، واستلقوا على أسرّتهم. وكان هنالك فكرة واحدة تلازم أذهان الجميع. وضمّ «نيقولا» عرقوبيه، أحدهما فوق الآخر، وأخذ يتأمل عريهما وخلوهما من السلاسل والقيود، ويلهو بلمس وجسّ أماكن الحلقات، حيث كانت بشرته موردّة وقد اكتست ببعض البثور والخدوش. وشعر بألم خفيف لا يزال باقياً في العمق، وداخل العظم. وعما قريب، هذه الذكرى نفسها ستزول وتمحّي. ومضت دقائق مثقلة بكآبة غامضة يصعب تبريرها وتفسير سببها. وأخذت أذنا «نيقولا» وقد ألفتا سماع قرقعة السلاسل واعتادت عليها، تعاني من هذا الهدوء والسكون غير الاعتياديّين. وفيما مضى، كان يجب على أحدهم أن يصرخ لكي يسمعه رفيقه الذي يرقد على السرير المجاور لسريره. أما الآن، فعندما أخذ «يوري ألمازوف» و «روزين» يتهامسان فيما بينهما ورأساهما متقاربان، حصل لدى «نيقولا» انطباع بأنهما يتكلمان بأعلى صوتيهما.

وقال العملاق «روزين»:

- بالتأكيد، إني مسرور لإزالة ذلك العائق عن رجليّ، ولكن علينا ألاّ نكون جاحدين وناكري الجميل: كان لها رنين جميل، سلاسلنا، ينسجم مع الإيقاع، عندما كنا نمشي، وعندما كنا نغنّي!...

فسأله «يوري ألمازوف»:

- هل أنت آسف عليها إذن؟

- بعض الشيء... أساساً، كنت، في قرارة نفسي، فخوراً بها!...

والآن، نحن أحرار، دون أن نكون كذلك، بشكل حقيقي!...

وقال «نيقولا بيستوجيفّ»:

- سأعمل على إعادة سلاسلي لي، وأصنع منها خواتم تذكارية. وهذا إعلان للهواة الذين يريدون أن يشتروا!

فصاح «أودويفسكي»:

- مرحى! أنا أرغب بالحصول على واحد منها!

وتعالت بعض الأصوات:

- وأنا! وأنا!

وسادت الحركة في المهجع، فقطع «نيكيتا مورافييفّ» حبل الثرثرة، قائلاً:

- هنالك، أيها السادة، قرارات أكثر جدية يجب اتخاذها. لا أدري ما هو رأيكم بالحظوة التي أعطيت لنا، ولكن من جهتي أنا، فإني أرى أنه أصبح من غير المعقول، أن نفكر، بعد الآن، بالهرب.

فصاح «نيقولا»:

- ولماذا؟ فعلى النقيض من ذلك! إذ إنّ كل شيء قد أصبح أكثر سهولة!...

- وما الجدوى من التعرض لخطر اللحاق بنا وإمساكنا، وربما قتلنا، في حين أنّ القيصر يتهيأ لكي يمنحنا الحرية قريباً؟

- ماذا؟ وكيف عرفت ذلك؟

- «ليبارسكي» قال لنا إنّ نزع سلاسلنا يعني أنّ «نيقولا الأول» يسير متجهاً في طريق التسامح.

- إذا كنت تصدق ما يقوله «ليبارسكي»!...

فقال «أنانكوف»، ملاحظاً:

- إنه رجل شريف ومستقيم!

فردّ عليه «نيقولا»، قائلاً:

- إنه أيضاً حاكم السجن، وعلاوة على ذلك، فحتى لو منحنا القيصر كهدية، تخفيف عقوبتنا سنتين أو ثلاث سنوات، فإنّ ما يبقى منها يظل طويل الأمد!

فقال «ناريشكين»:

- إنها أطول أمداً بالنسبة لي، ومع ذلك، فكما ترى، فإني أولي ثقتي للإمبراطور!

وشارك في النقاش سجناء آخرون. وبين أولئك الذين كانوا يؤيدون مشروع الهرب، قبل ساعة، بدا الكثيرون منهم، عند ذلك، على استعداد لانتظار ما سيصدر عن نوايا القيصر، الحسنة. وتبيّن لـ «نيقولا» ارتخاء العزائم، من تخفيف اللهجات، ومن النظرات التي كانت تتحوّل وتتهرّب. وأخذ النقاش يهمد ويضمحل على فترات، كنارٍ لا يعتنى بها ولا تغذّى بالوقود باستمرار. وكان الأكثر ضعفاً، يقولون بصوت قوي، آملين التغطية على تحولهم:

- على أي حال، أصبحت القضية تبدو أقل إلحاحاً واستعجالاً... ودون التخلي عن المشروع، علينا أن نعيد النظر فيه... وندرسه بتروٍ وتأنٍ... وسنرى فيما بعد...

وحتى «اياكوبوفيتش»، «أوديفسكي» و «يوري ألمازوف» فقد بدا عليهم أنهم قد غيروا رأيهم، وأصبحوا متردّدين، حائرين.

وقال «نيقولا»:

- لقد تبيّن لي، أيها السادة أنّ تسامح القيصر يعيق سيقاننا ويقيد أرجلنا بشكل مؤكد، أكثر من تلك السلاسل والأغلال التي تزن عشر «ليبرات»: «خمسة كيلوغرامات». وإننا، الآن، أصبحنا، حقاً، مقيدين!

ولم يتبيّن أحد المرارة التي يتسم بها هذا الكلام. وشعر «نيقولا» بأنه يشوش على رفاقه، ويفسد عليهم فرحتهم. فاستلقى، واضعاً يديه تحت

رأسه، وموجهاً نظراته نحو السقف، وكان قد خيم الظلام، مع قدوم الليل، ليل أيلول «سبتمبر» الصافي واللطيف الجوّ، الذي يحمل رائحة دخان الحطب، العطرة. والهدوء، الذي لا يعكره صوت ولا حركة الذي ساد في المهجع، كان يبعث على الرهبة والخوف.

وأخذت بومة تنعب في مكان بعيد. ولكي يستعيد «نيقولا» فرحته أخذ يفكر بدهشة «صوفيا» وشعورها بالمفاجأة، عندما ستراه في اليوم التالي، دون سلاسل ولا قيود.

☆☆☆

كان الخبر قد انتشر في القرية، كانتشار النار في نثار البارود. وفي المساء نفسه، جمعت «كاترين تروبيتزوكوّي» كل السيدات في منزلها، للاحتفال بالحدث المفرح، وأشعلت ست شمعات، وفتحت زجاجتين يغطيهما الغبار، من خمر «مادير». ولم يعد هنالك أيّ شك لدى أحد أنّ مشروع الهرب سيدفن في مهده. وشعرت «صوفيا» لهذا السبب بارتياح يفوق الوصف. وكانت تفكر بـ «نيقولا» وقد تخلّص من سلاسله وقيوده، وبـ «نيكيتا» الذي سيأتي، وإن كان «ليبارسكي» لم يتلقّ، حتى ذلك الحين، جواباً من «زيدلير» وما هو الشهر، أو الشهر ونصف كمهلة، بالنسبة لمن يعرف طرق وأساليب الإدارة الروسية؟ ففي هذه البلاد، المترامية الأطراف، كان البطء يُعَدّ شكلاً من أشكال القوة، وعاملاً من عواملها. ومهما حصل بعد الآن، فإنّ «صوفيا» أصبحت متأكدة أنّ «ليبارسكي» لن يتخلّى عنها. واقترحت على السيدات أن يشربن نخبه، ونخب صحته، فوافقن على ذلك، بكل حماسة وسرور. كنّ ثملات قليلاً، وقد جلسن على الحقائب وعلى الصناديق، وعلى السرير في غرفة «كاترين» وأخذن يتكلمن، وكل منهن تقاطع الأخرى، بأصوات تتسم بالحماسة والانفعال:

- آه! لقد نجونا بأعجوبة من قصة ذلك الهروب الجمعي والمشترك!

- الرجال، ليسوا سوى أطفال! وهل تستطعن تصورنا منطلقين كقافلة طويلة عبر فيافي سيبيريا؟!

- على أي حال، أنا، كان من الممكن أن أرفض الهرب!

- وأنا، أيضاً

- يا عزيزتي، لقد انتعشت، وأشعر أني عدت إلى الحياة من جديد، وأكاد أقول إني أجد بهجة ومتعة في العيش في «تشيتا»!

كان لهب الشموع يزيد من حدّة بريق العيون. وهنا وهناك كان يلمع كمّ أبيض كأنه جدول ماء عذب، وتبدو زخارف «الدنتيلا» كأنها شجيرات تغطيها طبقة من الصقيع الناعم المتجمد، ويبرز اللونان: الأخضر والأزرق الغامق، على وشاح اسكتلندي. وطلبت ربة البيت من «بولين أنانكوف» أن تغني بعض الأغاني الفرنسية. فأخذت «بولين» تفكّر، رفعت رأسها، وانطلقت تغني بصوت حادّ، ولكنه عذب ولطيف:

«كن فقيراً كالقديس «Roch»

أو غنياً ورث ثروة طائلة

كن نحيلاً كديك عجوز

أو بديناً كأي مجوسي ضخم

إذا كنت تتمتع بالبهجة والمرح،

نحن سنكرمك، ندلّلك، وتعيش

في عيد، واحتفالات، معنا!

أوه، أوه، أوه، أوه! آه، آه، آه، آه!

لا! لا!

وهذه الأغنية، التي رافق إنشادها غمزات مغناجة وخبيثة، وحركات من الوركين، أمتعت الحاضرات، وأفرحتهنّ تماماً.

وقالت «كاترين ترووبيتزوكوّي»، متأوهة:

- خيّل لي أني كنت في باريس!

وطلبت «ناتالي فونفيزين» أغنية أكثر رقة وعذوبة، نغمتها رخيمة، تحرك أوتار القلب. عند ذلك، تناولت «أليزابيت ناريشكين» قيثارتها، وغنّت أغنية عاطفية روسية وقديمة، لم تكن «صوفيا» تعرفها، ويتعلق مضمونها بوداع أحد المحكومين بالسجن، لخطيبته. وفتى الأغنية جميل وقوي، عيناه زرقاوان كزهور الترنجان وشعره أشقر كقمح الحقول، عند الحصاد، وأسنانه بيضاء كاللؤلؤ.

فتخيلت «صوفيا» «نيكيتا»، مشعث الشعر، وقد عصفت به الريح، وهو يسير في السهب... ومن حولها. كانت الجفون تبلّلها الدموع، والرؤوس تتمايل وتنحني، كانت كل الأفكار متجهة نحو الأزواج المسجونين. ولتبديد هذا الحزن، كان على «بولين أنّانكوف» أن تغني من جديد أغنية مرحة. ثم ألقت «أليكسندرين مورافييفّ» إحدى قصائد «بوشكين». وفرغت الزجاجات، ولكنّ الماء كان يغلي في «السماور». وقدّمت «كاترين» الشاي، البسكويت والحلوى. وشعرت «صوفيا» بحرارة الصداقة نحو هؤلاء النساء العاطفيات اللواتي جمعتهن المصادفة في سيبيريا. وكانت بين الأخيرات اللواتي انصرفن. وفي الخارج، كان ضوء القمر ينسدل على الأسطحة ويحول القرية مضفياً عليها منظراً لرؤيا خارقة للعادة، تبدو كالرؤى ذات الأشباح.

وكانت تهب من الجبال التي انهمر عليها الثلج في الليلة السابقة، رياح باردة. وعندما عادت «صوفيا» إلى غرفتها، استلقت على سريرها، وهي ترتعش من شدة البرد، وعيناها مفتوحتان عبر الظلام، وهي أكثر تعباً ومللاً من أن تستطيع التفكير، وأكثر إثارة وتهيجاً من أن تتمكن من النوم.

☆☆☆

استيقظ «ليبارسكي» مذعوراً، فجلس في سريره، قدح الولاعة، ونفخ على الفتيل الصوفي، وألقى نظرة على ساعته: كانت عقاربها تشير إلى الخامسة صباحاً. كانت تلك هي المرة الرابعة التي يستيقظ فيها مذعوراً هكذا، معتقداً أنه يسمع رنين ناقوس الخطر وطلقات نارية، صوت بوق، وجلبة أحذية عسكرية، تتراكض في الشارع. أرهف السمع: كلا، فالظلام والهدوء يخيّمان على «تشيتا». ولكنّ هذا الهدوء لم يكن يكفي، مع ذلك، لتبديد قلقه ومخاوفه. حقاً، لقد شعر عشية ذلك اليوم، أنه بفكه قيود المساجين ونزعه السلاسل من أرجلهم، قد أزال من أذهانهم الرغبة بالهرب من السجن. ولكن، ماذا حدث بعد ذهابه؟ ربما يكون بعض المحرّضين قد استطاعوا في غضون ذلك، إثارتهم من جديد. وإنهم، في تلك اللحظة بالذات، يمكن أن يكونوا قد أخذوا يستعدون لمهاجمة مركز الحرس! وتلألأ العرق البارد على صدغي «ليبارسكي». وخفق قلبه بشدة. فتناول، مع قليل من الماء، بعض قطرات من الدواء، الذي وصفه له الدكتور «وولف»، ونصحه بتناوله، عندما يشعر بأي ألم وتوعّك. ولكنه لم يشعر بالاطمئنان، وظلّ القلق والهم يلازمان ذهنه. فنهض، وارتدى بزته، وبصعوبة استطاع أن ينتعل حذاءه، وأصلح وضع باروكته وخرج.

كان وصيفه نائماً على بساط مدّه أمام الباب. فمرّ «ليبارسكي» من فوقه، دون أن يفتح الجندي إحدى عينيه. فتبادر إلى ذهن الجنرال: «يمكن أن يأتي أحدهم ويذبحني، دون أن يستيقظ هذا المغفل!» وأخذ يتصور هجوم مثيري الفتنة الهائجين ودخولهم عنوة إلى منزله. وكيف أمسكوه وكتفوه وأحرقوا سجلاته ومحفوظاته! هؤلاء الرجال، بالذات، هم الذين رآهم قبل فترة وجيزة من الوقت، يبدون له الشكر والامتنان، ينكشفون الآن ويبدون كاللصوص وقطاع الطرق ذوي الوجوه المتجهّمة والمكشّرة: أحدهم يدعى: «تروبيتزوكوّي»، والآخر: «فولكونسكي»، وهذا «أوديفسكي»، وذاك،

هو «أوزاريف»... ولماذا لا يحصل كل هذا؟ فالتعطش إلى الحرية، يدفع في معظم الأحيان، النفوس الأكثر نبلاً، إلى ارتكاب الجرائم. وعلى أي حال، فقد كان «ليبارسكي» راضياً عن نفسه لأنه أطلع معاونيه على المؤامرة المزعومة؛ ولأنه شدّد الحراسة، وضاعف عدد عناصرها في كل مكان. «ولكن، أهذا يكفي؟ إني لا أدري! آه، يا إلهي! لماذا أتصرف هكذا، بطيش وتهور! ومتى سأكف عن الارتجاف؟»

ومرّ أمام المحرس الموضوع أمام باب منزله، دون أن يلفت انتباه الخفير، الذي كان يغفو مستنداً على بندقيته، قبعته مائلة على رأسه، وقد ضمّ شفتيه كالطفل الذي يرضع ثدي أمه.

فاستشاط «ليبارسكي» غضباً ووجه له ركلة على ساقيه، وشتمه باللغة البولونية وبالروسية، وتابع طريقه. ففتح الرجل بصعوبة جفونه الدبقة، ورأى جنرالاً يسير بمفرده في الشارع عند الفجر، وأزرار بزته مفكوكة، فقدّر أنّ ذلك لا يمكن أن يكون سوى حلم، وعاد فنام بكل هدوء.

وطلع الصباح، وأخذت بعض القبّرات تزقزق، فأسرع «ليبارسكي» نحو السجن عبر سجف الضباب الذي تشم منه رائحة الدخان والأعشاب الرطبة. ومع اقترابه من الهدف، كانت خشيته تزداد حدّة. وأخيراً وصل إلى أمام الحاجز العالي. وهنا أيضاً، والحمد والشكر لله، بدا كل شيء هادئاً يسوده النظام! وفي تلك الساعة المبكرة، من الصباح، بدا السجن، بشكل غير عادي، يرتدي طابعاً وهمياً، وخيالياً. فتأمل «ليبارسكي» بمحبة «الصندوق» المغلق جيداً، وبداخله كل «لعبه» لا ينقص منها واحدة. وبارتياح شديد، قال في سرّه: «أنا لهم، وهم لي!» وأمام المدخل حياه الخفراء، فاطمأن عندما لاحظ أنّ وضعهم هادئ وطبيعي، وعاد إلى منزله، خلع ملابسه استلقى على سريره، واستغرق في نوم عميق، لم يعكّره شيء، إلى أن دوّت بمرح أجراس نوبة الصباح، لإيقاظ الجنود.

٦

عنـدما دخـل «نيقـولا» إلى الغرفـة، ألقـت «صـوفيا» نظرتهـا الأولى علـى رجليـه، وقـد تخلصتا مـن السلاسل والقيـود. وأخـذ يتـبختر أمامهـا، مرفـوع الرأس، وقد أبعد ذراعيه عـن جسمه، كالطفـل الـذي يرتـدي بـزة جديـدة، ويبدو مزهواً بها. فاضطربت، عندما رأته بهيئته الجديدة، وصاحت:

- أوه! يا «نيقولا»! لكم يسعدني أن أراك هكذا!

فقال لها، مبتسماً:

- إنـك لـن تـشعري أبـداً بعـد الآن، بقـدومي، وأنـا مـا زلـت بعيـداً، فقـد أصبح بإمكاني أن أفاجئك!

ووراءه، كان يقف جنديان: كان للحرية حدود. وأشار إليهمـا أن يجلسا في الرواق، وأغلق الباب.

وبذراع قوي، ضمّ إليه، بشـيء مـن العنـف، منـكبي «صـوفيا»، فهمست في أذنه:

- إيه، قل لي! من الذي كان على حق؟ كل شيء سوف يتدبّر!

ماذا يقول أصدقاؤك؟

- إنهم لم يعودوا يريدون الهرب.

- وأنت؟

- لا أدري.... طالمـا أنـك، أنـت أيـضاً، تقفـين ضـد هـذا المـشروع... وهـو، أساسـاً، مـثيرومـزعج: وأنـا بحاجـة علـى الـدوام لموافقتـك وتأييـدك، لكـي أتصرف... وبغير ذلك، لن أكون واثقاً من شيء!... أنا أتردّد وأتخبّط!...

فهل أنت سعيدة؟

- سعيدة جداً.

- وتحبينني؟

فأجابته بعزم وحماسة:

- أوه! نعم!

وأخذت تصغي، بدهشة مفاجئة، لذلك الصوت الذي بدا وكأنه ينبعث من ماضيها. وأنهضها «نيقولا» عن الأرض، واستدار ببطء معها، مقترباً وإياها من السرير، ولم تعد هنالك أي طقطقة ترافق حركاته. وتذوقت ذلك الصمت غير المعتاد. وكان الاضطراب الذي يتنامى لديها ينم عن سرور ومتعة، لا تشوبهما أي شائبة. واستسلمت وهي تشعر بأنها ستحقق انتصاراً على ذاتها.

وفيما بعد، وبينما أخذت تتأمل «نيقولا» المستلقي بالقرب منها، بوجهه المزهو والناعم، الذي يفيض بالمحبة والحنان، أخذت تتساءل عن سبب عدم إخباره بأنّ «ليبارسكي» سيقوم بإحضار «نيكيتا» عما قريب. ففي بداية الأمر، فضّلت المحافظة على سرية مساعيها. وهي الآن لا تدري كيف تبرّر صمتها وتكتّمها. ولأنها أخّرت كثيراً، دون مسوغ محدّد، الحديث الذي كان عليها أن تجريه مع زوجها، فقد جعلت إجراءه مستحيلاً. وكان ذلك غير معقول! مع أنه كان سيسرّ إذا عرف أنّ «نيكيتا» سينضم إليهما قريباً، وهي متأكدة تماماً من ذلك. وستخبره بذلك، في أحد الأيام ولا بد من انتظار فرصة مناسبة لهذا الحديث، وأخذت تداعب عنقه وكتفه، وتتحسّسهما بيد ناعمة ومُحبّة. وقد أغمضت عينيها وأخذت تعمل على وضع صورته في ذهنها. ولكنّ، فكرها طار نحو جهة أخرى.

وفي اليوم التالي، سألت «ليبارسكي» على استحياء، فيما إذا كان يستطيع أن يكتب مرة ثانية إلى الجنرال «زيدلير»، فرفض، ضاحكاً، وأخذ يلومها على عدم تحلّيها بشيء من الصبر.

وبعد أمطار الخريف الغزيرة، انهمرت موجات الثلج الأولى. فلم يعد بالإمكان استخدام المساجين بأعمال الحفر في التراب، بالقرب من موقع «قبر الشيطان» والآن، لتشغيلهم، كانوا يقتادونهم إلى سقيفة واسعة، يوجد فيها مطاحن يدوية. وكان على كل واحد منهم أن يطحن نحو عشرة كيلوغرامات من الجاودار والشيلم، في اليوم الواحد. وكان الذين ينزعجون من هذا العمل، يطلبون من رفاقهم الذين يحبّون ممارسة التمارين الرياضية والأعمال اليدوية، أن يقوموا بهذا العمل نيابة عنهم. وكان بعض الجنود، يقبلون أحياناً القيام بمساعدة المساجين في هذا العمل، لقاء مكافأة مادية بسيطة. وكان ضابط الحرس يكلّف أيضاً بعض المساجين بتفكيك أكواخ صيادي السمك، من على ضفة النهر، ولتكسير الجليد، أو لإزالة الثلج عن الطرقات. و «نيقولا» الذي يشعر بالحاجة لاستهلاك ما لديه من فائض الطاقة، كان يبدي، على الدوام استعداده للعمل في الهواء الطلق.

وعندما يكون البرد قارساً، وشديداً أكثر من المعتاد، كان المساجين جميعهم يبقون في السجن، حيث تحمى المدافئ إلى أقصى درجة وينتشر منها دخان كريه الرائحة. وخلف الأبواب المغلقة، تسترد الأذهان حقوقها. والمكتبة، التي تتضخم باستمرار، بواسطة ما يرسله الأقارب والمعارف، من كتب قيّمة، أصبحت تحتوي على أكثر من ثلاثة آلاف كتاب.

وكانت القراءات المهمة يناقشها الجميع، علناً، وكان أساتذة غير متخصصين، ودون استعداد من قبلهم، يعلّمون الآخرين الفرنسية، الإنكليزية، الألمانية، الأسبانية، اللاتينية واليونانية. ومن وقت لآخر، كانت تلقى بعض المحاضرات. ولم يكن من النادر أن يحضرها «ليبارسكي» أو أحد مساعديه. وكان المستمعون يجلسون على المقاعد، على الأسرة وعلى الأرض. بينما يصعد المحاضر على إحدى الطاولات. وكان

«نيكيتا مورافييف» يلقي دروساً في علم وضع الخطط الحربية، والتنظيم وتعبئة القوات العسكرية. ويلقي «زوفاليشين» دروساً في الرياضيات العليا وعلم الفلك، والدكتور «وولف» يحاضر في الكيمياء وعلم وظائف الأعضاء: «الفيزيولوجيا»، ويلقي «موخانوف» محاضرات تاريخية. ويقدم «أودويفسكي» دروساً في الأدب الروسي، وهذا الأخير دفع «نيقولا» للتحدث عن الآداب الفرنسية من «كورنيّ» في القرن السابع عشر، وحتى «فولتير» في الثامن عشر، وكان نجاح هذه الأحاديث على درجة متوسطة، لأنّ أكثرية المساجين يعرفون مثله كل شيء عن هذا الموضوع.

وفيما بعد، سمح «ليبارسكي» لهواة الموسيقا وللمولعين بها، بإدخال بعض الآلات الموسيقية إلى السجن. ووصل «بيانو» من الطراز القديم، غير مدوزن، محمّلاً كيفما اتفق على إحدى العربات، كانت الجمعية التعاونية في السجن، قد طلبته من «ايركوتسك»، وتلا ذلك شراء آلات موسيقية أخرى، ووضعت إحدى غرف السجن، الصغيرة تحت تصرف الهواة، حيث كانوا يتدربون في أوقات فراغهم. وكان «فادكوفسكي»، يعزف جيداً على البيانو، و «يوشنفسكي» يجيد العزف على الكمان. كما أنّ «كريوكوف» و «سنيستونوف» كانا يعزفان على «الفيولونسيل». وكانت ألحان «غلوك» «الموسيقار الألماني الشهير» تنبعث من ذلك الركن المنزوي داخل السجن، وجميع الذين يسمعونها، يتوقفون عن أعمالهم، ويحلّقون في عالم الخيال والأحلام. وأحياناً، كان المساجين يجتمعون في الباحة، ليغنوا سوية، تحت قيادة وإشراف «فادكوفسكي»، وعند ذلك، كان القرويون المقيمون في «تشيتا» يتجمعون، ويقفون بمحاذاة الحاجز، وعلى وجوههم ملامح الجد والوقار، كأنهم يقفون في الكنيسة، أثناء القداس.

وهذه الاهتمامات والنشاطات الفنية لم تمنع «جماعة كانون الأول»، من أن يتدبروا ويرتبوا بعناية الأوضاع والشروط المادية المتعلقة بمعيشتهم

وبحياتهم. وكان كل مناوب «الذي يكلف بالعمل في يوم معين» ينظف المهجع، يجلي أواني المطبخ وأدواته، ويسخّن «السماور». وبعد ذلك أصبح يساعده في أعماله فتى يأتي من خارج السجن. وجميع النفقات كان يتحملها صندوق «التعاونية» حيث كان الأغنياء يدفعون عن الفقراء. وبفضل الطرود، التي تصل من روسيا، والتي كان يتزايد عددها باستمرار، أصبح عدد كبير من المساجين، يرتدون الملابس اللائقة. حتى أنّ المتزوجين أصبحوا يبدّلون ثياب العمل، بثياب أخرى، عندما يريدون الخروج لزيارة زوجاتهم. والذين كان لديهم كثير من الملابس، يعطون ملابسهم القديمة لرفاقهم الذين يحتاجونها. ولتخفيف النفقات عن المجموع، فقد تعلم عدد من المساجين بعض الحرف اليدوية. وأمهر الخياطين ومرقّعي الثياب، كان «أربوزوف» والأمير «أوبولنسكي». و «إيفان بوشين»، لم يكن له مثيل في ترقيع الجوارب، ولا مثيل «لبيير فالنبيرج» لخياطة القبعات، و «نيقولا بيستوجيف» كان ماهراً بإصلاح الأحذية، وتزويدها بنصف نعل جديد، وكان يجيد أيضاً إصلاح الساعات، وصنع تماثيل صغيرة من الخشب، وكذلك طرق الحديد. وقد حصلت جميع السيدات على خواتم وأساور، صنعت من سلاسل أزواجهن.

واعتباراً من الأول من كانون الثاني «يناير» سنة ١٨٢٩، سمح «ليبارسكي» لغير المتزوجين بالخروج، هم أيضاً، من وقت لآخر، يرافقهم الحراس لزيارة بعض منازل أصدقائهم وبالطبع، كان يجب عليهم أن يعودوا قبل موعد منع التجول. واغتنم «نيقولا» فرصة السماح بهذه الزيارات لكي يطلب من «بيستوجيف» أن يرسم صورة لـ «صوفيا». فرسمها واقفة قرب النافذة، وقد وضعت وشاحاً على كتفيها، وبدا عنقها طويلاً وأبيض، وشعرها مسرّحاً إلى الأعلى، وفي عينيها نظرات حزينة. وهذه الصورة القاتمة لم تعجب «نيقولا»، ولكنّ «صوفيا» أعجبت بها ووجدتها تتفق مع ذوقها.

وفي بدايات شهر آذار «مارس» هبّت عواصف ثلجية عنيفة. وذات مساء، بينما كان «ليبارسكي» يستعدّ ليأوي إلى سريره، أتى حاجبه وأخبره بأنّ هنالك سيدة تريد أن تتحدث إليه في أمر عاجل، فارتدى ملابسه من جديد، على عجل وهو يتمتم متذمراً، وذهب إلى غرفة الانتظار، فوجد هناك «صوفيا»، وعبر فتحة غطاء الرأس البيضوية الشكل بدا وجه المرأة شبيهاً بوجه طفلة ولكن كان يبدو في عينيها بريق ينم عن القلق. وتمتمت:

- أرجو معذرتي لهذه الزيارة في هذا الوقت المتأخر، يا صاحب السعادة، وأتوسل إليك أن تسمح للدكتور «وولف» بالخروج، على الفور، من السجن! فنحن بحاجة إليه!...

فسألها الجنرال، وهو يزرّر ياقته:

- هل هنالك من هو مريض؟

- نعم، السيدة «أنّانكوف» والسيدة «مورافييفّ»

- وهل حالتهما خطرة؟

فبدا الاضطراب على «صوفيا» وقالت، متلعثمة:

- يمكن أن تصبح حالتهما خطرة، فقد فاجأهما الطلق، وسيضعان حملهما عما قريب!..

فتلقى «ليبارسكي» هذا الخبر كضربة قوية على «نقرته» بقطعة خشب قوية، وزاغت عيناه، وفغر فمه تحت شاربه الضخم، وتمتم:

- وكيف أمكن أن يحصل ذلك، دون أن يخبرني به أحد؟!

- كان ذلك بادياً للعيان، يا صاحب السعادة، وكنا نظن أنك قد لاحظته كما لاحظه الجميع!

فقال بحنق:

- إني لم ألاحظ شيئاً، فأنا عازب عجوز، وكان عليكنّ...

وفجـأة اسـتبدّ بـه الغـضب، فـاحمر وجهـه، وانتفخـت وجنتـاه، وضـرب صدره بقبضة يده، وصرخ:

- ليس لهنّ الحق بذلك!

فسألته «صوفيا»:

- وكيف ذلك؟ ولماذا لا يكون لهنّ هـذا الحق؟ أعتقد أني أتذكر أنه ورد في التعهد الذي وقعناه كلنا، قبل قدومنا إلى هنا، ذكر للأطفال الذين يمكن أن يولدوا في سيبيريا...

- هـذا يتعلق بالأطفال الـذين يمكـن أن يولـدوا بعـد أن يُطلق سـراح المساجين، ويخلى سبيلهم ويرسلون للبقاء تحت المراقبة في مكان إقامتهم الإجبارية، وهذا هو المقصود بذلك!

- الوثيقة لم تحدّد ذلك، وهو غير واضح فيها.

فهزّ «ليبارسكي» كتفيه:

- هذا أمر مفروغ منه، ولا يحتاج لتوضيح! إذ إنّ النظام لا يسمح بالتقاء الـزوجين ألا بحـضور أحـد الحـراس. وعلـى هـذا الأسـاس، فـإذا كانـت السيدتان «أنّانكوف» و «مورافييفة» في هذه... الحالة، الآن، فهذا يعني أنّ الحارس لم يكن يحضر جميع لقاءاتهما مع زوجيهما!..

- ولكنـك إذن تنسـى أنـك سمحـت لنـا أن نـستقبل أزواجنـا، بينمـا يقـف الحارس، عند الباب، خارج الغرفة!...

- نعم... نعم.... لقد انتابني هذا الضعف... ولم أكن أستطيع أن أظن، أو أن تساورني الشكوك...

كـان يبـدو مرتبكـاً وهـو يختـار كلماتـه، وبقـدر مـا كـان ارتباكـه يتزايد، أخذ يزداد غيظاً مـن هـذه «الفرنسية» التـي تراقبـه بنظرات تنم عن السخرية. وغمغم متذمراً:

- تماماً، أيتها السيدة! كان تفكيري منصرفاً إلى جهة أخرى، فلم أهتم بهذه الأمور السخيفة والتافهة. وهذا يمكن أن يحصل معي، وأنا في هذه السنّ... وفي وضعي الحالي... ولكن ماذا سأقول للمسؤولين في «سان بطرسبورغ» لكي أبرّر هاتين الولادتين غير المشروعتين واللتين تخالفان النظام؟! أنتنّ لم تفكرن في ذلك! وكل المسؤولية سوف تقع عليّ! فربما عُزلت أو نُقلت! ويا لها من مصيبة!... ولكن، كيف حصل أنّ الاثنتين ستضعان في وقت واحد؟

- مجرد مصادفة تدعو إلى الاستياء.

- بل إلى الاستياء الشديد... وبطبيعة الحال، لا أحد يستطيع علم أي شيء حيال نزوات الطبيعة!.. وهل.. أخيراً، هل كل شيء يجري كما ينبغي، بالنسبة لهما؟...

- كلا. فكلتاهما في خطر: إذ إنّ السيدة «مورافيييفّ» ضعيفة جداً. والسيدة «أنّانكوف» تعرضت للبرد منذ بضعة أيام. وهي مصابة الآن بالحمى. والعجوز التي أتت من القرية لمساعدتها، مغفلة وجاهلة تماماً. وإذا لم يحضر الدكتور «وولف» فيخشى من أن تسوء الحالة، وأن يحدث ما لا تحمد عقباه. فعلينا أن نسرع! وأن نسرع كثيراً، يا صاحب السعادة!..

فتلاشى غيظ «ليبارسكي» في الحال، وقال:

- نعم، هيا بنا لنذهب ونحضر الدكتور «وولف».

فأحضر له وصيفه معطفه، قبعته وسيفه. فرفض أن يأخذ السيف، وقال للوصيف:

- أيقظ «أونوفري»، وجهزّ العربة الزحافة، وقل له أن يأتي لكي يوصلنا إلى السجن!

وفي الخارج، لفحتهما الريح بقوة، لدرجة أنّ «صوفيا» تشبثت بذراع «ليبارسكي» لكي لا تفقد توازنها. والثلج الذي كانت تنثره الرياح أخذ

يتطاير على وجهيهما. وأخذا يسيران، وهما يترنحان ويتمايلان عبر زوبعة من العصافير الصغيرة، ولحق بهما الوصيف وهو يحمل فانوساً، وحيال الجو العاصف الذي يكتنفه الظلام، كانت الشعلة الصغيرة ترتجف وتهتز داخل الألواح الزجاجية. وعندما بدت ركائز الحاجز من خلال الظلام، دهشت «صوفيا» كثيراً، وكأنها رأت سفينة تظهر هناك فجأة. وكان الحاجز الخشبي ينتصب أمامها، ضخماً متيناً، وصاح الخفير، منبهاً عناصر الحرس، ومن الباب الموارب، خرج، عبر العاصفة الثلجية، بعض الجنود، بسيقانهم المنحنية، وصف ضابط، يهرول مذعوراً، وهو يحاول تثبيت نطاقه حول خصره.

وبناءً على أمر الجنرال، أرسل جندياً ليحضر الدكتور «وولف» وأدخل الزائرين، إلى قاعة المخفر، الصغيرة. حيث كانت المدفأة تنشر رائحة الأحذية، الكريهة، وبعد برهة قصيرة، شعرت «صوفيا» بالغثيان. وحضر الطبيب، وعلى سيمائه ملامح الوقار والجد. ربطة عنقه رقيقة وناعمة، وعلى رأسه طاقية سوداء، ويحمل بيده حقيبة عدته. وفي اللحظة نفسها، تقريباً، رنت أجراس العربة التي طلبها الجنرال. والتصق الثلاثة ببعضهم كي يتسع لهم صندوقها.

وقالت «صوفيا»:

- علينا أن نذهب أولاً إلى بيت السيدة «أنّانكوف»!

فأدار السائق اتجاه العربة.

وقال الدكتور «وولف»:

- لا بدّ أنّ «أنانكوف» و «مورافييفّ» يرغبان تماماً بالحضور، ألا يمكنك أن تأذن لهما بالخروج من السجن، بسبب هذه الظروف؟

فغمغم «ليبارسكي» متذمراً:

- الذنب ذنبهم في حصول هذه الظروف، ولولا خطأهما، لما حصلت، ولن أقدّم لهما الشكر والمكافأة، لأنهما جعلا زوجتيهما تحملان بالسماح لهما بحضور الولادة! هيا، انطلق بنا، يا «أونوفري»!

فضرب السائق الحصانين بسوطه، فانطلقا. وفي الطريق، ألقى الدكتور «وولف» على «صوفيا» بعض الأسئلة التي لم يفهم «ليبارسكي»، معناها تماماً، ولكنها بدت له غير لائقة. وهي تتعلق بالتشنجات والانقباضات، بالآلام، بالتبول وفقدان المياه...

وفجأة وجدوا أنفسهم في وسط المأساة، حيث بدت «الايسبا» التي تقيم فيها «بولين أنّانكوف» مقلوبة رأساً على عقب: ففي القاعة الكبرى، هنالك قرويات يسخنّ الماء، وهن يتذكرن، كيف حملن ووضعن، فيما مضى. وصاحب المنزل وولداه أحدهما في الرابعة عشرة والآخر في السادسة عشرة من العمر، يقفون، في إحدى الزوايا، بالقرب من المدفأة، دون أن يقوموا بأي عمل، ودون أن يكون لهم الحق بالاطلاع على تلك الأعجوبة وعلى ذلك السر الخفيّ. وعندما لمحوا الجنرال، حيوه بحرارة، وقدموا له أسكملة مغطاة بوسادة مصنوعة من قماش الأكياس فجلس وفك أزرار معطفه. ومن خلف الجدار الفاصل بين القاعتين، أخذ يتصاعد الأنين، ضعيفاً في البداية، ثم أخذ يتلاحق ويقوى، لاهثاً، ينم عن ألم شديد. فدخل الدكتور «وولف» إلى الغرفة المجاورة.

و «ليبارسكي» وقد بقي بمفرده بين الفلاحين، شعر بأن وضعه مضحك، يثير السخرية. فهذه هي المرة الأولى، بعد أن بلغ الخامسة والسبعين من العمر، التي يجد نفسه فيها محشوراً في هذه المهمة النسائية الدامية. كان يصغي لأنين «بولين أنّانكوف» وتأوهاتها، ويحاول أن يتصور آلامها، ويتساءل ماذا أتى يفعل هنا، عند منتصف الليل، وهو يرتدي بزته العسكرية الرسمية. ومع ذلك، فلم يستطع أن يقرّر العودة إلى منزله، قبل

أن يطمئن على وضع المرأتين. ومع استيائه الشديد منهما ومن زوجيهما، فإنه كان يكنّ في قرارة نفسه فضولاً يتسم بالقلق والعطف، بشأن نتيجة الأحداث. كما لو أنه، بسبب ولادة طفلي هذين السجينين، بالقرب من السجن، يمكن أن يكون له حق الرقابة عليهما، كما يقع عليه، بالمقابل، واجب حمايتهما.

وبقدر ما كان يفكر في الأمر، ويستمع لصوت العقل، بقدر ما كان يترسخ لديه الانطباع بأنّ له علاقة بهاتين الولادتين السيبيريتين. فهذه الأسرة التي يتزايد عددها، هي أسرته. وعندما خرج الدكتور «وولف» و «صوفيا» من تلك الغرفة، سألهما بلهجة تتسم بلهفة الأبوّة:

- إيه، وإذن؟ وماذا بعد؟!

- كل شيء على ما يرام، ولكن ما زال الوقت مبكراً! وعلينا أن نذهب إلى بيت «أليكسندرين مورافييفّ»:

فقال له «ليبارسكي»:

- سأرافقكما.

واجتازت الزحافة القرية، منطلقة بأقصى سرعتها، وجميع أجراسها ترنّ بقوة، دون أي مراعاة للنائمين. وبدت بعض الرؤوس من النوافذ. ورؤية هذه الزحافة- الشبح التي تقل جنرالاً، جعل أشجع الذين رأوها، يغوصون في أسرّتهم ويلتفون جيداً بأغطيتهم.

وفي البيت الثاني، وجد «ليبارسكي» من جديد، العجائز الثرثارات نفسهنّ. والقرويين المضطربين والمنذهلين، أنفسهم. والماء الذي يسخن على النار نفسه. والفوضى نفسها الحاصلة في الملابس والبياضات، والأسكملة نفسها ليجلس عليها. ولكن، بدا له أنّ الصراخ والأصوات التي يسمعها هنا، أكثر قوة وحدة من تلك التي سمعها هناك. وكان، هو نفسه، يشعر بالألم، عندما يفكر بتلك الأجساد النسائية الضعيفة التي كانت تتمزق،

لكي تعطي الحياة. وعندما أخبره الدكتور «وولف» أنه ما يزال على «أليكسندرين مورافييفّ» أن تعاني من هذا العذاب ومن هذه الآلام. طوال أربع ساعات، على وجه التقريب، وأنّ «بولين أنّانكوف» ستستمر معاناتها وآلامها، سبع أو ثماني ساعات، عند ذلك انتابه الذعر؛ إنهما، لا هذه ولا تلك، لا تستطيعان تحمل ذلك، إنهما يمكن أن تموتا...

وأخذ يردّد:

- لا يمكن تركهما هكذا، في هذه الحالة!

وهذا الذعر الذي انتابه أزعج الطبيب الذي نصحه أخيراً بأن يذهب وينام. فرفض بحنق أن يفعل ذلك، وكأنه اقترح عليه الهرب من القتال والمعركة محتدمة.

وبعد أن تركوا هناك قابلة نحيلة الجسم، غادر الدكتور «وولف و «صوفيا» والجنرال، المنزل، على رنين أجراس العربة الزحافة. وبعد قليل، كانت بعض زوجات المساجين، يسرعن لمساعدة صديقتيهما ومواساتهما في تلك الساعات التي تتسم بالآلام والأمل. وثلاث مرات، أثناء الليل، قامت العربة بالرحلات، ذهاباً وإياباً، بين المنزلين. ومع مرور الوقت، كانت أمارات التعب تزداد وضوحاً، على وجه «ليبارسكي». وبدا الشعر الأشيب يغطي خدّيه الشاحبين والمترهلين. وبصعوبة كان يُبقي عينيه مفتوحتين.

وعند الفجر، تصاعد صراخ الطفل الوليد في غرفة «أليكسندرين مورافييفّ» وبعد ذلك بقليل، رأى الجنرال، عبر ضباب الأرق، «صوفيا» تبدو، وهي تحمل على ذراعيها «مسخاً» صغيراً، محمرّ الوجه والبشرة، يكشّر، ويرسل صراخاً قوياً.

فصاحت وهتفت جميع النساء الحاضرات ورسمن إشارة الصليب على صدورهنّ.

وقالت «صوفيا»:

- إنها بنت، انظروا، أليست جميلة؟

فوافق الجنرال على ذلك، لكي لا ينفرد برأيه، ويخالف رأي الجميع. وهذا الوصول المفاجئ لمخلوق جديد، على الأرض، أفعمه باحترام يتسم بالرهبة والخوف. ولم يأسف لبقائه حتى انتهاء العلمية.

وبعد أن وضع الرضيع في مهده ورقد، نسيه الجميع، لكي يسرعوا نحو الآخر. وكان الوقت قد تقدم في النهار، عندما وضعت «أليكسندرين مورافييفّ» بدورها، بنتاً. و «ليبارسكي» الذي كان منهكاً من التعب، ولكنه بدا مسروراً، عاد إلى منزله، لكي يحلق ذقنه. ومساءً عندما ذهب ليستطلع أخبار المرأتين اللتين وضعتا، وجد أكثرية النساء مجتمعات عند سرير «أليكسندرين مورافييفّ» التي بدت شاحبة الوجه، بسبب النزيف الذي أصابها، ولكنها كانت مسرورة ومتألقة. وبعد أن هنأها الجنرال، أعتقد أنّ عليه أن يذكر للسيدات الحاضرات، كم سيكون صعباً عليه إقناع السلطات بتقبل هاتين الولادتين والموافقة عليهما. وبدلاً من أن تتفهم «ماري فولكونسكي» ارتباكه وصعوبة موقفه، ادّعت أنه يتخوف، دون سبب مهم، ومن أمر في غاية البساطة:

- وما عليك سوى عدم ذكر هذين الحدثين السعيدين في تقاريرك!

فردّ عليها بلهجة جافّة:

- وهل تظنين أنّ ليس لدى الحكومة وسائل وطرق أخرى للحصول على المعلومات والأخبار؟ فكل شيء يُعرف في «سان بطرسبورغ»! إن لم يكن إلا عن طريق رسائلكن! ولذلك أرجو أن تعدنني بعدم ذكر شيء عن هذا الموضوع...

فتمتمت «أليكسندرين مورافييفّ»:

- وتريد منا ألا نخبر ذوينا بهاتين الولادتين، ونتركهم يجهلون أمرهما؟ ولكنّ هذا سيكون تصرّفاً غير إنساني، أبداً، يا صاحب السعادة!...

فوضع يديه الاثنتين على جبينه، وكأنه يريد أن يمنعه من الانفجار:

- وماذا، إذن؟... وما العمل؟...

فقالت «صوفيا»:

- ولكن، لا شيء، علينا أن ننتظر. وسترى أنّ كل شيء سيمر بسلام. وبالمناسبة، فقد كلفتني «بولين أنّانكوف» أن أسالك فيما إذا كنت توافق، بعد أن كنت إشبينها عند عقد زواجه، أن تكون أيضاً عراب طفلتها؟

وقالت «أليكسندرين مورافييفّ»:

- كنت أهمّ بأن أطلب منك الطلب نفسه من أجل طفلتي. فشعر «ليبارسكي» أنه فقد التوازن في انطلاقته، كما لو أنه وهو يركض على أرض صلبة، وجد نفسه فجأة في منطقة رملية رخوة. ودليل التقدير الذي تلقّاه، جرّده من سلاحه، وجعله يشعر بالضعف، فتمتم:

- أشكركما، فهذا يشرفني كثيراً...

وبعد ذلك، اشتبه أنّ في الأمر خدعة، فاستأنف الكلام بلهجة حازمة:

- علينا ألا نعود إلى الماضي. فما قد حصل، حصل وانتهى، ولكني أودّ أيتها السيدات أن تعدنني، أنكن في المستقبل...

كان وهو يتكلم، يراقب بقلق تلك الوجوه الأنثوية التي تنم عن الخبث. وحوله كانت تدور حياة تتسم بالعذوبة، وبالمعارضة والنقد. وكان هو في آن واحد، الفزاعة والهدف.

وأنهى كلامه، قائلاً:

- وأخيراً، فإني أعتمد عليكن بالاّ يتكرر ذلك، بعد الآن!

وهذه العبارة ذات المعنى المزدوج، جعلت الجميع يبتسمن، فاحمرّ وجه «ليبارسكي». وخطرت على باله فكرة: ألا يوجد أي امرأة حبلى بين هؤلاء النساء اللواتي يصغين إليه؟ وأجال بينهن نظرات متشككة، متفحصاً

قاماتهن داخل فساتينهن الضيقة والمشدودة. وكيف يمكنه أن يثق بهنّ، عند ما يكون أي مشدّ، أي صدارة أو أي زنار، يمكن أن تكفي لإخفاء التطورات التي تطرأ على أجسامهن؟! كلهن كذابات! وأخذ يتوقّع أياماً عصيبة، قادمة، ولذلك، غمغم، متذمراً:

- لا تجبرنني، أيتها السيدات على أن أمنعكنّ من استقبال أزواجكن!

وبدت، هذه المرة، ملامح الجد، على جميع الوجوه. وقالت «كاترين تروبيتزوكوّي»، شاكية متأوهة:

- أمن الممكن، يا صاحب السعادة، أنك تفكر باتخاذ إجراء، على هذه الدرجة من القسوة؟

لم يكن مستاءً من كونه أخافهن، بعد أن سايرهن، وقام بتسليتهنّ لبعض الوقت، ومع ذلك فقد وعد بأن يسمح «للوالدين السعيدين» بزيارة زوجتيهما، في اليوم التالي.

★★★

ولأنه لم يرد من «سان بطرسبورغ» أيّ لوم أو تأنيب بعد مرور شهر على الولادتين، فقد اطمأنّ «ليبارسكي»، وجرى الاحتفال بتعميد المولودتين. وأثناء عودة «صوفيا» إلى المنزل، بعد حضورها ذلك الاحتفال، كانت تحاول التخلص من الحزن الذي انتابها. فهاتان الفتاتان اللتان ولدتا- يمكن القول- في السجن، أيّ مستقبل يؤمل لهما؟. وتذكرت برعب العبارات التي وردت في الوثيقة التي وقعتها، كما وقعتها أيضاً جميع النساء قبل السفر إلى «تشيتا»:

«إنّ زوجات المجرمين السياسيين اللواتي سيلحقن بأزواجهنّ إلى سيبيريا، لن يُعَدّن بعد ذلك سوى زوجات مساجين، حكموا بالسجن، مع الأشغال الشاقة... وأولادهن الذين يولدون هناك، يصبحون عبيداً أرقاء للتاج...»

ولم تكـن تـستطيع أن تـصدّق أن هـذه التعليمـات يمكـن أن تطبّـق بحرفيتهـا. ولكـن، حتـى لـو أنّ الحكومـة بـدت أقـل قـسوة في الممارسـة والتطبيـق، ألا يجب أن يُخشى مـن أن يحكـم علـى أبنـاء «متمـردي كـانون الأول» بـأن يعيشوا في المنفـى طـوال أيـام حيـاتهم؟ كـان الـدكتور «وولـف» وحـده هـو الـذي يتبيّن هـذا الخطـر، ويشعر بـه، وقـد سـبق لـه أن قـال لـ «صوفيا»؛ مـع تلك النظـرة الحزينـة والعميقـة الـتي تُبرز جاذبيتـه وسـحره: «أليس غريباً، يا سيدتي؟ أنّ الطبيعة التي تتقن عادة صنع الأشياء، لم تشأ أن تعطي زوجتي المسجونين، صبيّين للبلاد التي سجنت والديهما.».

في ذلك الحين، كانت جميع السيدات يجلسن مسرورات ويشعرن بنشوة حقيقية، وهن يتأملن الطفلتين الصغيرتين، ويتسابقن إلى الهزّ لهما، ويحلمن بأن يرزقن، بدورهن، طفلاً جميلاً. وهذا الوضع بل هذا الاستعداد ما كان ليبـدو مـستغرباً، لـو لم يكـن بـين الـسيدات الأكثـر حماسـة لـذلك، «مـاري فولكونـسكي»، «ناتـالي فـونفيرين» «أليكـسندرين دافيـدوف» اللـواتي جمـيعهن، تـركن أطفـالهن في روسـيا، مثلمـا فعلـت «أليكـسندرين مورافييفّ». و «صوفيا» الـتي أصبحت تعـرف جيداً أنهـا لـن تـصبح أمّاً، بعد ذلك أبداً، كانت تمتنع عن مجاراتهن في حماستهنّ وولعهنّ. وكـان أسـفها الوحيـد، بهـذا الـشأن هـو أنّ «سـيرج» ينـشأ ويترعـرع، بعيـداً عنهـا، وأنهـا لا تحصل على أخباره إلا عن طريق رسائل «ميشيل بوريسوفيتش».

⋆⋆⋆

مع اقتراب عيد الفصح المجيد، أخذت تبـدو لـدى بعض «متمـردي كـانون الأول» لهفة ورعـة وصـوفية، حقيقية. والـصوم الكـبير، كـان الفـترة الوحيـدة، طـوال الـسنة، الـتي يـسمح لهـم بهـا بالـذهاب إلى الكنيـسة. وكـان معظمهـم يصومون بدقة أثناء «أسبوع الآلام» وكانت الأيقونات في المهاجع تزّين بالشعانين المباركـة، ويمنـع القيـام بـأي عمـل. وكـل يـوم، يرافـق بعـض الجنـود جميـع

المساجين إلى الكنيسة، حيث يخصص لهم مكان بالقرب من الباب. وكان «نيقولا» يصغي بفرح لصوت الشمّاس، الأجش، ولتمتمات الكاهن، الدينية، وينظر إلى مجموعة النساء حيث يلمح بينها جانباً من «صوفيا»، ضائعة هناك، بالقرب من حزمة من الشموع المشتعلة. وفي لحظة «التقديم» أثناء القداس، خيّل إليه أنّ عيني السيد المسيح تتجه نظراتها لكي تقع على تلك البقعة الصغيرة جداً، من الأرض، والتي تدعى «تشيتا». عند ذلك، كان يسجد، ويرسم إشارة الصليب بحماسة وبراءة الطفولة، وينادي في سره وفي قلبه، طالباً عدالة الله. وكانت أمنيته، كما هي أمنية جميع رفاقه، هي حضور قداس منتصف الليل، المهيب، يوم «سبت النور»، ولكنهم حُرموا من هذه الخطوة، بسبب مقتضيات منع التجول. وأرسل «ليبارسكي» إلى كل منهم بيضة مسلوقة ملونة وقطعة حلوى، مقدمة من الإدارة، حسب الطقوس والشعائر الدينية الاعتيادية. وليلة عيد الفصح سمعوا من بعيد رنين جرس الكنيسة، الصغير المصدوع، وتعانق الأصدقاء فيما بينهم، وعيونهم تطفح بالدموع. وفي اليوم التالي، أتى «ليبارسكي» وهنأهم في السجن. وإن كان كاثوليكياً، فقد تقيد بتقاليد المذهب الأرثوذكسي، وصرخ عند عتبة كل مهجع:

- المسيح قام!

ولو أنه كان يعلن العفو عنهم لما استطاع أن يضع مزيداً من البهجة في نبرات صوته.

وكان المساجين يردّون عليه، بصوت واحد:

- حقّاً، قام!

وهذه الكلمات البسيطة، التي تُردّد كل سنة منذ عدة قرون، كان لها على «نيقولا» قوة وتأثير مهدّئان. وكانت تجعله يشعر بالارتياح، وبقوة العزيمة، كما لو أنه بعد مسيرة طويلة في إحدى الغابات وصل أخيراً إلى فرجة تنيرها أشعة الشمس.

وبعد أن مرت أيام العيد، ذكرت «صوفيا» الجنرال بوعده بالتدخل بمزيد من القوة والاهتمام في قضية «نيكيتا». ولم يتذرع «ليبارسكي»، هذه المرة، بأي حجة أو معذرة، وأقسم بأنه سيكتب إلى «زيدلير» في اليوم التالي. فتجدّد الأمل لدى «صوفيا». وقدوم أيام الربيع الجميلة، حدا بالجميع أن يشعروا بالتفاؤل. فأخذوا يبنون المنازل الجديدة في القرية. وأتى بعض التجار للإقامة والعمل فيها، آملين الربح الوفير، مع وجود كل تلك السيدات اللواتي يتلقين النقود من روسيا. وكثير من سكان «تشيتا» فتحوا، بدورهم دكاكين. وظهرت البسطات ومعروضات الأقمشة، والأدوات المنزلية، ومتاجر السكاكين، ومعدات المطابخ. وتزايد عدد السكان، وأخذوا يغتنون ويجمعون الثروات، ويباركون «السادة المساجين» الذين كانوا بالأساس، العامل الأول في هذا الازدهار غير المتوقع.

وفي شهر حزيران «يونيو» ارتفعت الحرارة كثيراً، لدرجة أنّ «ليبارسكي» سمح للمساجين أن يسبحوا ويغتسلوا في النهر. ولم تعد أعمال حفر التراب، في موقع «قبر الشيطان» بالنسبة لهم سوى تمارين تمهيدية، استعداداً للسباحة والغطس في المياه الباردة. وبعد ذلك، كانوا يجفّفون أجسادهم على ضفة النهر، وهم يتمازحون، ويتحدثون بتراخٍ وكسل، عن شؤون العالم. وكانت الحرب مع الأتراك تسترعي اهتمامهم. وبعد بداياتهم الصعبة، كان الروس قد تماسكوا واستعدوا جيداً، وأخذوا، بقيادة الجنرال «ديبيبتش» الملقب بـ «سماور باشا» يسيرون بسرعة من نصر إلى نصر. وإذا استمر سيرهم على هذا المنوال، فإنهم يمكن أن يعسكروا ويخيموا قريباً أمام مداخل القسطنطينية. وعندما سيسحق العدو نهائياً، فإنّ القيصر، لكي يحتفل بانتصاره، سوف يصدر، دون أي شك، مرسوماً يعلن فيه عفواً، سيكون «متمردو كانون الأول» أول المستفيدين منه.

هذا ما أبلغهم إياه «ليبارسكي»، وجميعهم كانوا متأكدين من ذلك.

وبفرحة عارمة تلقوا، نحو منتصف أيلول «سبتمبر» نبأ توقيع معاهدة «أندرينو يل»، التي يفتح للروس، بموجبها مضيق الدردنيل والبوسفور، ويسلّم لهم مصب نهر الدانوب، ويعلن أيضاً. بموجبها استقلال اليونان. ولكن إذا كان القيصر قد حقق هذا الفوز الدبلوماسي على فرنسا وإنكلترا، وأخلى سبيل الأسرى الأتراك، وفي مقدمتهم الباشاوات والضباط الكبار، فيبدو أنه قد نُسي أنّ هنالك، في أقاصي سيبيريا، مساجين روس، كانوا لا يزالون يأملون أن يشملهم أيضاً عفوه ورحمته. وأخذت الأيام تمرّ، وفي «تشيتا»، أخذ أولئك الذين فرحوا أكثر من الجميع يفقدون الأمل، وأخذت تتلاشى أحلامهم وتزول أوهامهم، كلها، وكان «نيقولا» عند عودته من أعمال السخرة، يتمشى في معظم الأحيان، في الباحة بمفرده، يتوقف أمام فتحة في الحاجز وينظر إلى الطريق الذي لا يؤدي إلى أي مكان. والبهجة التي شعر بها في عيد الفصح، لم تعد سوى ذكرى غامضة، وقد امتد منبسطاً أمامه، على مدى النظر، القلق والسأم. وأصبح يشعر أنه بعيد مئات الأميال عن الحياة الحقيقية والواقعية، وأنه منقطع ومفصول عن كل شيء، وقد نُقل وغُرس في كوكب آخر، يحيط به فراغ يشبه فراغ الفضاء الكائن بين الكواكب والنجوم. فهل يكون من الممكن أنه، مع الاسم الذي يحمله، ومع ماضيه، وثروته، وعلاقاته، وقوته، ومهابته، سيكون عليه، حتى آخر يوم في حياته أن يقنع ويرضى مكتفياً بالعيش في الوحدة والعزلة في أقاصي سيبيريا؟ وكان أحياناً يشعر بالندم لتخلّيه عن فكرة الهرب من السجن. وكان وجود «صوفيا» هو العامل الوحيد الذي يساعده على التغلب على الانحطاط النفسي، وعلى الإحباط اللذين يشعر بهما أحياناً.

وصباح ذات يوم، من شهر تشرين الأول «أكتوبر» بينما كانت «صوفيا» تساعد «بولشيري» في تنظيف الغرفة وترتيبها، أتى حاجب، ودعاها لمقابلة

الجنـرال. فلم يخامرهـا أي شـك بأنـه اسـتدعاها لكـي يخبرهـا بقـرب عـودة «نيـكيتـا» فهرولـت مـسرعة إلى الـشارع، وقلبهـا يقفـز في صـدرها، فرحـاً وامتناناً.

ولكنّ «ليبارسـكي» استقبلها بوجه متهجم وحـزين، فشعرت بـالخوف، وجلسـت، وقـد ارتخـت سـاقاها، علـى إحـدى الأرائـك، وأخـذت، تنتظـر، متوقعة صدمة قوية.

فقال لها «ليبارسـكي»:

- لديّ أخبار محزنة، عليّ أن أبلغك إياها، وهي قادمة من فرنسا.

وفي الحـال، فكـرت بوالـديها اللذين لم تكـن تعـرف عنهمـا شـيئاً منـذ أكثر من سنتين. وتمتمت:

- أمي؟

فقال لها «ليبارسـكي»:

- نعم، لقـد توفيـت في مطلـع هـذه السـنة، بعـد أن عانـت مـن مـرض طـال أمده. ولم يعش والدك بعدها سوى بضعة شـهور، فقـد توفي في الثـاني عشـر مـن تمـوز «يوليـو» الماضـي. والجنـرال «بنكنـدورف» الـذي أبلغـه ذلـك سـفير فرنسا في «سـان بطرسـبورغ» بصورة رسميـة، كلّفني بـأن أبلغـك هـذا الخبـر المحزن، وأن أنقل إليك أصدق تعازيه.

فصمتت «صوفيا» وشعرت كأن ذهنها قد تعطل عن العمل، واسـتسلمت بهدوء للحزن وبشيء من التعقل. كان والداها في اختفيا من حياتها منذ زمن طويل، بحيث إنها اعتادت على التفكير بهما، ليس كمخلوقين حيّين، بل كذكرى، تحركها وتثيرها أو تركنها وتخبّئها، كما يحلو لهـا، وحسب رغبتها ونزواتها. وموتهما الذي لم يحدث لديها أي مفاجـأة، ثبّت لـديها ذلـك الانطبـاع بالغيـاب المحـتم الـذي كانـت تـشعر بـه حيالهمـا، علـى الـدوام. ولم تكـن تـستطيع التـألم والتوجـع مـن حقيقـة كانـت قريبـة مـن أحلامهـا ومـن

تفكيرها. ولم يتغير شيء بالنسبة لها، في ظاهر الأمر. فهي لم تصبح أكثر عزلة ووحدة من السابق، وفي هذا البعد الشاسع عنهما، وبعد هذا الفراق الطويل الأمد، لم تشعر أنها خسرت محبتهما لها. وكل ما هنالك أنها شعرت بالمرارة وهي تستعيد ذكرى أوقات طفولتها، وقد غادر هذا العالم شاهداها الأخيران. وشعرت بغصة في حلقها، وأخذ قلبها يخفق بمزيد من السرعة، وصرخت في داخلها فتاة صغيرة، وبكت، وسط حديقة، وبالقرب من أرجوحة...

وقال لها «ليبارسكي»:

- إني أتصور ألمك الشديد، يا سيدتي، فلا شيء يمكن أن يعوّض عن الوالدين المحبوبين. فهل تستطيع مشاعر الصداقة التي تحيط بك، أن تخفّف قليلاً من وقع المصيبة عليك؟

فانزعجت من هذه التعازي التي اتصفت بالمغالاة، وحولت نظرها إلى جهة أخرى.

واستأنف «ليبارسكي» الكلام:

- وبالطبع، فإنّ وضعك، وأنت هنا في «تشيتا» لا يسمح لك إن تهتمي شخصياً بأمر الميراث. ولكنّ حقوقك ستكون محفوظة، إذ أنّ كاتب العدل الذي يتولى شؤون والديك، قد فوّض من قبلهما، وهو مؤهل لاتخاذ كافة الإجراءات الضرورية للمحافظة على حقوقك. وسوف يدير على أحسن وجه الأموال، والأملاك المنقولة وغير المنقولة التي تشكل ميراثك، وسوف تستلمين أرباحها وإيراداتها، فيما إذا حصلت على حريتك، واستطعت العودة إلى فرنسا...

فتمتمت، وهي تبتسم بحزن:

- العودة إلى فرنسا!... أيمكن أن تكون تؤمن حقاً بما تقول؟

فغمغم «ليبارسكي»:

- بلى، بالطبع. يجب أن تأملي ذلك، فرحمة الله واسعة، لا حدود لها!...

- ولكنّ رحمة القيصر ليست كذلك!

فبسط ذراعيه، في حركة كالتي يبديها بجناحيه طائر عاجز، لا حول له ولا قوة. فنهضت «صوفيا» مستأذنة بالانصراف، وفي قلبها ذلك الحزن المريك، وكأنه شبيه بكذبة من الأكاذيب. وكان حدادها يمنعها من أن تبدي أي اهتمام ببقية شؤون العالم، ولكنها لم تستطع أن تتمالك نفسها، وسألت:

- ألم يصلك شيء، حتى الآن، من الجنرال «زيدلير»؟

وبدا مندهشاً من اهتمامها وقلقها الشديدين، بشأن قضية بسيطة تتعلق بأحد الخدم.

وأجابها:

- بلى، ولكني كنت أتردد في التحدث إليك بهذا الشأن. فقد تلقيت منه صباح اليوم رسالة، يعلمني فيها أنّ خادمك قد سافر فارتعشت، كأن شحنة كهربائية قد اخترقت جسمها، وغمغمت:

- سافر؟ إلى أين؟

- لا أحد يعرف إلى أين ذهب. فقد غادر مكان عمله وهرب من المدينة.

- ومتى فعل ذلك؟

- «زيدلير» لم يحدّد تاريخ هربه، في الرسالة. وهو يقول فيها إنه أصدر الأمر بالبحث عنه، فقط، وأنا أنوي أن أكتب له أنه إذا عثر على فتاك، أن يتكرم بإرساله إلى هنا، بعد أن يشدّ له أذنيه.

فقالت، وقد احمرّ وجهها:

- أشكرك.

كانت مضطربة وخجلة من السعادة التي بدت على وجهها. فلا شكّ بأنه لم يمض وقت طويل على رحيل «نيكيتا» من تلك المدينة، لكي يلحق بها،

وحتى لو أنّ «جنود القوزاق» لحقوا به وألقوا عليه القبض، فإنهم سيقتادونه إلى «تشيتا». وكانت تدرك الجانب الجنوني الكائن في هذا الاعتقاد، ولكنّ ذلك لم يثبّط عزيمتها.

كان «ليبارسكي» يراقبها، صامتاً، بعين الخبير، الثاقبة. فلم تعد تستطيع تحمّل نظراته. وبسرعة، هربت، اجتازت القرية، وهي تمتنع عن الركض، واختبأت في غرفتها، مع حزنها، وأملها.

٧

في عيد الميلاد، لم يُسمح للمساجين بالذهاب إلى الكنيسة، ولكنهم تلقّوا زيارة الكاهن في السجن. وأقيم مذبح- عبارة عن منضدة، غطّيت بستارة بيضاء، ووضعت عليها أيقونة- في أكثر القاعات اتساعاً. وارتدى الكاهن لباسه الكهنوتي الرسمي، ورتل الصلوات أمام المساجين الذين ركعوا على الأرض، ثم رشّ الأسرة والجدران بالماء المبارك. وبعد ذهابه بساعة تقريباً، ظلت رائحة البخور منتشرة في السجن. ثم طغت روائح السجن الاعتيادية، على كل شيء. وعادت الحياة فأخذت مجراها الطبيعي والمعتاد، كما كانت في الماضي.

وفي التاسع والعشرين من كانون الأول «ديسمبر»، جمعت «ماري فولكونسكي» بعض الأصدقاء في منزلها، بمناسبة عيد ميلادها. ومنح «ليبارسكي» الأذن للمساجين الذين دعتهم، بالتغيب عن السجن، حتى الساعة العاشرة، ولكنه لم يحضر هو، بدافع من التحفظ. وكانت السيدات قد هيّأن الكاتو والحلويات. وبعض الرجال هيؤوا التهاني والمديح ونظموها شعراً. وألقى «أودويفسكي» قصيدة من نظمه، يشبّه فيها زوجات المساجين السياسيين، بـ «ملائكة» هبطت من السماء لكي تواسي «شهداء الحرية» وتخفّف من بؤسهم وعذابهم. وكان هذا أول تكريم يقدم بصورة علنية لقرينات «متمردي كانون الأول».

وأصغت إليه السيدات بوجوه فرحة ومستبشرة. بينما جلس أزواجهن، في زاوية خلفية، بزهو يتسم بالتواضع، كأنهم أمراء، وأزواج ملكات. وكان

جميع المساجين غير المتزوجين يحسدون هؤلاء الأزواج والزوجات الذين يثيرون الإعجاب. وشدّ «نيقولا» بقوة على يد «صوفيا» تعبيراً عن شكره إياها. والتقت عيناهما بنظرات تعبر عن تعاطف وعذوبة عجيبين. وهي التي تأثرت بموسيقى أبيات الشعر، فأنستها همها الأشد خصوصية والأقل مدعاة للفخر، وجعلتها تستطيع مشاركة بقية النساء فيما يشعرن به من ألفة وفرح، وكانت ممتنة منهن لمساعدتها على أن تبدو تماماً كما كانت تريد أن تكون: أي بسيطة، خيّرة وشجاعة... ودوّى التصفيق عند الانتهاء من إلقاء الأشعار. وبكت بعض السيدات. وأخذ السادة يسعلون سعالاً خفيفاً ومصطنعاً لإخفاء تأثرهم وانفعالهم.

وسجل «أودويفسكي» أشعاره في «البوم» «ماري فولكونسكي» ووعد بإهداء نسخة منها إلى كل واحدة من «الملائكة» اللواتي ألهمنه تلك الأشعار بما أبدينه من وفاء وإخلاص. وفي الساعة العاشرة، أتى بعض الجنود لاصطحاب المدعوين وإعادتهم إلى السجن. وفجأة خلت القاعة من الرجال، ولم يبق فيها أي رجل، بحيث إنه قد خيل للنساء أنّ الضياء الذي كان ينير الغرفة قد تلاشى وانسحب معهم. فبدا التعب على وجوه النساء، وذوت فساتينهن وزال رونقها. وبطلات الحفلة ألفين أنفسهن وحيدات، وهن يشعرن بشيء من الخيبة، والارتباك، بين الأقداح والكؤوس الفارغة، والصحون الوسخة، ورائحة التبغ والشموع التي ينتشر الدخان من شعلة فتيلها.

★★★

وبعد ذلك ببعض الوقت، كتب «ليبارسكي» إلى «سان بطرسبورغ»، طالباً السماح للدكتور «وولف» بصورة رسمية أن يعالج المساجين وزوجاتهم، و «أي شخص يبدي الرغبة بأن يعالج من قبله». فوافق القيصر، متسامحاً، وأجاب بأن الطبيب، يستطيع من الآن فصاعداً، ممارسة مهنته داخل

السجن وخارجه. وهكذا، فقد اطمأن الجنرال على المستقبل الصحي لمستوطنته الصغيرة، وعند ذلك، سافر مستقلاً إحدى العربات، يرافقه ابن أخيه «جوزيف» وبعض جنود المرافقة، للقيام بجولة تفتيشية. وناب عنه في إدارة السجن الرائد «روزنبيرج». وخشيت «صوفيا» من عدم التمكن من الحصول على مساعدة الجنرال، في الوقت الذي سيكون فيه «نيكيتا» بأمس الحاجة لهذه المساعدة. ولكنّ الأسابيع أخذت تمرّ وتنقضي دون أن يبدو أي أثر لـ «نيكيتا». ولم يكن يبدو على «زيدلير» أنه في عجلة من أمره للعثور على الهارب.

ورجع «ليبارسكي» من جولته في الحادي عشر من آذار «مارس» وفي اليوم التالي، دعا جميع المساجين للاجتماع في الباحة. حيث كانت أشعة الشمس الصفراء تدفئ الثلج. ومن ملامح وجه الجنرال عرف بعض المساجين أنه يحمل خبراً مهماً. ربما كان خبر العفو؟!

لم يجرؤ أحد على تصديق ذلك.

وقال:

- لقد وصلت بالأمس من «بيتروفسك» حيث يبنى من أجلكم سجن جديد، أكثر اتساعاً وأفضل تنظيماً وتجهيزاً من هذا السجن. والأعمال التي أمر القيصر بالقيام بها منذ أكثر من سنتين، قد انجرت تقريباً. وأعتقد أننا سنستطيع الانتقال للإقامة هناك، خلال الصيف المقبل.

وبدا وجوم شديد على جميع الوجوه، جعله يرى أنّ من الضروري أن يضيف:

- أنتم تخطئون، أيها السادة، إذا لم تسرّوا بهذا الإجراء، الذي من المؤكد، أنه سيجعل حياتكم أقل مشقة، وأكثر يسراً وراحة.

فانحنى «نيقولا» نحو «يوري ألمازوف» وهمس في أذنه:

- بدلاً من أن يطلق سراحنا الإمبراطور، فهو ينقلنا من سجن إلى آخر! فما رأيك بذلك؟

فغمغم «يوري ألمازوف»:

- إنّ هذا لم يدهشني، إذ إنّ قيصرنا لديه من يرث ويتعلم منهم! فهو غضوب كأخيه «أليكسندر» وحقود كوالده «بولس»!

وقال «ليبارسكي» بلهجة مطمئنة ومشجعة:

- في «بتروفسك» سيكون لكل منكم غرفة خاصة به. وعلاوة على ذلك، فقد سمح القيصر للمتزوجين بالإقامة مع زوجاتهم.

فسأله أحدهم:

- أين؟ في القرية؟

- كلا، بل في السجن.

فتصاعدت الضحكات الساخرة، بين الحضور.

فتساءل «ليبارسكي»:

- لا أدري ما الذي يضحككم! سيكون في السجن جناح خاص للعائلات، أي للمتزوجين وزوجاتهم، وهذا كل ما هنالك!

فصاح «لورير» هازئاً:

- إنها جنّة الفردوس!

وحصل هرج ومرج بين جمهور المساجين. واستمر العازبون في ضحكهم، بقوة ووقاحة، ولكنّ المتزوجين أخذوا ينفصلون شيئاً فشيئاً عن رفاقهم وبدؤوا ينظرون إلى الوضع من وجهة نظر شخصية تتفق ومصلحتهم. و «نيقولا» عندما تصور أنه سيستأنف العيش بصورة مشتركة مع «صوفيا» لم يعد يعرف نفسه من فرط سعادته: أن يمضي الليل بقربها! فهذا لم يتح له منذ ما يقرب من خمس سنوات! كلّ الليل! وكل ليلة! وفي النهار، وكل نهار عبر الضياء، يقضيانه سوية، حيث يتجدّد الحب بحضور وحرارة وعطر

المرأة، المنشغلة بكثير من الأعمال التافهة والتي لا معنى لها. فقال، وقد عجز عن تمالك نفسه:

- سيكون هذا، حلاً ممتازاً!

ولم يكد يلفظ هذه الجملة، حتى ندم على ذلك. فهل هو بجانب الإدارة، لكي يساعد «ليبارسكي» في مرافعته ودفاعه عن المشروع الجديد؟ ولكن، لحسن الحظ، فقد تدخل أزواج آخرون معلنين تأييدهم:

- نعم، نعم! ولم لا؟...

ولكنّ أصواتهم المؤيدة للمشروع، على استحياء، اصطدمت باعتراضات الجماعة الكبيرة العدد من الرجال الذين لا نساء لهم. وجميع هؤلاء وقفوا ضد الانتقال إلى السجن الجديد. وتدفقت ضوضاء قوية نحو الجنرال، معلنة رفضها للمشروع الجديد.

وصاح «أودويفسكي»:

- نحن في وضع جيد، هنا، في «تشيتا» يا صاحب السعادة. وكل منا قد ألف المكان واعتاد عليه. والمناخ يناسبنا. والسكان أصبحوا يعرفوننا ويحبوننا. فلماذا تريدون أن ترسلونا، بأي ثمن إلى مكان آخر؟

كان واضحاً أنّ موقف المساجين الذي يتسم بالرفض والتمرد، قد أغاظ «ليبارسكي» وأزعجه. كان يشعر بالبرد، ويتمايل في وقفته، راغباً بالعودة إلى منزله، لذلك قال بحنق، وقد تجهّم وجهه:

- لا يحقّ لنا أن نناقش أوامر القيصر! أحييكم أيها السادة.

وانصرف، عبر صمت عدائي، خيم على الجميع.

في اليوم التالي وكما كان يتوقع، أتت السيدات، في وفرٍ، لمقابلته. فأجلسهن، بشكل نصف دائرة أمامه، وتمركز، كعادته، خلف حصن مكتبه. فمن الذي نقل لهنّ المعلومات بهذه السرعة؟ إنهنّ، بالتأكيد قد حصلن عليها من جنود «القوزاق» الذين كانوا يرافقونه، بعد أن قدّمن لهم

الرشاوى. وعلى أي حال، فإنّ الصفات الخاصة بالسجن الجديد، لم تعد تشكل سراً، بالنسبة لهنّ. وفي بداية الأمر، أخذن ينتقدن الموقع، والمناخ. والواقع أنه بسبب عدم التنسيق بين مختلف المصالح الإدارية، فقد بني السجن على أرض منخفضة، سبخة ومنقعية، غير بعيدة عن المعمل الكائن في «بيتروفسك». ولأنّ «ليبارسكي» لا يمكنه أن ينسب الخطأ للسلطات العليا، فقد أكّد للسيدات بأنّ مخاوفهنّ مبالغ فيها كثيراً، وأنّ الأرض صحية، والهواء جاف، والبلد خصب ومزدهر، وأن كان يوجد في الأماكن المجاورة «بعض المستنقعات الصغيرة»... وكنّ قد سمعن أيضاً بعدم وجود نوافذ. وهنا أيضاً، كان الحق معهن، ولكنه، طمأنهنّ:

- لا يوجد نوافذ، هذا صحيح، ولكنّ الضوء سيدخل قوياً وبغزارة إلى كل زنزانة من أعلى الباب، الذي سيزوّد بالزجاج. وأخيراً، فإني مندهش جداً من تحفّظاتكنّ، في حين أنّ أريحية الإمبراطور، سوف تتيح لكنّ، كما تتمنّيْن جميعكنّ، الإقامة سوية مع أزواجكن!

فصاحت «بولين أنّانكوف»:

- ربما كان ذلك! ولكني لا أرى جيداً كيف سأستطيع أن أربي أولادي في سجن!

فتمتم «ليبارسكي» بلهجة ساخرة:

أولادك؟ ولماذا، صيغة الجمع هذه؟

- لأني أنتظر مولوداً آخر، يا صاحب السعادة!

فقطّب «ليبارسكي» حاجبيه: «إنهنّ يسرعن في العمل، هؤلاء النساء الشابات المغرمات!» فمنذ الولادتين اللتين حصلتا في آن واحد تقريباً، السنة الماضية، وضعت أيضاً «ماري فولكونسكي» و «أليكسندرين دافيدوف» بدورهما. وإذا تركت لهنّ حرية العمل على هذا المنوال، فعن قريب ينبغي أن تضاف إلى السجن روضة للأطفال!

وسألها بلهجة تنم عن التذمر:

- ومتى تتوقعين هذا المولود؟

فابتسمت «بولين» بعذوبة، وهمست، كما لو أنها تبوح بسرٍ، لأعزّ صديقاتها:

- في شهر أيار «مايو»:

- أهنئك! هل هذا كل ما هنالك؟ ألا يوجد ولادات أخرى متوقعة؟

كان الجنرال قد وقف لكي يلقي هذا السؤال بكل القوة الضرورية، ووجّه نظرة قاسية لهؤلاء النسوة الولادات اللواتي لا يمكن تأديبهن.

وتمتمت «كاترين تروبيتزوكوّي» وهي تحني رأسها:

- أنا أيضاً سأصبح أماً، يا صاحب السعادة.

فجلس الجنرال، وقد بدا مرهقاً. وبعد برهة، صرّح بجفاء، وكأنه برز من بحر من الأفكار السوداء، كان يغوص فيه:

- أيتها السيدات، لقد سبق لي أن درست المشكلة بمختلف صورها ومن كل وجوهها. ومن المؤكد أنّ نظام السجون يمنع وجود أطفال صغار السن، داخل الزنزانات. ولا يمكن أن نتصور، مثلاً، أنّ بعض الأمهات يشعلن من جديد مصباحاً، بعد إطفاء الأضواء، لأنّ عليهم أن يعتنين بأطفالهنّ، ولا أن يذهبن إلى المطبخ، في عزّ الليل لتسخين بعض الماء... أو أي شيء آخر... ولا أن يطلبن طبيباً أو مرضعة، بعد أن تكون الأبواب قد أغلقت، وأنّ الخفراء لديهم أوامر بعدم السماح لأحد بالمرور أو الخروج!... وفيما يتعلق بهذا الشأن، فأنتن تعلمن أني لا أتساهل أبداً! وعلى الزوجات اللواتي يقررن الإقامة مع أزواجهن أن ينفصلن عن أطفالهن!

فقالت «ماري فولكونسكي» بحدّة وخشونة:

- أتريد أن نلقي بهم في النهر كي يغرقوا كصغار الكلاب؟

فتنهد «ليبارسكي» منزعجاً، وتابع:

- إليكنّ ماذا تصورت، بهذا الشأن: لن يكون على الزوجات اللواتي لديهن أطفال، سوى أن يعملن على بناء بيوت صغيرة بالقرب من السجن. وفي هذه البيوت الصغيرة يضعن أطفالهن مع بعض الخادمات الموثوقات. وهنّ أنفسهن، وإن كن يقضين معظم أوقاتهن مع أزواجهن، في السجن، يستطعن، بقدر ما يرغبن اجتياز الشارع والذهاب لتفقد أطفالهن، والعناية بهم، وإعطاء الإرشادات والتعليمات اللازمة للخادمات...

فقالت «ماري فولكونسكي»:

- أي باختصار، سيكون علينا أن نركض دائماً بين السجن وغرفة الأطفال! وهذا غير معقول، أبداً!

وقالت «أليكسندرين مورافييفّ»:

- ومن أين نأتي بالنقود من أجل البناء؟

فأيدتها «بولين أنّانكوف»، قائلة:

- هل الدولة هي التي ستعطينا النقود اللازمة لكي نبني تلك البيوت الصغيرة.

وقالت «كاترين تروبيتزوكوّي»، بأعلى صوتها:

- يجب عليها أن تفعل ذلك. لأننا، على أي حال، لسنا نحن الذين طلبنا الانتقال إلى «بيتروفسك»!

فبسط «ليبارسكي» يده المسنّة والمبقعة، في حركة تعبّر عن التهدئة:

- البناء لن يكلّفكن شيئاً، على وجه التقريب. إذ إنّ المتعهدين الذين بنوا السجن أكدوا لي أنهم على استعداد للقبول بأسعار منخفضة جداً إذا عهدتن إليهم بالقيام بالعمل. إذ إنّ لديهم في المكان نفسه جميع العمال والمواد والمعدات اللازمة للبناء. وفي تقديري، أيتها السيدات أنكنّ إذا تصرفتنّ هكذا، فإنكن تؤمنّ معيشة مريحة في المستقبل، وتستخدمن مواردكنّ بصورة مجدية وذكية...

وبينما كان يتكلم، أخذت «صوفيا» تتساءل فيما إذا لم يكن عليها هي أيضاً، أن تبني بيتاً صغيراً. حقاً، إنها ستمضي معظم الوقت، في السجن مع «نيقولا»، ولكن في بعض الأحيان، إذا سمح بذلك «ليبارسكي» فإنه سيأتي ليلتقي بها، خارج تلك الجدران المخيفة، وبعيداً عنها، في الغرفة التي تكون قد رتبتها وهيأتها لاستقباله فيها، حيث لا شيء يذكره بأنه محكوم عليه بالسجن وبالنفي. وكانت واثقة تماماً، أنهما سيكونان سعيدين هناك، كما كانا في الفترة الأولى من زواجهما.

وكإحدى هاويات بناء الأعشاش، كانت السرعة تحثها على إيجاد الإطار والزينات للقاءاتهما: أربع قطع من الخشب، قطعة قماش، وحفنة من الزغب، وثلاث زهرات في إناء. وعلاوة على ذلك، يجب توقّع وصول «نيكيتا»، وهو سيقيم في المستودع أو في سقيفة البيت. وسيتولى حراسة المنزل أثناء غيابهما. وكل شيء سوف يتدبر ويترتب بسهولة خارقة للعادة، كما يحصل في الأحلام، حيث ينقل النائم جبالاً بحركة من إصبعه. وقطع على «صوفيا» سلسلة أفكارها صوت نجم عن تحرك بعض الكراسي، وأعادها إلى مكتب الجنرال، ومن أول نظرة، تأكد لديها أنّ النساء لم يكنّ مستاءات، بالقدر الذي كنّ يردن أن يظهرن به. ولو لم يكن هنالك وضع يجبرهنّ على التذمر والشكوى من السلطات، على الدوام، ربما كنّ، حتى قد وافقن على الاعتراف بأن اقتراح «ليبارسكي» قد غمرهنّ بالفرح.

ورافقهنّ حتى الباب، وانحنى أمامهن، قائلاً:

- أرجو إعلامي، بقراراتكن، أيتها السيدات، ينبغي عدم إضاعة الوقت، إذا كانت لديكنّ النية بالبناء.

وخرجت «صوفيا» مع بقية النساء، وفي الرواق اعترضها جنديّ:

- هل أنت السيدة «أوزاريف»؟

- نعم.

- سعادته يطلب منك أن تعودي.

- الآن؟

- نعم.

فدهشت، واعتذرت من رفيقاتها، وعادت إلى الغرفة الكبيرة. حيث أحدث لديها منظر الأرائك المصفوفة على شكل نصف دائرة. انطباعاً بأنها وصلت بعد انتهاء عرض إحدى المسرحيات. ودعاها «ليبارسكي» للجلوس، وظل هو واقفاً، وقال وقد بدا مرتبكاً:

- اعذريني لأني استدعيتك. فقصة هذا الانتقال، قد أتعبت ذهني! وكدت، تقريباً أنسى، بأنّ لديّ أخباراً لك.

نعم، فخلال جولتي، مررت في «ايركوتسك» وقابلت «زيدلير». والتحقيق بشأن اختفاء خادمك قد انتهى. وقد أدّى إلى خاتمة محزنة جداً.

وتوقف لحظة عن الكلام، ووجه نظرة مباشرة إلى عيني «صوفيا» وأضاف:

- ويبدو من التحقيق أنّ كل شيء يؤكد أنه قد مات، يا سيدتي. فحدث فراغ تام في دماغ «صوفيا» وابيضّت وتلاشت أفكارها، وبصوت ضعيف تمتمت:

- مات؟... هذا ليس صحيحاً!...

- بلى!... ويا للأسف!... وهناك أقوى الفرص لكي....

فقاطعته بغيظ شديد:

- كيف. وماذا تعني بأقوى الفرص؟ لا يمكن أن يُعلن عن أمر كهذا، دون التأكد منه تماماً! فهل رأيته؟ أو رآه أحد مّا؟ وهل يستطيع أحد أن يقول؟...

- إن وفاته تعود إلى أكثر من سنتين.

فشعرت بالإحباط، وأنها قد غُلبت على أمرها، ثم عادت إلى الهجوم، بشعور عدواني من عدم التصديق:

- لو أنه مات منذ هذا الزمن الطويل، لكنت أخبرت بذلك! فأنا لي علاقات وبعض المعارف في «ايركوتسك»!

- إنه لم يمت في «ايروكوتسك» بل في «فريخني - أودنسك» والأمر الذي أعاق سير التحقيق وأخّره، هو أنه لم يكن يحمل هوية ولا أوراقاً، وأنه رفض باستمرار التصريح باسمه. وكان قد قتل دركياً، بالجرم المشهود. وفي هذه الحالة، تتم عندنا إجراءات العدالة بأقصى السرعة. وهكذا فقد استجوب بسرعة، وطلب منه بإلحاح أن يقول من هو، ومن أين أتى، ولأنه ظل مصراً على التزام الصمت...

ولم يكمل جملته، بل ألقى نظرة جانبية على «صوفيا» وأخذ يشرح لها، بعد أن غيّر لهجته لكي يلهيها ويجنبها وصف صورة مؤلمة.

- كانت القضية قد حفظت، وقد اقتنعت السلطات بعد إمكانية تحديد هوية القاتل، عندما أيقظت الرسائل التي كتبتها بناء على إلحاحك، اهتمام «زيدلير» بهذه القضية، من جديد. وفي الحال، أخذ يقارن بين خادمك الشاب، الذي ألقى عليه القبض، بالقرب من «فريخني - أودنسك».

فالتفتت قليلاً إلى جهة أخرى بينما كان يتكلم، كما لو أنها كانت تصغي، في الوقت نفسه، إلى شخص آخر. وفجأة سألته:

- وهذا الرجل... الذي أُلقي عليه القبض بالقرب من «فريخني - ايركوتسك» كيف مات؟

- لقد نُفذ فيه حكم إعدام!

- أتعني أنه أعدم رمياً بالرصاص؟

- كلا، يا سيدتي. إنه فلاح. وكان قد قتل دركياً، ولذلك طبقت عليه عقوبة الجلد.

فارتعشت مذعورة، وقالت من طرف شفتيها:

- عقوبة الجلد؟... لقد مات تحت ضربات السياط؟...

هكذا إذن؟...

- نعم، يا سيدتي.

عند ذلك، وباندفاع حماسي، رفضت كل ما روي لها. فحياة «نيكيتا» تتوقف، كما كان يبدو لها، على القناعة التي تتمسك بها، لإنكار أنه قد مات. وللمحافظة عليه ولإنقاذه لم يكن هنالك أي طريقة سوى مقاومة ومعارضة حاملي أخبار السوء، وليس هنالك من سبيل سوى الصراخ: كلا!

وسألته:

- كيف يمكنك أن تثبت أنه كان هو، مع أنه لم يصرح باسمه ولم يكن معه هوية ولا جواز مرور؟

- رجال الشرطة الذين أجروا التحقيق تتبّعوا رحلته، مرحلة بعد مرحلة. واستجوبوا كثيراً من الشهود. ثم هنالك التواريخ والعلامات، كل شيء كان مطابقاً...

فصاحت تسأله، بلهجة قوية وغير معقولة:

- وهذا يكفيك؟ إيه! ولكنه لا يكفيني، أنا يا صاحب السعادة!

وباعدت ذراعيها وأسقطتهما، في حركة سوقية، لم تكن عادة تبدر منها. لم يكن الجنرال يحوّل نظراته عنها. وليس هنالك أي شك بأنه كان مندهشاً من إبدائها هذا الاضطراب الشديد حيال وفاة أحد الخدم.

فتبينت هي ذلك، ولكن لم يكن يهمها ماذا يمكنه أن يظنّ بها. وكل شيء أصبح لديها سيّان، فيما عدا المصيبة التي شعرت بأنها تهددها وتكاد تنقضّ عليها، كأجنحة ترفرف بصمت حول رأسها.

وقال «ليبارسكي»:

- في طريق العودة، توقفت في «فريختني - أودنسك» فسلمني، بكل مودة، العميد «بروكوروف» الذي أشرف على التحقيق في القضية، بعض القطع التي تُعَدّ من الأدلة الثبوتية...

وفتح أحد الأدراج، ووضع على المنضدة عقداً غريباً مكوناً من حبل رفيع وثلاث عظام صغيرة صفراء، معلقة بالحبل وقال:

- هذه أسنان ذئب، والناس هنا يصنعون منها تعاويذ، حجباً وتمائم يحملونها معهم.

ففمرت «صوفيا» فجأة فرحة عارمة، وشعرت بالرغبة بأن تضحك لكي تتخلّص من الخوف. وقالت:

- هذه ليست له!

- هل أنت متأكدة من ذلك؟

- متأكدة تماماً، يا صاحب السعادة!

فأدخل «ليبارسكي» يده في الدرج، وأخذ يبحث بين الأوراق والريش، وهو يغمغم:

- كان لديّ شيء آخر... فيا للشيطان، أين وضعته؟...

آه! ها هو!... ولمع بريق في قبضته، وقال:

- السلاح الذي ارتكبت به الجريمة!

وفجأة تغير كل شيء، وشعرت «صوفيا» بالغم، وبألم يتعثر ويهبط إلى ما لا نهاية ضاغطاً على بطنها: فقد عرفت خنجر «نيكيتا» الذي كان يحمله في نطاقه، أثناء الرحلة، وكان يستعمله «وهي لا تزال تتصوره حتى الآن» لتقطيع المأكولات، لإصلاح محور العربة، لقطع حبل. وبصورة آلية، مدت يدها وتناولت هذه الأداة المشبعة بالحياة. لم تكن ثقيلة الوزن.

وعلى المقبض الخشبي الذي أصبح أملس وأسود، بسبب كثرة الاستعمال كان محفوراً، حرف «N» «ن»، وصليب، وتاريخ...

كانت تعرف جيداً هذه التفاصيل، ودخلت في تماسّ مع «نيكيتا»، فانهارت قواها، واجتاح روحها اليأس والرعب. فوضعت الخنجر على المنضدة. وظل «ليبارسكي» يتفرّس بها بكل برود، كما يفعل القاضي. والآن، لم يعد يشك أبداً بأنه قد أقنعها. والصمت، وقد طال أمده، زاد في اضطراب «صوفيا» وفي قلقها. وأخذ وجه الجنرال يبدو مشوهاً أمامها، كأنّ موجة تقرّبه منها ثم تبعده عنها. وكان عليها أن تتصرف، فاستجمعت قواها ونهضت، وشعرت أنّ ساقيها، بالكاد تحملانها. ووصلت، دون أن تعرف كيف، إلى الباب.

وقال «ليبارسكي» وهو ينحني ليقبل يدها:

- أنا آسف، يا سيدتي.

هذا الشارب الخشن على بشرتها- فبدرت منها حركة إلى الوراء فانتصب مندهشاً، ونظر إليها.

وبعد أن مشت عشر خطوات في الشارع، لمحت عن بعد، «ماري فولكونسكي» و «كاترين تروبيتزوكوّي» وهما تخرجان من دكان أحد الحذّائين. ولم تكن لديها الشجاعة لمواجهتهما، فأسرعت بالمرور بين منزلين، واجتازت ساحة صغيرة تغص بالصناديق وبالبراميل، وبعد قليل وجدت نفسها في أرض مكشوفة. وحدها، في البرد القارس، بين الأرض البيضاء والسماء الداكنة والمكفهرة، ومع ذلك، فقد شعرت أنّ حالتها قد تحسنت، وكان الثلج المتجمد يصرّ وهو يتكسر تحت قدميها، وأنفاسها تنطلق بخاراً من فمها. وأخذت تمشي بسرعة كأنّ هنالك من ينتظرها في آخر الطريق. «نيكيتا» ميت: هاتان الكلمتان لا تنسجمان. كان يمثل القوة، البراءة، الجمال، الحماسة والحياة.

ومن أجل اللحاق بها، إنما كان قد غادر «ايركوتسك» قبل ذلك بسنتين ونصف دون جواز مرور. وكانت تخشى على الدوام من أن يرتكب

هذا العمل الجنوني. ولا بد أنّ «بروسبير رابودان» لم يستطع احتجازه ومنعه من السفر، وأنه رأى من الحكمة عدم الرد على الأسئلة التي كانت توجّهها له في رسائلها. ولكن، آه! لو أنها فقط بقيت هناك، وانتظرت حصول «نيكيتا» على أوراقه! ولو صبرت بضعة أيام، لكانا سافرا سوية، بجوازي مرور نظاميّين. ولكنها لم تشأ أن تتأخر في الطريق الذي تسير عليه نحو «نيقولا». فالذنب ذنبها في كل ذلك! وبينما كانت تعتقد أنّ «نيكيتا» يعمل بكل هدوء واطمئنان في خدمة زبائن ونزلاء الفندق، كان هو يهرب من المدينة. فهل كان يأمل حقاً أن يتغلّب بمفرده على المسافة والتعب والشرطة، ومئات العقبات والمفاجآت التي يمكن أن تعترض طريقه؟ وهي متأكدة من أنه لم يكد يلقى عليه القبض حتى فقد وعيه. وأخذ يدافع عن نفسه، ويضرب، وهي تعرف أنه يمكن أن يمارس العنف. وقد سبق له أن فعل ذلك في «ايركوتسك» عندما أراد الجنود أن يفتشوا غرفتها... وتخيلته مستلقياً على أرضية الغرفة الخشبية نصف عارٍ، مخلوع الكتف، متقلّص الوجه، يتصبب عرقاً، ونظرته زرقاء بنفسجية، تنساب تحت خصلة من شعره الأشقر... وذلك الألم لا يُعَدّ شيئاً يذكر بالمقارنة بالألم الذي كابده تحت الجلد بالسياط. وهي لم يسبق لها أبداً أن شهدت هذا النوع من التعذيب ولكن بعض القرويين في «كشتنوفكا» كانوا قد حدثوها عنه فيما مضى، ورووا لها بماذا يقضي وكيف يحصل. فتصورت «نيكيتا» وقد أوثق كتافه، وثُبت فلم يعد يستطيع التحرك، وظل يجلد إلى أن فارق الحياة. فانتابها غضب شديد، وكرهت روسيا، كان هذا هو ردّ فعلها، في كل مرة تكتشف فيها ظلامة جديدة. ففي أي بلاد أخرى، ليس من الممكن أن يحصل إعدام كهذا. فماذا لمح في اللحظة الأخيرة، قبل وفاته؟ وجوه جماعة قساة، بزات عسكرية... العنف، الكراهية والبلاهة... فهل هنالك شك بأنه قد فكر بها؟ وهل من شك بأنه ناداها؟ وهي لم تسمع

شيئاً ولم تدرك شيئاً! وبينما كان هو يرزح تحت ضربات سوط الجلاد، كانت هي تتابع رحلتها بسلام، وهي تفكّر بـ «نيقولا». بـ «نيقولا».، الذي لم يكن آنذاك بحاجة إليها، وهو خلف الحاجز المكون من الأعمدة الخشبية!... وطوال سنتين ونصف ظلت تتغذى بذلك الوهم وتعيش عليه. طوال سنتين ونصف وهي تشرك «نيكيتا» بكل ما يعجبها ويسرها في العالم، منتظرة قدومه، مثلما تنتظر قدوم صديق عزيز، في حين أنه كان يرقد متعفناً في باطن الأرض.

وقبل قليل أيضاً، كانت لا تزال تحلم بأن تعمل على بناء بيت صغير، وتجعله يقيم فيه كحارس! وهذه الملاحظة جعلتها تيأس نهائياً، وقطع عليها تنفسها انهمار دموعها بغزارة. وأخافتها شدة ضيقها. فلم يكن هنالك أي علاقة أو نسبة بين التقدير الذي يتسم بالعطف، الذي كانت تكنه لـ «نيكيتا»، وهو حي، وبين هذا الهذيان الذي ينتابها الآن، وقد عرفت أنه قد مات. فكان كما لو أنه بتأثير عنف الصدمة قد تفجّر غطاء في رأسها، وأطلق أكثر الأفكار سرية، وأكثرها جنوناً. والتي لا يمكن أن تصدق أبداً، من عقالها، وحررها تماماً: «أمن الممكن أن يكون قد احتل مثل هذا الموقع في حياتي، دون أن يكون قد حصل أيّ شيء بيننا؟» وحاولت أن تتصور المستقبل، فتراجعت مذعورة حيال الفراغ. فمنذ عهد قريب، كانت تسير وتتقدم يحدوها الأمل بلقاء معيّن. أما الآن، فهي لم تعد تعرف نحو أي شيء تمشي. ولماذا مازالت باقية على قيد الحياة. فلم يعد لأي شيء أهمية تذكر في هذا الكون الذي حال لونه، فقد سحره وفتنته، وأصبح مرّ المذاق. وقالت بينها وبين نفسها: «سأهدأ! وستمر هذه الأزمة وتنقضي!» ولكنّ الصخب في داخلها أخذ يتزايد، وهي لم تعد تقاومه، أو تتفحصه لتتبيّن أسبابه، بل استسلمت لفيض من الذكريات تتسم بعذوبة سامّة، وتتضمن بعض المشاريع القديمة التي أصبحت مستحيلة، والتي تُحدث لديها

تمزقاً عنيفاً. وانتابتها رغبة مفاجئة وقوية بأن ترى «نيكيتا» مرة أخرى، ومن جديد، كما كان يبدو: عاري الجذع، في غرفة الفندق، في «ايركوتسك» وأن تستنشق رائحته. وتجرأت على تصور نفسها بين ذراعي هذا الرجل الذي لم يكن سوى قروي عادي. فغمرتها سعادة خاطفة، تبعها غيظ شديد، لدرجة أنها عضت شفتيها، لكي لا تصرخ. تلك اليدان اللتان كانت تحلم بهما، ذلك الصدر، البارز العضلات، وذلك الوجه النضر، ماذا بقي من هذا كله في أعماق الحفرة السوداء والمظلمة التي ألقوه فيها؟

أخذ الظلام ينتشر على الكون، وكانت قد تجاوزت القرية منذ زمن طويل، وابتعدت عنها، ولم تعد تبدو لها سوى عبارة عن مجموعة بل لمامة من الأسطحة فوق مرتفع صغير تغطيه الثلوج، وتحيط به دائرة سوداء: هامش الأقذار التي يلقيها بنو البشر، أثناء حياتهم: كانت الدموع تتجمد في عينيها. وسمعت، أصواتاً قوية آتية من بعيد، وهي تغني:

«في أعماق مناجم سيبيريا!»

كان أولئك، هم المساجين الذين ينشدون، وهم عائدون، بعد أن انتهت مدة عملهم في الطاحون وقد أوشكوا على الوصول إلى منعطف الشارع، جميعهم في منتهى النشاط، ينبضون بالحياة، أقدامهم ثقيلة، أصواتهم قوية، وجوههم لوحتها الشمس، وأنعشها الهواء الطلق. وبينهم كان «نيقولا» فانتاب «صوفيا» ذعر هو أشبه بالجنون، كما لو أنها خشيت من أن تفاجأ وهي بصحبة أحد الرجال، ولذلك، التقطت ذيل فستانها، وركضت فاختبأت وراء مجموعة من الأشجار. وعندما ابتعدت مجموعة المساجين، خرجت من مخبئها. كل شيء بدا لها هادئاً. فعادت إلى بيتها، دون أن تلتقي بأحد.

٨

تمتم «نيقولا»: «هذا فظيع! يا للفتى المسكين!» ولكن، لماذا لم تقولي لي إنك طلبت من «ليبارسكي» أن يعمل على إحضاره من «ايركوتسك»؟

فأجابته «صوفيا»:

- لم أعد أعرف! كان لديّ انطباع بأنّ... بأنّ ذلك لا يهمك...

- ذلك يعنيني ويهمني، على الأقل، بقدر ما يعنيك ويهمك! وعلى أي حال، كان عليّ أنا، أن أقوم بتلك المساعي!

فأحنت رأسها. وكان عليها أن تبذل بعض الجهد، لكي تروي الوقائع. والآن، وهي جالسة على السرير، بالقرب من «نيقولا»، كانت تشعر بأنها أصيبت بضعف شديد وأنها فقدت الكثير من دمها. وخيم صمت ثقيل في الغرفة ذات الجدران العارية. وخلف الباب، كان الجندي الذي يتولى الحراسة، يتمشى جيئة وذهاباً.

وتابع «نيقولا» الكلام، بضيق وتبرم:

- وكيف أبدو أنا، بنظر الجنرال؟

فهزّت كتفيها:

- وأي أهمية لذلك؟ كل شيء قد انتهى، أليس صحيحاً؟

وعلينا ألاّ نتكلم في هذا الموضوع، بعد الآن.

- كل شيء قد انتهى بالنسبة لـ «نيكيتا»، ولكن ربما لم ينته بالنسبة لنا.

- ماذا تعني بهذا؟

- إني آمل ألاّ تسبب لنا هذه القصة بعض المشكلات.

- ليس نحن الذين ارتكبنا جريمة القتل!

- كلاّ بالطبع، ولكن الذي ارتكبها هو خادمنا. ومن المؤسف أنّ تحريات «زيدلير» وتحقيقاته قد أثبتت ذلك. وأن يكون لمجرمٍ ضد أمن الدولة، خادم يقتل دركياً، فهذه ليست علامة جيدة بالنسبة له. ولا تنسي أنّ كل الذرائع تجدها السلطات الإدارية صالحة، لكي تحرمنا من تخفيض العقوبة!

فانتفضت، غيظاً: كيف يستطيع بعد وقوع تلك المصيبة أن يستسلم لأفكار أنانية وخسيسة إلى هذه الدرجة؟

وقالت له:

- هذا غير معقول! إذ إنّ «ليبارسكي» بجانبنا، ويبدو في أفضل موقف حيالنا!

- نعم، ولكن ماذا عن رؤسائه؟ ففي «سان بطرسبورغ» إنما يتقرر مصيرنا!... وأنا معجب بك، لكونك متفائلة إلى هذه الدرجة!

وقطّب حاجبيه، واستغرق في التفكير، وبعد برهة، أضاف وكأنه يتحدث مع نفسه:

- أليس مستغرباً أن يكون «نيكيتا» قد سافر دون أن ينتظر الحصول على أوراقه؟

فقالت بلا روية أو تفكير:

- ذلك لأنه دون شك كان على عجلة من أمره، ومتلهفاً لكي يلحق بنا وينضم إلينا ثانية.

واحمر خدّاها، فخشيت أن يكتشف «نيقولا» اضطرابها. ولكنه كان ينظر إلى جهة أخرى، وقال:

- ومع ذلك، فقد كان عليه أن يعرف جيداً أنه يقوم بمجازفة كبيرة وأنه يعرّض نفسه للسجن. على الأقل، لو ألقي عليه القبض!

- بالطبع!

- يا له من فتى غريب الطباع! وعلى أي حال، فالأمر الذي يلفت النظر ويحمل معنى خاصاً هو أنه رفض أن يعلن عن اسمه عندما ألقي عليه القبض!

- كان يخشى أنه إذا تكلم وأعلن عن اسمه أن يسبب لنا بعض المتاعب.

فقال «نيقولا» وقد شعر بالفوز:

- أرأيت، كيف أنك اعترفت بذلك، بنفسك!

- بماذا؟

- إيه! إننا يمكن أن نقلق، وتسبب لنا المتاعب هذه القضية!

وأنا أؤكد لك أن الأمر في غاية الجدّية!...

وهكذا، فقد عاد إلى استئناف هجومه، ولم تعد تستطيع أن تحتمل ذلك، وقالت:

- سينتهي بي الأمر إلى الاعتقاد بأنك تعاني من هوس الاضطهاد!

- يبدو لي أني يمكن أن يكون لي الحق بذلك، بعد أن أمضيت ثلاث سنوات في السجن، مع الأشغال الشاقة!

كانت تهمّ بأن تقول له بأعلى صوتها، بأنه ليس في وضع يُرثى له فيه إلى هذا الحدّ، ولكنها امتنعت عن ذلك، وشعرت أنها ربما ظلمته بما تقوله، وهو، نفسه، لطف من لهجته، وغمغم:

- أرجو أن تفهميني، يا «صوفيا»... لقد احتدّيت، ولكن ربما بدا الأمر مزعجاً أكثر مما ينبغي، إذا ما برزت لنا بعض الصعوبات بسبب هذه القضية، في الوقت الذي سننتقل فيه إلى «بيتروفسك»!

فقالت:

- أوه! «بيتروفسك»! لا ندري ماذا سنجد فيها.

- لديّ انطباع بأن وضعنا سيصبح جيداً هناك. ويكفي أننا سنقيم أنا وأنت، ونعيش سوية...

وأحاط منكبيها بذراعه، فتحملت، دون أن تعترض، تلك الحرارة التي غمرتها.

واستأنف الكلام:

- إنّ «ترويبتزوكوّي»، «أنّانكوف»، «مورافييفّ» و «فولكونسكي» لا يتحدثون ألا عن المنازل الصغيرة التي سيبنونها، فماذا في ذلك، لو فعلنا مثلما سيفعلون؟!

- ولماذا نفعل ذلك؟ فنحن ليس لدينا أطفال!...

- حتى من دون أطفال! ألا تحبين أن يكون لك بيت صغير تستقبلينني فيه؟

فلم تجبه «صوفيا». إذ إن هذا المشروع الذي خلب لبّها، قبل وقت قصير، لم يعد له الجاذبية نفسها، بالنسبة لها. فهل يمكن أن يكون قد تغير كل شيء، في وقت قصير جداً، كهذا؟!

وأخيراً، قالت:

- كلا، يمكن أن يكون... يمكن أن يصبح معقداً أكثر ممّا ينبغي!... ولا يمكن أن نقرر شيئاً منذ الآن... وسوف ننظر في الأمر، بعد أن ننتقل إلى هناك...

وتصوّرت بملل تتابعاً طويلاً من الأيام القاتمة والكئيبة، في بلد مجهول، وبين أناس لا تحبهم، وفي غضون ذلك، كان «نيقولا» ينحني نحوها، وملامح وجهه تنم، في آن واحد، عن القسوة والعطف. وكان يتوسل إليها بنظراته. وفكرة كونه يمكن أن يرغب بمضاجعتها آنذاك، جعلتها تضطرب وتقع في حيرة شديدة، لأنها رأت في ذلك تدنيساً للموت. فلماذا لا ينصرف. بدلاً من بقائه هناك، صامداً، ومطالباً بما له عليها من حقوق؟ وكانت الصحة والقوة، والرغبة التي تشع منه، كلها أموراً لا تطاق. كان يحمل الحياة على وجهه بتفاخر وتباهي محدث النعمة. وتحاشت قبلته، بنهوضها بحركة سريعة. فدهش، ونهض بدوره، وأخذ يحدّق بها:

- ماذا هنالك، يا «صوفيا»؟

فقالت:

- ولكن.. ليس هنالك شيء!

- تعالي، لأضمك بين ذراعي!

- كلا. أرجوك، يا «نيقولا» فأنا متعبة!

وفي الحال، انتابه القلق:

- هذا صحيح، فأنا لم يسبق لي أبداً أن رأيتك هكذا، في هذه الحالة. فهل موت «نيكيتا» هو الذي أثّر بك إلى هذا الحد؟

فسيطرت على الرجفان الذي اعتراها، وهمست:

- ربما، كان ذلك.

- لا ينبغي أن يحصل هذا، يا عزيزتي. فهذا الفتى كان بالطبع لطيفاً جداً، وماهراً جداً... وكنا نحبه كثيراً... ولكنه، بعد كل شيء، لم يكن سوى عبد رق...

فتبادر إلى ذهنها: «فليسكت! فليسكت!، وإلا فإني لم أعد أستطيع أن أتمالك نفسي!»

ولكنه، استأنف الكلام، قائلاً:

- كنت شجاعة جداً، عندما علمت بوفاة والديك، وأكثر شجاعة مما أنت عليه اليوم!

فشعرت بأنها ضعفت بهذه الملاحظة التي فاجأها بها: فهو محق بما قال: إذ إنّ موت والديها قد أحزنها وحسب، في حين أنّ موت «نيكيتا» قد انتزع منها كل الرغبة بالبقاء على قيد الحياة.

- هنالك أمور لا تستطيع أن تفهمها!

ودون أن يضطرب أو يغضب، ردّ قائلاً:

- وأنت، نفسك، هل تفهمينها؟

وبقدر ما كانت تخشى أن يدرك ما بها، بقدر ما كانت تشعر بالحاجة للتشويش على كل شيء وإخفائه، بإظهار المزيد من الغضب. كان قلبها يخفق بقوة تكاد تشعر بالاختناق وبتوقف تنفسها، وأخذ طنين الحمى يتصاعد في أذنيها.

وسألته باقتضاب:

- وما قصدك من وراء ذلك؟

فقال، مع ابتسامة كئيبة:

- وأنت؟ آه! يا «صوفيا»، كل هذا مضحك وسخيف!... وجملة تجر إلى أخرى!... ولا ينبغي أن نتخاصم من أجل أمر بسيط إلى هذا الحد!...

وأخذت تفكّر: «من أجل أمر بسيط إلى هذا الحد! لديه الكثير من هذا النوع من الكلمات!» وظل «نيقولا» واقفاً أمامها، رخو الذراعين، ونظرته تنمّ عن التوسل. وانقضت بضع دقائق. ساد الصمت خلالها، وهدأت «صوفيا» ثم شعرت بضيق جسدي شديد، لكونها تقف هناك، بين رجل من لحم وعظم، وآخر، ليس سوى شبح. كانت مرهقة بالشفقة التي تكنّها لـ «نيقولا»، لـ «نيكيتا»، ولها بالذات، أيضاً.

وقالت، برقة وعذوبة:

- انصرف.

فارتعش وجحظت حدقتاه:

- ولكن، يا «صوفيا»، لم يحن الوقت بعد!

- أودّ البقاء بمفردي.

- ولماذا؟

- لقد قلت لك ذلك: لا أشعر بأني على ما يرام...

- وأنا لا أستطيع، مع ذلك، أن أنصرف وأتركك، وأنت على هذه الحالة!

- بلى، يا «نيقولا»... أتوسل إليك... انصرف!... هيا، انصرف، بسرعة!...

فتردّد، وهو حائر مرتبك، وألقى نظرة يقظة وحذرة، على زوجته، وأردك أنه من الأفضل بالفعل أن يتركها لوحدها، وقال:

- ليكن ذلك، فأنا ذاهب، ارتاحي. فأعصابك متوترة ومتعبة جداً! وسأعود بعد غدٍ... وقبّل قبلة ميتة على جبينها. فوجهت له ابتسامة هزيلة، في اللحظة التي فتح فيها الباب.

٩

حرّر البلاد من الجمود ومن البياض ربيع مبكّر وبرزت من تحت الثلج الذي ذاب، سجاجيد وبسط تغطيها الزهور الزاهية الألوان التي حفظتها ثلاجات الشتاء. وحول الأنهار، وهي بلون السماء والرمال، أخذت تتأرجح مع الرياح رؤوس القصب الوردية اللون. وأسراب مثلثة الأشكال من الطيور المهاجرة أخذت تخترق الأفق مرسلة أصواتها الحادّة. وأخذ الضباب المتصاعد يكتنف الأشجار ويغطيها. وخضرة البراري هاجمت الجبال وأخذت تتسلقها. وللمرة الأولى بدت «صوفيا» لا مبالية، ولا تكترث بهذا التفجر الذي يحصل في عصارة النباتات وفي مظهرها. وعندما يأتي «نيقولا» ليزورها يجدها حذرة متيقظة، متوترة الأعصاب، تخشى سماع أي كلام مزعج أو أي ملامسة خرقاء. وبعد أن تخوّف وقلق، يبدو أنه التزم هو أيضاً جانب التحفظ والحذر. آملاً، دون شك، أنه بالصبر وبالرقة والعذوبة، سوف يحل عقد أعصاب «صوفيا» ويشفيها من توعكها وانحراف مزاجها، ويعيدها ليجعل منها زوجته من جديد. وهي لم تلاحظ حتى ذلك الجهد الذي يفرض على نفسه بذله، لكي يسترضيها. وإذا كانت قد استطاعت فيما مضى، أن تشعر بالفرح وأن تتذوقه عند قيامها بعض الأعمال المنزلية اليومية، فهي لم تعد ترى فيها أي متعة ولا أي جدوى، وأخذت تعهد بها إلى «بولشيري» وإلى «زكاريتش». وبينما كانت، في الماضي تشعر بالسعادة في خدمتها للمساجين بكتابة الرسائل إلى ذويهم ومعارفهم، أخذت تشعر الآن بالملل عندما تحاول كتابة تلك الرسائل: عقود قران، حفلات زواج، ولادات،

نجاح في الدراسة، احتفال بذكرى ميلاد أحد الأشخاص أمراض، شفاء من المرض، كان يتصاعد من كل هذا عبق حياة أكثر غزارة، وأكثر غنى مما ينبغي، لدرجة أنه كان يثير الغثيان لديها. وشيئاً فشيئاً، أخذت الرسائل التي تكتبها تتصف بالمزيد من التفاهة والابتذال. والعديد من المساجين، أخذوا يبحثون عن «أمينة سر» غيرها لتكتب لهم رسائلهم، بعد أن لاحظوا إهمالها لتلك الرسائل. وهكذا فإنّ «ايفاشيف» الذي كانت تكتب له رسائله فيما مضى، قد تحول الآن إلى «ماري فولكونسكي» التي سرها ذلك كثيراً، لأنها كانت مولعة بالكتابة. وقد أصبحت ترتبط بالصداقة، عن بعد، مع شقيقة «ايفاشيف». ويروى أن هنالك مشروع خطبة بينه وبين مربية فرنسية، تقيم في «موسكو» تدعى: «كاميليا لودانتو». كانت قد وقعت في حبه في فترة كان فيها الفرق بين وضعيهما الاجتماعيين يجعل من الزواج أمراً مستحيلاً، ولكنها عاودت محاولتها الزواج به، بمزيد من الأمل بأن يتحقق ذلك، بعد أن أصبح الآن مجرماً ضد أمن الدولة، ولا ترغب أي امرأة شريفة أن تتزوجه. وقد سرّ ذلك أسرة الشاب كثيراً، واعتبرته توفيقاً غير متوقع، وأخذت تقوم بالمساعي الحثيثة والكثيرة لدى السلطات، من أجل تحقيق هذا المشروع. وربما شوهدت هذه الخطيبة، ذات يوم، وهي تصل إلى «تشيتا»؟! ومع ذلك فإنّ صاحب العلاقة الرئيسي في القضية، كان يتردّد بالموافقة على المشروع، فهل كان يتمسك إلى هذا الحد بالبقاء عازباً؟ ولم تكن السيدات تتفهم موقفه.

وكانت هذه القصّة تثيرهنّ كثيراً. وكان فضولهن الذي يتسم بالبحث والتنقيب عن الخفايا المجهولة، وولعهن الشديد بالثرثرة، يغيظان «صوفيا». وكثيراً ما حاولن استدراجها للتحدث عن موت «نيكيتا» بعد أن سمعن به من بعض المقربين من «ليبارسكي». والله وحده يعلم أي إشاعات وأي أقاويل، أتى بها من «ايركوتسك»، «جوزيف» ابن أخ الجنرال. ولكنّ

«صوفيا» صدّت، بكلمات جافة، هاويات تقصي الأخبار، جمعها ونشرها. ومنذ ذلك الحين، لم يتحدثن عن «نيكيتا»، أمامها، أبداً. ومنذ الأيام الأولى التي شعرت بها السيدات بالحر، قررن القيام بجولة للنزهة، في العربة. ولم يكن يوجد في «تشيتا» سوى عربة «ليبارسكي» وبكل لطف وضعها تحت تصرفهن، بعد ظهر أحد الأيام. ووافقت «صوفيا» على مرافقتهن، لعدم وجود أي عمل لديها. ولكن لا «بولين أنانكوف» التي كانت قد وضعت للمرة الثانية «بنتاً أخرى» ولا «كاترين تروبيتزوكوّي» التي كانت في الشهر الثامن من الحمل. استطاعتا الذهاب معهن. وبالمقابل، فقد شاركت في تلك الجولة «ماري فولكونسكي» مع أنها كانت حاملاً أيضاً، وقدم لهن «ليبارسكي» العربة بنفسه، وطلب معرفة خطة سير الجولة. إذ إنّ المناطق المجاورة لـ «تشيتا»، لم تكن آمنة، لأنه عندما يحل فصل الربيع ويتحسّن الطقس، يعمد كثير من المساجين العاديين الذين حكموا بموجب القانون العام على جرائم ارتكبوها، إلى الفرار، وقد أغراهم الطقس الجميل والشمس الساطعة، على أن يفعلوا ذلك. وهذا التسكع أي «الشرود الربيعي» لم يكن يدوم أكثر من شهرين أو ثلاثة أشهر، وبينما يكون هؤلاء المساجين المشردون يتذوقون متعة التنزه في الغابات والحقول، واصطياد الطيور والأرانب بالمقلاع، والنوم في العراء والهواء الطلق. كان بعض أفراد قبيلة «البوريات» يطاردونهم، دون أن يكون لديهم نية سيئة بإيذائهم، بل رغبة بالحصول على المكافأة: التي حدّدت بعشرة روبلات عن المتشرد، التي يؤتى به حياً، وخمسة روبلات عن جثه المتشرد الميت، شريطة أن يكون من الممكن معرفة هويته. وهؤلاء الهاربون إذا لم يقعوا في أسر جماعة «البوريات» كانوا يعودون إلى السجن، من تلقاء أنفسهم، عندما يبرد الجو. وهم يعرفون التعرفة المحدّدة مسبقاً: بضع ضربات بالسوط، وبضعة أيام من السجن الانفرادي في الزنزانة. وكانوا

يتقبلون العقوبة، دون تذمر أو شكوى، ويحلمون، وظهورهم تؤلمهم من أثر الجلد بالسياط، «بإجازة» العام القادم. وعلاوة على ذلك، فإنّ سكان المنطقة كانوا يؤمنون لهؤلاء المتشردين، كل ما يحتاجونه أثناء فترة هروبهم.

وعلى سبيل الاحتياط، أرسل «ليبارسكي» جنديين لمرافقة السيدات. وبالنسبة لـ «صوفيا»، كان هنالك شيء مضحك وغريب في خوف زوجات بعض المساجين من الالتقاء بمساجين آخرين، في الطريق. وقالت ذلك للجنرال، فأجابها بلهجة حاسمة:

- لأنك تعيشين بين مساجين مثقفين، فإنك تنسين، بأنه يوجد مساجين من نوع آخر، القتل والاغتصاب لديهم أمور عادية وعملة رائجة.

فسرت الرعشة في أوصال السيدات عند سماعهن ما قاله الجنرال ولم تعد أيّ منهن تجرؤ على المزاح، وصعدن إلى العربة. وزوّد «ليبارسكي» سائق العربة، بالتعليمات اللازمة. وانطلقت الخيل تعدو بالعربة خبباً. وقد حملت بعض السيدات المظلات لوقاية وجوههن من الشمس والريح. كان الطريق يمتد بمحاذاة النهر. ومن بعيد، كانت تبدو أكداس كبيرة من قطع الحطب، مكدّسة فوق بعضها من أجل صنع الفحم الخشبي. وكان الدخان يتصاعد بهدوء من قمم تلك الأكداس الهرمية الشكل. وحول «تشيتا» من جميع الجهات، كان الهواء مشبعاً بأريج الحطب المحروق، وبرائحة الرماد الساخن.

وكان منظر البراري الخضراء التي تنتشر فيها الزهور، والأحراج الفتيّة. والجبال التي يتصاعد منها البخار، ويكتنفها الضباب، يبهر النظر، ويبعث على الاسترخاء والخمول. وبعد أن أرسلن بعض الأصوات المعبرة عن المتعة والسرور، عدن إلى الحديث عن «كاميليا لودانتو».

وأخذت «ماري فولكونسكي»، باعتبارها هي التي تكتب رسائل «آل ايفاشوف» تمتدح تفاني وتضحية المربية الشابة، التي تقبل، بدافع حبها لسجين سياسي، بالنفي إلى سيبيريا.

فأبدت «أليكسندرين مورافييفّ»، ملاحظة خاطفة:

- نعم، ولكن مع أخذنا بالحسبان صعوبات ومساوئ النفي، فهي مع ذلك، ستعقد زواجاً موفقاً جداً، وهو زواج ما كانت تستطيع أن تحلم به في الأوقات والظروف الطبيعية والاعتيادية!

وأمنت السيدة «دافيدوف»، على ذلك، قائلة:

- وهي لا يمكن أن تكون تحبّ «ايفاشيف» ومغرمة به بصدق وإخلاص، لأنها لم تكد تعرفه جيداً في روسيا!

فسألتها «ماري فولكونسكي»:

- ألا تؤمنين بالحب من النظرة الأولى، الذي يحصل كالصاعقة أو كانفجار القنبلة؟

فعلقت على ذلك السيدة «مونفيزين»، قائلة:

- هذه يمكن أن تكون قنبلة زمنية وموقوتة!

فجمعّت السيدة «دافيدوف» جسمها، وبدت على وجهها سيماء التكتم والخفاء، وقالت بصوت خافت:

- يروى... ولا أدري إذا كان هذا صحيحاً!... يروى أنّ والدة «ايفاشيف» - وقد قلقت لكون ابنها الأكبر، يعيش منفرداً... في عزلة... محروماً من النساء... أخيراً، أنتن تفهمنني! - اشترت له خطيبته في شخص الآنسة «لودانتو»، بمبلغ خمسين ألف روبل!

فأبدت السيدات جميعهن، بصوت واحد استنكارهنّ لهذا الزعم، وبدا عليهن، في الوقت نفسه، أنهن سررن بسماعه.

وقالت «ماري فولكونسكي»:

- وعلاوة على ذلك، فإنّ «ايفاشيف» نفسه لا يعرف ماذا يريد فربما كان يستعد للهرب!...

- إنه لوسواس غريب، بالنسبة لرجل عاشق ومحب!

- إنه التشرّد الربيعي، يا عزيزتي!

- ألا تذكركنّ هذه القصة بقصة «بولين أنّانكوف»؟ فهي أيضاً حظيت بزواجها، وحققته بطريقة غريبة!

- لا تكوني من أصحاب ألسنة السوء! فلا يمكن المقارنة بين الحالتين!...

كانت «صوفيا» تلتزم الحياء، مبتعدة عن هذا الهذر وهذه الثرثرة، حيث كان يبدو لها أنها تنطلق عبرهما الحاجة النسائية للتفتيش في الغسيل الوسخ ونشره، تهيئة وتزوير بعض الأقوال السيئة والأذيات الصغيرة، التي لا مستقبل لها ولا نتيجة ترجى منها، وتبادل الهجمات الحادة وغير المجدية، كانعكاسات مرآة إلى مرآة أخرى. وهذه اللعبة التي تكرهها وتشجبها، كم مرة تعرضت لها، وكانت هي الذريعة لحصولها؟ وبسماعها لما يقلنه عن غيرها من النساء، تستطيع أن تتصور ماذا سبق لهنّ أن قلن عنها.

وقالت السيدة «دافيدوف»:

- على أي حال، إذا وفقت «كاميليا لودانتو» في محاولتها، فسيصبح عما قريب، ثلاث فرنسيات في «تشيتا»!

فردّت «صوفيا» مبتسمة:

- بالإضافة إلى «كاترين تروبيتزوكوّي» التي هي «نصف فرنسية» فسألتها «ماري فولكونسكي»:

- كيف تفسرين ذلك؟ أيمكن أن يكون لدى بنات وطنك موهبة وميول استثنائية بشأن الحب والغرام؟

- أنت تنسين أنك أنت و «كاترين تروبيتزوكوّي» قد أعطيتمانا المثال، وكنتما قدوتنا في هذا المجال!

وتابعت «ماري فولكونسكي» كلامها، وكأنها لم تسمع ردّ «صوفيا»:

- أعتقد أنّ الفرنسيات، هنّ، بالإجمال، نساء قويات وعنيدات، يتابعن العمل على تحقيق رغباتهنّ حتى النهاية، دون أن يأخذن بالاعتبار ردود فعل الرأي العام. والفرق في الأوضاع الاجتماعية لا يزعجهن، ولا يأبهن له، فيما يتعلق بالحب، لا في هذا الاتجاه ولا في الاتجاه الآخر.

فأدركت «صوفيا» أنّ هذا الرأي، الذي عبرت عنه صاحبته بمنتهى اللطف، يتعلق بها هي نفسها و «نيكتيا» أكثر مما يتعلق بـ «باسيل ايفاشيف» المتألق، وبصاحبته المربية الشابة. وتثبتت عليها النظرات من أربعة أزواج من الأعين لترى فيما إذا كانت سترتعش من تلك الوخزة. ولكنها لم تجد أي صعوبة بالمحافظة على سكينتها وعلى هدوء ملامح وجهها، بينما كانت رفيقاتها يراقبنها بهذا الشكل.

وأضافت أيضاً «ماري فولكونسكي»:

- لا شك أنّ ذلك يمكن أن يكون من أثر الثورة ومن مخلفاتها؟!

وكانت تبدو جميلة في العدوانية ونية الإيذاء، بوجهها الحار الأسمر وعينيها السوداوين وشفتيها الغليظتين. وكانت تلك السيدات تهتز مع كل دورة عجلة، ويصطدمن بتراخٍ ببعضهن، عبر حفيف الأقمشة وتمازج أريج العطور. وكانت المظلات تتراقص فوق رؤوسهن.

وقالت «صوفيا» وهي تلتصق بماري فولكونسكي، كما تلتصق بأعز صديقة لها، ودون أن تغيّر لهجتها:

- أثر الثورة وميراثها الحقيقيين، لا ينبغي البحث عنهما في قلوب النساء الفرنسيات، بل في قلوب الرجال الروس، وعليكنّ، بالأحرى، أيتها

السيدات أن تسألن أزواجكن عن رأيهم في ذلك وعما يفكرون به فيما يتعلق بهذا الموضوع!

وأعجبت كل السيدات بهذا الردّ السريع واللاذع، فهنا، كما في ردهة المبارزة بالسيف، تُقدّر الطعنة الناجحة والموجهة جيداً، حق قدرها، وتحظى بالتأييد والاستحسان. وحتى «ماري فولكونسكي» نفسها، بدت سعيدة بصدّها وإيقافها عند حدّها. واستؤنفت، بعد ذلك، الأحاديث، في جو هادئ ومريح: حول البيوت الصغيرة التي ستبنى في «بيتروفسك». وقالت «أليكسندرين مورافييفّ» إنها سبق لها أن أوصت أحد المتعهدين بأن يبدأ في العمل ليبني لها ولزوجها بيتاً صغيراً. وتركت «صوفيا» رفيقاتها يتحدثن ويتناقش في أمور تتعلق بالهندسة المعمارية. وعلى جانبي العربة، كان يبدو الجنديان القوزاقيان، وكل منهما بندقيته معلقة على كتفه. وحصاناهما وقد تغذيا بالعلف المبلل والرطب، أخذا «يضرطان» بقوة واستمرار، وكانت السيدات يتظاهرن بأنهن لا يسمعن شيئاً، ولا يلاحظن ذلك، ولكن كنّ يطردن الروائح بالتهوية بمناديلهن.

وبعد أن ابتعدت العربة قليلاً، كان ينبغي أن تعبر النهر في إحدى المخاضات. والحوذي الذي قاس هناك عمق الماء بواسطة غصن قطعه من إحدى الأشجار، أبدى خشيته من أن يفيض الماء على العربة ويغرق أحذية السيدات. وفي ذلك الوقت، بالضبط كان كاهن القرية قد فك زورقاً وأخذ يجذّف نحو الضفة الأخرى، وعندما لمح السيدات، رجع واقترح عليهن أن يصعدن إلى الزورق فصعدن وجلسن على المقاعد، ولم يبق له مكان يجلس فيه، فقال:

- لا بأس في ذلك، سأعبر سيراً على قدميّ، وأنا أدفع الزورق... كان يدعى «فيسّا ريون» وله أربعة أبناء. وهو الذي عقد قران «بولين» و «أنّانكوف». وجهه الذي يشبه وجه فلاح شاب، بأنفه الأفطس وعينيه

الزرقاوين، ينتهي بلحية صغيرة شقراء ومشطورة إلى قسمين. ودون أن يعير اهتماماً لاعتراضات السيدات، خلع حذاءه وعلّقه بخيط حول عنقه، وبحركة قوية شمّر جبته إلى فوق خصره، فحولت السيدات نظرهن بسرعة لكي لا يرين فخذيه. وتصاعدت بعض الضحكات الخفيفة تحت المظلات. ودخل الكاهن في النهر حيث غمره الماء حتى بطنه، وأخذ يدفع الزورق أمامه. وكان أسفل جسمه يغوص في الماء، وتحيط بوركيه ستائر سوداء تعوم أطرافها على سطح الماء، ولم يعد يمثل الخطر السابق نفسه بالنسبة لنظرات النساء: «بنات أبرشيته» وقد تجاسرن أخيراً على توجيه نظراتهن نحوه: فبدا لهن متألقاً ببساطة توراتية.

وسألته «ماري فولكونسكي» إلى أين كان ذاهباً، فقال:

- «أنطوان» العجوز- الحطاب الذي يسكن في الغابة، ويعرفه الجميع- هو الآن في النزع الأخير.... وقد أتى ابنه وأخبرني بذلك. وطلب مني أن أذهب إليه...

ودفع القوزاقيان حصانيهما في تيار الماء، حيث نزلت العربة بدورها. وغاصت فيه حتى رفاريفها، وأخذت تهتز وتتمايل، كما لو أنها وهي لا تزال تسير، تكاد تعوم فوق سطح الماء. ووصل الجميع إلى وسط النهر، حيث وصل الماء إلى صدر الكاهن، فسألته السيدة «فونفيزين»:

- أليس في هذا خطورة، يا أبانا؟

فأجابها:

- كلا، فكما ترين، لقد هبط مستوى ارتفاع الماء، وهنا يوجد جرف رملي. وبالفعل فقد أخذ سطح الماء يهبط حوله. فقلقت السيدات خوفاً من أن يرين من جسمه أكثر مما ينبغي رؤيته، واختبأن من جديد خلف مظلاتهن. وعندما وصلت إلى الضفة الأخرى، شكرن الكاهن الذي أنزل جبته المبتلة بالماء، على ساقيه النحيلتين. وقالت له «ألكسندرين مورافييف» إنها ستراه

في اليوم التالي لكي توصيه بإقامة قداس من أجل راحة روح أمها، التي توفيت منذ عام مضى.

فقال لها الكاهن:

- تعالي... تعالي... فهذا عمل مقدس وضروري.

وليحفظكنّ الله!

وباركهنّ جميعهن، بإشارة الصليب. وفي الحال، شعرت «صوفيا» بصدمة داخلية، وتيقّظ ذهنها، وتحمّس: لقد مات «نيكيتا» دون أن يتلقى أي مساعدة أو مباركة دينية، وهو المؤمن جداً، فكم يكون قد تألم بسبب ذلك؟ وربما كان «ومن يعرف شيئاً عن العالم الآخر»؟ لا يزال يتألم من هذا الحرمان، بشكل من الأشكال؟ ولو أنّ جانباً منه بقي بعد غياب شكله المنظور، وإذا كان كل ما يمثله لم ينته مع فناء جسده، عندئذ، فهي لن تستطيع أن تتيح له أكبر فرحة إلاّ بإقامة قداس لراحة روحه.

وصعدت إلى العربة، حاملة هذه الفكرة التي حيرتها، وجعلتها تشعر أنها في الغربة، في عالم آخر. وتصورها أنها ما زالت تستطيع أن تكون نافعة لـ «نيكيتا»، كان يشكل بالنسبة لها تشجيعاً وعزاءً لم تعد تأملهما آنذاك. وقررت أنها ستذهب في اليوم التالي لمقابلة الأب «فيسا ريون».

وانطلقت العربة وهي تلمع من الماء الذي علق بها، وبين قضبان عجلاتها بعض الأعشاب المائية، والبخار يتصاعد تحت أشعة الشمس من أجسام الأحصنة. وعند قمة إحدى التلال، وصلت بهنّ العربة إلى «الشرفة» وهي نهاية النزهة وهدفها. فشعرت السيدات بالنشوة عند إطلالهن على تلك المناظر الساحرة. وأخذت «ماري فولكونسكي» ترسم مخططاً على ورقة في دفتر صغير، لكي تريه عند عودتها إلى «نيقولا بيستوجيفّ». أما «صوفيا» فلم تر شيئاً من تلك المناظر، فقد كانت مع «نيكيتا» في إحدى الكنائس.

ومن أجل العودة إلى «تشيتا» تم اختيار طريق آخر يمرّ بالقرب من «قبر الشيطان». وكان يجب الإسراع، إذا كنّ يرغبن بلقاء أزواجهن في ذلك المكان. واستقبل وصول السيدات بالتحية وبالهتافات الحماسية. وألقى جمهور الحفارين المعاول، وأسرع الجميع نحوهن لتقبيل أيديهن، والحراس، وقد عجزوا عن إيقافهم، تركوهم وشأنهم. وبعد قليل، كان حول كل امرأة حاشية من العمال المغرمين. وكنّ قد جلبن معهن «بسكويت»، «كاتو» وبعض زجاجات شراب التوت.

ولاحظت «صوفيا» أنهن جميعاً، حتى الأكثرهن جدّية، لم يتصرفن بشكل طبيعي، بين ذلك الجمهور المذكّر، الكبير العدد، كنّ كأنهن يمثلن مسرحية، يغنجن ويتدلّلن، وهن كالملكات يتحكّمن بالجميع... وأمسك «نيقولا» بيد «صوفيا» واقتادها بعيداً عن المجموعة. وسألها، في بداية الأمر عن نزهتها، ثم عما عملته في اليوم السابق، وأخيراً سألها عن أحوالها بشيء من التحايل والمكر. كان متجّهم الوجه، وبدا كولد تلقى عقوبة شديدة. وتمتم، فجأة:

- «صوفيا»، أنا تعيس جداً! لقد تغيرت كثيراً!...

- كلا، إني لم أتغير أبداً...

- بلى، بلى!... وأنا أعرف جيداً ماذا يحصل... وأنت حسّاسة أكثر مما ينبغي. وقد غضبت كثيراً، بل ثرت بسبب تعذيب «نيكيتا»... وكونك فرنسية، فمن الطبيعي ألاّ تستطيعين تقبّل وتحمّل بعض عاداتنا... ومنذ أن كنّا في «كشتوفكا»، كنت تتأثرين ببعض الأمور وتهتمين بها وتوجهين لها عناية خاصة..... بينما كنت أنا لا أتأثر بها كثيراً، وأهتم بها أقل منك بكثير... وبالحقيقة، أنت ناقمة على روسيا كلها، بسبب ما حصل.... وعليّ أنا أيضاً، بطريقة غير مباشرة!...

ولكن، فكّري جيداً: فأنا ليس لي أي علاقة في هذه القضية، يا عزيزتي.... فوضعت يدها على فمه. فلوى رسغها، وقبل باطن كفّها، الحار والمغضّن، بطريقة تنم عن الشراهة والنهم. فظلت برهة شاردة الذهن، وقد فوجئت بسرعة تلك الحركة: كان هنالك حصان، شفتاه ناعمتان وسوداوان، يأكل في باطن يدها. ثم تمالكت نفسها، وشعرت أنّ تلك المداعبة المنمّلة كريهة ومزعجة. فدفعته. فوجّه لها نظرة تنم عن البؤس والكراهية، ثم أحنى رأسه وانصرف. وعندما التفتت، تبيّن لها أنّ بقية النساء كن يراقبن المشهد من بعيد.

☆☆☆

كان المطر ينهمر بغزارة، فلم يطلب الملازم «فاتروشكين» من المساجين الذهاب للعمل في موقع «قبر الشيطان» وسمح لهم أن يتصرفوا بوقتهم كما يرغبون. فبقى البعض منهم مستلقين على أسرتهم. يدخنون الغليون. واجتمع آخرون في قاعة «موسكو» للاستماع إلى محاضرة «أودويفسكي» الثانية عشرة عن الأدب الروسي. وكان المحاضر يتكلم، وهو واقف على منضدة، دون الرجوع إلى أوراقه، كما كان يتلو، معتمداً على ذاكرته نصوصاً طويلة. وبعد أن تحدّث عن بعض مسرحيات «سوماروكوف»، ذكر بتأثر شديد أعمال الشاعر والمؤلف المسرحي «غريبويدوفّ» الذي اغتيل قبل عام مضى، في طهران، من قبل بعض المتمردين، وكان لهذا المؤلف، فيما مضى، علاقات مع العديد من «جماعة كانون الأول» وكانت الرقابة قد منعت نشر وتمثيل مسرحيته الهزلية: «مصيبة التحلي بأكثر مما ينبغي من الفهم والذكاء» ولكنّ كل مثقف كان يحفظ بعض أشعارها غيباً.

وقال «أوديفسكي»، وهو يتحدث عنه:

- كان أحد الروّاد الأوائل، مع «بوشكين»، الذين نبذوا الأسلوب الخطابي المفخّم والمبهرج، الذي اتّبعه كتاب القرن الماضي، ووصفوا الحياة

وصوروها في واقعها اليومي، وعلى حقيقتها، وبفضل هذين العبقريين، خلا الأدب الروسي من الزيف والنفاق، وكف عن أن يكون كموكب المساخر المؤلف من جماعة متنكرين بالأقنعة، ولم يعد القاموس الروسي مكوّناً من قسمين: قسم يضم الكلمات الفصحى والراقية التي تستخدم في الكتابة، والقسم الآخر يحتوي على الكلمات العامية والمبتذلة التي تستعمل في التحدث والكلام...

و «نيقولا» الذي كان عادة لا تفوته جملة من محاضرات «أوديفسكي» وجد صعوبة كبيرة، هذه المرة، بمتابعة محاضرته. ففي كل لحظة كان يشرد ذهنه، ولم يعد ينتبه لما يقول المحاضر، محاولاً تفسير وتبرير انطواء «صوفيا» على نفسها بسبب الصدمات المتتالية التي أصابتها، بموت والديها، ثم بموت «نيكيتا» وكان يقول في سرّه إنّ عليه أن يحبها من خلال واقعها، وليس من خلال الصورة التي كونها عنها، وإنّ الطباع تتطور مع مرور الزمن، وإنّ الإنسان الأكثر اتزاناً يمكن أن يصاب فجأة بالاضطراب والقلق، بانحراف المزاج، وحتى بالجنون. وفي تلك اللحظة، لاحظ أنّ «بيتسوجيف» الذي كان يجلس غير بعيد عنه، ودفتر الرسم على ركبتيه، كان منهمكاً في رسم صورته، فاستاء من ذلك. فقد كان أشدّ حزناً من أن يشعر بالرغبة للجلوس من أجل رسم صورة له. وبيده، أشار إلى رفيقه أن يبحث عن شخص آخر ويرسمه. ولكنّ «بيستوجيف» ظلّ ينظر إليه بهدوء وخلسة كاللص، ثم خرج على رؤوس أصابعه لكي لا يضايق أحداً. ما العمل؟ وإلى أين يذهب؟ فالمطر ينهمر بغزارة، عاد «نيقولا» إلى مهجعه، حيث يسود الهدوء وتسلّل نحو سريره، الذي كان يجلس عليه «يوري ألمازوف» و «لورير»، وهما يتحدثان بصوت خافت، وقد أدارا ظهريهما نحو الباب. وعندما اقترب «نيقولا» منهما، سمع أحدهما يلفظ اسم «نيكيتا»، فاجتاحته موجة من الخجل والغضب. فهل أصبح أسطورة يتحدث عنها كل

من في السجن، بسبب ذلك العبد الصغير، الذي بكت زوجته بسبب موته؟! وكيف انتشر هذا الخبر بين رفاقه؟ فهل تكلم عن ذلك «ليبارسكي»، ابن أخيه، بعض ضباط الصف من عناصر الحرس، «صوفيا» نفسها- من الذي تحدّث عن ذلك، إذن؟ وبالجهد تمالك نفسه لكي لا ينقضّ باللكمات على الرجلين، اللذين كانا قد التفتا نحوه.

وقال «لورير» وهو ينهض واقفاً:

- لقد شغلت مكانك على السرير. هل انتهت محاضرة «أودويفسكي»؟

فأجابه «نيقولا» بصوت متهدّج:

- كلاّ، ولكن، لديّ عمل، يجب أن أقوم به هنا.

- وأنا أيضاً لديّ ما أعمله: درس في اللغة الأسبانية يجب أن أحفظه، لأنّ «زفاليشين» سيسألني عنه، وهو أستاذ مخيف، وعلاوة على ذلك، من الذي لا يحتمل ويتقبل كل شيء، لكي يتذوق أعمال «سيرفنتيس» و «كالدرون»، في لغتها الأصلية؟...

وعندما انصرف، أراد «يوري ألمازوف» أن ينصرف، بدوره هو أيضاً، ولكن «نيقولا» استبقاه، وهم يغمغم، متذمراً:

- آه! كلا! أنت، على الأقل، ستبقى... وستقول لي كل شيء!

كان يمسك رسغ صديقه ويشد عليه بقوة، لدرجة أنّ هذا الأخير، أفلت منه بحركة سريعة ومفاجئة، وصاح به:

- ماذا بك؟

فقال له «نيقولا»:

- لقد سمعت حديثكما:

- وماذا بعد ذلك؟

- كنتما تتحدثان عن «نيكيتا»

- وهل هذا ممنوع؟

فشتمه «نيقولا» مغمغماً:

- يا لك من وغد حقير! تدعي أنك أخي، ولكنك تغتابني عندما، أدير ظهري، وابتعد عنك! هيا، أعد ما كنت تقوله!

- كنت أقول إن هذا المسكين: «نيكيتا مورافييفّ» يثبت أنه مغفل وأحمق، بالعمل على إشادة منزل من طابقين، مع قاعة «بلياردو» يمكن أن يكلفه نور عينيه، وكل ذلك إرضاءً لنزوات زوجته!

فشعر «نيقولا» بالحرج، وأنّ صديقه قد أفحمه، وكأنه سقط وهو منطلق بشكل خاطئ، واكتشف أنه مغفل وضعيف وتلاشت ثورة غضبه. وأخذ يقيّم بقلق الوسواس، وحالة الضيق والحصر التي أصبح يعاني منها، ولكثرة ما نسب كل شيء لحساب مشكلته التي تعذبه، انتهى به الأمر إلى الاعتقاد بأنه لا يوجد سوى «نيكيتا» واحد في روسيا كلها. وحيال ذلك الحذر والشك غير المعقولين، بدا صدق «يوري ألمازوف» واضحاً بشكل بديهي. وكان ينظر إليه بصورة مباشرة، بعينيه الكبيرتين الثابتتين تحت حاجبيه الكثيفين الأسودين، موجهاً إليه نظرة حانية، وقد بدت ابتسامة على شفتيه الحليقتين، وقال له:

- أكاد لا أعرفك، يا «نيقولا». فمنذ بعض الوقت، أنت تبدو لي كشخص آخر، وغريب. أنت الذي كنت، عادةً، نشيطاً جداً وشجاعاً جداً!... فهل تعاني من بعض المتاعب؟... وهل تخفي عنّا شيئاً مّا؟...

كان «نيقولا» يحتفظ بالسر منذ بعض الوقت، لدرجة أنه، وبشكل مفاجئ، لم يعد يستطيع أن يتمالك نفسه. كان يطفح حزناً ومرارةً وغماً. وبدت له الصداقة، وهي أمامه، كإغراء قوي، فهمس إلى صديقه:

- ليست الأمور على ما يرام مع زوجتي.

فقال له «يوري ألمازوف»:

- لقد ساورتني بعض الشكوك بشأن ذلك. فالحياة ليست سهلة ولا مريحة هنا، بالنسبة لزوجات المساجين. يجب تفهمهنّ، وتقدير الصعوبات التي يتحملنها...

فقال «نيقولا»، متأوهاً:

- ومع ذلك، فقد بدت سعيدة، في البداية! وكنت آمل أنها ستألف الحياة هنا وتعتاد عليها...

كانا قد جلسا، جنباً إلى جنب، على السرير، وقد سندا مرفقيهما على ركبتيهما، وضما ساقيهما، كما كانا يفعلان يوم كانا مقيدين بالسلاسل والأغلال، وقد خيم الصمت عليهما. ثم ضرب «نيقولا» جنبيه بقبضتيه، بعنف شديد، لدرجة أنّ بقعة وردية بدت على بشرته الشقراء، بين حاجبيه.

فقال «يوري ألمازوف»:

- إنها فترة من الوقت، سيئة، على ما يبدو!

- فترة سيئة ومستمرة، تدوم... وتدوم...

- ومنذ متى بدأت بالضبط؟

فألقى عليه «نيقولا» نظرة تنم عن الريبة والشك، وتردّد قليلاً، ثم هزّ كتفيه، وقال:

- منذ أن عاد «ليبارسكي» من «ايركوتسك».

فقال له «يوري ألمازوف»:

- أتدري يا «نيقولا»، أنك تستطيع أن تروي لي كل شيء بصراحة، فنحن جميعنا هنا، مطلعون على الموضوع...

- مطلعون!... مطلعون على الموضوع؟ وأي موضوع تعني!...

- إيه!... ولكن.... على... ما تتسبه لزوجتك، وعلى ما تلومها عليه...

فشحب وجه «نيقولا»:

- أنا لا أنسب لها شيئاً، ولا ألومها على أي شيء!

فأراد «يوري» أن يتدارك الأمر، وقد شعر بأنه ذهب بعيداً فيما صرح به، ولذلك قال، متلجلجاً:

- أنت على حق ومصيب تماماً بذلك! وهل ينبغي تصديق ما ترويه ألسنة السوء في «ايركوتسك» وفي «تشيتا»... وماذا يثبت كونها سافرت بمفردها مع ذلك الفتى، وكونها عالجته واعتنت به عندما مرض، وأنها أوصت على إقامة قدّاس من أجل راحة روحه؟

فاستولى الذهول على «نيقولا»، وتمتم بصوت خافت:

- أوصت على إقامة قداس من أجل راحة؟

- يبدو أنها فعلت ذلك.

- ومتى؟

- ربما لم يكن هذا حقيقياً!...

فكّرر «نيقولا» سؤاله، وهو يهزّ «يوري» من كتفيه، وكأنه يهزّ دميةً.

- ومتى؟

وفجأة، تركه واندفع إلى خارج المهجع، وذهب مسرعاً إلى مركز الحراسة، وطلب من الملازم «فاتروشكين» أن يأذن له بالذهاب إلى منزل الأب «فيسّاريون» الذي ينتظره ليتلقى اعترافه. فدهش الملازم، وفكر ملياً في الأمر، فأبدى بعض التسامح، واستدعى جنديين لمرافقة السجين إلى منزل الكاهن.

كان الكاهن جالساً في قاعة الـ «ايسبا» الكبرى، يساعد أسرته في فرط الحمص من قشوره. فصرف زوجته وابنتيه، ودعا الزائر للجلوس.

فقال «نيقولا» وقد ظل واقفاً:

- أريد أن أوصيك على إقامة قدّاس من أجل راحة روح خادمي «نيكيتا».

فقال له الكاهن، مع ابتسامة عريضة:

- لقد أتيت متأخراً، وبعد فوات الأوان، فقد سبقتك زوجتك، بالقيام بهذا الواجب المقدس.

فتمتم «نيقولا»:

- آه!

واضطربت الرؤية لديه وتشوشت، فاستند بإحدى يديه على المنضدة، حيث ارتفع أمامه جبل من الحمص الأخضر.

واستأنف الكاهن الكلام.

- حصل ذلك بالأمس، كما صلّيت ودعوت أيضاً من أجل والديها.

فقال له «نيقولا»:

- أشكرك، يا أبانا.

واقتاده الجنديان إلى السجن، تحت المطر الذي كان ينهمر بغزارة.

١٠

صاحت «صوفيا»:

- أنا أزدري برأي الآخرين، ولا أهتم به! فالناس هنا، ليس لديهم أي عمل سوى التجّسس على الآخرين واغتيابهم! فهل يجب عليّ أن أتخلى عن فكرتي بسببهم؟

فقال «نيقولا» وقد توقف عن المشي في كل اتجاه، في الغرفة:

- ليس بسببهم، بل بسببي أنا! فما فعلت، يا «صوفيا»، هو، بكل بساطة، شائن ومعيب! فمن كان «نيكيتا»، هذا؟ حتى توصي على إقامة قدّاس لأجل راحة روحه؟ هل كان زوجك، أخاك، ابنك...؟

- كان رفيق طريق، شديد الإخلاص والوفاء!

- إنه عبد رقّ!

- نعم، عبد رق، مات في ظروف فظيعة!

- لأنه حاول أن يلحق بك!

- تماماً! فنحن أنت وأنا، مدينون له بالامتنان، وبالاعتراف بالجميل!

فردّ بلهجة ساخرة

- أنت، ربما كنت مدينة له بذلك، ولكن، ليس أنا!

فاجتاحتها موجة من الغضب الشديد:

- بلى، يا «نيقولا»! ينبغي أن تعرف أنّ لولاه لما استطعت الوصول إلى قربك. فقد ساعدني! وحماني! وكان... كان مثيراً للإعجاب!...

كان التحدث عن «نيكيتا» يثير لديها عذوبة وحزناً يدفعانها إلى البكاء وذرف الدموع. وشعرت بالخوف من هذا الضعف، في وقت هي فيه بأمس الحاجة لكل طاقتها وقوتها. كان «نيقولا» يضم ذراعيه إلى صدره ويتأملها بانتباه شديد، دون أن يبدو عليه ما يدل أنه يسمع ما تقوله، وأخيراً غمغم:

- عندما أفكر، أني عشت شهوراً عديدة وأنا خالي البال، أجهل كل شيء! وكان كافياً أن يذهب «ليبارسكي» إلى «ايركوتسك» لكي تبلغ مسامعي تلك القصص الصغيرة التافهة والقذرة!

- أي قصص صغيرة وقذرة؟

- أنت تعرفينها جيداً!

وبدا متردّداً حيال ضخامة الاتّهام، ثم لفظ بقوة، وبقرف:

- صداقتك الحميمة مع... مع ذلك القروي!

فسألته، وهي تحدّق في عينيه، بكل برود:

- وهل تؤمن، حقاً، بما تقول؟

وخلال ثانية، تجابهت إرادتاهما بصمت. وكان هو، الأول الذي التفت وحوّل نظره عنها. وأدركت أنه كان من الممكن أن يعطي أي شيء مقابل حصوله على الاطمئنان.

وبلهجة هادئة، حاول أن يجعلها تبدو لطيفة، تمتم، بعد أن تحاشى الإجابة على السؤال المحرج الذي ألقته عليه:

- لكم أودّ أن أصدّقك، يا «صوفيا»! ولكنّ موقفك. نفسه، يدينك! فلو لم يكن لديك حقاً ما تلومين نفسك عليه، لكنت أطلعتني على مساعيك التي قمت بها لإحضار «نيكيتا»! وما كنت تصرفت سراً وفي الخفاء!... أعرف أنك ستدّعين أنّ الإهمال هو الذي منعك من أن تخبريني بذلك... فكيف يمكنني الاقتناع والاكتفاء بهذا العذر؟..

وشيئاً فشيئاً، أخذت لهجته تصبح قاسية ولاذعة، كما لو أنه بمراجعته لمآخذه على «صوفيا»، أصبح أكثر اقتناعاً بحقه الطبيعي. وعند ذلك، أصبحت كل كلمة يلقيها، تقوده أكثر بعداً في مجال العنف.

واستأنف الكلام، قائلاً:

- هنالك أمر آخر، أمر آخر، من أشدها خطورة!...

برودك حيالي!... فعند وصولك إلى هنا، كنت تبدين غريبة الأطوار، سلبية في تعاملك معي، كامرأة ذهنها مشغول في مكان آخر، ولكن بعد وفاة «نيكيتا» بدا ذلك بمنتهى البساطة، فقد أصبحت تتهربين مني كأني مصاب بالطاعون! وعندما أقترب منك، أقرأ في عينيك ما ينمّ عن النفور والاشمئزاز!

فقالت «صوفيا»:

- هذا ليس صحيحاً.

- كيف، هذا ليس صحيحاً؟

وأمسك رسغيها، فتخبطت محاولةً التخلص من قبضته، ودفعته، وتراجعت خطوتين وهي تلهث، وقد تشعث شعرها.

فغمغم:

- أرأيت؟! أرأيت أني محق فيما قلت!

كان يبدو مهاناً ومنتصراً، في آن واحد. فتأملته باحتقار وهزّت كتفيها. وهذه الحركة التي لاحظها بشكل مفاجئ، أغاظته كثيراً.

فتوترت ملامحه. وبرقت عيناه الخضراوان، سخطاً وغضباً، تحت حاجبيه المعقودين والمقطّبين. وقال، فجأة:

- هيا! اعترفي! وسيصبح الأمر أكثر بساطة!...

اعترفي أنك نمت معه!

- فتلقّت هذه الإهانة، كأنها بصقة على وجهها. ففار دمها، ولكنها لم تعترض، ولم يرفّ لها جفن. عند ذلك أخذ يصيح:

- عندما أفكّر بأني تأثرت كثيراً بما أبدت زوجتي من المروءة والشهامة. بتخليها عن كل شيء لكي تلحق بي إلى سيبيريا! ولكن ليس لتنضمي إليّ، غادرت «سان بطرسبورغ» بل لكي تتبادلي المودّة والحب مع خادمك، في الرحلة أولاً، ثم في «تشيتا»! حيث أكون أنا، رهين السجن، خلف الأبواب المقفلة، وهو في سريرك، فهذا يناسبك ويرضيك، أليس كذلك؟

كان يقرّب نحوها وجهه المتشنّج، ومع ذلك لم تكن خائفة منه، بل لقد كانت تشعر بالارتياح لكونه بدا فظاً وأحمق إلى هذه الدرجة في معاملته لها. وبتوجيهه الاتهام الخاطئ لها، فقد ساعدها على الانفصال عنه، واللجوء إلى حب عذري، وغير مادي، لا يستطيع أحد أن يفهمه.

وقالت، من طرف شفتيها:

- أنت فظ وبشع!

فصاح، بأعلى صوته:

- وأنت قذرة ودنسة، ولم أعد أستطيع أن أنظر إليك دون أن أراك وقد دنستك يدا فلاح!

- إذن، ماذا تعمل هنا؟!

فقال متلعثماً، وقد جحظت عيناه:

- ماذا؟ ماذا؟ أتجرئين؟... ماذا تتصورين نفسك؟...

ورفع يده عليها.

فتبادر إلى ذهنها بسرعة، وبمنتهى الوعي ونفاذ البصيرة:

«ماذا سيحدث إذا ضربني؟»

وتلاقت نظراتهما. فوضعت في نظرتها قسوة الفولاذ، ولم ترتعش أهدابها. وكانت شفتاها مطبقتين. وفي داخل جسدها الساكن قلب عظيم، خفقاته منتظمة وعميقة. وبعد ثانيتين أو ثلاث ثوان، بدت لها طويلة

الأمد، وكأنها لا نهاية لها، رأت ذقن «نيقولا» وقد بدأت تتحرك، وكأنه يبلع لعابه، وخبا بريق حدقتيه الخضراوين، وتقلّصت عضلة صغيرة في زاوية فمه، وضمّ ذراعه إلى جسمه، ثم جلّس على السرير. وخبّأ وجهه بيديه. وبعد برهة، قال:

- يا إلهي! يا إلهي! أهذا ممكن؟

فلم تشعر نحوه بأي شفقة. ومع ذلك، فإنها لم تفكر بأن تطرده. وانتابها نسيان غريب. وأخذ جسمها يطفو ويعوم، وكأنه قد فقد وزنه. وكان ذهنها يهتم بدقائق وتفاصيل تافهة ولا شأن لها: زر مفقود من سترة «نيقولا». نمل ينزل على شكل موكب، من النافذة- يجب إخبار «بولشيري» بذلك... وطالت فترة الهدوء والمهادنة، مثلما يحصل بين حيوانين متعبين، يبقيان في مكان المعركة ويلعقان جراحهما، دون أن يعرفا فيما إذا كان سيكون لديهما الحماسة الكافية لاستئناف الصراع. وفجأة، رفع رأسه، فبدا وجهه متشنّجاً، تغطيه الدموع وتعبر ملامحه عن الحيرة والذهول. وقال متأوّهاً:

- أناقمة أنت عليّ؟

فانتابها الذهول، لأنها لم تكن تتوقع هذا السؤال.

واستأنف الكلام:

- يجب أن تفهميني، يا «صوفيا». فأنا أكاد أجن عندما أفكر بأنك استطعت أن تكوني غير وفية وغير مخلصة لي! قولي لي إنّ ما أتصوره هو باطل وغير حقيقي! قولي هذا وأنا أصدّقك، وأقسم لك على ذلك!..

ولأنها ظلت ملتزمة بالصمت، فقد تابع، بمزيد من التواضع والخضوع:

والحقيقة هي أنك إذا كنت تجافينني إلى هذا الحد، فذلك لأنك ما زلت ناقمة علي لأني سبق لي أن خنتك، بكل غباء، فيما مضى...

وقد أثّر ذلك بك! لأنك أبية، عزيزة النفس!... والذنب ذنبي في كل ذلك!...

كانت قد نسيت تماماً تلك المغامرة القديمة التي قام بها «نيقولا» ودهشت كثيراً لكونه ذكرها لتفسير سوء تفاهم كان سببه مختلفاً، وفي مكان آخر. وباعترافه بأنه مذنب لكونه زعزع متانة أسرتهما ورباطهما الزوجي، فلا شك أنه كان يأمل بذلك إبعاد خطر أكثر أهمية وقسوة. وإذا كان أحدهما لا بد من اعتباره مذنباً بارتكابه الخطيئة، فهو يفضل أن يكون هو المذنب.

وهذه الخطة المثيرة للشفقة، جعلتها تبتسم في سرها. فلكم كانت مختلفة وبعيدة جداً عن الزوجة الشابة التي كانت تشعر، قديماً، بغيرة شديدة وصحيّة، على زوجها، وبشراسة الأنثى المتيمة والمغرمة. أما اليوم، فإنّ التوسلات الكثيرة التي يوجهها لها لا تؤثر بها أكثر مما تؤثر بها شتائمه.

- «صوفيا»، عزيزتي!... تناسي كل ما قلته لك!...

فأنا مغفل أحمق!... ولنستأنف حياتنا من جديد!...

كان قد نهض، ومشى نحوها، باسطاً يديه ليمسك بها، فأدركت ما سيتبع ذلك. فهل تهرب منه؟ هل توقفه؟ وكيف؟ فتبادرت إلى ذهنها فكرة بهرتها، في الوقت الذي كانت تعتقد فيه أنها خسرت الجولة، وأصيبت بالضياع. وبحركة سريعة مدّت ذراعها نحو قبضة الباب وفتحت إحدى درفتيه، فبدا من خلالها جندي مذهول وقد التصقت أذنه بالفراغ. فخيم صمت ينم عن الدهشة والذهول، من تلك المفاجأة. ووقف «نيقولا» ساكناً، لا يبدي أي حركة، وقد حبس أنفاسه، وانقبضت ملامحه، وقال:

- أنت وحشة، يا «صوفيا»، شاذة وغريبة الأطوار، غريبة في هدوئك وفي قسوتك!

واندفع مسرعاً، إلى خارج الغرفة.

☆☆☆

طوال يومين، تحاشت «صوفيا» جميع المناسبات التي كانت ترى فيها «نيقولا». والحديث الذي جرى بينهما أراحها من كل وساوسها بحيث إنه حصل لديها انطباع بأنها أصبحت تتنفس بشكل أفضل.

ولكن في يوم الأحد التالي، وعندما اقترب موعد الزيارة، عادت فأصبحت أكثر عصبية. وجلست قرب النافذة وحاولت أن تقرأ إحدى روايات «والتر سكوت» وكانت ترتعش عند أدنى صوت تسمعه:

هناك مشاحنة ستحدث قريباً، تُذرف فيها الدموع، ويحصل فيها تبادل الشتائم... ومع ذلك، فلم يحضر أحد، ولفترة طويلة، ظلت متيقّظة ومتوجّسة. وعندما أدركت أنه لن يحضر، شعرت بارتياح تام. كانت ممتنة منه لأنه امتنع عن مقابلتها. وعادت إلى مطالعة الراوية التي كانت على ركبتيها.

واهتمت كثيراً، ومن دون تحفظ بمغامرات «روب روي».

وفي وقت متأخر، من بعد الظهر، قرع الباب. فهل «هو»؟

وفتحت الباب وقد انقبض قلبها. لم يكن القادم سوى «بولين أنّانكوف» وقد أتت متزينة تكاد ترقص فرحاً، والبهجة تبدو عبر كل مسامّ بشرتها، وصاحت وهي تدخل:

- هل أبلغك زوجك الخبر؟

فقالت لها «صوفيا»:

- إني لم أرَ زوجي اليوم.

- آه! يا إلهي! أيمكن أن يكون مريضاً؟!

- كلا.

وبينما كان «صوفيا» تتكلم أخذت تفكر بأنّ زوجات المساجين كنّ، دون شك، مطلعات، بشكل أو بآخر، على الخلافات التي حصلت بينها وبين «نيقولا»، وأنهن قد أوفدن إحداهن بشكل مفاجئ لاستطلاع

أخبارهما. فأظهرت عدم المبالاة، ولم تهتم بهذا الفضول. كانت في شغل شاغل عن كل ذلك، بحزنها الشديد الذي يجعلها تعيش في عزلة، ويحميها. ولم تعد تشعر حتى بضرورة التظاهر بأنها تنعم بالسعادة الزوجية أمام هؤلاء النسوة المتعطّشات للتطفل ونبش الأسرار ونشرها.

وقالت لها:

- زوجي يتمتع بصحة جيدة جداً، وهو لم يأت، لأننا قررنا، بالاتفاق فيما بيننا، بأن نتخلى عن مقابلاتنا.

فتمتمت «بولين أنّانكوف» وهي تزدردّ لعابها:

- آه! حقاً؟ إني آسفة... لم أكن أعرف ذلك... فأرجوك أن تعذريني...

فقالت لها «صوفيا»:

- ليس هنالك ما يدعو للاعتذار. أعتقد أنك كنت تريدين إبلاغي خبراً...

- أنا؟

و «بولين أنّانكوف» وقد أذهلها وحيّرها ما سمعته، أمضت برهة حتى استردّت روعها. وقالت أخيراً بحماسة مصطنعة:

- آه! فعلاً، ذلك يتعلق بموضوع «كاميليا لودانتو»، ربما تعلمين أنّ «ليبارسكي» استدعى البارحة «ايفاشيفّ» لكي يطلعه على رسالة وردت من أمه، وعلى رسالة أخرى أرسلتها أم «كاميليا» والرسالتان تحملان موافقة الجنرال «بنكندورف» التامة! وقد تأثر ذلك الشاب كثيراً بهاتين الرسالتين وطفرت من عينيه دموع الفرح! ومنحه «ليبارسكي» مهلة مدتها أربعة وعشرين ساعة للتفكير. فعاد في الحال، وهو يحمل الجواب بالموافقة، وسلّمه للجنرال!

وبدت في غاية البهجة والسرور، إزاء امرأة تدعى «صوفيا» شاردة الذهن، غائبة وبعيدة عنها، بشكل غريب.

وتابعت كلامها:

- ستكون «كاميليا» سعيدة جداً! لقد التقيت بها كثيراً، فيما مضى. والجميع يعرفون بعضهم جيداً بين أفراد الجالية الفرنسية، القليلة العدد، في موسكو. وستضاف واحدة إلى بنات وطننا عندما تصل إلى «تشيتا» وأستطيع القول إنها فاتنة! وهي بالضبط امرأة من النوع الذي يناسب «ايفاشيف» تماماً!

اسمعي، وأنا أراهنك أنه لن يفكر بعد الآن، بالهرب أبداً!...

كانت تثرثر باستمرار ودون توقف، متأثرة بالأسلوب التجاري المبتذل، لأننا لا ينبغي أن ننسى أنها كانت تعمل في مخزن لبيع الملابس والقبعات:

- وبالطبع، يجب أن نأخذ بالحسبان الوقت الذي تتطلبه المساعي والإجراءات. فهي لن تستطيع أن تبدأ رحلتها، قبل بضعة أشهر. وأعتقد أنّ حفل الزواج سيقام في «بتروفسك» وبالمناسبة، هل تعرفين التاريخ المقرر لرحيلنا إلى هناك؟

فقالت لها «صوفيا»:

- كلا!

- كم هو إذن مزعج للمرء ألاّ يستطيع أن يقرر شيئاً، من تلقاء نفسه، وأنّ عليه دائماً أن ينتظر الأوامر! وزوجي يردّد لي دائماً بأنّ عدم الانضباط يسري في دمي، لأني فرنسية! ولا بدّ أن زوجك، يبدي لك أيضاً الملاحظة نفسها!

وتوقفت عن الكلام، ووضعت يدها بتراخٍ على فمها، وكأنها بذلك تحاول الاعتذار عن عبارة غير لطيفة تفوّهت بها، ولكنها، دون أيّ شك، كانت قد قالتها عمداً. وفجأة، نهضت:

- يجب أن اذهب.

- كنت أهمّ بدعوتك لتناول الشاي، معي.

فصاحت الزائرة:

- كلاّ! كلاّ!، وكأنها كانت تخشى بأن يلقى عليها الماء الحارّ.

واجتازت الباب وهي تردّد عبارات المجاملة والمودّة.

فقامت «صوفيا» بجولة في الغرفة، ثم جلست أمام المرآة لكي تصلح تسريحتها وزينتها. وهذه العناية أصبحت تحظى منها بشكل مفاجئ، باهتمام كبير، والمرآة وحدها تستطيع أن تتفهم هذه الرغبة بالظهور جميلة، دون أن يكون لديها أحد، تحاول إغواءه. أن تكون جميلة لنفسها، وحسب. أو على سبيل الذكرى، ومن أجلها. وفردت شعرها فانسدل كستارة سوداء على كتفيها، وأخذت تسرّحه بهدوء، واستسلمت للتخيل وللأحلام، كما لو أنها كانت تنحني على أحد الأنهار.

✯✯✯

منذ النهوض من السرير، أبدى «يوري ألمازوف» و «بيير سفيزتونوفّ» نشاطاً وأناقة، لم يكن من عادتهما إبداؤها: حلقا ذقنيهما، واغتسلا جيداً، وكانا قد قصّا شعرهما، وأخذا ينتظران بفارغ الصبر الأمر بالذهاب إلى العمل. ففي اليوم السابق، كانا قد تعرّفا، في موقع «قبر الشيطان» على قرويتين لطيفتين ومتسامحتين وعدتهما بالعودة بشكل مؤكد، في اليوم التالي، حيث كانا يأملان الانتقال من الكلام إلى التصرف والعمل. وكان «يوري» قد عثر على دغلة، في الجانب الآخر من النهر، حيث يكون المكان مناسباً تماماً للالتقاء بالفتاتين والتمتع بمغازلتهما وبتعريتهما. وكان لديه انطباع، بأنه لم يحظ بذلك منذ قرن من الزمن: «لم أعد أعرف حتى إن كان ذلك طيباً ولذيذاً»!

هذا، ما كان يردّده، وهو شارد الذهن. وبالقرب منه، كان الجميع، يقهقهون بالضحك، ويوجهون الصفعات على أفخاذهم، ويحجزون دورهم، فيما إذا اصطحبت الفتاتان بعض رفيقاتهما. وأخذ أنصار الشقراوات

البدينات يعارضون هواة السمراوات الصغيرات والنحيلات، ويختلفون معهم. ولكن، كان واضحاً، أنّ أولئك وهؤلاء، والاشتهاء يعذّبهم، يمكن أن يرضوا بأي شيء، وأن تعجبهم أي امرأة، شقراء كانت أم سمراء. وكان هدوء الرجال المتزوجين يتناقض مع حماسة وجلبة العازبين. و «ايفاشيفّ» وإن كان لم يكد يخطب «كاميليا»، فقد انضمّ إلى صف جماعة المتزنين، الهادئين واتخذ الموقف نفسه الجنرال السابق «يوشنفسكي» والرائد السابق «روزين» اللذان كانت زوجتاهما، بعد عدة سنوات من المساعي والإجراءات، قد حصلتا على الإذن بالسفر إلى سيبيريا. وكان «نيقولا» وهو يراقب رفاقه، يشعر أنه بعيد جداً عن أولئك الذين يتظاهرون بالتعقل والهدوء، بقدر ما هو بعيد عن الذين يظهرون البهجة والسرور. ومنذ أن أجرى ذلك الحديث المرعب مع «صوفيا»، كان يعيش كمخلوق أصيب بجرح بليغ، وأنّ أقل حركة غير عادية تثير آلامه من جديد. وطوال النهار، لم يكن يفكر إلا بها، مع نوبات تعتريه على التوالي، من الغضب واليأس. فتارة كان يؤكد لنفسه، وفي سرّه، بأنها قد خانته مع «نيكيتا» فعلاً، ويوجه لها كل كراهيته، وتارة، يقول لنفسه بأنها بقيت وفية ومخلصة له، ولكنّ بعض الظروف الخفية، التي ربما كان هو مسؤولاً عنها، هي التي قضت على حبهما. عند ذلك، يتعقد حزنه بسبب الحيرة وبعجزه عن اكتشاف سبب السوء والأذى، كان يذهب به الأمر تقريباً إلى أن يأسف لأنّ ليس له خصم من لحم وعظم. فكيف يستطيع أن يقاتل ميتاً، شبحاً أو ظلاً؟ أو حالة نفسية؟ وكان يرى «صوفيا» وقد ضاعت منه، بشكل لا مردّ له، ولم يكن يتصور العيش من دونها.

والمشاحنة المعيبة التي حصلت بينهما لم تكن كافية لكي تجعله يصحو، وتزول عنه أوهامه. وأخذ يجترّ خجله، ويحلم بأن يضمّ زوجته بين

ذراعيه وأن يرشف الرحيق من فمها. وأن يستولي عليها بالقوة، روحاً وجسداً. ويوم الأحد السابق، كان عليه أن يناضل بكل ما لديه من طاقة ضد إغراء العودة إليها. والأمر الذي كان يزيد من حدة آلامه وعذابه، هو شعوره بأنّ الجميع مطلعون على مشكلته. ولم يعد يستطيع تحمل نظرات رفاقه التي تنم عن معرفتهم بما يعاني منه، وعن عطفهم عليه. ولحسن الحظ، فإنهم آنذاك، قد تركوه وشأنه وقد استلقى على سريره، مرتدياً كل ملابسه، وشارداً مع أفكاره.

وتعالت الضجة، عندما أتى «لورير» و «أنّانكوف» وهما يحملان سلّة ملأى بقطع الخبز الأسود، وكيسا من السكر. وخلفهما، مشى اثنان من مساجين الحق العام، أخلي سبيلهما قبل فترة وجيزة، وهما يحملان «سماوراً» ضخماً. وكان هذان السجينان يعملان كخادمين، في سجن هؤلاء «السادة». كان أحدهما، ويدعى «أليفنيتش» نحيف القامة، على وجهه أثر الجدري، وتتخلل شعره الأشقر، شعرات بيضاء. والآخر، ويدعى «فيلات» كان عملاقاً، مسطح الجبهة، وفكه الأسفل متدلٍ، كالدرج المفتوح قليلاً. والاثنان يحملان على جبهتيهما العلامة التي طبعت بالحديد الذي سُخّن بالنار حتى احمرّ. ومع «فيلات» هذا كان «ايفاشيفّ» قد اتفق على ترتيبات هربه.

وقال له «فيلات» وهو يقترب منه:

- آه! يا سيدي، أحقاً لست آسفاً ولا نادماً على شيء؟

فكر جيداً! لم يفت أوان ذلك بعد! فالذي يتزوج، يبني سجنه بيديه!

فزجره الدكتور «وولف»:

- ألا تدعه وشأنه؟! فهو، للمرة الأولى في حياته، يتصرف بحكمة وتعقّل!...

وصاح «سفيزتونوفّ»:

- على أي حال، إذا ذهبت يا «باسيل» فعليك أن تعرف أن خطيبتك ستجد من يأخذها في «تشيتا» فعندنا هنا، لا يمكن أن تترك امرأة لكي تبقى لوحدها!

فتململ «نيقولا» وشدّ على فكّيه. لأنه كان يرى في أبسط القول وأقل الكلام أذى، إشارة وتلميحاً إلى مشكلته. وناوله أحدهم قدحاً مملوءاً بالشاي الحار، وقطعة خبز. فشرب وأكل بصورة تلقائية، كالإنسان الآلي.

وتوقفت الأحاديث، وحلّت محلها التأوهات، والصفير، وتلمظ الألسنة التي حرقها الشاي الساخن. كان جميع من في المهجع يأكلون ويشربون.

وقال «يوري ألمازوف»:

- هيا، أسرع! فلا بد أنّ الفتاتين تنتظراننا!..

وشرب بسرعة ما بقي من الشاي في القدح، ثم أذاب قليلاً من السكر في الماء الحار، دهن به شعره ومسّده بباطن يده. ودخل أحد ضباط الحرس، يرافقه ستة جنود مسلحين:

- أيها السادة، إلى الاجتماع!

وهذا الأمر، كان يُستقبل عادةً بتذمر عدائي، أما هذه المرة فقد ردّت عليه صيحات فرحة:

- أخيراً!.. ليس هذا مبكراً أكثر مما ينبغي!...

الأكثر نشاطاً ومرحاً، كانوا أول من خرج إلى الباحة. وأولئك الذين لم يكونوا يتوقعون شيئاً في ذلك النهار، تبعوهم بهدوء، وكل منهم تأبّط كتباً أو صحفاً، أو رقعة شطرنج، أو صرة فيها ملابس وبعض الحاجيات الأخرى. كان الجو حاراً، والسماء صافية شديدة الزرقة، وأشعة الشمس تنصبّ على الأرض العطشى. وبعد إجراء التفقّد، أصدر الملازم «فاتروشكين» الأمر: «استرح!» فتبادل المساجين نظرات الاستغراب: لماذا لم يعط الإيعاز بالسير؟ وأخذ الوقت يمر، بينما كان «يوري ألمازوف» يضرب

الأرض بقدميه، و «بيير سفيزتونوفتّ» يقضم أظافره. وبعد قليل بدأت الاحتجاجات:

- ماذا نعمل هنا؟

- لا تتركونا واقفين تحت أشعة الشمس الحارّة!

وأتى جنود آخرون، يركضون مسرعين. ودوّى قرع الطبول من جهة مركز الحراسة. وبدا «ليبارسكي»، بوجهه الشاحب وقبعته الضخمة المزدانة بالريش. وقال:

- أيها السادة، لديّ بلاغ مهم أنقله إليكم: سوف نغادر «تشيتا» إلى «بيتروفسك» في مطلع شهر آب «أغسطس» والمسافة بينهما، نحو سبعمائة «فيرست» «أي ما يقرب من ٧٥٠ كيلومتراً» وسنمضي ستة أسابيع تقريباً في رحلتنا لاجتياز هذه المسافة.

فسرت همسات وتمتمات الدهشة بين صفوف المساجين وسأله الأمير «تروبيتزوكوّي»:

- وما هي واسطة النقل التي سنستخدمها، يا صاحب السعادة؟

فأجابه الجنرال:

- سنذهب سيراً على الأقدام.

فصاح «مورافييفّ»:

- هذا جنون. إننا لن نستطيع تحمل تعب كهذا، أبداً!

فهزّ «ليبارسكي» رأسه، بملل:

- لن يُطلب منكم السير بسرعة وبصورة إجبارية، بل إني أعرض عليكم القيام بنزهات قصيرة ومتتالية. وسوف نمشي على مهل ودون أي استعجال. وسنخيم لنرتاح في أماكن خلابة.

وسننسى جدران السجن، أليس هذا برنامجاً مغرياً؟

فسأله «أنّانكوف!»:

- وزوجاتنا؟

- سوف يرافقننا في إحدى العربات.

وخرج العملاق «روزين» من الصف، وصرّح:

- رفيقي «يوشنفسكي» وأنا، تبلغنا رسمياً، الأسبوع الماضي. أنّ زوجتينا قد غادرتا روسيا، في طريقهما إلى «تشيتا» فإذا رحلنا في الأيام المقبلة، فإنهما ستصلان إلى هنا ولا تجدان أحداً. وهذا غير معقول!...

فردّ عليه «ليبارسكي» دون أن يبدو عليه أي انزعاج:

- لقد اتُخذت بعض الإجراءات، بهذا الشأن: فعندما تصل البارونة «روزين» والسيدة «يوشنفسكي» إلى «ايركوتسك» سيخبرهما الجنرال «زيدلير» بما حصل وسيطلب منهما التوجه مباشرة إلى «بتروفسك» وستصلان إليها قبلنا، دون شك.

- كم من الوقت لدينا لكي نستعد للرحيل؟

- نحو عشرة أيام.

- هذا قليل وغير كافٍ، يا صاحب السعادة!

- ليس لديكم الكثير من الأمتعة، على ما أعلم! هيا، أيها السادة، قليلاً من الحيوية والنشاط! وسترون أنّ الرحلة ستكون ممتعة جداً!

فدفع «يوري ألمازوف» «نيقولا» بمرفقه:

- أرأيت؟ هذا حظي! لقد حصل كل هذا، لمجرد أني، هذه المرة، قد عثرت على فتاة!...

وسألهم «ليبارسكي»:

- هل لدى أحد منكم أسئلة أخرى؟

فلم يلقِ أحد منهم أي سؤال، ولزم الجميع الصمت. وحتى الرجال المتزوجون، الذين يبدو لهم المستقبل في «بيتروفسك» حافلاً بالوعود، بدا عليهم الحزن، بسبب مغادرتهم «تشيتا».

الجزء الثاني

١

يوم السابع من آب «أغسطس»، وبتحت المطر الذي كان ينهمر بغزارة، خرج الصف الأول من السجناء من «تشيتا» تحت أمرة ابن أخ «ليبارسكي» والصف الثاني الذي كان يقوده الجنرال بالذات، بدأ سيره، بعد اليوم التالي عند الفجر، وكان المطر قد توقّف عن الهطول، ولكنّ الأرض كانت مبللة وموحلة، والرياح العنيفة تدفع الغيوم عبر الأفق البعيد. و نيقولا، الذي كان بين مساجين الصف الثاني، بدا وهو يمشي متباطئاً، والرياح الدافئة تلفح وجهه، وقد انتابه شعور بالرضا مشوب بالمرارة من هذا العنف الذي يتجاوب تماماً مع اضطراب واصطخاب إحساساته وعواطفه. ووراء صف المشاة الذين كانوا يسيرون متذمرين وهم يتخبّطون في الوحول، كانت تسير العربات التي تحمل المؤن والأمتعة، عربة القيادة والعربات التي تقلّ السيدات. وكانت «صوفيا» مع السيدة «فونفيزين» في إحدى تلك العربات المغطاة بالمشمعات، والتي كانت تتأرجح وتتمايل بين الحفر والأخاديد، الكثيرة في ذلك الطريق الترابي. وفي كل لحظة، كان «نيقولا» يلتفت آملاً أن يلمح وجه زوجته عبر إحدى فتحات غطاء العربة.

وعلى بعد أربعة كيلومترات تقريباً، كان على الموكب أن يعبر نهر «الأنفودا» الذين كان في حالة الفيضان، بسبب هطول الأمطار الغزيرة.

وتوقفت القافلة على الضفة الموحلة. وكان جمهور غفير يحيط بالرصيف الذي ترسو بجانبه المعدّية. إنهم بعض سكان «تشيتا» وقد أتوا بأعداد كبيرة، ليودعوا أولئك الذين منحوهم الثراء وبحبوحة العيش وليتمنوا لهم

رحلة سعيدة. ونزلت بعض السيدات من العربات، لكي يودّعن، مرة أخرى، أولئك الذين قدموا لهن الخدمات والمواد، وجيرانهن أيضاً. وقبلت «صوفيا» جارتها الطويلة «بولشيري» على الوجنتين، بينما كانت هذه تجهش بالبكاء، ثم صافحت الزوج، و «زكاريتش» وشدّت على يده. فتبادر إلى ذهن «نيقولا»، وهو يراقبها من بعيد: «لكم هي طيبة ولطيفة مع الآخرين!» كانت ترتدي معطفاً سفرياً رمادي اللون، وعلى رأسها قبعة من القش مزودة بحجاب صغير. وأراد الاقتراب منها، ثم غير رأيه وعدل عن ذلك: «وأي جدوى في الاقتراب منها؟» فمع تزايد التأثر والانفعال، ربما تفتّقت الجروح. ووُزّعت الإكراميات من جديد، وتعالت من جديد أيضاً، صيحات الشكر والامتنان:

- أيتها المحسنات إلينا! ليحفظكنّ الله! فماذا سيحل بنا بعد ذهابكنّ؟

ومن بين جميع زوجات المساجين، كانت الأمهات هنّ اللواتي حظين بالمزيد من الاهتمام، وتجمّع حولهن كثير من النساء، وأخذن يتأملن بإعجاب، وقد ضممن أيديهن، الواحدة إلى الأخرى، الأطفال، الذين كانت أمهاتهم تعرضهم عليهنّ، بزهو وسرور. ولكن، عندما طال وقت هذا الوداع، تعب الأطفال وانزعجوا من الضجة التي حصلت فأخذوا يصرخون ويبكون. فأتى «ليبارسكي» مسرعاً، وقد جحظت عيناه:

- ماذا هنالك؟ هل حصل أي حادث؟

فطمأنته السيدات بأنه لم يحصل شيء، فذهب وهو مشغول البال بأعباء مهمته، الثقيلة، وأخذ يصدر الأوامر بأعلى صوته لسائقي العربات وللجنود، ويشتم الأحصنة، بل ويهدّد النهر، أيضاً، من شدة غيظه وحنقه. وبعد أكثر من ربع ساعة من الاضطراب والفوضى عادت فانتظمت حركة السير. وكان «نيقولا» قد صعد إلى المعدّية. عندما دوّى قصف الرعد وتبعه برق يبهر الأبصار، بشكل مفاجئ. وانهمر من السماء مطر دافئ. كثيف

وناعم كالرذاذ، ثم أخذت قطراته تتضخّم، واكفهر الجو، الذي أخذ دوّي الرعد يتردد في أرجائه. والأشجار التي غمرها المطر من أعلاها إلى أسفلها وعصفت بها الرياح فعرّتها من أوراقها، ونتفتها كما تُنتف من ريشها الدجاجة المذبوحة. واكفهرت وتجهمت الوجوه، وأصبح الطريق كالنهر، واصطبغ بلونه، والنهر اصطبغ بلون الطريق وصار مثله.

وعندما وضع «نيقولا» قدمه على ضفة النهر الأخرى، حصل لديه انطباع بأنه لا يزال يعوم مع مجرى النهر. وعادت المعدية، وهي تطفو متراقصةً مع أمواج مياه النهر، الصفراء. وهناك، كانت الخيول تجمح، تنزلق وهي تصعد على الرصيف، والسيدات يتحلّقن بفساتينهنّ الزاهية الألوان، حول العربات التي يتصبّب منها الماء. واحتاج الأمر لنحو اثنتي عشرة رحلة تقوم بها المعدية، لنقل الجميع من ضفة النهر إلى ضفته الأخرى. ولعدم وجود مأوى، كان على الذين عبروا النهر، في بداية الأمر، أن ينتظروا بجلادة وصبر، أن تنتهي عملية العبور، وهم يقفون تحت زخات المطر المنهمر. وعندما نزل على الضفة المقابلة، آخر جندي، وعلى حربته تلمع قطرات فضية وقبعته يسترها غطاء كثيف، رسم «ليبارسكي» على صدره علامة الصليب:

وأجرى الملازم «فاتروشكين» التفقّد: الجميع حاضرون، لم يفقد منهم أحد. وعلى الضفة الأخرى، كان القرويون يلوّحون بأيديهم، ويصيحون: «وداعاً!» ثم أخذوا ينصرفون زرافات ووحدانا، وهم يلتفتون من وقت لآخر، نحو الضفة المقابلة.

وفجأة هدأ المطر، وانفرج الجو قليلاً، فبدا جانب من السماء الزرقاء، بين الغيوم التي تسوقها الرياح، ومع اتساع هذا الجانب كانت السماء تبدو أشدّ زرقة وصفاءً.

وأخذ البخار يتصاعد من الأرض، وما تبقى من أوراق الأشجار بدا لامعاً، وأخذت الحشائش والأعشاب تستقيم وتنتصب وهي تلمع أيضاً،

بينما كانت الشمس ترسل، عبر الأبخرة الهاربة، حزمة كبيرة من أشعتها الدافئة.

واستأنف المساجين السير، وكل منهم، ظهره مبتلّ، وسرواله ملتصق بفخذيه، وعند كل خطوة يخطوها، يخرج صوت من بين أسفل قدميه وباطن حذائه. وكان بعض الجنود يتقدمون القافلة، وبعضهم يتبعونها، وبجانبهما كان يسير أيضاً جنود القوزاق على صهوات خيولهم، والرماح بأيديهم. وما يقرب من خمسين خيالاً، من قبيلة «البوريات»، المسلحين بالأقواس والسهام، كانوا يتجولون، مستطلعين الأماكن القريبة من الطريق. وكان صرير نوابض العربات يصمّ الآذان. وعندما كان «نيقولا» يغمض عينيه، يخيّل له أنه يسمع صياح الطيور الجارحة وهي تتخاصم عند تحويمها ومهاجمتها لإحدى الجيف. وكان الجنرال يمتطي أحياناً حصاناً أبيض، ويمرّ على عربات السيدات ويسألهنّ فيما إذا كنّ بحاجة لأي شيء، يوجه كلمة تشجيع، بلهجة أبوية، للمساجين، ثم يعود، والعرق يتصبب على جبينه، فيصعد إلى عربته.

ونحو الظهر، توقفت القافلة، فترة قصيرة، بجانب الطريق، كي يتناول الجميع قطعة من اللحم البارد، وكأساً من الشاي واغتنمت السيدات هذه الفرصة، للوقوف في الشمس، بجانب العربات، لتجفيف ملابسهن. وكان شعرهن المبتل، الذي بقيت خصله وضفائره على حالها، يلمع كأرغفة الخبز، عند إخراجها من الفرن. وكان جميع الرجال ينظرون إليهن، برغبة واشتهاء. وفي غضون ذلك لم تبدُ «صوفيا» للعيان.

والقسم الثاني من هذه المرحلة كان متعباً، إذ إنّ الطريق أخذ يتجه صعوداً، والأكثر ضعفاً بين المساجين أخذوا يلهثون وقد تدلّت ألسنتهم من أفواههم، وأخذوا يميلون بثقل أجسامهم وينقلونه من ساق إلى أخرى. و «روزين» الذي اختاره رفاقه لتولي الإشراف على أعمال مجموعة الصف

الثاني، كان قد ذهب مع بعض الجنود، في اليوم السابق، لتهيئة المخيم. ونحو الساعة الثالثة، بعد الظهر، بدا من بعيد صف من الخيام المخروطية الشكل، في موقع منبسط من الأرض، فحيّته أصوات قوية تعبر عن الفرح، وأخذ الجميع يسرعون الخطى نحوه.

ولم يكد السجناء يصلون إلى هناك، حتى أسرع كل منهم لاختيار الخيمة التي سيمضي ليلته فيها. كانت جميعها متشابهة، وكل واحدة منها تتسع لنوم أربعة أو خمسة أشخاص.

وقال «يوري ألمازوف» لصديقه، وهو يضع يده على كتفه:

- أنت ستبقى معي، أليس كذلك، يا «نيقولا»؟

فأومأ «نيقولا» برأسه، موافقاً، برخاوة تنم عن الخضوع والانقياد. فمنذ بداية الرحلة أخذ «يوري» يهتم به ويداريه، كأنه طفل صغير. وأثناء ذلك، سأل الرجال المتزوجون الآخرون «ليبارسكي» عن الترتيبات التي اتخذت لكي يتاح لهم قضاء تلك الليلة مع زوجاتهم، اللواتي كن يقفن، على استحياء، غير بعيد من هناك، ولكن كان يبدو عليهن الاهتمام بالموضوع. واغتاظ الجنرال: فهو لم يكن يتوقع شيئاً من ذلك، ولم يوعز باتخاذ أي ترتيبات، وسيظل الأزواج منفصلين عن زوجاتهم، كالمعتاد! فذكّروه بأنه سبق له، أن وعدهم، هو نفسه بأنه سيُسمح لهم بالسكن سوية مع زوجاتهم في السجن الجديد. فردّ عليهم، قائلاً إنهم ليسوا الآن في السجن الجديد، بل في الطريق. وتبع ذلك مناقشة قانونية، فطلب المساجين تطبيق نظام سجن «بيتروفسك» لأنهم غادروا «تشيتا» فذكّرهم الجنرال بأن نظام سجن «تشيتا» ما زال ساري المفعول وهو الذي يطبق عليهم، لأنهم لم يصلوا، بعد، إلى «بيتروفسك» وبلغت أصداء هذه الأحاديث مسامع «نيقولا» فانتابه غم شديد:

لأنّ رفاقه إذا فازوا بمطلبهم، فسيكون هو الرجل المتزوج الوحيد الذي لن ينضمّ إلى زوجته، وهذا الوضع سيجعل الجميع يطلعون على المحنة التي

حلّت به، وسيبدو في نظرهم جميعاً كصعلوك مسكين تعرض للخيانة وللسخرية، وطُرد من بيته... ولم يدم قلقه طويلاً، لأنّ «ليبارسكي» استشاط غضباً وأمر المراجعين بعدم إزعاجه بعد الآن بمسائل تافهة ولا أهمية لها كهذه فتفرقوا في الحال، وهم يتمتمون. فشعر «نيقولا» بارتياح، واستطاع عند ذلك أن يفكر بإقامته الخاصة.

وخُصص للسيدات خيام مجاورة للسرادق الكبير المصنوع من النسيج المحبّك الذي يشغله الجنرال: فليس هنالك من شك بأنه أراد أن يكنّ بالقرب منه كي يستطيع مراقبة سلوكهنّ وتصرفاتهنّ.

وأوقد الطباخون العسكريون النار. ووزّع الملازم «فاتروشكين» الخفراء حول المخيم. وبدا نشاط كبير لدى الأمهات: كان يجب تبديل ملابس الأطفال، وإطعامهم وتأمين منامتهم، ومن أجل ذلك وضعت لهم أسرّة مصنوعة من القصب تحت أغصان الأشجار، وغطيت بقماش «التول» الرقيق والشفاف لحمايتهم من الذباب. وبينما كان الصغار منهم، يصرخون، ويتحركون باستمرار تحت تلك الستارة الواقية، كان بعض الكبار الذين يستطيعون المشي، يحاولون السير إلى اليمين وإلى اليسار، على سيقانهم الضعيفة. وكانت أمهاتهم تناديهم، توبخهم، وتهددهم: «إذا استمريتم بالمشي هكذا فسيأكلكم الجنرال!»

ولكنّ هذا التهديد لم يكن يخيفهم أبداً. و «نيقولا» الذي كان يقف أمام خيمته لمح «صوفيا» عندما مرت من هناك، وهي تمسك بيد ابنة «أليكسندرين مورافييفّ». واقترب موعد تناول طعام العشاء. فامتزجت رائحة اللحم المشوي مع أريج الزهور والأعشاب.

ودعا «ليبارسكي» الأزواج وزوجاتهم إلى مشاركته في تناول هذه الوجبة. وخشي «نيقولا» خوض هذه التجربة، ولكن كان يستحيل عليه أن يرفض دعوة الجنرال.

وجلس المدعوون كيفما اتفق: على مساند، على صناديق، على حجارة على قطع كبيرة من الخشب، حول مائدة منخفضة أقيمت على حوامل صغيرة. كانت الأميرة «تروبيتزوكوّي» جالسة إلى يمين الجنرال، والأميرة «فولكونسكي» جالسة على يساره، بينما جلست «صوفيا» بين «مورافييفّ» و «أنّانكوفّ». ولم يكن «نيقولا» يحوّل نظره عنها. كان ناقماً عليها لكونها جميلة إلى ذلك الحد، متمتعة بالهدوء التام، واثقة من نفسها إلى تلك الدرجة، بينما كان هو، متوتر الأعصاب، يتململ خجلاً وهو قابع في زاويته.

وأثناء الحديث الذي دار حول المائدة، وجّهت له الكلام عدّة مرات، وابتسمت له، وطلبت منه الإدلاء برأيه في أمر من الأمور، كأنّ شيئاً لم يكن، وهو وقد فوجئ بذلك، فلم يحر جواباً، وارتبك لأنه أخذ على حين غرة. ولم يكن يتوقع منها أن تفعل ذلك وأخذ يتساءل فيما إذا كان الناس، من حوله، قد خدعوا بهذا التصنع المضحك.

هذان الذراعان العاريان تقريباً، واللذان لا يسترهما سوى طرف الوشاح الحريري، الأزرق اللون الملقى على كتفيها، ذكراه بالمرأة التي كان يحبها، وقد راوده الأمل بأنه سيستردها، ويعيدها إليه وإلى سابق عهدها، ولكن من أجل ذلك، كان ينبغي أولاً أن يعيدها إلى نفسها وإلى ذاتها. نعم، فهي كالمريضة التي تعيش تحت سيطرة وتأثير فكرة ثابتة، تلازمها على الدوام: «فهي تتكلم، وتتصرف كشخص سويّ وطبيعي، ولكنّ ذهنها مشغول، مشوش ومنحرف.»

وانتهى الجميع من تناول الطعام، دون أن ينتبه «نيقولا» إلى ذلك، فقد احتسى كثيراً من «الفودكا» وأخذ رأسه يدور. كانت الرياح قد بدّدت الغيوم. ومع اقتراب الليل، أخذت الأعشاب، الأشجار والأحجار، تكتسي اللون الأسود، بينما كانت السماء تحتفظ ببريق يشبه البريق الذي يبدو

على سطح بحيرة من الماء. وكان لهيب المواقد ينعكس كالحرائق على جوانب الخيام المدبّبة، على البنادق المشبّكة، في حزمة، مع بعضها، على أكفال الخيول، الحريرية، المربوطة هناك، وعلى جميع الوجوه والأيدي التي تحيط بكل قدر من القدور. وكان يقوم بالخدمة حول المائدة بعض أفراد قبيلة «البوريات» وبعض السجناء العاديين السابقين. وقدم «ليبارسكي» للسادة، ضيوفه السجائر. وبعد ذلك، عندما أعلنت السيدات أنهن يشعرن بالتعب، فقد تفرق الجميع. و «نيقولا» لكي لا يختلف في مراعاة آداب اللياقة عن الأزواج الآخرين، فقد رافق «صوفيا» إلى قرب الخيمة التي تقيم بها مع «نتاليا فونفيزين» و «أليزابيت نارشكين». وهناك أعطته يدها فقبلها. وهكذا فقد حافظا على مظاهر التفاهم التام. كانت أصوات الخفراء تتجاوب من بعيد، كصياح الطيور الليلية. وأخذت أولى النجوم تلوح في السماء، وحول المواقد كانت تتجول ظلال رجال، يتسكعون، لأن ليس لديهم أي عمل يقومون به، وقد بدا عليهم السرور. في ذلك الجو الساحر. والتقى «نيقولا» بـ «يوري ألمازوف» و «بيير سفيزتونوفّ» وهما في طريق العودة إلى خيمتهما، فتبعهما، دون أن يتفوّه بأي كلمة وظلّ، لفترة طويلة، مستلقياً على فراشه القشّي، يصغي لشخير رفيقيه، الذي كان يطغي، في فترات متفاوتة، على ضوضاء المخيم، الخافتة. ثم نهض، بكل حيطة وحذر، وخرج من الخيمة.

وهذه المرة، بدا له المخيم، أكثر اتساعاً، وأكثر هدوءاً، وكانت تلوح بين الخيام بعض الجذوات التي ترسل بريقها الخافت، بحيث يخيل للناظر إليها أنها جماعة من لابسي المعاطف الرهبانية. قد وقفوا هناك وهم يحملون المشاعل. وظلال مسننة الأشكال كانت مستلقية عبر الضباب الخفيف المخيم هناك. وفي هذه الجهة وتلك، كان بعض أفراد قبائل «البوريات» جالسين على شكل حلقة، مقرفصين، والبعض منهم نائمون، وآخرون

يدخنون أو يروون فيما بينهم، همساً وبصوت خافت بعض القصص والحكايات المغولية. وأخذت أصوات الخفراء تخفت وتتباعد فترات الصمت والهدوء فيما بينها، وكأنها تتخاطب في الأحلام، من جزيرة إلى أخرى. وكان الهواء بارداً جداً، يكاد يكون جليدياً، يتخلّله أريج الحطب المحروق والسّعتر.

كان «نيقولا» يمشي كيفما اتفق ودون هدف معين، شارد النظرات، فاصطدم بجسم مستلقٍ على الأرض، فانحنى، وعرف أنه «فيلات» السجين السابق، الذي أراد «ايفاشيف» أن يجعله رفيقه، عند هربه.

فجلّس «فيلات» قامته قليلاً، واستند على مرفقه، فبدا رأسه الكبير على بصيص أحد المواقد، وقال مغمغماً:

- ماذا؟ ألم تنم يا سيدي؟ مع أنّ الجو بارد الليلة، أتريد أن تلعب معي بالمكعبات؟

كان لدى «نيقولا» شعور شديد بالوحدة، لدرجة أنه همّ بالموافقة على اللعب بالمكعبات مع «فيلات» ولكنّ قوة خفية كانت تشدّه نحو وسط المخيم، ولذلك، قال:

- كلاّ، إني أفضل الذهاب لأتمشى.

- لا تذهب إلى جهة الخفراء ولا تقترب منهم، إنهم خطرون في الليل، فعند سماعهم أقلّ حفيف تحدثه الحشائش والأعشاب ينتابهم الخوف ويطلقون النار!

فشكره «نيقولا» على نصيحته، وتابع طريقه. وكانت الخيام التي يمر بها، تتردّد فيها الأنفاس، على مستوى سطح الأرض، وتئن وتشكو بأصوات بشرية. وعندما وصل إلى منطقة هادئة، يسود فيها الصمت والسكون، أدرك أنه أصبح بين الخيام التي تنام فيها النساء، ولكنه لم يتذكر تحت أي خيمة تقيم «صوفيا».

وخلال بضع دقائق، ظلّ واقفاً في وسط جميع أولئك النائمات. وصوّرت له مخيلته السعادة التي كان من الممكن أن ينعم بها. فشدّ على قبضتيه. كان اليأس والحقد يلازمانه ويعذبانه. وعاد، بعد ذلك، أدراجه، متسكعاً حول المواقد التي انطفأت نارها وألقى نفسه، دون أن يدري كيف حصل ذلك، على فراشه القشي، بين رجلين يغمغمان في نومهما.

★★★

وفي اليوم التالي، عند الفجر، هزّ المخيم قرع الطبول، وأيقظ النائمين فيه. فأشعلت النيران تحت الطناجر والقدور. وبسرعة نهض الجميع، ارتدوا ملابسهم، سرحوا شعرهم، تناولوا شيئاً من الطعام لتجديد قواهم، تدفؤوا قليلاً، وأصبحوا على استعداد للسير. وكانت «صوفيا» وهي جالسة في عربتها، مع «ناتاليا فونفيزين» تشعر بالسرور، رغماً عنها، للحيوية العجيبة التي أخذت تدب في حركة القافلة. ولأنّ ملابس المساجين، كانت قد تبلّلت بسبب المطر، في اليوم السابق، فقد استبدلوها صباح اليوم، وأصبحوا يشبهون بهندامهم الجديد، فرقة من المهرجين المتجولين.

وكان «زفاليشين» الوقور يقلّص قامته القصيرة في «ريدانفوت» عتيقة، فبدا كأحد «الصاحبيين»[1] وغطى رأسه بقبعة عريضة الجوانب، تدلّت حتى أذنيه. وحمل تحت إبطه الأيسر كتاب التوراة، وبيده اليمنى أمسك عكازاً ضخماً. و «اياكوشكين» كان يلبس رداءً قصيراً يشبه الجبّة وطاقية مدببة. أمّا «فولكونسكي»، فكان يتبختر مرتدياً قميصاً نسائياً فضفاضاً. بينما كان «يوري ألمازوف» يرتدي الملابس القروية. وقد ارتدى «فونفيزين» بزة عسكرية من دون كتافيات، وبدا متباهياً بها. أما «نيقولا»

١- «الصاحبي»: أحد افراد شيعة «الصاحبيين» البروتستانية، التي تدعو الى السلام والبساطة، ومحبة البشر - المترجم.

فبدا كأنه أسباني بسرواله الضيق اللاصق بفخذيه وسترته القصيرة. وابتسمت له «صوفيا» وقرأت في الحال بريق الأمل الشديد في عينيه، لدرجة أنها عادت فأخذت حذرها.

وتقدم الرجال في سيرهم، وسبقوا العربات التي كانت، حسب نظام المسيرة يجب أن تسير في المؤخرة. وترددت تعليمات عسكرية كثيرة، وأخذت تتموج عبر سحابات الغبار الداكن الذي كان يغشى الطريق. وشعر «نيقولا» بالضياع بين هذا الجمع الذي يشبه قطيع الماشية، الذي يتصاعد من الرغاء والثغاء. بينما استطاعت «صوفيا» التفكير بشيء آخر.

كانت الروابي الخضراء مغطاة بالزهور الجميلة والغريبة الأشكال، تنتشر بينها بكثرة وتغلب عليها زهور الزنبق الغريبة بلونها الأحمر الزاهي.

وأحياناً يحلق في الجو أحد الطيور الكاسرة، فيقذفه أفراد «البوريات» بالسهام. وأسقطوا مرة، أحدها، ولكنه ضاع بين الأدغال، ولم يستطع أحد أن يعثر عليه. وكان هنالك خيول ترعى في أحد الوديان، تحرسها فتاة من سكان المنطقة، وجهها يشبه وجه السعدان، وجدائل شعرها الأسود مزينة بالخرز والميداليات.

وعندما رأت القافلة تقترب، صرخت صوتاً قوياً، وساقت قطيع الخيول بسرعة كبيرة، نحو الأفق البعيد، وظل دوي حوافرها يتردد فترة طويلة، بعد ابتعادها. وأقل الأحداث شأناً التي تحصل في الطريق، كانت تذكر «صوفيا» بالرحلة التي سبق لها أن قامت بها عبر سيبيريا، برفقة «نيكيتا». والمناظر التي كانت تراها، لم تكن تبدو أنها مخصصة كي ينظر لها الإنسان: فهنالك فواكه وثمار لا يملكها أحد:

فهي تنضج، وتنشر أريجها وتسقط على الأرض، دون أن يجنيها أو يلتقطها أحد. وفي وضح النهار، كان الهواء الحار يلفح الوجوه، وبدت السماء جافة وبيضاء كالجصّ، تبهر النظر وتؤذيه. وبشيء من الجنون،

كانت «صوفيا» تستطيع أن تعتقد أنّ «نيكيتا» كان هناك، يمشي بين المساجين، فتغمرها، عند ذلك. موجة من الاستبشار والحبور، تصل حتى سويداء قلبها.

وأثناء ذلك، بدا الجميع مبتهجين بحياة التنقل والبداوة التي كانوا يعيشونها. كانوا يمشون ست ساعات في اليوم، ويتوقفون عندما تشتد حرارة الجو، قرب أحد الأنهار، في موقع تظلله الأشجار، حيث تكون الخيام قد برزت كمجموعة من الفطر. ولا يكاد المساجين يتعرفون على خيامهم، حتى يسرعوا للسباحة والابتراد في مياه النهر. ثم يأتي دور السيدات، حيث كانت الستائر والأغطية التي تعلق على أغصان الأشجار وعلى بعض الأوتاد، تحجب أجسادهن العارية عن النظرات الجريئة والفضولية، أثناء سباحتهن وتخبطهن في الماء. وبعد الاستحمام، كان الجميع، بناءً على أوامر وتعليمات الجنرال، يعودون إلى خيامهم. فيقدم الرجال المكلفون بالخدمة في ذلك اليوم، الشاي. فيحتسيه البعض وهم مستلقون يثرثرون، يطالعون أو يتبارون بالشطرنج. وبعد ذلك يخلد الجميع إلى الراحة، في قيلولة إجبارية، مدتها ساعتان. وعندما تميل الشمس للمغيب، يخرج المساجين من خيامهم، فيذهب بعضهم للسباحة، مرة أخرى، والبعض الآخر، يسيرون للنزهة في تلك السهول الفسيحة، وفي أعقابهم يسير أفراد من قبيلة «البوريات» لحراستهم.

بينما ينصرف آخرون إلى قطف الزهور، واقتلاع الأعشاب الطبية، إلى الرسم، وحتى إلى اصطياد الحشرات والفراشات. وعند حلول الظلام، واشتعال النيران، يبدو المخيم وكأنه في عيد. حيث يُهيّأ طعام العشاء في الهواء الطلق. وأثناء ذلك، يتجول كثير من المساجين، وأنوفهم مفتوحة ومشرعة إلى أعلى، بين الطناجر التي يُطبخ فيها الطعام على المواقد التي تتوهج فيها النيران. وأفراد قبيلة «البوريات» من جهتهم، كانوا يأكلون،

على انفراد، قطعاً وشرائح من اللحم «القديد» المجفف، ويحتسون الشاي «البريك» الذي يحضرونه على طريقتهم. ويوم الأحد قدموا للمساجين، في السهرة برنامجاً للتسلية والطرب، تخلله الرقص والغناء والتباري برشق السهام والألعاب البهلوانية. وإلى جانب السيدات، كان يجلس «ليبارسكي» مشرفاً على تلك الأمسية الجميلة.

وفي الليلة التالية، كان المساجين هم الذين أقاموا حفلة للطرب والغناء. والجوقة التي كانت مشكلة من جميع رجال القافلة، أشرف على تنظيمها وإدارتها «فادكوفسكي». واقتصر برنامج الغناء على التراتيل والأناشيد الدينية. وذلك بناء على طلب الجنرال الذي لم يشأ المجازفة بالسماح بإنشاد بعض الأغاني والأناشيد «المخرّبة» والتصفيق لها، والتي ربما فاته إدراك معانيها.

عندما أنشدت تلك الأصوات القوية والخشنة، سوية: «أرى عرشك يا مخلّصي»، جمّد «صوفيا» في مكانها الانتباه الشديد. وأسفت لأنها تجلس بالقرب من «ليبارسكي»، مع كل النساء، ولم تكن وحدها، وعلى انفراد، في مكان بعيد، لكي تسمع ترتيل هذا النشيد الذي يبعث على الأمل.

كان هنالك موقدان ينبعث منهما لهيب قوي يلقي الضوء على الرجال المنتظمين في صفوف متساوية. ومن صدورهم كانت تنبعث زمجرة هادئة وتصعد نحو النجوم، وخلفهم، كانت «دانتيلا» أوراق الأشجار الخضراء، المتراصفة فوق بعضها، تشكل زخارف وزينات خيالية، كان يخترقها، من وقت لآخر، بعض الخفافيش. و «نيقولا»، الذي يقف في الصف الأول من المجموعة، كان ينشد بحماسة وقوة.

تلك الوجوه التي احمرت بتأثير انعكاسات اللهب، وفكرة الموت، والأعماق التي تتراءى عبر الغابة، والسماء الصافية والهادئة، كل ذلك كان يمتزج في ذهن «صوفيا»، ويدفعها إلى ذرف الدموع.

وكانت تقول في سرها: «حقاً، ليس هنالك بلد سوى روسيا لتقديم مثل هذه المفاجأة المدهشة، فهنا تظل الروح سوية ومتزنة في كل وقت، وتبرز المشاعر والعواطف للعيان، ولا يخجل أحد من كونه ينعم بالسعادة، أو يعاني من البؤس والشقاء، من المتاعب أو من الإيمان الذي يعتنقه، أو من كونه يتصف بأنه شرير أو قوي أو ضعيف. ومن هذه السذاجة العظيمة، ومن عدم الاستحياء الإنجيلي والديني، هذا، تصدر أحياناً، كما حصل في تلك الليلة، أجمل أناشيد العالم.

وبعد الانتهاء من ترتيل آخر نشيد، هيّأ «ليبارسكي» المنشدين. وقذف جماعة «البوريات» قبعاتهم في الهواء. وكانت عيون جميع السيدات مغرورقة بالدموع. وتفرق الجميع، وكلّ منهم يحمل في قلبه أصداء ذلك الاحتفال.

وفي وقت متأخر من الليل، ارتدت «صوفيا» ملابسها بسرعة، لأنها لم تستطع أن تنام، وخرجت من الخيمة. وتمشت نحو ضفة النهر، الذي استحمت بمياهه، بعد ظهر ذلك اليوم. كان الماء يجري، براقاً، بين أعواد القصب الساكنة. وكانت نيران المخيم تتلألأ من بعيد. واستندت «صوفيا» على جذع شجرة، وشعرت بدهشة شديدة لأنها لم تعد تشعر بجسدها، وأنها ليست، من رأسها إلى أخمص قدميها سوى أسيرة الذكريات. وفي هذا المساء، وبشكل غريب، فقد تذكرت «نيكيتا» كما عرفته لأول مرة، وهو في السادسة عشرة من العمر، عندما كان فلاحاً صغيراً، أميّاً خجولاً. فأخذت تعلمه القراءة والكتابة، وعندما كانت تمتدحه وتثني عليه، كان ينظر إليها بإعجاب مثير. كان يتمتع بكل شيء: بالذكاء، بالجمال وبالفتوة والشباب!.. أمّا شغفه بالدارسة والتعلّم.. فكان يفوق الوصف!.. فقد انطلق من لا شيء... من الصفر!.. وتثقف بسرعة كبيرة، وبحماسة تثير الإعجاب! وغادر وضعه السابق وتخلّص منه دون جهد يذكر!.. وتبادر إلى

ذهنها، وهي تشعر بفخر تشوبه الكآبة: «وإلى أي موقع كان لا يمكنه أن يرتقي؟ وأنا أتولى تعليمه وإرشاده؟».

وبينما كانت مستغرقة في تأملاتها، سمعت حركة بين الأعشاب فالتفتت: وبدا لها «نيقولا»، ترصدها وتبعها... فشعرت بالقلق، وأخذت تصغي لوجيب قلبها وهو يتصاعد حتى حلقها: «فماذا يريد منها؟».

وقال:

- يا لها من ليلة رائعة! كنت متأكداً بأنك لن تستطيعي النوم!

هل أحببت أناشيدنا؟

كان يبدو هادئاً ولطيفاً.

فأجابته:

- لقد كانت رائعة، وتدعو إلى الإعجاب.

- أيها تفضلين؟

- ذلك النشيد الذي يدعو إلى راحة النفس والروح، ويتغنى بها...

- نعم... نعم... لقد سررت لأنّ هذا النشيد قد أعجبك كنت أنظر إليك، وأنا أنشد وأغنّي... لقد كنت فائقة الجمال!..

فغمرتها الشفقة نحو هذا الرجل الذي تعذّبه بمجرد حضورها، وحسب.

واستأنف الكلام، بصوت بهيم، لا نبرة فيه:

- العيش شديد القسوة من دونك!

فقالت له:

- ولكني، هاأنذا، بجانبك وبالقرب منك، يا «نيقولا».

ولك كل عطفي ومحبتي، وكل ثقتي...

- ومن سوء حظي أني عرفت شيئاً آخر، وشعرت به!

فحولت وجهها عنه، وألقى نفسه، فجأة، وحيداً، في عزلة وسط آلامه وعذابه، دون أن يتفهمه أحد. وكم مرةً في كل ليلة، بحث وفتش عن

مناسبة وفرصة لكي يحظى بمثل هذا اللقاء؟ ولكنّ أيّاً من تلك المشاريع التي رتبها آنذاك لم يستطع مقاومة نظرة «صوفيا» الوديعة وابتسامتها التي تنم عن التباعد والجفاءً فهل تختلف النساء عن الرجال حيال مشكلات الحب والغرام، وهل هنّ أقل اهتماماً بالجوانب المادية والحسية، وأكثر تعلقاً بالمرح والتلاعب، والاستسلام إلى التخيل وإلى الأحلام؟ وإذا كانت «صوفيا» ترضى وتقنع بحب عاطفي وخيالي، فهو، من جهته، لا يستطيع أن يرضى ويكتفي بأن يتخيلها ويحلم بها، فقد أصبح يرغب بها ويشتهيها إلى درجة تبلغ الضعف، منذ أن فقدها. ولن يرضيه أي حنان أو عطف، بعد أن بلغ مطلبه ذلك الحد، ومن باب أولى ألا ترضيه أو تشفي غليله أي شفقة أو رحمة.

وعلاوة على ذلك، فقد كان من المستحيل، ألاّ تكون «صوفيا» تشعر، في تلك اللحظة بالذات، بالرغبة التي توحي له بها. وإذا كانت قد لزمت الصمت، ساكنة، لا تبدو منها أي حركة، فذلك، بالتأكيد، لكي تراقب بشكل أفضل تصاعد هذا الاضطراب لديها، التي اعتقدت أنها قد شفيت منه. وبدا لـ «نيقولا» أنّ الصمت الذي خيم بينها وبينه قد استمر منذ عدة ساعات. وأوشك الليل على الانقضاء، ولم يكن قد قال ولا فعل ما كان ينبغي قوله وفعله. كان يبحث عن جمل قوية، واضحة ومقنعة. ولكنّ الاحترام والتعب والأمل، كل ذلك كاد يسبب له الجنون. وبدرت منها حركة، فأعتقد أنها تريد الذهاب، فصرخ فجأة:

- أحبك، يا «صوفيا»!.. أحبك!.. وكلّ ما يمكنك أن تقوليه لي، سيّان بالنسبة لي!.. فأنا أتقبّل كل شيء، أتفهمين؟ يا «صوفيا»!.. «صوفيا»!.. أرجوك!.. فأنا بحاجة إليك!..

فتراجعت، بكل برود، وقد جحظت عيناها، ولكنّ الرعب الذي بدا عليها، أثاره وحرضه في نهاية الأمر، فضمها إليه برعونة، وبحث عن شفتيها، ولأنها أخذت تقاومه وتتخبط، فقط سقطا وتدحرج معها على الأرض. وأخذت تهمس:

- دعني، يا «نيقولا»! اتركني، هيا وانصرف!.. انصرف، وإلاّ، فإني سأصرخ وأنادي!..

فقال لها، وهو يلهث:

- لن تُجرئي على فعل ذلك!

كان يسحقها بثقله، وبقدر ما كانت تتخبط وتتلوى تحته، بقدر ما كان يزداد إثارة، وهو يشعر بأنها حارة إلى تلك الدرجة في العراك.

حتى ولو سبق لها أن كانت خليلة «نيكيتا» وخليلة عشرين آخرين، كان من الممكن أن يتوسل إليها، في تلك اللحظة، أن تستسلم له. فالأجساد ليس لها ذاكرة. واشتهاء امرأة، يعني نسيان ماضيها. وتوصل إلى فك أزرار «الصدار» وتمزيق القميص. ولمست يده بشرة مكورة، فتفجرت السعادة في رأسه:

- «صوفيا»، حبيبتي، تعالي! تعالي!.. «صوفيا»!..

فانتصبت، وحاولت الجلوس، بحركة من جذعها، فكان أسرع وأقوى منها، فدفعها وألصقها بالأرض من جديد، بقوة وعنف، لدرجة أنها أخذت تئن وتشكو، فأراد أن يلتقط تلك الشكوى من فمها، ولكنها التفتت إلى جهة أخرى وخطرت فكرة، بسرعة البرق، على بالها:

«لو أنّ نيكيتا» حاول أن يأخذني، لرفضت أن أستسلم له بهذه الطريقة نفسها. ربما لأنه لم يكن سوى مجرّد فلاح. ومع ذلك. فإني كنت أحبه، ومازلت أحبه!...» كان وجهاهما يتأرجحان، يتصادمان، وأخذ كل منهما يسرق من الآخر، القليل من الهواء الذي كان لا يزال يفصل بينهما. وكان الخفراء يتنادون فيما بينهم، من بعيد، وفي آخر الدنيا، بأصوات «ممطوطة» وأخذ حصان يصهل ويضرب بحافره دلواً خشبياً. والرياح تتوغل إلى أعماق أوراق الأشجار.

وأخذ «نيقولا» يتمتم:

- «صوفيا»! افهميني!.. لم يعد من الممكن أن يدوم هذا الوضع هكذا!.. ينبغي!.. ينبغي ذلك!..

لم تعد تتحرك سوى ببطء واسترخاء، وهي مستلقية على الأعشاب، وذراعاها منبسطان ومتباعدان، وفي فمها يتصاعد طعم الدم. وأذنها تلتهب وتؤلمها. وقالت في سرّها بوعي أدهشها: «لا بد أني تأذيت عندما سقطت على الأرض!». كانت منهكة القوى. وقد تولد لدى «نيقولا» انطباع بأنه قاتل، وهو منحنٍ عليها ومستلقٍ فوقها. ولكنّ هذه الفكرة لم تثنه عن عزمه. وللمرة الأولى أخذ يتفهم الرجل الذي يصرع امرأة ويضاجعها وهي بين الحياة والموت، بدلاً من أن يمتنع عن ضمها بين ذراعيه. وظل مستلقياً عليها بينما كانت ترتجف قرفاً وامتناعاً، والتمتمة تتسرب من بين شفتيها المطبقتين، كأنّ أسنانها تصطك أو أنها تبكي في أحد الأحلام، وهي مستغرقة في نومها. وفجأة، كفّت عن الدفاع عن نفسها.

وبعد أن ضاجعها بسرعة وبصمت، طلب منها إن تصفح عنه. أخذت تتململ وتجمّع جسمها في ملابسها المدعوكة، وهي مستلقية على الأرض. وقالت، بصوت متهدج ومتقطّع:

- إنك تثير قرفي واشمئزازي! لا أريد أن أراك أبداً، بعد الآن! أبداً!.. وعلى الإطلاق!..

هيا، انصرف!..

فخيم صمت عميق، طال أمده. كانت خلاله تحدق به بنظرات تنمّ عن الكراهية.

فتمتم:

- «صوفيا»! أصغي إليّ..

فكرّرت ما قالته، بأعلى صوتها:

- انصرف!

فانصرف، وابتعد عنها، وقد أحنى رأسه، وتدلّى ذراعاه بجانبي جسمه. عند ذلك، ضمت وجهها بين يديها وأجهشت بالبكاء.

٢

دويّ قرع الطبول مر كالطنبر على جسم «صوفيا» فاستيقظت منزعجة، منهكة، بين «ناتاليا فونفيزين» و «أليزابيت ناريشكين» اللتين مازالتا نائمتين على فراشيهما القشيين. كانت تفوح في جوّ الخيمة رائحة شعر الماعز. وسمعت صوت رجل يقول، خلف ستارة المدخل:

- ها هو الماء، أيتها السيدات.

كان صباح كل يوم، يجلب أحد المساجين السابقين، دلواً من الماء، لكي تغسل السيدات أيديهن ووجوههنّ.

فقالت «أليزابيت ناريشكين» وهي تشكو متأوهة بينما كانت تتمطى وتكشف عن ذراعيها السمينين:

- أمنذ الآن؟!

وفتحت «ناتاليا فونفيزين» عينيها، وتثاءبت كالقطة، وأخذت تروي حلماً رأت فيه شخصاً مجهولاً أنقذها من الغرق، وحملها إلى أحد الزوارق ونزع عنها قميصها، ليصنع منه شراعاً. وبينما كانت تتكلم بسرعة وحماسة المرأة الثرثارة، كانت «صوفيا» قد جذبت السطل إلى الداخل، وأخذت تستبرد، وتغسل يديها، عنقها ووجهها، وهي لا ترتدي سوى تنورة صيفية. وتوقفت «ناتاليا فونفيزين» فجأة عن الكلام، وقد تغيرت ملامح وجهها، وقالت:

- آه! يا إلهي! هل أصبت بجرح؟ هناك، قرب أذنك!..

فمرّت «صوفيا» بظاهر يدها على خدها، وتمتمت:

- أعرف ذلكّ لقد سقطت، مساء الأمس، وأنا أسير متنزهةً... إنه مجرد خدش..

فقالت لها «أليزابيت ناريشكين»:

- إنه أكثر من مجرد خدش! انظري!

وناولتها مرآة يدوية. فلمحت «صوفيا» داخل إطار المرآة البيضوية الشكل، ملامحها المتوترة، عينيها المحمرتين، وكدمة زرقاء على خدها الأيمن. وجه يثير الشفقة، والرثاء، وجه امرأة مهزومة، بعد أن أشبعت ضرباً. وبحركة عنيفة ومفاجئة، أبعدت عنها المرآة، وهي تستعيد وتتصور كل ما حصل معها في الليلة السابقة، وقد اجتاحتها موجة قوية من الخجل الشديد. وهذه المرة، كان «نيقولا» قد انخفض وانحطّ كثيراً، لدرجة أنها لم تعد تستطيع أن تشفق عليه أو أن ترثي لحاله.

وحتى كراهيته كانت أيضاً فوق طاقتها، وتتعدّى قواها: «إنه غريب وأجنبي! وهل سبق له فيما مضى أن كان غير ذلك، بالنسبة لي؟ حياة بكاملها بنيت على الخطأ! وهؤلاء الناس، الناس الذين يحيطون بي، يقيمونني ويحاكمونني، والذين أبغضهم، ومع ذلك عليّ أن ابتسم لهم وأبدو لهم بوجه بشوش! وهذه القافلة الغريبة التي يعلم الله وحده، إلى أين تقودني! وهؤلاء الزوجات المخلصات اللواتي يرافقن هذه القافلة!... فهل أنا مجنونة أم أنّ العالم بكامله قد فقد عقله؟

وانسدلت ستارة من الدموع بينها وبين المرأتين اللتين تبحثان عن الأخبار، وتريدان دس أنفيهما في كل مكان.

وقالت لها «ناتاليا فونفيزين»:

- عليك أن تضعي على مكان الألم كمادات من شرائح الخيار الطازج، فهي تشكل علاجاً ناجعاً!..

فاجتاح جسم «صوفيا» ارتعاش عصبيّ، وقالت، دون أن تفكّر بشيء، سوى بإبعاد المزعجين عنها:

- نعم، نعم.. أعرف ماذا يجب عليّ أن أفعل!

فعلقت على ذلك «ناتاليا فونفيزين» بلهجة تنم عن الانزعاج!

- سامحني الله! أنت تغتاظين لأني أريد لك الخير!

- إذا كنت تريدين لي الخير، دعيني وشأني!

فسألتها «أليزابيت نارشكين»:

- هل نزهتك التي قمت بها مساء البارحة هي التي عكرت مزاجك إلى هذا الحدّ؟ لقد شعرت بك عندما خرجت..

وقالت «ناتاليا فونفيزين»:

- وأنا شعرت بك عندما عدت.

فصاحت بهما «صوفيا»:

- أي باختصار، أنتما تتناوبان التجسس علي! وكادت تستشيط غضباً، عندما التفتت «ناتاليا فونفيزين» نحو مدخل الخيمة، وضمت يديها على صدرها في حركة تنم عن الحياء، وقالت بأعلى صوتها:

- أيها السيد، لا تدخل، فنحن نتزين ونصلح هندامنا!

كان الملازم «فاتروشكين» يقف عند عتبة المدخل، فقال:

- سيدة «أوزاريف» الجنرال «ليبارسكي» يرجوك أن تحضري إلى خيمته في الحال؟.

فسألته، وقد دهشت مما بدا عليه من اهتمام وتكتّم:

- ماذا هنالك، وما هو القصد من دعوتي لمقابلة الجنرال؟

- لا أستطيع أن أصرح لك بذلك ولكنّ الأمر عاجل وملحّ، هلاّ أردت أن تتبعيني؟!..

فـردّت «صـوفيا» شـعرها فـوق رأسـها وثبتتـه بـدبوس، تـدثرت بـرداءٍ، وخرجت. كـان كـل مـن في المخيم يستيقظون عبر الغبـار الصباحي. وأخذ ضباط الصف يزجرون الجنود الذين لا يزالون يعانون من خدر النوم. وأفراد قبيلة «البوريات» يمـرون كالأشباح الصينية على صهوات خيولهم الصغيرة الجسم، والسريعة العدو. وعند دخـول «صوفيا» إلى خيمـة القائد، فوجئت برؤية «ليبارسكي» مرتدياً بزته العسكرية، منتعلاً جزمته، متجهم الوجه، ونظرته ثقيلة كالرصاص. وقال:

- أيتها السيدة، لقد هرب زوجك، هذه الليلة!

فاستولت الدهشة على «صوفيا» وجمّدت دماغها، وأزالت كل فكـرة من ذهنها. وتمتمت، بصورة تلقائية:

- هذا غير ممكن!..

- بلى أيتها السيدة. لقد اكتشفنا اختفاءه للتوّ.

وقد أقسم رفاقه، في الخيمة: «سفيزتونوفـ»، «ألمازوف» و «لورير» أنهم لم يشعروا به عندما ذهب، ولا شك بأنك ستقولين لي، أنت أيضاً، إنك غير مطلّعة على مشروع هربه!

- وبالفعل، أنا لا أعرف شيئاً عن ذلك.

- ومتى تحدثت إليه، لآخر مرة؟

فـأرادت أن تكـذب، ولكنهـا غيّـرت رأيهـا. عنـدما فكـرت بأنـه ربمـا يكون قد رآها أحد، الليلة السابقة، مع «نيقولا» وأنّ «ليبارسكي» يعرف ذلك، ويريد أن يختبرها. فرفعت رأسها، وقالت بصراحة ووضوح:

- لقـد التقيـت بـه، مسـاء البارحـة، بعـد منـع التجـول، علـى ضفة النهـر. وهذا الاعتراف كلفها الكثير. فاستعادت أنفاسها كما لو أنها بذلت جهداً جسدياً شاقاً.

فسألها «ليبارسكي»:

- ولم يقل لك شيئاً يجعلك تتوقعين أمراً..

تتبئين بحدث ما؟..

- لم يقل لي شيئاً، على الإطلاق!.

فقطب حاجبيه:

- أنت تكذبين، أيتها السيدة! لا يمكن أن يكون زوجك قد اتخذ هذا القرار، دون أن يخبرك بذلك! أو أنه اقترح عليك أن تهربي معه فرفضت، أو أنك تعرفين مخبأه، ووعدته بأن تتبعيه وتنضمي إليه فيما بعد!

فقالت «صوفيا» وهي تتأوّه:

- هذا غير معقول!

- كلاّ! كلا! فعلى العكس، هذا منطقي تماماً، هيا اعترفي أيتها السيدة!

وكلما ازدادت لهجته حدة وقوة، كلما ضعف إصغاؤها إليه. ومن كل ذلك لم تكن تذكر سوى أنّ «نيقولا» قد هرب. وذلك دون شك لأنها أعلنت له عن قرفها منه! ولم تكن آسفة ولا نادمة على ذلك كان قد استنزف منها كل تسامح ممكن. وبكل برود، كانت تتمنى ألا يلقى عليه القبض، وألا تسمع عنه شيئاً على الإطلاق، فيما بعد وماذا لو مات في الطريق؟ لم يتحرك لديها شيء عندما خطرت على بالها هذه الفكرة. لقد هرب، وكانت هي التي تشعر أنها أصبحت حرة.

وتحدّت بنظراتها الجنرال الذي كان يزمجر غاضباً وقد جحظت عيناه:

- كان يجب عليّ أن أترك المساجين مقيدين بسلاسلهم!

والآن كيف أستطيع تبرير موقفي وتصرفي أمام الإمبراطور؟

سجين سياسي هرب في الطريق بين «تشيتا» و «بيتروفسك»! يا له من عار يلحق بي! وأنا في المرحلة الأخيرة من خدمتي!..

ولكننا، سنعثر عليه ونلقي عليه القبض!... وقد أصدرت الأوامر اللازمة بهذا الخصوص!... حياً أو ميتاً! سيعيدونه لي إن كان حيّاً، أو ميتاً، أتسمعين؟!..

لم تكد تعرفه. فهل يمكن أن يكون الخوف من ارتكاب خطيئة أثناء الخدمة، قد حول هذا الرجل الذكي الخيّر والطيب، إلى موظف إداري فظ؟ ومن المؤكد أنّ الخوف من الحكومة، في روسيا، هو عبارة عن سم يضني ويميت أفضل النفوس، وأكثرها طيبة وصلابة.

واستأنف الجنرال الكلام:

- وإذا كنت أطلب منك بعض المعلومات الدقيقة، فذلك لمصلحته، ولتحاشي الأسوأ!..

فقالت له:

- أرجو أن تهدأ، يا صاحب السعادة. وأنا أؤكد لك، بصورة قطعية، أن زوجي لم يطلعني على موضوع هربه، وهذا يمكن أن يبدو لك غريباً، ولكن..

فسألها، بجفاء:

- كيف إذن؟ وبماذا تحدثتما، مساء البارحة؟

فترددت لحظة، وقالت:

- لقد جرى بيننا نقاش قاسٍ وشاقّ..

فصاح:

- هذا مؤكد! حول موضوع هربه؟!

فلم تجب. وحدّق بها «ليبارسكي» فوقعت نظرته على خدها المزرقّ، وتذكر، دون شك، ما روي له في «ايركوتسك» عن هذه المرأة الشابة وعن «نيكيتا»، فبدا ذلك واضحاً في ملامح وجهه، وقال، بلهجة تنم على أنه أدرك أمراً:

- نعم... نعم!..

كانت «صوفيا» تتعذّب. ودخل الملازم «فاتروشكين» إلى الخيمة، وأدى التحية العسكرية، وقد بدا عليه الاضطراب، وقال بأعلى صوته:

- يا صاحب السعادة، لقد هرب أيضاً «فيلات» المحكوم سابقاً بسبب جريمة عادية، ويبدو مؤكداً أنّ الاثنين قد ذهبا سوية، في نحو الساعة الواحدة صباحاً! وقد سرقوا بعض المواد الغذائية من عربة المؤن!

وعلى الفور، استشاط «ليبارسكي» غضباً، وبدا ذلك واضحاً في عينيه. وصاح:

- عزّزوا الدوريات، وادعُ إلى اجتماع عام!

فاستدار «فاتروشكين» واختفى بسرعة، وكأنّ عاصفة قد جرفته. وأخذ «ليبارسكي» يسير في كل الاتجاهات وقد أحنى رأسه، وضمّ يديه خلف ظهره، وهو يمشي بخطوات متثاقلة. وكان يلقي نظرات جانبيه، وأنفاسه تتردد بصوت مسموع، تحت شاربه. وعلى المنضدة السفرية، التي يمكن أن تطوى، بدت خارطة سيبيريا، وقد أشير عليها باللون الأحمر إلى طريق سير القافلة. وفي عمق الخيمة، سرير ميداني نزعت عنه الأغطية، وعلى عمود الخيمة الأوسط، علق تمثال «المصلوب» في شكله الكاثوليكي.

وسألت «صوفيا»:

- هل أستطيع الانصراف؟

فصاح بها «ليبارسكي»:

- كلاّ!

فاختارت كرسياً، وجلست عليه. وتابع سيره أمامها، صامتاً، كأنه أسد في قفصه. وفي الخارج دوّى قرع الطبول، وتعالت الأصوات معلنة الأوامر. ورجع «فاتروشكين»، وأعلن:

- الرجال اجتمعوا، يا صاحب السعادة.

فقال «ليبارسكي»:

- سأتحدث إليهم، وأنت، أيتها السيدة، عليك أن تبقي هنا.

وخرج، يتبعه الملازم، فوقف على حافة مرتفعة. ومن مكانها، حيث كانت «صوفيا» جالسة، تستطيع أن ترى المشهد، عبر فتحة الخيمة، التي رفعت ستارتها: كان المساجين قد اصطفوا في وضعية الاستعداد. وإلى يمينهم وقفت زوجاتهم. بمجموعة صغيرة، وخلفهم وقف السجناء السابقون الذين يعملون كخدم. وكان الجنود يحيطون بالجميع.

وقال «ليبارسكي» بصوت قوي:

- أيها السادة، لقد هرب أحد رفاقكم، هذه الليلة، وأعني به: «نيقولا ميخايلوفيتش أوزاريف». وقد ساعده على تنفيذ مشروعه الجنوني، السجين السابق: «فيلات»...

فاستقبلت هذه الكلمات بموجة من التمتمة تنم عن الدهشة. والذهول. وأحنى الرجال رؤوسهم. وبالمقابل، فقد انتصبت قامات النساء، ودبت الحركة بينهن، فاهتزت جدائل الشعر الملتفة خلف الرؤوس، والأطواق والعقود، وكذلك الأكمام الواسعة والمنتفخة.

وتابع «ليبارسكي» كلامه:

- وقد بدأ البحث والتفتيش عنهما. وأنا أقدم مكافأة، قدرها مئة روبل لمن يمسك بالهاربين، ومبلغ عشرين روبلاً لمن يدلي بمعلومات تؤدي للتقدم في التحقيق وفي البحث الجاري للعثور على الهاربين. وهذا الهرب الذي أساء إلى سمعة وحياة مجموعتكم، يفرض على الجميع واجب القيام بمساعدتي لإلقاء القبض على المذنبين اللذين سببا، بهربهما، تلك الإساءة. وإليكم، قراراتي:

سنبقى هنا، في وضعية الاستراحة، خلال يومين، بانتظار نتيجة جولات البحث والتفتيش الأولى. وإذا لم يُعثر على «أوزاريف» و «فيلات» في الثماني والأربعين ساعة المقبلة، فإننا سنستأنف السير، بينما يتابع أفراد قبيلة «البوريات» البحث والتفتيش عنهما في كل المنطقة. وحتى إشعار آخر، تمنع

مقابلات الأزواج لزوجاتهن، وكذلك تمنع السباحة والاغتسال في النهر، والنزهات خارج المخيم.

فتعالت الاحتجاجات من جانب السيدات، وصاحت «ماري فولكونسكي»:

- ليس لأزواجنا أي علاقة في هذا الهروب! ولا أستطيع أن أفهم كيف يكون عليهم أن يتحملوا نتائجه، وأن يعاقبوا وكأنهم مسؤولون عنه!

وأضافت «بولين أنّانكوف»:

- وعلاوة على ذلك، فإذا كان هنالك أحد يستطيع أن يردع سجيناً عن التفكير بالهرب، فإنّ زوجته، هي بالتأكيد التي يمكنها أن تفعل ذلك! ولهذا يصبح من غير المعقول إذن أن يمنع هؤلاء السادة من مقابلتنا!

فقال «ليبارسكي»، مبدياً هذه الملاحظة:

- أنت تنسين، أيتها السيدة، أنّ الهارب، هو بالضبط رجل متزوج!

وقالت «أليزابيت ناريشكين»، بلهجة مبطّنة وساخرة:

- لو كان يمكننا أن نفترض ذلك!

وأمنت «ماري فولكونسكي»، على قول زميلتها:

- أتمنى لو أنك تستطيع تمييز الفرق بين العائلات التي تقيم بجوارك.

فأدركت «صوفيا» أنها أصبحت، هذه المرة، العدوّ اللدود لهذه المجموعة الصغيرة، وأنّ الجميع أصحبوا يكرهونها. وبدت لها هذه الحرب المعلنة أفضل من العداوة المكتومة التي ظلت تحيط بها حتى ذلك اليوم.

وصاح «ليبارسكي»:

- إني لا أتقبل أي تعليق! ملازم «فاتروشكين»: رافق السيدات إلى خيامهن، وتأكد دائماً من أنهن لا يتجاوزن نطاق الحيز المخصص لهن.

ولكي يضع حداً للاعتراضات وللطلبات، استدار واتجه نحو خيمته. وعندما مرّ من أمام «صوفيا» تظاهر بأنه يجهلها. وجلس على حافة سريره،

وضمّ رأسه بين يديه، وبدا كأنّ منكبيه يرزحان تحت وطأة التعب، وسمعته «صوفيا» وهو يتمتم:

- هذا فظيع... فظيع جداً!..

وأخيراً، ألقى عليها نظرة فاترة، وقال:

- آه، أنت هنا! يمكنك أن تذهبي!..

وهزّ جرساً صغيراً. وعادت «صوفيا» إلى خيمتها، يرافقها جنديان. وأخذت النساء المجتمعات أمام خيامهن ينظران إليها وهي قادمة من بعيد، وقد حصل لديها انطباع بأنها تسير متقدمة نحو المحكمة. فهل سيبعدن ليفسحن لها الطريق لكي تمر؟ وخطت بعد ذلك بضع خطوات فوجدت نفسها مطوّقة، لم يكن هنالك سوى وجوه معادية. وانتصبت أمامها «ماري فولكونسكي» بقامتها الطويلة، وقد بدا في عينيها بريق الغيظ الشديد، وقالت:

- إيه! وماذا إذن؟ هل أنت مسرورة؟ فبسبب هروب زوجك، ستصبح رحلتنا شاقة كالكارثة، بينما كان يمكن أن تكون نزهة ممتعة! بل ربما أثّر أيضاً على مستقبلنا في «بيتروفسك» وأفسده تماماً!

فقالت «صوفيا»:

- إني آسفة مثلكن، لذلك، ولكن أليس من الطبيعي أن يحاول السجين الهرب من السجن؟

- بلى، عندما يفعل ذلك لكي يستردّ حريته أو لكي يحقق مثلاً أعلى سياسياً! ولكن، لسوء الحظ، ليست هذه هي الحالة الآن!

- وكيف عرفت ذلك؟

- أنت تكفّلت بإفهامنا إياه!

- أنا؟ متى؟ وكيف؟

- شيئاً فشيئاً، كل يوم، بالسلوك الذي تتبّعينه. فتوترت أعصاب «صوفيا» من تأثير هذه الشتيمة، وشعرت بحرقة وبحرارة خفيفة في خديها، كما لو أنها قضمت إحدى ثمار الفليفلة الحارة. وقالت:

- أنتن لا تعرفن بماذا تشغلن وقتكن! وتعشن على ممارسة الثرثرة والهذر واغتياب الآخرين!

- إنه لأمر سهل أكثر مما ينبغي، تسمية إحدى الحقائق التي تزعجك بالهذر والثرثرة، ولكنّ الحقيقة والوقائع، واضحة هنا!

بهذا ردّت عليها بعنف «أليزابيت ناريشكين».

فسألتها «صوفيا»:

- أي حقيقة، وأي وقائع، أطلب منك أن تحدّديها!

فقالت «أليكسندرين دافيدوفّ»:

- دعك من ذلك. يا «أليزابيت»، فهنالك أعمال بذيئة، لا تستطيع المرأة الشريفة ذكرها والتحدث عنها، دون أن توسّخ فمها!

فصاحت «ناتاليا فونفيزين»:

- أريد، مع ذلك أن أقول لها إنها سبّبت التعاسة والشقاء لزوجها، ذلك المسكين «نيقولا ميكايلوفيتش»! وهو رجل متميز جداً، ويستحق كل احترام وتقدير!..

وتمتمت «كاترين تروبيتزوكوّي» وهي تتأوّه، وتلمس زاويتي عينيها بمنديل من «الدانتيلا»:

- إنّ هربه ليس تصرفاً ينم عن الأمل، بل عن اليأس!

فأمنت «بولين أنانكوف» على ذلك، قائلة:

- نعم! نعم! إنه بهروبه، كأنه قد انتحر! لكي يتخلّص من الحزن الذي كنت تسببينه له بلا مبالاتك، وبعدم اهتمامك به!

فتلفتت «صوفيا» حولها، وسط هؤلاء النساء المتكالبات ضدها، اللواتي أخذن يهاجمنها من كل الجهات:

- إنّ علاقاتي مع زوجي لا تعني أحداً سواي!

فقالت لها «ماري فولكونسكي» بلهجة تنم عن الازدراء:

- لو لم يكن قد فرض علينا أن نعيش سوية جميعنا، لما كنت تدخلت بقصصك الخبيثة والبذيئة.

وأيدتها «أليزابيت ناريشكين» قائلة:

- من غير المقبول أن يكون لفشلك وخيباتك العاطفية تأثير وانعكاسات سلبية على مصير المجموعة كلها!

و «صوفيا» التي أغاظها وأزعجها هذا الكلام الفظ والقاسي، لم تسمع جيداً بقيته. كانت تتأمل بانتباه مثير هذه المخلوقات التي يحبها لدرجة العبادة «متمردو كانون الأول» ويُعَدّونها «ملائكة» وتبادر إلى ذهنها أن تفاني هذه المخلوقات لم يكن نقياً وطاهراً تماماً، وخالياً من الشوائب. وقد أضاعت صوابهن أشعار «بوشكين» و «أودويفسكي». وأخذن يتعهدن الأسطورة التي تصورهنّ كزوجات مثاليات، وكنساء روسيات يثرن الإعجاب يمنحن الودّ والوفاء للسجناء المساكين، ونظراتهن متجهة نحو الذرية وإنجاب الأطفال. وقد أصبحن مخلوقات غريبة وشاذة بسبب إفراطهن وشدة رغبتهن بأن يصبحن قديسات.

وتمتمت:

- أنتن تراهنّ على مثل الفضيلة ومزاياها وتتغنون بها، ولكن ليس لكنّ أي حق بإلقاء الدروس عليّ!

فردّت عليها «ناتاليا فونفيزين» بلهجة حادة:

- لا أحد منّا يدعي العصمة والكمال، ولكننا، على الأقل، واثقات من استقامتنا ومن إخلاصنا: لقد ضحينا بكل شيء من أجل أزواجنا!

فصاحت «صوفيا» بصوت جرح بلعومها، عند خروجه:

- نعم، لقد ضحيتنّ بكل شيء! بكل شيء! حتى بأطفالكنّ، بأطفالكن الذين تركتموهم في روسيا!

ولم تكن تدري من أين أتتها هذه الحجة القوية والمخيفة، ولكنها وقد عثرت عليها، أخذت تلح في استخدامها والتركيز عليها، بنشوة وحرارة، وكأنها تخبط برجليها الماء في إحدى البرك:

- لقد تركتموهم هناك، وأتيتنّ لتتجبن غيرهم هنا، بفكر مرتاح وقلب مطمئن! وبطن خصيب! أليس كذلك، يا سيدة «مورافييفّ»، يا سيدة «دافيدوف!»، يا سيدة «مونفيزين» ويا أميرة «فولكونسكي»؟..

وألكسندرين مورافييفّ، وهي الوحيدة التي لم تهاجم «صوفيا» ولم تزعجها، فقد أحنت رأسها وأطبقت جفنيها: فابنها الذي تركته في روسيا، كان قد مات، بعد سنة من رحيلها. وابنتاها، اللتان تولت جدتهما تربيتهما، توالت عليهما الأمراض، على ما يقال، بسبب إهمال أمها لهما، وسفرها إلى سيبيريا البعيدة. وكانت هي تتألم كثيراً لهذا السبب، ولكنها كانت تتحاشى الشكوى والتذمر، والتصريح لأحد بما تشعر به من عذاب. ولم يواسها ويغرها عن ذلك إنجاب بنتٍ ثالثة في «تشتيا». ولذلك فإنها كانت آخر النساء التي كان يحق لـ «صوفيا» أن توجه لها اللوم وتسبب لها الألم.

وقالت «ماري فولكونسكي» وذقنها ترتعش من شدة الغيظ:

- إنّ شتائمك تصدر عن نفس منحطّة جداً، لدرجة أنّ كل ما كنت أرفض أن أصدقه مما يروى عنك، قد تأكد لي الآن تماماً!

وكانت «صوفيا» مع أسفها لتجاوزها حدود اللباقة في هجومها على زميلاتها، راضية لكونها أوجدت الجو الذي لا يمكن إجراء أي مصالحة عبره. وبينما كانت تتحدّى بنظراتها هؤلاء النساء اللواتي نزعت الأقنعة عن

وجوههن، وتتلذّذ بكراهيتها لهن، رفعت «ألكسندرين مورافييفّ» رأسها. وكانت تعابير ملامح وجهها التي تنم عن الوداعة، والحزن الشديد، تتناقض تماماً مع التعابير التهجمية والعدوانية التي بدت على وجوه رفيقاتها. وقالت بهدوء:

- يا لها من مشاجرة قبيحة! فقد تفوهنا كلنا، بسبب القلق الذي يساورنا، بكلام عنيف يسيء إلى فكرنا ويشوهه. ونحن يجب أن نرثي لحال «صوفيا» لأن زوجها قد هرب، ولا ينبغي لنا أن نحاكمها وندينها، بل يجب علينا إن نساعدها، ونواسيها...

فقالت لها «صوفيا»:

- أنت طيبة جداً!

وعادت إلى الخيمة وهي منذهلة من شدة الغيظ، واستدارت وهي تخطو فوق فرشات القش، وتراودها رغبة شديدة بأن تقاتل الكون بكامله، ولكي تتمالك نفسها وتسيطر على غيظها، فتحت حقيبة سفرها، وأفرغتها من محتوياتها، وأخذت ترتب تلك الأشياء بطريقة مختلفة. كانت أصابعها ترتجف، وغشاوة كثيفة تغشى نظراتها، وقد اشتدت كراهيتها لتلك الزوجات المخلصات، والأمهات ذوات البطون الخصبة والمنجبة. وبصورة عامة، كانت جميع النساء، تثير لديها الرعب والكراهية: كائنات مشوهة ومخيفة، تطفح بالأكاذيب، بالغرور وبالنذالة، بالشرور وبالحمق! فهنّ، بوجوههن الملائكية، وأحشائهنّ المعقدة، يشكلن الجانب الضعيف من الخليقة. وقالت في سرها: «الحقيقة، إني شديدة الأسف لأني انتمي إليهن!» وشيئاً فشيئاً هدأ خفقان قلبها، وخفّت حرارة وجهها. وبعد قليل، لم تعد تفهم حتى لماذا اندفعت في حماستها إلى تلك الدرجة. فماذا يهمها ذلك النقد وتلك التهجمات التافهة؟ إذ إن مشكلتها الشخصية ترفعها، وتعزلها في وسط العالم. لأنّ هرب «نيقولا» يُعَدّ تصرفاً غير معقول، ويتسم بالجبن

والنذالـة، ولـذلك فهـي لم تكـن ترثـي لـه، ومـع ذلـك فلـم تكـن تقـوى علـى توبيخه وإذلاله. والارتياح الذي كانت تشعر به لمعرفتها أنه أصبح في مكـان بعيد. كان يشوبه قلق لم تستطع التخلص منه. وأصبحت ناقمة عليه لأنه يشغل فكرها هكذا، في حين أنها كانت تودّ ألا يشغل بالها وألاّ تهتم به بعد ذلك. وهو لن يستطيع أن ينجو، ولا أن يفلت لزمن طويل من أولئك الذين يبحثـون عنـه، وغـداً أو بعـد غـد، سـيعثرون عليـه، ويعيدونـه إلى الـسجن... وسمعت تمتمته بعض الأصوات عبر جوانب الخيمة: كانت النسوة لا تزال تتحدث عنها، لكي ينتقدنها، ويمزقنها، ويلقين عليها الأقذار والأوساخ..

فتمدّدت على فراشها القشي، غبر الغبش الذي يسود جو الخيمة، وعند الظهـر، أتـت «أليكسندرين مورافييـفـا» تناديهـا كـي تـذهب لتنـاول طعـام الغداء. فرفضت أن تذهب.

وحتـى المسـاء، ظلّـت هـكـذا، مختبئـة، صـامتة، تجـترّ قلقهـا، خجلـها وثورتهـا، وتقلّـب كـل ذلـك علـى كافـة الوجـوه، ولم تبـدو أيضـاً في موعـد تنـاول طعـام العـشاء، واكتفـت بتنـاول بعـض قطـع «الكـاتو» اليابسـة الـتي كانت تحتفظ بها في حقيبة سفرها. وفيما بعد، دخلت «ناتاليا فونفيزين» و «أليزابيـت ناريـشكين» إلى الخيمـة، فخلعتـا ملابـسهما واسـتلقيتا علـى فراشيهما، دون أن يوجها لها أي كلمة.

ولم يأت في اليوم التالي أي خبر عن السجين الهارب، ولم يحدث أي تغير في موقف السيدات حيال «صوفيا». وبعد أن أمضت ليلة لم تذق فيها طعم النوم، قـررت أنـه لا يليـق بهـا أن تـستمر في تهربهـا، لـزمن أطـول، مـن هـؤلاء النـسوة الثرثارات. وهـكـذا فقـد تغلبـت علـى قرفهـا واشمئزازهـا، واسـتأنفت نـشاطها، ومشاركتها في حياة المخيم. ولم يكن يبدو على أحد أنه يلاحظ وجودها.

وكانـت زوجـات المـساجين يقمـن بأعمـالهن اليوميـة، تحـت حراسـة الخفـراء. كانـت «كـاترين تروبيتزوكـوّي» و «مـاري فولكونـسكي»

تغسلان بعض الملابس في دست صغير. وكانت بعض الثياب المغسولة معلقة على الحبال الممدودة والمربوطة في جذوع وأغصان الأشجار، وبينها كثير من التنانير والقمصان والأقمطة والصداري والسراويل، وكانت «أليكسندرين دافيدوف» ترضع ابنتها، و «أليكسندرين مورافييف» تدرّب ابنتها على المشي، وهي تمسك بشريط من القماش مثبت على ثوبها. وحالما كان أحد المساجين يخرج من خيمته ويبتعد قليلاً، يصيح به الخفراء، منبهاً لكي يعود بسرعة. وعلى الرغم من هذا التشديد، كان الأزواج ينجحون بالتسلل نحو خيام «الحريم»، حيث تجري تبادل بعض الكلمات، على عجل. من فوق أدغال العليق، والشد على الأيدي، عبر أشواك ذلك العليق، وكثيراً ما يتم أيضاً تبادل بعض البطاقات. وكانت السيدات يعدن من هذه اللقاءات، وقد تورّدت وجناتهنّ. والسرور بادٍ على وجوههن، لأنّ لكل منهن زوجاً ليس هنالك ما يلام عليه، ولا لديهن ما يلمن أنفسهن عليه.

وانتظرت «صوفيا» أن تنتهي «كاترين تروبيتزوكوي» و «ماري فولكونسكي» من العمل، وأخذت تغسل بعض المناديل في سطلٍ بقي فيه ماء نظيف. وبرودة الماء على يديها جعلتها تشعر بالمتعة والارتياح، فاستمرت في عملها فترة طويلة، وكانت تسمع ثرثرة عدواتها، أثناء ذلك، خلف ظهرها، وجميعهن يردن أن يثبتن أنهن أكثر حزناً بسبب اختفاء «نيقولا» من زوجته نفسها:

نصف دزينة من الأرامل يتنافسن في إبداء اللوعة والحسرة:

- عندما أفكر أنّ «ليبارسكي» أطلق جميع أفراد قبيلة «البوريات» للتفتيش عن «نيقولا ميكايلوفيتش» والقبض عليه!..

- إنهم قساة، غلاظ القلوب!.. فإذا قبضوا عليه، يخشى أن يحدث أسوأ الأمور!..

- حسب رأي زوجي، يمكن أن يكون قد صعد على أحد القوارب التي تتجه نزولاً، على نهر «سولنجا»!..

- خلافاً لذلك، فإن زوجي يعتقد أنه قد انضم إلى زمرة من اللصوص وقطّاع الطرق، الموجودين في المناطق المجاورة!..

كانت «صوفيا» ترفض التأثر بهذه الشائعات، ومع ذلك فإنها لم تكن تستطيع التفكير بشيء آخر. وفي كل لحظة، وطوال الوقت كانت تتابع تلك المطاردة لاصطياد الرجل، الذي كان «نيقولا» هو طريدتها التي تهرب لاهثة ومنهكة من التعب. وعندما أعلن «ليبارسكي» أنّ السفر سيُستأنف في اليوم التالي، تلقت الخبر، كقرار بموت محتّم.

★★★

كان الطريق يتلوى كالأفعوان على سفح جبل منخفض وأجرد، وعند كل منعطف كانت «صوفيا» تلمح من أعلى عربتها، القافلة على مدى طولها، تتقدمها طليعة من الجنود، والمساجين: «متمردي كانون الأول» وهم يسيرون ببطء، ويطؤون بأقدامهم الغبار المتراكم على الطريق، والعربات المغطاة صناديقها بالمشمعات، وهي تهتز وتتأرجح، بشكل مزعج، بسبب وعورة الطريق. لم يكن قد تغير شيء، على ما يبدو في نظام وترتيبات القافلة، ولكنها كانت توحي بانطباع يتسم بالحزن. كان المساجين يتقدمون صامتين، تحت حرارة مرهقة، وقد أحنوا رؤوسهم، وتثاقلت أرجلهم. وكان واضحاً أنهم جميعاً، يفكرون برفيقهم الذي هرب. و «صوفيا» نفسها، كان لديها إحساس غريب بأنّ هنالك ثقلاً يعيق حركاتها. كانت تنظر مباشرة إلى الأمام، وفكرها يشدّها إلى الخلف. وأن تذهب وتترك «نيقولا» يواجه مصيره، كان يبدو لها أنه عمل شنيع ومعيب، كمن يمتنع عن مساعدة إنسان يوشك على الغرق. ولكن، ربما كانت لا تزال هنالك فرصة؟

لم يكن يبدو أحد من أفراد قبيلة «البوريات» حول القافلة، فقد انطلقوا كلهم لمطاردة الهارب والتفتيش عنه.

ولا بد من أنهم سيعثرون عليه، ويقتادونه إلى أمام حاكم السجن! كلاّ، كلاّ، فلا جدوى من مخادعة النفس! لقد فات الأوان! إنهم لن يعثروا عليه. فهو يمكن أن يتبدّد ويتلاشى في الفضاء. وإن كان حيّاً أو ميتاً، فلن يسمع عنه أحد شيئاً، بقدر الآن. وكانت تقول في سرها: «كما حصل لـ نيكيتا»! «تماماً كما حصل لـ نيكيتا!...»

كانت «ناتاليا فونفيزين» الجالسة بقربها تراقبها بعين حذرة، كما يراقب الشرطي شريراً جانياً يخصره، وهو يرافقه ويقتاده إلى المحكمة. ولم تكفّ النساء عن مهاجمتها. وحتى السجناء، كانوا يُعَدّونها مسؤولة عن المصيبة التي حلّت بزوجها. ولكم كانت تودّ أن تستطيع تبرير موقفها أمام «يوري ألمازوف»، أمام «وولف» وأمام «لورير».. ولكن، ما جدوى ذلك؟. وكانت تتساءل أحياناً عما سيفعلون بها: هل سيكون عليها أن تغادر سيبيريا، لأن زوجها لم يعد موجوداً في السجن أم أنّ عليها أن تبقى لكي تحل محله في تنفيذ العقوبة؟ فالحلان محتملان، ومن الممكن أن يفرض أحدهما عليها، في هذه البلاد التي تخضع لاستبدادية السلطة المطلقة. وعلاوة على ذلك، فهي لم تكن تدري ماذا عليها أن تعمل. كانت أفكارها مشوشة ومضطربة جداً، لدرجة أنها كانت تحاول عدم التفكير بما سيحصل لها غداً، لكي لا تصاب بالجنون. كانت تسير مسافرة في الدنيا، والصور تسير، مسافرة في ذهنها، وكل شيء كان عبثياً وغير معقول، كل ما كانت تراه وما تفكر به، عبارة عن موكب مبرقش بألوان عديدة، في مشهد منظره قاسٍ وجافّ، ومسيرة متعبة ومنهكة للقوى نحو حقيقة لا وجود لها.

٣

وضع «فيلات» القطعة المتبقية من اللحم المجفّف «القديد» في الكيس، وأطبق سكينه. كان «نيقولا» جائعاً، يستطيع أن يأكل قطعة أخرى، ولكن كان ينبغي تقنين المؤونة بسبب طول أمد الرحلة المتوقعة، ولكي يملأ معدته، شرب ماءً عذباً من فوهة مطرة، يحملها «فيلات» معه، على الدوام. كان المكان الذي يرتاحان فيه، قد اختير بشكل مناسب، فهو يقع بقرب صخرة كبيرة، وفي ظل شجرة، وارفة الأغصان والظلال. وكانت الشمس قد اختفت خلف الجبال، وأخذت الظلال الضخمة الليلكية اللون تزحف نحو القمم الوردية، بينما كان الدخان يتصاعد من الأدوية. والهواء يفقد دفأه وحركته ليصبح فراغاً نقياً وبارداً. وأصبحت تلك الليلة هي السادسة، التي أمضياها في العراء، منذ هروبهما. وحتى ذلك الحين، فقد سارت الأمور على ما يرام. وكان «فيلات» رفيقاً نشيطاً، يعرف الطرقات والدروب ومنعطفاتها، والأماكن الصالحة لقضاء الوقت للاستراحة وأين توجد ينابيع المياه. وكان من رأيه أنّ عليهما متابعة السير حتى حدود منغوليا. وهناك يمكن الاستفادة من التفاهم مع بعض أفراد إحدى القبائل الرحل، لمرافقتهما وإرشادهما إلى الطريق نحو «بكين» عبر صحراء «غوبي». وكثيراً ما تساءل «نيقولا» عما إذا كان يمكن أن تكون لديه الشجاعة لكي يهرب بمفرده. وعلى أي حال، كان من الممكن أن يلقى عليه القبض بسرعة، لولا دهاء السجين السابق العجوز، وحيلته التي لجأ إليها، والتي قضت بالبقاء، في اليومين، الأول

والثاني من هروبهما، مختبئين في مكان آمن، وغير بعيد عن المخيم، بينما كان أفراد قبيلة «البوريات» قد انطلقوا مسرعين للبحث عنهما، بعيداً عن المخيم. ولم يغادر الهاربان مخبأهما ويستأنفان الهرب إلا بعد أن رحلت القافلة وتابعت طريقها نحو «اتروفسك». كانا يسيران عبر الغابات، دون أن يشعلا ناراً، لكي لا يشير الدخان الذي يتصاعد منها إلى مكان وجودهما. وكانا يتقدمان في طرقات متعرّجة، متجهين نحو الجنوب وقد استطاع «نيقولا» أن يجلب معه، خريطة وبوصلة، وأربعمائة «روبل» خبأها في بطانة قبعته. وهذه النقود كان قد جمعها، «كوبيكاً» بعد «كوبيك»، خلال السنوات الثلاث التي قضاها في السجن. وهو سيحتاجها لكي يدفع لرجال قبيلة المغول المكافأة التي يستحقونها لقاء مساعدتهم لهما على اجتياز الصحراء. وقد أخذ «فيلات» منذ ذلك الحين، يتصور نفسه، وقد أصبح تاجراً حراً، مقيماً في أحد موانئ الصين الكبرى: «فور- تشييو» أو «هونغ كونغ»...

وكان يقول لـ «نيقولا»:

- ومن هناك، يا سيدي، تستطيع السفر حيث تشاء، على متن إحدى البواخر الإنكليزية أو الفرنسية!..

ولم يكن «نيقولا» يتطلّع بعيداً إلى تلك الدرجة، أثناء ذلك، ولم يهرب وهو يأمل تحقيق غاية معينة أو بلوغ هدف محدّد، بل لكي يتخلص من وضع أصبح لا يطاق. والسجن، بالنسبة له، لم يكن «ليبارسكي» وكل مساعديه وأعوانه من الجنود والحراس، بل كان: «صوفيا» بوجهها الغاضب والمتجهم. وكان يكفي أن يتذكّر لقاءهما الأخير، وتلك المعركة المؤسفة، والمتعة المسروقة، والخجل الذي شعر به بسبب ذلك، لكي يتمنى ألاّ يمثل أمامها، بعد ذلك أبداً. فكيف استطاع أن يغتصبها بذلك الشكل، وهو يعلم أنّ شخصاً آخر يشغل فكرها؟ لقد أغاظته وأثارته.

فإن كانت قد خانت عهد الزوجية أم لا، فهي مذنبة. وهو يكرهها بسبب الألم والأذى اللذين سببتهما له، وبسبب الألم والأذى اللذين سببهما لها، وبسبب المغامرة المشوشة والمعقدة والبائسة، وغير المجدية، التي شكلت كل حياتهما.

وسأله «فيلات»:

- ألم تنم، يا سيدي؟ ينبغي أن تنام، فغداً سيكون النهار متعباً وشاقاً. ارني رجليك..

جلس «نيقولا» وخلع حذاءه. كان «فيلات» يدلك له رجليه ويمسّدهما مساء كل يوم، بلعابه وببعض الأعشاب لكي يزيل عنهما آثار التعب. كانت يداه الضخمتان تتمتعان برقة عجيبة في جسّ أصابع الرجلين والضغط والدق على الكعبين وضمّ العرقوبين وتمسيدهما. وهذه المداعبات كانت تزيل التعب وتبدّده كما تبدّد الرياح الدخان. وهذه الأصابع نفسها التي تقوم بهذا العمل المفيد، سبق لها أن أخفت، قبل عشرين سنة ضابطاً كان يستخدم «فيلات» كوصيف له. ولم يكن هذا يحب أن يتحدث عن تلك القصة، ولكن، عندما يلح عليه أحد ما بالأسئلة، يضطر إلى الاعتراف بأنه قد ضاجع زوجة الضابط، ويضيف متأوّها، بأنها هي التي أمرته بأن يقتله وأنها أقنعته بأن يفعل ذلك بعد أن سقته الخمر حتى ثمل وضاع صوابه. ويختم حديثه قائلاً: «فحصلت هي على راتب، ومعاش دائم باعتبارها أرملة ضابط، وحصلت أنا على عقوبة خمسة عشر سنة من السجن مع الأشغال الشاقة، ورفع رجل «نيقولا» اليسرى، ونفخ على باطنها، في مكان التقوس بأنفاسه الحارة، وسأله:

- أحسن، هكذا؟

فقال له «نيقولا»:

- نعم، تابع!

وأخذ يفكر بأبيه، الذي كانت فيما مضى، المربية العجوز «فسّيليسا» تحك له رجليه كل يوم قبل القيلولة. ولكم ضحك آنذاك من هذه العادة المستهجنة ومن ذلك الهوس، وها هو اليوم يرث ويتابع أحد التقاليد العائلية، ولكنّ الخادمة العجوز الجاثية أمامه، كانت محنية الرأس وعلى جبينها دمغة طبعت بواسطة الحديد الذي سُخِّن في النار حتى احمرّ، والشعر يغطي معظم بقاع جسمها وينتشر حتى على أصابع يديها.

وكان «فيلات» يغمغم، وهو يعمل:

- إنهما قدما سيد من أفضل السادة! ثلاث سنوات في السجن، مع الأشغال الشاقة، ومع ذلك فقد ظلاّ ناعمين طريين كالزبدة الطازجة. وهذه هي طيبة الأصل! ومع ذلك فهنالك أمر لم أستطع فهمه: أنتم، «متمردو كانون الأول» ماذا كنتم تريدون، بالضبط؟ وهل كان تمردكم وثورتكم، لإعطاء الحرية، بشكل مؤكد، للآخرين؟

فقال له «نيقولا»:

- نعم.

- إلى الجميع، دون استثناء؟

- طبعاً!

- حتى إلى المساجين، الذين حكم عليهم بالسجن مع الأشغال الشاقة؟

فارتبك «نيقولا»

- إلى البعض من هؤلاء المساجين.

فألح عليه «فيلات» بالسؤال، وهو يرفع إصبعه، وفي عينيه بريق ينمّ عن الخبث.

- إلى المساجين من أمثالي؟

- أنت أمضيت مدة عقوبتك، ولم تعد سوى مجرد مبعد. ولا شك أنه سيسمح لك بالعودة إلى روسيا..

- من دون شك! ولكن هذا ليس مؤكداً! فمن الذي يقرر ذلك؟

- القضاة.

- أنت تتحدث عن الحرية وتتحدث عن القضاة، وهذا كلام لا ينسجم مع بعضه!

- لابد من وجود القضاة، حتى في أي بلد حر!

- ورجال شرطة؟

- نعم.

- وسجون، وسلاسل وقيود؟..

وقهقه «فيلات» ضاحكاً، ثم استعاد جديته وتابع بقوة:

- آخ! يا صاحب السعادة، أنت ترى، لو أنك أنت وأصدقاؤك نجحتم في عملكم الذي حاولتم القيام به، لما غيّر ذلك شيئاً يذكر، بالنسبة لنا، نحن عامة الشعب. فليس أنتم بأيديكم النظيفة، الذين تستطيعون تحقيق السعادة للشعب. إنهم أولئك الذين يعيشون في القاع، المساكين، الصغار، القذرون المنحرفون، والذين قُصّ شعرهم، الذين يمكنهم أن يفعلوا ذلك! وربما انتفض، ذات يوم، الجزء الأسود والأكبر من البشرية، بكامله، ودفعة واحدة، وحينئذ سيكون هنالك شيء جديد، بشكل حقيقي، تحت الشمس. ولو كنت أنا، مثلاً، أقود الثورة، لما دفعت الجماهير للتمرد والانتفاض من أجل فكرة معينة.

- من أجل ماذا، إذن؟

- من أجل رغبة. وبعد أن تكون الرغبة قد دفعتني ورافقتني في القتل والنهب والتدمير والتحطيم والسكر، أكون قد عثرت على فكرة جميلة أغطي بها الحطام المتراكم.

وعندما يتعلق الأمر بالأعمال المهمة والعظيمة، يجب على المخربين والهدامين أن يبدؤوها قبل المهندسين، ألا تعتقد ذلك؟ أنتم لديكم عقول

مهندسين. والهدامون، هم نحن! ففي المرة المقبلة، لا تنسوا أن تشيروا لنا وتستدعونا، منذ البداية. وسوف ننظّف لكم الأرض، ونهيؤها، وتلك متعة بالنسبة لنا. وبعد ذلك تأتون، نبلاء كالملائكة، ومعكم نظرياتكم، وعلى القمامة والأنقاض، تشيدون كما ينبغي، مجتمعاً صالحاً.

وكان، وهو يتكلم، يدفئ رجلي «نيقولا» بين يديه. ثم تابع، بعد أن نهض واقفاً:

- وفيما بعد، سوف يميز من جديد، في ذلك المجتمع الصالح، فقراء وأغنياء، عاجزون وأصحاء، أذكياء وبلهاء، وعندما تصبح الفروق أكبر مما ينبغي، يشنّ الأكثر بؤساً الحرب على الأكثر سعادة. وهذه الثورة سوف تحمل رقماً آخر، ولكن، في الأساس، تكون القصة نفسها، هي التي تتكرر! وماذا ستعمل أنت، عندما تصبح حراً، خارج روسيا؟ هل ستعمل أيضاً بالسياسة، بعد ذلك؟

فأجابه «نيقولا»:

- ربما.

- أمّا أنا، فسأعمل بالتجارة. سأشتري بأسعار رخيصة وأبيع بأسعار غالية، وبالمربح أشتري كل ما أشتهي وأريد، وسأعيش كالخنزير، وهذا ممتع وظريف!

ورفت جفونه، وزمّ شفتيه، فأصبح عرض وجهه أكثر من طوله، وأخذ يردّد، وكأنه في حلم:

- سيكون ذلك ممتعاً وظريفاً!..

واستلقى «نيقولا» على ظهره، باسطاً ذراعيه بجانب جسمه، وفوق رأسه تكشّفت السماء، زرقاء، فسيحة مترامية الأطراف ومزروعة بالنجوم. وأضاف «فيلات» أيضاً:

- لا بدّ أنّ العجوز «ليبارسكي» يرغي ويزيد غضباً، هناك، الآن. وجميع الجنود ترتجف أوصالهم في سراويلهم. بينما يبدي المساجين إعجابهم بجرأتنا على الهرب. وزوجتك، ما رأيها بذلك؟ إيه، قل لي؟!

لقد أحسنت صنعاً بتركها. فالنساء شياطين. والوحيدة منهن التي عرفت جعلت مني مجرماً ودفعت بي إلى السجن الأشغال الشاقة. يجب إلقاؤهن أرضاً، تزرير السروال، ومتابعة الطريق!

وصمت، لثانية واحدة بالضبط، ثم غمغم:

- أنت لا تحب أن أتكلم هكذا، أليس كذلك، يا سيدي؟

- كلا.

- ذلك لأنّ قلبك أرقّ مما ينبغي! وهذا سيتغير، مع مرور الأيام!

فأخذ «نيقولا» يفكّر: «ليس لي صديق آخر، سوى هذا القاتل.» وكعادة «فيلات» في كل مساء، فقد غلّف ساقي «نيقولا» بقطعة من الفرو، ورتّب له وسادة من أوراق الأشجار والأعشاب، وضعها تحت رأسه، وهو يعمل عبر الغبش، ويتمتم، كالأم التي تسهر على راحة طفلها، عندما ينام:

- هكذا، أنت بخير، هنا، يا سيدي؟... ألا تشعر بالبرد؟ لا تخش شيئاً!... هيا، نم!... أنا، أذني مفتوحة دائماً إلى الريح!.. وليحفظك الله!...

- شكراً، يا «فيلات»، وأنت أيضاً، يحفظك الله!

كان سكون أوراق الأشجار، العجيب، والصمت المخيم، والعزلة في ذلك الفضاء الفسيح، كل ذلك كان يحدث لدى «نيقولا» انطباعاً بأنه قد تخلّص من الحياة الواقعية.

وتكوّر «فيلات» بجانبه، مجمعاً جسمه كالكرة، واستغرقا في النوم، سوية.

★★★

وعند الفجر، فتّح «نيقولا» عينيه، واستغرب، عندما لاحظ أنّ المكان، بجواره، فارغ، فشعر بالقلق، وأخذ ينادي بصوت خافت، ثم بصوت قوي. ولكن دون أن يتلقّى أيّ جواب. فأخذ يفتش بين الأدغال المجاورة لا أحد. وعندما عاد إلى المكان الذي كان نائماً فيه، تبيّن له أنّ كيس المؤونة والمطرة والبوصلة، والقبعة التي تحتوي على النقود، كلها، قد اختفت. وفي تلك اللحظة، أخذ يشكّ بأن يكون «فيلات» قد هرب، وأخذ معه كل هذه الأشياء، ولكنّ الواقع بعد ذلك، أقنعه وأزعجه. ولم يستطع أن يفهم كيف قام هذا الرجل بسرقته وتجريده من جميع حوائجه، وتركه في الصباح الباكر، بعد أن أبدى له كل ذلك الإخلاص، في الليلة الماضية. فماذا حصل في ذلك الدماغ البدائي؟ فهل أدرك، على الأقل، خطورة خيانته؟ كلا، فالأشخاص من هذا النوع ينزلقون من الخير إلى الشر، دون حساب، دون تفكير، ودون وازع من ضمير، بل حسب الدافع في لحظة معينة. وهم صادقون ومخلصون بصداقتهم بقدر ما هم حازمون في نيتهم بالإيذاء. وحتى أنّ المحبة التي يكنّونها لكائن مّا، لابد أنها تساعدهم، بطريقة ما، على القضاء عليه.

وهكذا، نرى بعض الجزارين يداعبون الحيوان بعطف وحنان، قبل أن يذبحوه.

وما فعله «فيلات» حكم على «نيقولا» بموت يكاد يكون مؤكداً: فإلى أين سيذهب، دون دليل، دون نقود، ودون زاد أو مؤونة؟! والجبال التي كان يتأملها، بكل إعجاب، بالأمس، أخذ يشعر أنها أصبحت تسحقه بثقل كتلتها. فهو آخر رجل على سطح الأرض. وبسبب الذعر الشديد الذي شعر به، أخذ يتذكر المخيم، ويأسف لكونه غادره، مستعيداً في ذهنه تحركات المساجين وأحاديثهم، رائحة وطعم الحساء، والحراس ذوي الملامح الطيبة، التي تبعث على الاطمئنان. وما العمل الآن؟ هل يتابع السير

نحو الجنوب، بمحاذاة جبال «ايسبلونوف» كما سبق لفيلات أن نصحه؟ وبذلك، سينتهي به الأمر، بالتأكيد، للالتقاء مع أحد مخيمات المغول. وربما استقبلوه وساعدوه، حتى ولو لم يكن معه نقود؟ كان يؤكد لنفسه ذلك، يستمد بعض الشجاعة، في ذلك المكان الموحش.

ولأنه كان جائعاً، فقد أخذ يقطف حبوب الآس، ويأكل منها بالحفنات، لكي يتخلّص من الجوع ويقضي على شهيته للطعام. وكان هنالك بعض الثمار الذابلة الأخرى، على الشجيرات، ولكنه لم يكن يعرفها، وخشي أن تكون سامّة.

كانت الشمس تشرق، كقرص أحمر من نار في إطار متناثر من الرماد، وقد تعدّت ذروة الجبال حزمة من الضوء وانسابت نحو أسفل الوادي، حيث كان الغبش لا يزال مخيماً.

وكل شجرة تضمنت مشاحنات العصافير. و «نيقولا» الذي كان يدفعه من ظهره ذلك الفجر المثير للعواطف، أخذ يسير بخطى واسعة عبر نباتات قصيرة كانت تخدش له ساقيه. كان قاع الوادي يجذبه. فقد أعتقد أنه رأى فيه انعكاسات وتموجات الماء، فإذا كان هنالك نهر، فهو سيتبعه، ويسير حسب تعرجاته، أملاً أن يقوده إلى مكان مأهول. وأثناء ذلك، لم يكن يفكر بشيء آخر: فقد خرجت «صوفيا» من ذهنه، و «فيلات» وكل ماضيه الغرامي والسياسي، وكذلك الفترة التي أمضاها في السجن. فهو رجل بلا اسم، ولا أسرة، ولا وطن، يناضل ويخوض معركة مع الطبيعة.

كان وقع خطواته، المتقطع. ينعكس ويتردد حتى في دماغه، وبعد قليل، التوت ركبتاه من شدة التعب، ولكنه تابع السير بإصرار وعناد، نظراته ثابتة، وذراعاه يتأرجحان، وهو يعدّ لكي يشعر بأنّ هنالك من يرافقه، متجهاً نزولاً، زحفاً في بعض الأحيان، لكي يدور حول أكمة، ومستمراً في النزول. وأخيراً وصل إلى الأسفل، إلى قاع الوادي: وما كان قد

ظنه، نهراً، عن بعد، لم يكن سوى بركة صغيرة، راكدة المياه، ومحاطة بالقصب، ومع ذلك، فلا بأس! إنه يشعر بعطش شديد! فجثا على ضفة البركة، وأخذ يشرب بيديه المضمومتين. كان الماء سيئ الطعم، فاتراً، ولكنه لم يستطع التوقف عن الشرب، وأخذ يملأ فمه منه، ويرشه على ظهره، ويغمر رجليه المتورمتين واللتين تؤلمانه، ويرشه على صدره. وبعد أن أطفأ ظمأه وروى غليله، شعر بالأسف لأنه لم يكن معه وعاء لكي يملأه ويأخذه معه. ولكن، أليس من المحتمل أنه سيعثر على الينبوع الذي يغذي بالماء تلك البركة عن طريق تسربه إليها من مكان بعيد؟

واستأنف السير بهمة وشجاعة. وأخذ الوادي يصبح أكثر اتساعاً، وصار نوعاً من الهضبة المتموجة بين تلال جرداء. وهناك بدت بعض النباتات الشائكة بين الحصى والحجارة. واعتلت الشمس واشتدت حرارتها. ومن ذلك المشهد الذي لا يتصف بالجمال كان يتصاعد طنين مستمر. ولم يكن «نيقولا» يعرف فيما إذا كان هذا الصوت يصدر عن مجموعة غير منظورة، من الحشرات، أم عن دقات نبضه التي تطرق أذنيه. وأخذ يحرك لسانه في فمه ويبلع لعابه المرّ. وشعر بالعطش من جديد، كما لو أنّ كل الماء الذي شربه قد تبخر من جسمه. ومن حسن الحظ أنه وجد أيضاً كثيراً من حب الآس، والتهم منه كمية كبيرة. وسار خلال عدة ساعات في أسفل الوادي، بعناد جنوني. وخيم الظلام، حاملاً معه البرد، بشكل مفاجئ. فاستلقى وقد أنهكه التعب، واستغرق في نوم عميق.

وفي الصباح الباكر، استيقظ وهو متيبس، منهوك القوى، رأسه يدور كمن به دوخة، وساقاه ترتعشان. ومع ذلك، فقد كان يرغب في السير صباحاً مستغلاً برودة الجو، قبل أن تشتد حرارة الشمس. وبملل شديد وضع رجلاً أمام الأخرى، كان نعل حذائه قد تمزق، ولكنه لم يشعر بقسوة الأرض، وأخذ يسير مترنحاً وهو يتعثر، شارد الذهن، نحو صف من

الأشجار غمر الضوء أوراقها. وقبل الظهر بقليل، توغل في إحدى الغابات، وأنهار، وقد أنهكه المشي، في ظل سنديانة ضخمة، يحوم حولها رفّ من الفراشات الصفراء اللون. وبعد ما يقرب من ثلاث ساعات فتح عينيه. حلقه جاف، وليس هنالك ماء للشرب، واشتدت الحرارة، فشعر كأنه يجلس في فرن، وأخذت خطوط من نار تخترق الظل الأخضر، العطري الأريج. وأرهف سمعه، بعض الأعشاب وأخذ يضغط بها على شفتيه، فتخلّلت أنفه رائحة التراب. فهي زكية!

وسار في فجوة بين الأشجار، فوصل إلى سهل أجرد، وبدا له، في الأفق، ركام من الصخور المكسرة، وللوصول إلى هناك، كان أمامه مساحة واسعة تكثر فيها الأعشاب الصفراء والشجيرات الملتوية التي تلمع أوراقها، كأنها قطع معدنية. وشعر بعجزه عن اجتياز تلك المسافة. ومن هو الذي يأمره باجتيازها؟ لا أحد. ومع ذلك، يجب عليه أن يجتازها. خطوة بعد خطوة، نحو الحرية أو نحو الموت. وأخذ يتعثر في مشيه، وفجأة شعر بألم شديد يكاد يمزق أحشاءه التي أخذت تغلي، تطن وترسل أصواتاً، وماءً حاراً محرقاً، ولم يكن لديه سوى لحظة من الوقت لكي يفك أزرار سرواله، ويقرفص بين دغل من الشجيرات. فشعر بالارتياح، وأعتقد أنه يستطيع استئناف السير، ولكنه بعد قليل، فوجئ بنوبة من المغص الشديد، تمزق جوفه، من جديد. وألقى نظره تحته: كان البراز الدامي يلطخ الحشائش والأعشاب. فاستبدّ به الخوف: إنه الماء الملوّث، الماء الراكد والآسن، في ذلك المستنقع الصغير!..

لقد سبب له التسمم!... ألا إذا كان ذلك بسبب مجرد عسر هضم!..

وشعر أنّ طعم الحديد يتصاعد في فمه، وأنّ الارتعاشات تهز بشرته وقد أرهقه التعب، فتحامل على نفسه واتجه نحو قمة مرتفع صغير وأنهار هناك، مقرراً البقاء في ذلك المكان طوال تلك الليلة. ولكنه لم يستطع النوم. لأنه

لم يكد يغمض عينيه ويغفو، حتى انتابته نوبة شديدة من المغص والإسهال، وأراد التخلص من ذلك السائل الحار، فأخذ يشدّ ويقلّص جسمه لكي يطرده، وهو يلهث ويئنّ، ولكن دون جدوى، فيسقط مضطجعاً على جنبه، منهكاً، فمه جاف كأنه ممتلئ بالطحين، وشرجه يؤلمه.

وظلّ حتى الفجر، يصارع هكذا الوحش، الذي كان، في فترات متقاربة، يغرز مخالبه في بطنه، تتخللها لحظات من الخمود والهدوء، تتبعها هجمات عنيفة. وأخذ لسانه يؤلمه، كأنه يشوى على النار. ولم يبق في جسمه نقطة من الماء. وليس هنالك أي شك فيما لو أنه استطاع أن يبتلع أي شراب بارد جداً، لزال ألمه في الحال، وأخذ يحلم بالعثور على نبع من الماء العذب، على بحيرة، في أن تمطر السماء، وبالحصول على كأس من الشاي البارد. وشعر بدوخة مزعجة جعلته يبقى في مكانه، كانت السماء تدور فوقه على محور، ولم يعد لديه أيّ إحساس بالزمان ولا بالمكان. وكل ما كان يعرفه هو أنّ السلامة والأمن، كانا هناك، في الجنوب.

وطوال النهار، ظل يرتعد من شدة الحمى، يشعر بعطش شديد. وهو متكوّر على نفسه، لا يستطيع التفكير ألا بذلك التلوّي والألم الشديد في أمعائه، وبالإسهال الذي أصيب به.

وعندما أخذ يخيم الظلام، جمع قواه لكي يقف على قدميه، وأخذ يخطو عشر خطوات، عشرين خطوة، ثم ينهار وقد اشتدّ عليه الألم، فيجمع جسمه واضعاً ركبتيه على بطنه، ويتغوط خيطاً من البراز السائل، ثم يرفع سرواله ويزحف وبعد ذلك يفقد الوعي، ويستردّه، فيستأنف السير بعناد وإصرار، على الرغم من أنه منهك القوى وقد اتجهت نظراته الشاردة، نحو وهدة صغيرة مكسوة بشجيرات العلّيق.

فوصل إليها، بينما كان القمر أخذ يبدو في السماء وعندما رآه يسطع أبيض اللون، مستدير الشكل، أدرك أنه يدخل في عالم. حيث الفرح،

الحزن، الأمل والذكرى، كلها كلمات فارغة من المعنى، عالم يصور ويجسد مقدّماً راحة الموت. وشعر ببرد قارس يغشى منكبيه، وأخذت أسنانه تصطك... وفي داخله، كان كل شيء يتحرك ويلتهب. وليلته لم تكن سوى نوبات متلاحقة من المغص والقداد، والتواء الأمعاء المؤلم، الذي يدفعه إلى حافة الإغماء. وحصلت بعد ذلك فترة من الهدوء، خفّ خلالها الألم قليلاً، فغفا، ثم استغرق في النوم.

وأدفأته الشمس، فوق عينيه المغمضتين، عندما بزغت حمراء، ذهبية، وعندما فتح عينيه، وحملق بهما حوله، أعتقد أنّ حلمه مستمر. كان في منامه يرى رأس أحد أفراد قبيلة «البرويات» الكبير، يدخل معترضاً بينه وبين فضاء السماء الرحب الذي يتلألأ فيه الضوء. وقد أخذ يضحك بصمت وهدوء. فنهض قليلاً واتكأ على مرفقه. وإلى الخلف، قليلاً، كان يقف شخص آخر، من القبيلة نفسها، يشبه الأول تماماً، بجميع ملامحه. وحصاناهما كانا يرعيان، جنباً إلى جنب، فشم «نيقولا» رائحة الوشل «مصالة الصوف» التي كانت تفوح من الرجل الذي كان يجلس القرفصاء بالقرب منه. فلم يكن ذلك إذن لا مجرد حلم ولا هلوسة ناجمة عن الألم والإرهاق! وغمرته فرحة عارمة: بدويان من الرحّل! نظيران لي، بل شقيقان!

وسأل، وهو يلفظ الكلمات بصعوبة: - أتتكلم اللغة الروسية؟

فأجابه الرجل:

- قليلاً.

- أنا عطشان جداً!

- سأعطيك لتشرب.

- هيا، أعطني، في الحال!

- أعطني يديك أولاً!

فبسط «نيقولا» يديه، عند ذلك ربطهما الرجل بحبل صغير كان معه.

فهمس له «نيقولا»:

- لماذا فعلت هذا؟

- لأنك أسيري، وسأردّك إلى الرئيس، إلى الحاكم الكبير؟

- أي حاكم كبير؟

- الجنرال «ليبارسكي» الذي سيعطيني مائة «روبل».

لم يكن لدى «نيقولا» القوة لكي يعبر عن غيظه ويأسه. كان بحاجة للماء أكثر من حاجته للحرية. وسالت الدموع من عينيه.

وقال، مرة أخرى:

- أعطني لأشرب!

فسأله الرجل:

- أين الآخر؟

- من هو الآخر؟

- الرجل الآخر الذي هرب معك.

- لا أدري... لقد.. تركني، وذهب بمفرده... وسقط، منهكاً، إلى الخلف. ومن خلال جفونه المرتعشة، رأى الرجل يناوله مطرة. فبلل شفتيه بقليل من الماء، وأنعش لسانه، وأحيا بعذوبته أغشية حلقه المخاطية التي كانت جافّة.

ثم تحول الماء إلى لهب. وعاودته آلام كطعنات الخناجر، وشعر أنه يفرغ من الأسفل كل ما كان قد شربه. وأخذ يئنّ ويتأوّه يبكي، وهو يضع قبضتيه على فمه. بينما وقف الرجلان، حائرين مرتبكين ينظران إليه.

وحملاه ووضعاه، وكأنه كيس نخالة، على ظهر أحد الحصانين وربطه أحدهما بخيط من القنب على سرج الحصان، وصعد الآخر، فركب خلفه. وانطلقا متمهلين في سيرهما. وكان «نيقولا» يسند ظهره على صدر الخيّال. وذراعا هذا الأخير يضمانه للمحافظة على توازنه.

وعند كل اهتزازة، كان يشعر بالنار تتدفق في أمعائه. فيصرخ ويصر على أسنانه، يبلل سرواله، ويلمح عبر غشاوة السأم والأم، مشهداً متحركاً، وجبالاً تتقدم بقفزات متتابعة، وأشجاراً تقفز على قائمة واحدة. وأخذت فقرات ظهره تفرقع. «الماء! الماء! أريد أن أشرب! ضعوني في الظل، شفقة عليّ!... شيء حار على بطني!.. أريد حجراً لأسحق هذا التقلّص!...» كان وقع حوافر الحصانين يدوّي في رأسه. وأحسّ بتشنج أقوى من التشنجات السابقة، لدرجة أنه شعر بها حتى أطراف أعصابه.

وإلى أين يقتادونه هكذا؟ إلى اللحاق بالقافلة والانضمام إليها؟ ولكنّ ذلك سيستغرق أياماً وأياماً من السير المتواصل. ويمكن أن يموت قبل الوصول إلى هناك. وكانت الخيوط التي ربط بها تحزّ في بشرته. ويفتح فمه فيستنشق هواء كلهيب الأتون. ولو استطاع لوهب نصف عمره لمن يتيح له التواجد في أحد الأقبية الباردة الجو. والشمس، ما بها؟ ألن تقترب أبداً؟!. وكان الرجلان يتحدثان فيما بينهما بلغة محلية تبدو نبراتها، تارة أجشة وتارة ناعمة وموسيقية. لقد حصلا على صيد سمين. كانا يضحكان، مسرورين. وفجأة، بعدت الأصوات. ولم يعد «نيقولا» يرى شيئاً، فقد انتابه انحطاط أثار لديه الغثيان، وشعر بأنه يكاد يموت، وأنّ الموت هو هكذا إذن، وغاب عن الوعي، مستغرقاً في العدم.

وفيما بعد، شعر بأنه يهتز ويتأرجح كأنه في قاع زورق، يبحر عبر عاصفة عاتية، على سطح بحيرة كبيرة. وتكاد الأمواج تقلب الزورق. الانتباه! بعض الانتباه! وعندما فتح عينيه أدرك خطأه: كان الرجلان قد فكاه، وحملاه على ذراعيهما، عبر الظلام الدامس، وألقياه بقسوة فوق كدسة من الخرق البالية. وأمضى بضع ثوانٍ حتى تبيّن له أنه تحت خيمة أحد سكان المنطقة المحلّيين. فلا بد أن الخيالين قد أتيا به، لتمضيه تلك الليلة لدى أحد أفراد القبيلة، من معارفهم.

كانت النار تشتعل في سوط الخيمة، تحت طنجرة كبيرة. والدخان يتصاعد، مشكلاً عموداً ضخماً، ويخرج من فتحة في وسط سقف الخيمة. وحول الموقد، جلس بعض أفراد القبيلة، من الرجال والنساء، وجوههم صفراء وعيونهم منحرفة، وأخذوا يتحدثون فيما بينهم بصوت خافت كان البعض منهم يدبغون جلود حيوانات ويشدونها بأسنانهم واللعاب المسودّ يسيل من زاويتي أفواههم. وآخرون أخذوا يدوسون اللباد ويضغطونه بأرجلهم، يشحذون السهام على حجر المسنّ، يصهرون الرصاص لصنع طلقات للبنادق. ووراء الأشخاص الكبار، كان الأطفال، يتدحرجون، عراة، على بساط من الفرو. وكانت رائحة اللبن المحمض، واللحم المدخّن. وروث الحيوانات، منتشرة في جو الخيمة. وكان لهيب النار يرسل في كل الجهات ظلالاً طويلة، ذات أشكال مشوهة، بدت وكأنها تعيش لحسابها وعلى طريقتها الخاصة. وقدمت إحدى العجائز «الشاي المحضر على طريقتهم»: «The de brique» في أقداح خشبية مبرنقة، وأرغمت «نيقولا» على أن يشرب منه. كان يكره هذا المشروب المملح. ولكنه، حالما ابتلع الجرعة الأولى، انتشرت في جسمه حرارة عذبة. فأفرغ القدح في جوفه، وطلب قدحاً ثانياً، وثالثاً. وكان الرجل الذي أسر «نيقولا» يصيح:

من يتناول هذا المشروب، لا يمرض أبداً!

وفجأة، أخذت أحشاء «نيقولا» تتمزّق جانبياً، بطعنات سكين حادّة. فانتفض وشعر بأن الزمام قد أفلت من يده، وأنّ الحياة تخرج منه، مرة أخرى، على شكل وحل حار ونتن، فشعر بالخجل وبالألم، وأخذ يرتجف من الغيظ ومن الحمى. فانحنى عليه الرجل الذي قبض عليه. وقال، وهو يهزّ رأسه:

- ألست على ما يرام، يا سيدي؟!

كان يرتدي ملابس مصنوعة من جلود الماعز التي خيطت مع بعضها، وقد تدلى من فمه غليون طويل صنع من الفضة. ورقد في شقي عينيه سائل زيتي، أسود اللون.

واستأنف الكلام:

- هذا ليس حسناً، تماسك، وحافظ على صحتك!

لأنك إذا متّ، فسأقبض نصف المبلغ فقط!

٤

كان الجنرال «ليبارسكي» قد انتعل بصعوبة فردة حذائه اليسرى، ويهم بانتعال اليمنى، بمساعدة وصيفه، عندما دخل الملازم «فاتروشكين» إلى الخيمة، استقام في وقفته ألصق يده على غمد سيفه، وقال:

- لي الشرف أن أبلغ سعادتك أنه قد عُثر على السجين السياسي «أوزاريفّ». ويقتاده الآن اثنان من أفراد قبيلة «البوريات». وقد التقت بهما إحدى دورياتنا، وأسرعت فسبقتهما، لتخبرنا بذلك. وسيصل الثلاثة إلى هنا، بين لحظة وأخرى.

غمرت «ليبارسكي» فرحة عارمة، وبعنف شديد، لدرجة أنه أحسّ بتقلّص في منطقة القلب. ودون أن ينطق بكلمة، التفت نحو تمثال «المصلوب» المعلّق فوق سريره، وجثا. فبعد عشرة أيام، من البحث والتفتيش عن الهارب، كان قد فقد الأمل بالعثور عليه، وأصبح يعيش في حالة من الرعب، بسبب التقرير الذي يجب عليه أن يرسله للقيصر، لكي يخبره بهرب السجين. فهؤلاء الرجال الذين عُهد إليه بحراستهم، كانوا وديعة، بل أمانة مقدسة.

فلو نقصوا واحداً فقط، للحق به العار، كما لو أنه سرق مجوهرات التاج. ولحسن الحظ، فقد عاد كل شيء، وأصبح نظامياً، وأتت النتيجة جيدة، وكما ينبغي. ويستطيع بعد الآن، أن ينام مطمئناً.

وقال وهو ينهض:

- الحمد والشكر لله! هل قبضوا أيضاً على «فيلات»؟

- كلا ، فهذا استطاع أن يتابع الهرب.

- هذا ، قضيته أقل خطورة! فهو ليس سجيناً ، بل مجرد مبعد!

والمهم هو السجين السياسي!

ومشى بضع خطوات وهو يعرج: رِجْل في الحذاء، والأخرى في الجراب، ثم وقف في وسط الخيمة، وأضاف بلهجة حازمة ومخيفة:

- سيرى مقدرتي، بعد اليوم!

ولكنّ هذا التهديد كان وقعه سيئاً في أذنيه، هو، فالخطر وقد أمكن تجنبه، فهو لم يعد يشعر بالغيظ الشديد، الذي كان يشعر به سابقاً. بل إنّ عليه الآن أن يبذل جهداً كبيراً لكي لا يجعل الهارب المذنب يستفيد من السعادة التي غمرته بسبب القبض عليه، وإعادته إلى السجن. وبمزيد من الجهد، أيضاً، سأل:

- القيود والسلاسل! ألديكم بعض منها هنا؟

- بالتأكيد، يا صاحب السعادة.

- حسن! سيتبع القافلة، والقيود في رجليه، وحده وبمفرده!

- وهل يقوى على ذلك، يا صاحب السعادة؟ فالمراحل طويلة...

- لابد من جعله عبرة للآخرين.

- نعم، يا صاحب السعادة.

أنهى الوصيف عمله في مساعدة «ليبارسكي» على ارتداء بزته، وناوله قارورة كولونيا: كان يضع منها دائماً نقطتين على شاربيه ووراء أذنيه، يوم الأحد.

وقال، وهو يربّت على طرفي «باروكته» فوق صدغيه، لكي يلتصقا جيداً:

- هيا، اذهب يا «فاتروشكين»، واحرص على أن يتم وصول السجين، بأكثر ما يمكن من التكتم والهدوء!

فانصرف «فاتروشكين»، ولكنه عاد في الحال، تقريباً، دون أن يتاح له الوقت لاتخاذ أيّ إجراء. وقال، بأعلى صوته:

- ها هو ذا، يا صاحب السعادة!

كان الهرج والمرج، والجلبة تتصاعد من حول الخيمة. فلا بدّ من أن يكون جميع المساجين قد تجمعوا هناك، على الرغم من صراخ الخفراء. ودخل جنديان يحملان شيئاً على نقّالة، وخلفهما اثنان من قبيلة «البوريات» وقد أحنيا ظهريهما، وقبعاتهما في يديهما. ولكن أين «نيقولا»؟

كانت عينا «ليبارسكي» تبحث عنه. كان يتوقع أن يراه واقفاً على قدميه، رث الثياب، حانقاً وثائراً، بل وربما نادماً على ما فعل، وهو مقيد اليدين. ووقعت نظراته على النقالة، فبدرت منه حركة تنم عن المفاجأة والدهشة الشديدة، وأخذ يتردّد في التعرف على «نيقولا» الهارب في ذلك الشكل البشري الملقى عند قدميه: هذا الوجه الأجوف، الشاحب، ذو الخدين اللذين يغطّيهما الشعر، هو وجه إنسان يحتضر ويوشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. كانت حدقتاه متوهجتين من شدة الحمى، بين أجفانه المدمّاة. وشفتاه مشققتين ومبيضتين، تنفرجان عن لهاث يشبه الحشرجة. وفجأة، ألفى «ليبارسكي» نفسه محرجاً ومرتبكاً في غضبه، فقطّب حاجبيه، وغمغم، متسائلاً:

ماذا به؟ هل هو مجروح؟

فقال «فاتروشكين»:

- كلا، إنه، بالأحرى، مريض، على ما أعتقد.

- ألم يكن باستطاعتك أن تخبرني بذلك؟

- لقد عرفت هذا، للتو، يا سيدي.

- وماذا يقول الرجلان اللذان أحضراه؟

فتقدم أحدهما، أدى التحية، وانحنى كثيراً، على الطريقة الشرقية، وغمغم:

- لقد قبضنا عليه، وهو بهذه الحالة... لقد مشى كثيراً تحت أشعة الشمس الحارة... ولكنه لم يمت... لم يمت... وسيادة الحاكم يجب أن يعطينا مئة «روبل»...

فقال «ليبارسكي»:

- ادفع لهما، يا «فاتروشكين» واذهب لإحضار الدكتور «وولف»، على الفور!

وخرج «فاتروشكين» فتبعه الرجلان، وجذب «ليبارسكي» كرسياً، وجلس عليه، بالقرب من النقالة. والقرارات التي كان قد اتخذها، انهارت وسقطت من تلقاء نفسها، حيال هذا الرجل المستلقي أمامه. فلا يمكن تقييد شخص عليل، طريح الفراش، ولا معاقبته بأي شكل من الأشكال. ونقم «ليبارسكي» على «نيقولا» لأنه عقّد عليه مهمته، جعلها أكثر صعوبة: فكل شيء كان يمكن أن يكون بسيطاً جداً، مضبوطاً، ويمكن تطبيقه إدارياً، لو أن الهارب عاد، سليماً ومعافى. والآن، بدلاً من ذلك، يجب ارتجال ما ينبغي عمله، مع أخذ الظروف الطارئة، بالحسبان: معالجته أولاً، وقبل كل شيء. حتى يشفى، ومعاقبته بعد ذلك. والقافلة يجب أن تصل كاملة إلى «بتروفسك». وانحنى على «نيقولا»، وسأله:

- كيف تشعر، بحالتك الصحية؟

وهمساً، أجابه:

- أريد أن أموت...

فصاح الجنرال بخوف وهمي:

- كلا! كلا! إني أمنعك أن تفعل ذلك! لماذا هربت؟..

- كان... لا بدّ... من ذلك...

- ومن ساعدك؟

- لم يساعدني أحد..

- و «فيلات»؟..

- لقد سرقني... وتركني..

- أتدرك جيداً خطورة ما فعلته؟ إنّ تصرفك سيجبرني على مضاعفة القسوة على رفاقك، وعليك أنت، أيضاً!

وكان «ليبارسكي» وهو يتكلم، يدرك سخافة هذا التهديدات التي يوجهها لرجل، ربما سيلاقي. عما قليل، وجه ربه. وكانت تفوح رائحة نتنه من هذا الرجل الذي يكاد يكون جثة هامدة.

واستأنف الكلام:

- بعد كل مساعداتي، والأعمال الحسنة التي قمت بها من أجلكم! فيا له من جحود ونكران للجميل! حقاً، لم أكن أستحق أن أكافأ على كل ذلك، بهذا الهروب!

وأدهشته، هو نفسه، هذه العبارة، وشعر بالاضطراب.

فهمس «نيقولا» بصوت خافت.

- اعذرني، يا صاحب السعادة!

وأغمض عينيه. وانقبض منخراه، وأخذ يتردد في حلقه أنين غريب.

فتمتم «ليبارسكي»:

- إيه! يا «نيقولا ميكايلوفيتش» إيه! ماذا بك، يا صديقي؟..

«نيقولا ميكايلوفيتش»!.. أرجوك!...

وأخذ يفكر يائساً: «إنه سيذهب مني هنا، وهو بين يديّ!» وجن جنونه، من شدة استيائه، وأخذ يصرخ:

- «فاتروشكين»! أيها المغفّل! لقد طلبت منك إحضار الدكتور «وولف»! فأين هو، حتى الآن؟! هيا، أحضره، بسرعة! بسرعة!

وحاملا النقالة، اللذان كانا يتأملان المشهد، منذهلين أسرعا بمغادرة الخيمة.

وعندما وصل الدكتور «وولف» وجد «ليبارسكي» منحنياً على «نيقولا» وهو يربّت على يديه، بشكل ينمّ عن القلق:

- ليس الأمر على ما يرام، أبداً يا دكتور! أرجو أن تعمل ما بوسعك عمله!

فجسّ الطبيب المريض، تفحص ملابسه الداخلية الملطخة بالبراز المدمى، وانتصب واقفاً وقد بدا عليه القلق.

فتمتم «ليبارسكي»:

- ماذا؟ ستنقذه، أليس كذلك؟

وعلى وجهه الذي ينم عن الشيخوخة، المتجهم والمترهل، بدت تعابير القلق، والشفقة الأبوية، وقال:

- إنّ أملي ضعيف بإمكانية إنقاذه، يا صاحب السعادة.

- هذا مستحيل!.. فماذا به؟

- إنه مصاب بالزحار، وفي طوره المتقدم والشديد الخطورة...

وقد أتيت بعد فوات الأوان...

فشعر «ليبارسكي» بالغمّ، وأنهار منكباه. وقال:

- دعهم ينقلوه إلى خيمة التمريض، وغداً عندما نستأنف السير، تُقلّه في عربتك. وأنا أعتمد عليك بمعالجته والعناية به، كما لو... كما لو كنت أنا، بالذات، المريض!... آه! يا إلهي! يا له من شاب مسكين!.. ولكن، ماذا بهم، وماذا يدور في خلدهم جميعهم؟..

أليسوا بخير، هنا؟... ألست لطيفاً معهم؟..

وأخذ يفكر، ثم صرح، بلهجة حاسمة:

- إنه بحاجة لمن يسهر على راحته. سأرسل لك زوجته.

★★★

كان الغطاء المسدل على صندوق العربة، يحدث غبشاً مخضراً، في داخله.؟ وكانت «صوفيا» وهي تجلس على المقعد الخشبي وتسند ظهرها على جانب العربة، تنظر إلى «نيقولا» الممّدد بالقرب منها، تحت غطاء صوفي داكن اللون كانت جفونه المطبقة تلتصق بمقلتيه وتأخذ شكلهما. والأنفاس الضعيفة تتردّد وتمرّ بين شفتيه الشاحبتين. وكانت لحيته قد نبتت، كثّة وشقراء. وكانت اهتزازات العربة تثير لديه الأنين والتأوهات. وعندما يئن ويشكو، كانت «صوفيا» ترتعش، كما لو أنها هي نفسها، قد أصيبت بجرح مؤلم. وتلعن العجلات السيئة، والطريق الوعر، والحرّ الخانق، وكل ما يسيء للمريض ويزعجه. ومنذ اليوم الفائت، ظل بين الحياة والموت، وكان يفتح عينيه أحياناً، ولكنه لم يعرف «صوفيا» على ما يبدو. كانت بشرته جافة، ونبضه سريعاً، ضعيفاً وغير منتظم. وكان الدكتور «وولف» يعتني به، ويعالجه بإعطائه مسهل الزئبق الحلو «le coclomel» وبواسطة غسيل المعدة بالحقن الشرجية التي تحمل عقاراً مسكناً «le loudocnum» ومغلي الخشخاش. ومع ذلك فقد بقي الإسهال مستمراً، دامياً ومؤلماً. وكانت بعض الذبابات تحوم حول وجه «نيقولا»، فتطردها «صوفيا» بيدها. وحرك لسانه، وتلمّظ، فأعطته قطعة قماش مبلّلة بماء الرز، ليمتصها، فكان يرضع تلك القطعة من القماش بنهم مثير للشفقة، وهو هزيل الخدّين، جاحظ المقلتين. ثم عاودته نوبة المغص. ففي المرة الأولى، شعرت «صوفيا» بالغثيان بسبب الرائحة الكريهة، أما الآن، فأصبحت تسيطر على قرفها واشمئزازها، وتسر عندما ترى «نيقولا» يُفرغ ذلك السمّ النتن والمقزّز، وبنبذه، كان الألم هو الذي يذهب.

وكانت، وهي منحنية عليه، تشجّعه بصوت خافت، كما لو أنها تفعل ذلك مع طفل صغير. وكانت المشاعر الصغيرة والسيئة، كالحقد والندم والتوق إلى الماضي، تمحي كلها حيال الخطورة المخيفة التي تهدد باقتراب

النهاية المحتومة. وهي لم تكن تفكر إلا بمنع الموت من الدخول إلى العربة، قائلة في سرّها: «أما هذا، فإنك لن تناله أبداً!» مردّدة ذلك بتصميم شرس، بينها وبين نفسها. والمأساة الحقيقية لم تعد تدور وتجري بينها وبين «نيقولا» عبر خفايا وغبش ذاكرتها، بل هنا، في وضح النهار، بالقرب منها، وفي متناول يدها. كان الحاضر يفرض الصمت والسكوت على الماضي. كان «نيقولا» قد طوى ركبتيه، وأخذ يئنّ من الألم.

فتمتمت، وهي تمرّ برفق بيدها على جبينه:

- رويدك! تمهل! تمهل!

وكفّ عن الأنين، بعد أن أفرغ ما في جوفه. كانوا قد صنعوا له مرقداً من الحشائش والأعشاب، كي يمكن تغييره وتجديده من وقت لآخر. وفتحت «صوفيا» قليلاً غطاء العربة، ونادت اثنين من سجناء الحق العام السابقين اللذين كانا يسيران بجانب العربة، فصعدا إلى داخلها، ورفعا «نيقولا» من ساقيه ومن إبطيه، فانزلق عنه الغطاء الصوفي. فبدا الجزء الأسفل من جسمه عارياً، فلاحظت «صوفيا» أنه يشبه المومياء، بهزاله الشديد. وأنّ الجلد ملتصق تماماً بعظمي الساقين وبرضفتي الركبتين. وظلت العربة مستمرة في السير، وهي تهتز وتتمايل. ويتمايل معها على سيقانهما المتباعدة السجينان. وقال أحدهما:

- هيا، أسرعي!

فعبأت «صوفيا» الأعشاب الملوثة، بكيس، ألقته إلى خارج العربة، ومدّت على أرضيه العربة مرقداً جديداً جافاً، فوضع عليه السجينان «نيقولا» بكل عناية وهدوء، وانصرفا وهما يتذمران، كانا ينفران من هذا العمل، خوفاً من الإصابة بعدوى المرض. أما «صوفيا» فلم تكن تفكر بذلك، فهي أكثر انهماكاً في العمل والكفاح، من أن تستطيع التفكير به، ولأنّ هنالك حياة معرضة للخطر، فإنها لم تعد ترى الدم. ولم تعد تشم

رائحة البراز والأقذار: فكل ما كان يخرج من ذلك الجسم المعذب، هو طبيعي، وعادي تماماً. وكانت تتمتم وهي تبعد بيدها خصلة شعر عن صدغه: «المهم، هو أن يشفى! وكل ما تبقى هو سيان، بالنسبة لي!»، وكانت ساعات النهار تتداخل وتختلط بساعات الليل، فلا تمييز بينها. وهذه العربة كانت، بالتأكيد، أسوأ عربات القافلة. وربما تصدّعت وتفككت، بعد بضعة كيلومترات. كان رأس «نيقولا» يتأرجح على كتفها.

وعند الظهر، أعطته، حسب وصفة الطبيب، قطعة من فحم الحطب ليقضمها، ففعل ذلك، وهو يكشر قرفاً. وسالت عصيدة سوداء من بين أسنانه. وبعد أن انتهى، مسحت له فمه ونظفته، كما ينظف فم الطفل الرضيع. ومن جديد، ساح الإسهال، فبدرت منها حركة تراجع إلى الخلف. ولكن ذلك أصبح أمراً بسيطاً واعتيادياً. فلم تشأ أن تنظفه لكي لا تتعبه. وانحنت إلى خارج العربة لكي تستنشق الهواء النقي، ثم عادت لتجلس عبر الغبش الذي تنتشر فيه الرائحة الكريهة.

واهتزازة بعد اهتزازة، وعلى خطوات الخيل التي تسير ببطء، كانت القافلة تحبو وتزحف متمهلة، تحت أشعة الشمس الحارة. وأخذ «نيقولا» يتمتم بكلمات مشوشة وغامضة. وكانت «صوفيا» تجد صعوبة بأن ترى في هذا المحتضر الهزيل، الرجل الممتلئ بالرغبة، الذي ألقى بنفسه عليها، في تلك الليلة، عند ضفة النهر. كأن تلك القصة، كانت قد جرت في حياة أخرى، بين جماعة لا يهمها أمرهم، ولا يعنون شيئاً بالنسبة لها. فقضيتها، هي، كائنة هنا، في العربة. فبعد أن ركضت في كل الاتجاهات، ـ كالمجنونة، فهي تسير من جديد نحو هدف واضح ومحدّد. فرصتها الأخيرة. لماذا انفصلت عن «نيقولا»؟

كان أهم ذكرى في حياتها، كامرأة. وما عرفته من سعادة جسدية فهي مدينة له به. وكانت تتخيله برقته وأناقته، وابتسامته المزهوّة، وبتلك

النظرات العذبة والمداعبة، وبمرحه، وكذباته، بخفته وبساطته، بغروره وشجاعته... وربما كان الآن، على هذا المرقد البائس، سينتهي كل ذلك، بشهقة مرعبة. «كلاّ، كلاّ! ليس هو!...» كانت تتوسل إلى الله، من أجل زوجها، كما سبق لها أن توسّلت إليه فيما مضى- ولكن بعد فوات الأوان! - من أجل «نيكيتا». كانا أخوين في الألم. وكانت تنتقل من أحدهما إلى الآخر، دون أن تخون لا هذا، ولا ذاك. وأخذ الطريق يتجه صعوداً، وتصاعد صرير نوابض ومقصات العربات، وأخذت الأحصنة تشدّ بقوة وقد أحنت رؤوسها، وتقوّست ظهروها، وتصاعد الغبار الكثيف حول القافلة. وفجأة، أخذ «نيقولا» يتلوّى، وصاح وكأنه طعن بخنجر.

فقالت «صوفيا» وهي تشكو وتتأوّه:

- آه! ألن يتوقف هذا، إذن، أبداً؟!

ووضعت يدها على بطنه. كانت أسنانه تصطك، يجول بنظره، وبدت عيناه بيضويتين، وأخذ يستنشق الهواء بتكشيرة تنمّ عن الاختناق. فذعرت «صوفيا» من عنف تلك النوبة، ورفعت قليلاً غطاء العربة، ودعت أحد جنود المرافقة، وقالت له:

- أحضر لنا الطبيب!

فأسرع الدكتور «وولف»، صعد إلى العربة، وجسّ نبض المريض. وبعد برهة، هدأ «نيقولا»، وتراخت أعضاؤه. وكانت الأقذار الناجمة عن الإسهال والزحار، قد لطّخت كل شيء حوله.

وكان ضعيفاً، شاحباً، وليس على جبينه قطرة عرق. ولتقويته، أعطاه الطبيب، ليشرب «مغلي الوزّال»، ثم ساعد «صوفيا» على تغيير المرقد مرة أخرى. وكانت أثناء ذلك تعضّ شفتيها والدموع تترقرق في عينيها. وهمست، مخاطبة الطبيب:

- قل لي بصراحة، يا دكتور، أهنالك فرصة مّا، إنقاذه؟..

فتأملها بدهشة شديدة، كما لو أنها كانت آخر شخص يحق له أن يبدو قلقاً على «نيقولا»، وقال بجفاء:

- لا أستطيع، منذ الآن، الإعلان عن رأيي.

- ومع ذلك، فإنّ حالته لا تزداد سوءاً، أليس كذلك؟

- كلاّ، فحالته مستقرة. ولكن، هل تستطيع بنية جسمه الصمود، والمقاومة، حتى النهاية؟..

- إني أخشى من أن أكون لا أعمل ما ينبغي عمله، أو أن أكون لا أعمل كما يجب!

- بلى، يا سيدتي، بلى، إنك تتدبرين الأمور، وتعملين بشكل جيد جداً!

وغسّل يديه في «طشت» صغير. وكان، حتى أثناء السفر يحرص على ترتيب أموره وعلى أن يكون لديه ملابس داخلية نظيفة، وأن يقص شاربه بعناية، وأن يرتدي «ريدنفوت» لا ينقصها أيّ زر. وكانت «صوفيا» معجبة بمظهره الجدّي. ومع ذلك، فإنه منذ أن هرب «نيقولا» كان يعاملها بتهذيب جاد ومتحفظ، وتركها واتجه نحو العربة التالية التي كانت فيها «أليكسندرين مورافييفّ» و «بولين أنّانكوف» وأولادهما. كان الجميع يعرفون أنه يميل للظريفة «أليكسندرين»، وكان زوجها، الممل، والمكتئب والبارد، لا يبالي بذلك، ولا شك بأن ذلك الميل والحب البريء، لن يؤدّيا إلى شيء. وكانت «صوفيا» تأسف لهذا. ولكن لماذا؟، إنها لا يمكن أن تعرف له سبباً. وأكثر فأكثر كانت أولئك النسوة اللواتي يثرن الإعجاب، أولئك الزوجات المزهوات والمتشدّدات يثرن غيظها. وعادت فوضعت يدها على جبين «نيقولا»، إنه لم يعد يتحرك، فهو فاقد الوعي، غائب عن هذا العالم، يمطّ شفتيه المطبقتين، من شدة الألم. وانقضت بضع دقائق، فشعرت «صوفيا» بالخدر يسري في ذراعها. آه! فمتى تنتهي رحلة هذا القافلة، بعرباتها التي ترتجّ وتهتزّ باستمرار، محدثة جلبة لا تطاق؟

وعبر فتحة غطاء العربة، رأت بعض الخيالة من أفراد قبيلة «البوريات» يتقدمون العربة، وفي أسفل أحد الوديان، بدت لها قرية صغيرة مكونة من مجموعة من الخيام ذات القباب المدبّبة.

★★★

قال «ليبارسكي» وهو يجلس وراء منضدته النقّالة:

- إيه، هيا! أدخل السيدات.

وأخذ يتساءل عما يمكن أن يطلبن منه أيضاً. ورفع الحاجب الستارة التي تغطي مدخل الخيمة، ليفسح الطريق للزائرات. فامتلأت الخيمة بالتنانير. وحصل لدى «ليبارسكي» انطباع بأنه أخذ يتنفس بمزيد من الصعوبة. كن جميعهن هناك، ما عدا «أليكسندرين مورافييفّ» و «صوفيا أوزاريف». والتي افتتحت المعركة والأحاديث المعادية، هي «ماري فولكونسكي» الطويلة القامة، السمراء اللون، ذات العينين السوداوين، قائلة:

- يا صاحب السعادة، لقد أتينا لنطلب منك أن تأذن لنا بأن نلتقي بأزواجنا، كما كنا نفعل في الماضي.

كان يتوقع بعض الشيء، أن يطلبن منه ذلك.

فردّ بقوة:

- كلاّ، أيتها الأميرة.

- ولكن، بما أنّ الهارب قد عثر عليه!...

- هذا لا يغيّر شيئاً في الوضع. كان هنالك تساهل في تطبيق النظام، وأنوي أن أطبقه بعد الآن، بحذافيره، وبكل ما فيه من شدة وقسوة.

فصاحت «أليكسندرين دافيدوف»:

- إذن، أعد تطبيقه على الجميع!

- لم يسبق لي أبداً أن فتحت أيّ امتياز أو الحقّ بتجاوز النظام لأحد!

- بلى. لقد منحت ذلك إلى من هي أقل من تستحقه بيننا جميعاً!

فأمنت «ناتاليا فونفيزين» على قول زميلتها، بلهجة تنم عن التذمر والشكوى:

- هذا صحيح! فالوحيدة من بيننا التي سمح لها أن تبقى باستمرار بالقرب من زوجها هي «صوفيا أوزاريف»!

فانتصب «ليبارسكي» من الغيظ، واقفاً، خلف منضدته، وتمتم:

- أيتها السيدة، أيتها السيدة، أنت تتناسين أنّ «نيقولا ميكايلوفيتش» حالته الصحية في غاية السوء!

فقالت «أليكسندرين دافيدوف»:

- ذلك بسبب محاولته الهرب! وهكذا فإنّ مساعدتك وحظوتك تذهب إذن لمن يتمردون عليك ويعصون أوامرك. وهذه تُعَدّ مكافأة للهرب ولعدم الإخلاص!

وأثارت هذه الملاحظة الاضطراب لدى «ليبارسكي». فهو لم يكن قد نظر إلى المشكلة من هذه الزاوية. وعندما لاحظت «ناتاليا فونفيزين» اضطرابه، استأنفت الهجوم:

- وأنا أبلغك، يا صاحب السعادة، أنّ زوجي أصيب بالبرد وهو يطلب أن يسمح لي بمعالجته والعناية به!

وقالت «كاترين تروبيتزكوي»:

- وأنا، زوجي يعاني من الروماتيزم وآلام المفاصل، وأستطيع أن أثبت لك ذلك، بشهادة من الدكتور «وولف»!

وقالت «بولين أنّانكوف»:

- وأنا زوجي مصاب بصداع مؤلم، بسبب إصابته بضربة شمس فقال «ليبارسكي» غاضباً:

- وماذا هنالك بعد؟ إنهم ليسوا على وشك الموت، مثل «أوزاريف»!

فخافت النساء، ورسمت كلّ منهن إشارة الصليب على صدرها.

فقالت «أليكسندرين دافيدوف» بلهجة حادّة:

- إذا كان على وشك الموت، فبإمكانك أن تختار له ممرضة أخرى.

- وعلى ماذا تلومون هذه؟

- على أنها مسؤولة عن الحالة التي يعاني منها.

فهزّ «ليبارسكي» كتفيه:

- ليس مطلوباً مني أن أعرف شيئاً عن هذه القصص: فلأنها زوجته، فهي التي يجب إن تعتني به!

- حتى ولو اعتنت به بشكل سيئ؟

- ماذا تقصدين؟ وإلى ماذا تلمحين بما تقولين؟

- لا ينبغي أن يُعهد بحراسة مريض والعناية به إلى شخص، يحلم بالتخلص منه!

كان هذا الاتهام الذي صرحت به «أليكسندرين دافيدوف» على درجة كبيرة من الخطورة، لدرجة أنّ بقية النساء أخذن ينظرن إليها بدهشة شديدة.

وقال «ليبارسكي»:

- أيتها السيدة، إذا كانت المرأة التي تتحدثين عنها، لديها ما يؤنبها عليه ضميرها، فأنا متأكد من أنّ تأنيب ضميرها لها، سيجعل منها أفضل الزوجات، في الوقت الحاضر.

فردّت «ألكسندرين دافيدوف»، وهي تبتسم بسخرية:

- أنت تعطي أكثر مما ينبغي من الثقة والاعتبار لتأنيب الضمير، ولا تعطي منهما ما يكفي للضغينة والحقد.

فتدخلت «ماري فولكونسكي» بسرعة، بعد أن خشيت أن ينفجر «ليبارسكي» غاضباً:

- دون الذهاب إلى هذا الحد ، يا صاحب السعادة ، فلا بد من أن تعترف بأنه يشق على نساء شريفات ، لم يسبق لأزواجهن أن خالفوا أبداً تعليماتك ، أن يعاملن بأقل ما تعامل به امرأة تحوم الشكوك حول أخلاقها والتي سبب لك زوجها بهربه بعض المتاعب الخطيرة ، وها قد انقضت ثمانية أيام ، والسيدة «أوزاريف» موجودة بالقرب من زوجها.

ونحن نطلب المساواة بالحقوق وحسب. وإذا كنت كما تدعي ، رجلاً طيب القلب وعادلاً ، فينبغي عليك أن...

ومنذ بعض الوقت ، كان قد نفذ صبر «ليبارسكي» ، وانزعج كثيراً من تلك الثرثرة التي سمعها. وقد تأثر فقط بما قالته «ألكسندرين دافيدوف». وظلت تلك الجملة مغروسة في ذهنه وأخذت تؤلمه ، كأنها شوكة حادة. وماذا لو كانت هؤلاء النسوة على حق ومصيبات فيما قلنه؟ وإذا كان لدى «صوفيا» حقاً نوايا إجرامية؟ ولكن ، لا ، فكلهن مختلات العقل لكثرة ما يقرأن من روايات! لن يدع نسوةً واسعات الخيال يملين عليه سلوكه وطريقة تصرفه! وإذا لم يطبق النظام جيداً ، فسوف تبدر منهن تصرفات سيئة! وصرخ فجأة:

- هذا يكفي ، أيتها السيدات ، سأرفع الحجز ، عندما أرى أنّ رفعه أصبح ضرورياً! ولن يكون لاحتجاجاتكنّ أي تأثير سوى دفعي إلى تأخير لحظة رفع هذا الحجز! تفضّلن بالانصراف!

فانسحبن بسرعة ، وقد بدا عليهن الاستياء الشديد.

وبعد انصرافهنّ ، عاد «ليبارسكي» فجلس خلف منضدته ، وأخذ يراجع بعض الأمور الإدارية ، ولكنّ الكلمات والأرقام كانت تتراقص أمام عينيه. وأحرف الـ «ا» المنتصبة والمزهوة كانت تذكره «بماري فولكونسكي» والـ «٣» ذات الانحناءات البدينة ، ذكرته «بكاترين تروبيتزوكوّي». وحروف الـ «O» المستديرة أعادت إلى ذاكرته «ناتاليا فونفيزين» القصيرة

والبدينة. وشعر بأنه متعب. وأنّ هذه الرحلة كانت بالتأكيد تجربة تفوق طاقته. لقد تناسوا سنّة، في «سان بطرسبورغ»! لقد انقضت فترة تزيد على عشرين يوماً، والقافلة مستمرة في زحفها، من مرحلة إلى أخرى، عبر سيبيريا الشاسعة، والمترامية الأطراف! وإذا استطاعت الوصول إلى «بيتروفسك» دون أي عائق أو حادث، فإنّ نجاحها يُعَدّ إحدى العجائب. «وربما منحت وساماً، بهذه المناسبة؟» هذا ما كان يدور بخلده «ولكن ما هي فائدة وسام إضافي، وماذا أفعل به، بعد أن بلغت الخامسة والسبعين من العمر؟» وعبثا حاول أن يستمع لصوت العقل، فقد ظلت فكرة إمكانية مكافأته على خدماته، من قبل القيصر، توقظ لديه آمالاً واسعة. على ألاّ يموت هذا الأرعن «نيقولا أوزاريفّ» أثناء الرحلة!

والأمر الذي يثير الغيظ هو التفكير بأنّ نجاح المشروع كله يتوقف على شيء بسيط كهذا. لم يكن الدكتور «وولف» قد قدم له تقريره، صباح ذلك اليوم، وهو يوم استراحة. وأخذ الجميع يرتاحون في المخيم الذي أقيم على ضفة أحد الأنهار. وفجأة أصبح «ليبارسكي» لا يستطيع البقاء في أيّ مكان. فتقلّد سيفه، وتناول قفازه وقبعته، وخرج.

وعلى بعد عشر خطوات من الخيمة، التقى بالدكتور «وولف» الذي كان قادماً نحوه. كانت الأخبار أفضل مما كانت عليه في السابق: فالمريض أصبح يستطيع أن يتغذى بالأطعمة الخفيفة.

فسأله «ليبارسكي» بصراحة، وسلامة قلب:

- أتعتقد إذن أنه سيتعافى، وينجو من هذه الورطة؟

فأجابه الدكتور «وولف»:

- أصبحت أكثر تفاؤلاً، ولكنّ التعب، وصعوبات السفر ومزعجاته لا تساعد على تسوية الأمور.

فأمسك «ليبارسكي» الطبيب، من ذراعه، وهمس في أذنه:

- وهل تعتقد أنّ وصفاتك وإرشاداتك تطبق حرفياً وبكل دقة؟

- ماذا تعني بذلك؟

- ألم يبدر من السيدة «أوزاريف» أي شيء يدل على الإهمال أو سوء النية؟

- يا لها من فكرة غير معقولة! فهي ممتازة بإخلاصها، بمهارتها وبصبرها، وأصرح بذلك عن طيب خاطر وعن قناعة، لاسيما وأني لا أشعر بأي مودة نحوها. ويبدو أنك استمعت لأحاديث بعض أولئك السيدات! وتأثرت بها!

فغمغم «ليبارسكي»:

- نعم، نعم، إنّ هذا هو انطباعي بالضبط! لقد ارتحت! هيا بنا، لنرى مريضك!

اصطحبه الدكتور «وولف» إلى خيمة التمريض. كان «نيقولا» يخلد إلى الراحة، مستلقياً على سرير ميداني صغير. لا تبدر منه أي حركة، عيناه مغمضتان ولحيته طويلة، وصورته الجانبية تبدو كصورة تمثال من حجر. وكانت «صوفيا» تغسل بعض الملابس الداخلية في «طشت» فيه بعض الماء، وهي تجلس القرفصاء، في عمق الخيمة. فوقفت وجففت يديها بصدارتها. فدهش «ليبارسكي» من أمارات التعب والقسوة البادية على وجهها، وقال:

- كنت ماراً من هنا، فأتيت لأرى مريضنا، وقد سررت لأنّ صحته قد تحسنت...

والحقيقة هي أنه كان يجد صعوبة بإبداء الشدة والقسوة. ومع ذلك، فلا بدّ من أن يفعل ذلك. إذ إنّ مرض «نيقولا» لا يخفف من أهمية خطيئته في نظر المسؤولين الإداريين.

فتمتمت «صوفيا»:

- أرجوك أن تتكلم بصوت خافت، يا صاحب السعادة، فهو نائم.

فغمغم «ليبارسكي»:

- آه! عفواً! عفواً!

والله، وحده يعلم، لماذا أضاف:

- أرجو أن تقولي له إني أتيت.

وعندما ذهب، هو والدكتور «وولف»، جلست «صوفيا» بالقرب من «نيقولا» وتبادر إلى ذهنها: «إنه، بالحقيقة، جميل جداً».

فحرّك شفتيه، فسقته ملعقة من ماء الرز. ثم جدّدت اللزقة الساخنة على بطنه. فشعر بإحساس عذب ومريح في كل جسمه وهو مستغرق في النوم ومحتجز في ظلام جفنيه المطبقين.

كان الألم يتراجع، ويختبئ في أحد الأوكار. وهو سيستطيع أن ينعم بالعيش، خلال بضع دقائق، قبل أن يعود إليه. كان إعياؤه شديداً، لدرجة أنه لم يكن يتبين حدود جسمه. كان عائماً يتموج، دخاناً بين الدخان. حتى فكره كان مريضاً. وفتح عينيه من جديد، فأخذ العالم يرتعش خلف ستارة من الضباب. وداخل الغرفة، بياضات وملابس داخلية، قوارير وقامة نسائية: «صوفيا»... فأحس بارتعاشة تعتريه. وتصاعدت الذكريات من أعماق ذاكرته. لقد كان ذلك أمراً بشعاً، ومعيباً... ولن يستطيع تحمله أبداً. فلينم، ولينسى ذلك.. وأراد أن يلقي بنفسه في اليمّ الأسود. ولكن ذلك كان مستحيلاً: فها هي «صوفيا» تبتسم له. فتمتم:

- أين نحن؟ ماذا حصل لي؟ وماذا بي؟

فوضعت إصبعاً على شفتيها، وقالت له:

- صه! اهدأ! كنت مريضاً جداً! وبدأت صحتك تتحسّن!

ومع ومضة مفاجئة من الصحو ونفاذ البصيرة، تذكر كل شيء، فخجل من سقوطه وانحطاط قواه: هذا الجسم الهزيل والضعيف: هذه الانتفاخات، هذا الهزال، وهذه السواقي من القذارات النتنة، وها هي تقوم

بهذا العمل القذر والمقرف الذي تقوم به الممرضات، عادةً، ربما كان يتقبل منها ذلك، لو أنها كانت تحبه كما في الماضي. ولكنّ إدراكه أنها تعالجه وتعتني به بدافع من الشفقة والإحسان، أمر لا يطاق، بالنسبة له. ولكم كان يفضل أن يرى أي امرأة أخرى، بالقرب من سريره. فاستجمع كلّ قوى ذهنه، وغمغم:

- لا أريد هذا، منكِ أنتِ.... كلاّ... كلاّ...

ثم خنقته العبرات، وتراخت عضلاته. كان أضعف من أن يستطيع مجابهة مشكلات على هذه الدرجة من الخطورة، ولم يكن يريد سوى شيء من الظل على جبينه وقليل من البرودة والعذوبة في فمه. وقدمت له ملعقة من اللبن، فابتلع محتواها بمتعة واضحة:

- ملعقة أخرى.

فأومأت برأسيها أن «كلا!» فلم يجد بعد ذلك، ما يقوله. فهو تحت رحمتها، كما كان على الدوام.

وقالت بلهجة تنمّ عن العطف، جعلته يشرع بالراحة والدفء:

- هيا! نم الآن!

فقال، وهو يئنّ، شاكياً:

- لا أستطيع أن أنام!

- يجب أن تنام.

وبدلاً من أن ينصاع لما أمرته به، أخذ ينظر إليها، فوجدها قد شاخت وذبلت، وفي الوقت نفسه، فهي تشبه بشكل مدهش المرأة الشابة التي تعرّف عليها، فيما مضى، في باريس. والسنوات منحتها هذه النظرة العميقة والنفّاذة، وشكل هذا الفم الذي ينمّ عن العزيمة وقوة الإرادة، وتلك الشبكة الناعمة من التجاعيد حول جفونها، وهذا المظهر الزاهي، الهادئ والرزين، الذي يثير لديه الاضطراب والخجل، بل والخوف أيضاً. وليس

هنالك من شك، أنها، بشكل مّا، قد ازدادت جمالاً، مع تقدمها في السنّ، ولكن منظرها الجديد، بدلاً من إن يمحو المنظر القديم، تركه يلوح ويتراءى من خلاله. وهكذا، فهي عندما تبتسم، يبرز من تحت وجهها الحالي، البالغ، وجه فتي يطفو على صورة الوجه الحالي ويغطّيها. كل هذا، كان «نيقولا» يدركه بوضوح غير طبيعي وغير عاديّ. وانطلق على غير هدى، مفكراً أو حالماً- فهو لم يعد يعرف- حتى اللحظة التي عاودته فيها آلامه الحادة، التي تثير لديه التقلّصات والتشنّجات. عند ذلك، للمرّة الأولى، وبصورة لا شعورية، أمسك يد «صوفيا»، على الغطاء، وشد عليها، بكل ما أوتي من قوة.

تماثل «نيقولا» للشفاء ببطء شديد، بحيث إنّ «صوفيا» أخذت تتساءل، فيما إذا كان سيسترد حقاً، ذات يوم، قوته التي كان يتمتع بها في الماضي. لقد زالت آلامه، ولكنّ ضعفه لا يزال يمنعه من المشي. وكان، وهو متسلق في العربة، لا يهتم حتى بما يحصل في الخارج. وأخذ الدكتور «وولف» يصف له تغذية مقوية تعتمد في أساسها على حليب الخيل المتخمر. وفي كل مرحلة، كان عليه إن يشرب منه بالإضافة إلى الدم الطازج والحار. وكان زعيم قبيلة «البوريات» يفصد حصاناً، يسد له الجرح بحفنة من الأعشاب ويجلب للمريض كوباً طافحاً حتى حوافه بالسائل الأحمر. فيزدردّه «نيقولا» بقرفٍ شديد. وكان يمكنه أن يسكب نصفه على الأرض، لو لم تكن «صوفيا» واقفة إلى جانبه، تراقبه. وبعد إن زال الخطر، أخذ كل منهما يشعر، حيال الآخر، بحرج وضيق متناميين. والمرض الذي قرّب بينهما، انتزع منهما، بزواله، ذريعة الرعاية والتسامح. كما لو أنّ ذلك الخطر كان شخصاً ثالثاً يقيم بينهما وفي حياتهما، وقد حصل لديهما انطباع بأنهما، للمرة الأولى، يلتقيان على انفراد، هو، خجل من إهماله وتخليه عنها، وهي مرتبكة من رعايتها وتودّدها إليه. وباتفاق ضمني عبر الصمت، لم يتحدّثا عن الماضي. وأخذا يتجنّبان أيضاً إبداء أي إشارة إلى مستقبل لم يكونا يعلمان تماماً، ماذا سيكون بالنسبة لهما. حتى يخيل لنا أنّ حياتهما الزوجية تحددها مدة الرحلة. وكانت أحداث الطريق، والأمور المتعلقة بالأعمال والمعالجة، اليومية، كافية لتغذية أحاديثهما. ولكن خلف تلك الأحاديث

العادية والمبتذلة، كانت «صوفيا» تتبين الأمل الذي يراود «نيقولا» سراً، ودون أن تستطيع التدقيق في عواطفها ومشاعرها، فقد كانت متأثرة من شعورها إلى أي درجة كان بحاجة لعطفها ومودتها. وهكذا، وهما يكتمان أساس وحقيقة أفكارها، كانا راضيين ومتألمين مع وضع زائف، ويتحركان مبحرين بين صخور وعوائق، يعرفانها وحدهما، ويتذوقان، سوية، وجهاً لوجه، سعادة مؤجلة.

وفي أحد الأيام، طلب «نيقولا» من «صوفيا» أن ترفع غطاء العربة، فهو يريد أن يرى المناظر. فسرّها ذلك، واعتبرته دليلاً على تماثله للشفاء. كان الطريق آنذاك، يسير بمحاذاة ضفة نهر «السيلنغا». فإلى اليسار مياه تجري بسرعة، صافية وشفافة، وإلى اليمين صخور عالية، يبلغ ارتفاعها خمسين متراً، كانت النظرة تنزلق على تلك الجدران الغرانيتية المكونة من طبقات متوضعة فوق بعضها، بألوان مختلفة، حمراء، صفراء، رمادية وسوداء، وفجأة تضيع النظرة وتتشرد عبر زرقة السماء. وبعد برهة، بدت على «نيقولا» أمارات التعب، وكأنه قد ثمل بعد تناول خمرة ثقيلة جداً، فأرغمته «صوفيا» على الاستلقاء وإغماض العينين.

وأقيم المخيم على ضفة النهر. واليوم التالي خُصص للاستراحة.

فاغتنمت بعض السيدات هذه الفرصة لكي يطلبن، مرة أخرى من «ليبارسكي» الأذن بمقابلة أزواجهن، ولكنهنّ اصطدمن برفض أشدّ من المرة السابقة. والسباحة والنزهات ممنوعة. فقرر المساجين التسلية بمباريات الشطرنج وعند ذلك، حصل تجمع حول كل منضدة. وحتى أفراد قبيلة «البوريات» كانوا يتابعون المباريات بشغف وحماسة.

والأمير «تروبيتزوكوّي» الذي كان لاعباً ماهراً دعا أحدهم للتباري معه. وهذا الرجل وهو أمي فظ. محني الرأس، ذو نظرة جامحة، تغلب على الأمير بسهولة مذهلة.

فاستاء الأمير، وسأله:

- أين تعلمت هذه اللعبة؟

فأجابه «البورياتي» ضاحكاً:

- علّمنا إياها الصينيون، من قديم الزمان. فالصينيون يعرفون كل شيء!

وخطرت ليوري ألمازوف فكرة إقامة مبارزة بين «الصفر» و «البيض». ولكنّ «ليبارسكي» اعترض على هذا المشروع، الذي اعتبره لا يتفق مع نظام الانضباط في سجن، يقوم المساجين فيه برحلة طويلة. ومن مرحلة إلى أخرى، كان يبدو أكثر عصبية وقلقاً، وأصبح من الصعب التعامل معه. واستطاع المساجين معرفة سبب تعكّر مزاجه، عندما أعلن لهم، في الاجتماع المسائي أنّ القافلة ستمرّ بعد وقت قريب في مدينة «فريخني-أودنسك»، التي يتواجد فيها آنذاك الجنرال «ليفنسكي» حاكم سيبيريا الشرقية، الذي يقوم بجولة تفتيشية.

وقال لهم:

- وهذا يُعَدّ، بالنسبة لنا جميعاً، أيها السادة، بمثابة نوع من الاختبار. وسترسل تقارير سرية- وكونوا واثقين من ذلك- إلى المقامات العليا، عنكم وعني. لذلك أطلب منكم أن تسيروا في صفوف منتظمة، وخطى ثابتة، دون أن يبدو عليكم ما يدل على الفرح لأنّ وضعكم لا ينبغي أن يبدو بأنكم تحسدون عليه. وعليكم أن تبدوا بهيئة تنم عن الحزن، والإرهاق، والخضوع... ولكن بصحة جيدة... ولا بدّ أنكم أدركتم ما أعني؟! ولا ينبغي أن يرتدي أحد منكم ملابس غريبة الشكل، تلفت الأنظار، ولا إن يضع في فمه غليوناً أو أن يحمل بيده كيساً فيه سكاكر، ولا إن يضع زهوراً في عروة سترته. وعلى الجنود الذين يرافقونكم، إظهار تعابير القسوة والتصميم، كما هو الحال بالنسبة لجنود يحرسون مجموعة من السجناء...

وبينما كان يتكلم، أخذ المساجين ينظر بعضهم إلى البعض الآخر ويبتسمون. ولاحظ تصرفهم الذي ينم عن السخرية، فاستاء:

- هذه الاحتياطيات تبدو لكم غير معقولة، أيها السادة! لأن طبيعة عقليتكم تحث على النقد والمعارضة وهذا أدّى بكم إلى الضياع، فيما مضى!

وعليكم أن تشكروني إذا جنبتكم خيبة ثانية وخطأً كبيراً آخر!

وعندما عاد إلى خيمته، كان عليه، لكي يهدئ أعصابه، أن يشرب كأسين كبيرين من الماء. كيف يمكن أن تكون في كل الظروف السخرية على حسابه، والسحق من جانبه دائماً؟ أيكفي أن يدافع عن النظام لكي يتعرض للنقد؟ ومع ذلك فمن دون النظام لا يستقيم أمر المجتمع! ومتمردو كانون الأول، أنفسهم يقرون بذلك في مشروع دستورهم. آه! بالحقيقة، لا توجد أي مهمة أصعب من المهمة التي تقضي على المرء بأن يدير شؤون نظرائه! فحالما يستلّم أحد الرجال، ولو قدراً يسيراً من السلطة، يظن به الآخرون السوء. وكأنّ الوظيفة تفسد الرجل. وهكذا يبدو الناس ظالمين حيال العدالة! كانت هذه الأفكار الكالحة تثير، «ليبارسكي» وتزعجه. وبعد أن قام بأربع جولات في الخيمة، استلقى عل سريره، وأخذ يفكر، حالماً، بالمسيرة الاستعراضية عبر مدينة «فريخني- أودنسك» كخاتمة متألقة لتلك الرحلة الطويلة.

في آخر توقف للاستراحة، قبل الدخول إلى المدينة، كرّر توصياته للمساجين، للجنود، ولجماعة «البوريات» واستعرض الألبسة، الأسلحة، الخيل، العربات، وذهب حتى إلى خيمة التمريض، لكي يقول لـ «صوفيا»:

هل فهمت؟ تستطيعين الظهور في عربتك، ولكني أمنع أبداً الإشارات والابتسامات، والتحدث إلى المتفرجين والفضوليين وعند أقل مخالفة، أو حماقة تبدر من أحد، سأعاقبه بقسوة!.. فوعدته بأن تكون صورة مجسّمة للحزن بالذات.

فقال لها:

- ومع ذلك، فلا تبالغي أكثر ممّا ينبغي!

وانسحب، متجهماً، وهو يضع يده على قلبه، كمثل من شعر بالرهبة، قبل إن يشارك بأحد المشاهد.

وفي اليوم التالي، انتشر في المعسكر، منذ الفجر بنشاط محموم. وكانت «صوفيا» وهي جالسة مع «نيقولا» في العربة، تراقب من بعيد ذلك الهرج والمرج: كان بعض الجنود يحلقون ذقونهم، يصففون شعرهم بالشحم المخصص للأسلحة، يلمعون أحذيتهم ببصق لعابهم عليها. وكان ستة من قارعي الطبول يتدربون على قرع لحن حربي، في جانب من الغابة. وحراس الإسطبل ينظفون الخيل بالمحسّة والفرشاة، ويصبغون حوافرها بالقار والقطران، وكان هناك صبي يندسّ بين عجلات العربات، يدخل يده في إناء يحمله، ويدهن النوابض والمقصات، بالشحم. وأخذت الخيام تنهار الواحدة بعد الأخرى، كأنها بالونات فُرّغت من الهواء بوخزة دبوس. وأخذ السجناء، يبرزون وقد ارتدوا أفضل ملابسهم. وبدت السيدات وكأنهن ذاهبات للقيام بزيارات مهمة. كانت «بولين أنّانكوف» تضع على رأسها قبعة جميلة من القش، وعلى صدغيها تجعيدتان من شعرها الأشقر. و «أليزابيت ناريشكين» وضعت حول عنقها طوقاً من القماش الرقيق «التول» وارتدت صدارة خضراء واسعة الكمين.

و «ماري فولكونسكي» اعتمرت عمامة مكورة حول رأسها، مصنوعة من قماش «الكريب» الحريري، الأزرق اللون، ومزينة بريشة، وأخيراً بدا «ليبارسكي» على جواده الأبيض. فوجّه اللوم للسيدات لكونهن تأنقن أكثر مما ينبغي. ولكنهن رفضن تغيير ملابسهن، وتذرعت بعضهن بأنّ ليس لديهن ملابس أخرى ليرتدينها، وتذرعت البقية بأنّ حقائبهن قد أُغلقت وحُمّلت على العربة.

وحيال إصرارهن، فقد انسحب متراجعاً ليريح فكره، وبدا له في اللحظة الأخيرة أنّ لا شيء كان جاهزاً تماماً، ومع ذلك فقد أخذت القافلة تتكون وتنتظم شيئاً فشيئاً، والملازم «فاتروشكين» الذي بحّ صوته، وأخذ العرق يتصبب على جبينه، كان يركض في كل الاتجاهات، ويهيب بالجنود أن يسرعوا إلى حمل أسلحتهم.

والخيل أخذت تصهل وتهتز عدتها التي كانت تحدث أصواتاً هادئة ومرحة. والزوجات أخذن يتنادين ويتحدثن. من عربة إلى أخرى. كما تتحدث الجارات من شرفة إلى شرفة، عند استيقاظهن في الصباح الباكر. وانتصب «ليبارسكي» على ركابي سرج جواده، امتشق سيفه، لوّح به وصاح:

- إلى الأمام... سرْ!

انطلقت القافلة، ومع اقترابها من «فريخني - أودنسك» كانت الحركة تزداد نشاطاً في الطريق، وأخذ بعض الفلاحين يقفون بجانب الطريق، ينظرون إلى القافلة، فاغري الأفواه وهم يضعون أيديهم حول أعينهم كالمنظار لكي يروا بشكل أفضل. وكان البعض منهم يرفعون قبعاتهم عن رؤوسهم ويرسمون إشارة الصليب كما يفعلون عادة عند مرور موكب الجنائز. وكانت «صوفيا» و «نيقولا» يجلسان في العربة على رزمة من القش. وقد أزالا جانباً من الغطاء، لكي يريا ما يجري في الخارج، وقالت «صوفيا»:

- كان عليك أن تضع على رأسك قبعة، فقد غمرتك الشمس بأشعتها الحارة.

شكرها بنظرة تنمّ عن التأثر الشديد، فشعرت بالاضطراب لأنها لم تكن ترغب بأن تبدو محبّبة ولطيفة إلى هذه الدرجة، فهي تكره اللطف والتودد! ومع ذلك، فإنّ الكلام الذي قالته ترك لديها شحنة من العذوبة. فقد حصل لديها انطباع بأنها وهي وتعالجه، كانت تشفي نفسها هي،

وكانـا يعـودان سـوية إلى العـيش وإلى الحيـاة، وسـوية، كانـا يكتـشفان العالم.

وبعـد قليـل، بـدت قبـاب الكاتدرائيـة، وهـي تـشرف علـى مجموعـة الأسطحة المتلاصقة. ومنذ أربعة أسابيع لمغادرتهم «تشيتا» كـان هـذا أكـبر تجمـع سـكني، يلتقـون بـه علـى طـريقهم. ولأنهـم كـانوا متعـبين مـن رؤيـة الصحراء القاحلة، فقد أخذوا ينظرون بشغف إلى المنازل المصطفة على ضفة نهـر «الـسيلانغا». وعنـدما وصـلوا إلى الحـاجز، أخـذت الطبـول تقـرع بقـوة. وانتـصبت قامـات الجنـود، وانـتظم سـيرهم، وقطبـوا حـواجبهم. والمساجين، تصنعوا التجهم، الذي ينمّ عن الاستياء والحـزن، مـن أجـل أرضـاء حـاكمهم العجوز:

ولا بـدّ مـن أن تكـون أمـاكن التـسلية ووسـائلها نـادرة الوجـود في مدينـة «فريخني - أودنسك» حتى تجمـع كـل سـكانها في الـشارع الرئيـسي، حيـث كانت اللافتات التي تحمل أسماء وعناوين المحال التجارية، المكتوبة باللغـة الروسية مجاورة لتلك التي كتبت باللغة الـصينية. وعلـى الأرصـفة الخـشبية، كـان يتـدافع حـشد كـبير مـن النـاس، بعـضهم يرتـدون الملابـس الأوربيـة، والـبعض الآخـر، يرتـدون الملابـس الـسيبيرية، وآخـرون يرتـدون الملابـس الآسـيوية، ويشـكلون خليطـاً عجيبـاً مـن الوجـوه الـصفراء والبيـضاء. وأخـذ بعض الصبية يتراكضون بجـانبي القافلـة، وهـم يـصفرون ويـصرخون. كمـا أخذت كلاب الحي تنبح وقد أثارهـا قـرع الطبـول، وضـمت إحـدى الأمهـات ابنها إلى صدرهـا، وكـأنها تريد أن تمنـع المـساجين مـن أن يأخـذوه منهـا. وأم أخـرى يرافقهـا ابنهـا، وهـو في الخامـسة مـن العمـر، أشـارت بإصـبعها إلى المساجين، ولا بد أنها قالت له: «إذا لم تكـن عـاقلاً، فستصبح مثل هـؤلاء!» ورسم رجل عجوز إشـارة الـصليب أمـام «المنبـوذين» وكـان بعـض أفـراد قبيلـة «البوريات» يضحكون بهدوء، دون أن يهتمـوا بمـا يـدور حـولهم. وكـل شـرفة

كانت تحمل مجموعة من السيدات الريفيات اللابسات أفضل ما لديهن من ثياب، وبعض الشباب المتأنقين الذين بدت ملابسهم متخلفة خمس سنوات عن أزياء الملابس التي يرتديها الشباب في العاصمة. وكانت المراوح اليدوية تتحرك أمام الوجوه والصدور، والمناظر توجّه نحو القافلة التي تسير في الشارع، كما كانت تصدر الآراء والتعليقات الساخرة أو الفلسفية، حول المشهد الذي يراه المتفرجون. وكانت «صوفيا» تعتقد أنها تشارك في استعراض لمعرض متجول. ومغزى اللوحة التي تمثل ذلك العرض لم يعجز أحد عن فهمه:

«انظروا أيها الناس الطيبون، ماذا يحدث لمن يجرؤ على تحدّي سلطة القيصر»!

وأبطأت القافلة في سيرها، ثم أخذت تراوح وتتوقف في مكانها. وأخذ المتسكعون والفضوليون يحملقون بأعينهم، وأخذوا ينظرون إلى «صوفيا» ويتأملونها عن قرب، وكأنهم يتأملون حيواناً غريب الشكل، يلفت الأنظار. وسمعت بعضهم وهم يتهامسون:

- امرأة!... لا بدّ من أن تكون زوجة حاكم السجن!... كلا، إنها إحدى المجرمات!... كان الله في عونها!... ما أجمل ثيابها!...

وبصعوبة استطاع «نيقولا» أن يمتنع عن الضحك. فمنذ أسابيع، بل ومنذ شهور، لم تر «صوفيا» على وجهه هذه التعابير التي تنم عن السعادة. وبشكل غريب، شعرت بالارتياح بسبب ذلك: ودار في خلدها: لقد تحسّنت صحته كثيراً!» وتبادلا نظرة مرحة.

وانطلقت القافلة، وتصاعد صرير نوابض وعجلات عرباتها.

وكانت السماء صافية زرقاء والجو حاراً. ويبدو أنها كانت تمر بالقرب من السوق، لأن رائحة السمك كانت منتشرة هناك. وقرعت أجراس الكنيسة. وتذكرت «صوفيا» رحلتها واغترابها، عندما مرت بهذه

المدينة، قبل ثلاث سنوات، في طريقها إلى «تشيتا». كانت تسافر وحدها في تلك الفترة: فقد بقي «نيكيتا» في «ايركوتسك»، ثم غادرها، بعد ذلك، ليلحق بها، فأوقفه رجال الدرك، في مكان قريب من فريخني-أودنسك». وهناك مات تحت سياط الجلاء. واصطدمت بهذه الذكرى، وكأن حركة غريبة قد أثارت شجونها وأيقظت حزنها الذي ظل خامداً خلال فترة طويلة، وأخذ ينمو ويتزايد حتى طرد من ذهنها كل فكرة أخرى. فإذا كان يوجد على سطح الأرض مكان، يتاح لها فيه الالتقاء في الخيال والفكر بـ «نيكيتا»، فإنما هنا كان هذا المكان، بالضبط. وركزت قواها الذهنية وجمعتها لكي تتذكره، ولكنها لم تجد سوى صور باهتة ومشتتة. وكانت حركة الشارع وجلبته، تزعجها وهي مستغرقة في تأملاتها. وشردت أفكارها، فكفت بعد قليل عن ملاحقة أحد الأشباح، لكي تتصرف إلى الاهتمام بجمهور الأحياء بملابسهم المبرقشة والمتعددة الألوان. وكانت الوجوه تتوالى، كثيرة ومتعددة، وصفوفه ومتراصة، كالخضار و الفواكه على «بسطة» أحد البقالين. وخلف صف من الفضوليين الواقعين، أخذ يبدو آنذاك، فضوليون آخرون، يقفون في عربات. وعند مفترق طرق، بدت بعض البزّات العسكرية مشكلة هيئة أركان، وفي وسطها جنرال، لا بد أنه «ليفنسكي» فأرسل «نيقولا» تنهيدة عميقة، وعاد فاستلقى بتثاقل. كانت لحيته الشقراء تبرز نحول ملامحه، وبريق نظراته.

فسألته «صوفيا»، وقد انتابها القلق.

- ماذا بك؟

- لا أدري... أشعر أني متعب جداً...

أتشعر بأي ألم؟

- كلا.

- فلمست جبينه، وجست نبضة، وإن كانت قد اطمأنت، فقد ظلت تراقبه بعين حذرة ومرتابة. ولم تلاحظ، وهي تولي ظهرها للعالم، أنّ القافلة قد غادرت المدينة، وتابعت طريقها عبر البراري الواسعة. وبعيداً، عند قمة مرتفع صغير، بدا «ليبارسكي» على صهوة جواده الأبيض، قبعته موارية، على رأسه، ويده على خصره، وأخذ يستعرض الجيش الصغير المتباين الألوان. الذي يسير ظالعاً كالأعرج، ، وكان الجنرال يفعل ذلك، بقدر كبير من الجدية، وكأنه يشهد استعراض الحرس الإمبراطوري في ساحة «آلة الحرب» «sbhoemh-de-mars» في باريس.

وأقيم المخيم على بعد مسافة تزيد قليلاً عن الكيلومتر، من هناك. فأتى بعد ذلك أيضاً، بعض سكان المدينة، بالعربات، لكي يروا «متمردي كانون الأول» وهم في استراحتهم، وكأنهم يأتون لزيارة معرض الوحوش الغريبة. فشبّك الخفراء حرباتهم أمام السيدات اللواتي يرتدين أجمل ملابسهن، والسادة ذوي القبعات المستديرات والياقات وربطات العنق المنشّاة، الذين أخذوا يدّعون أن لهم علاقات مع الحاكم، لكي يخرقوا النظام ويدخلوا إلى المخيم، ولكنهم دُفعوا، وأعيدوا نحو عرباتهم، فانصرفوا مستائين.

وبعد أن أصلح الجنرال هندامه قليلاً، عاد إلى «فريخني- أودنسك» لمقابلة بعض وجهائها. وعندما رجع من هناك، في المساء، كان في حالة نفسية ممتازة. وطوال الوقت الذي استغرقه تناول طعام العشاء في منزل الحاكم لم يسمع سوى الثناء والمديح على حسن تصرف وانضباط المساجين والحراس. حتى أن الجنرال «ليفنسكي» قال له إنه طوال حياته، لم يسبق له أن رأى سجناء على هذا القدر من الانضباط، ومن حسن المظهر، وأضاف أنّ هذا النجاح في إدارتهم وتنظيم أمورهم سوف يبلّغ، بطريقة ما، إلى القيصر.

و «ليبارسكي» الذي أوشك على التعرض لمشكلة خطيرة بسبب هروب «نيقولا»، أخذ يستعيد حبه للحياة وتعلقه بها.

وبالطبع كان من الأفضل عدم اطلاع السلطات العليا على ذلك الحدث.

فقد كان للجميع مصلحة بأن تتلقى العاصمة صورة زاهية ومثالية للرحلة التي قام بها المساجين من «تشيتا» إلى «بيتروفسك» وبدافع من الكرم والأريحية، جمع «ليبارسكي» المساجين، لكي يعلن لهم أنه مسرور منهم. وأنهم، مكافأة لهم على حسن سلوكهم، سيحصلون، اعتباراً من اليوم التالي، ومن جديد على الأذن بالتنزه، وبالسباحة، وبالنسبة للمتزوجين، الحق بمقابلة زوجاتهم، ولكن تحت مراقبة أحد الحراس. فصفق له الجميع، وشكرته «ماري فولكونسكي» باسم السيدات جميعهنّ. وبعد ذلك، مباشرة، ذهب إلى الخيمة التي كان يرتاح فيها «نيقولا» وتقيم فيها معه «صوفيا» للعناية به والسهر على صحته. وحاول «نيقولا» أن ينهض لكي يستقبل الجنرال، ولكنّ، هذا منعه من أن يفعل ذلك، وقال له:

- أيها المحترم، يا «نيقولا ميكايلوفيتش» إن تماثلك للشفاء الذي ألاحظ بسرور، أماراته الأولى، سوف يطرح، ذات يوم، المشكلة الحساسة المتعلقة بمعاقبتك على فعلتك. وكنت أنوي إعادة تقييدك بالسلاسل والأغلال، ووضعك في إحدى الزنزانات، حالما يصبح بإمكانك أن تتحمل ذلك.

ونظر بطرف عينه إلى «نيقولا» الذي ظلّ هادئاً وهو يسمع هذه الكلمات، ثم إلى «صوفيا» التي بدا في عينيها ما ينم عن قلق مفاجئ. ولاحظ «ليبارسكي» بسرور الاضطراب الذي انتابها، وقال، مخاطباً «نيقولا»:

- أعتقد أنك تعترف معي بكونك تستحق هذه العقوبة. فأجابه «نيقولا»:

- إني لا أنكر ذلك!

- أنا أرى أنّ العقوبة ليست بسبب ما حدث في الماضي بقدر ما هي إجراء احتياطي من أجل المستقبل. والحقيقة أنا لا أعرف الأسباب الحقيقية التي دفعتك إلى الهرب، ولكني أقدّر، إنك ربما ستحاول أن تكرر مغامرتك...

فتحولت نظرات «صوفيا» نحو «نيقولا»، معبرة عن التوتر الشديد والتوسل. فلم يلاحظ ذلك، أنه كان مستغرقاً في التفكير، وهو يجلس في سريره وقد أحنى رأسه، كان هزيلاً شاحب الوجه، كطالب فقير يتضوّر جوعاً. وأخيراً، رفع رأسه، وتتمم:

- أعتقد أني لن أكرّر ذلك.

كان «ليبارسكي» ينتظر هذه الجملة بفارغ الصبر.

فقال له:

- أيمكنك، كرجل شريف أن تعدني بذلك، بكلمة شرف؟

- إني أعدك بذلك.

فساد الصمت. وبدا «ليبارسكي» مبتهجاً كصيّاد، يحمل إلى الشاطئ سمكة كبيرة كان قد اصطادها، وقال:

- في هذا الحال، يمكنني إعادة النظر في موقفي حيالك.

وكان يفكر في سرّه: «بتجنّبي إيجاد ذيول لهذه القضية، فإني أقلل من إمكانية نقلها إلى القيصر».

فانفرج وجه «صوفيا» بينما ظلت ملامح «نيقولا» تعبر عن الارتباك والحيرة.

واستأنف «ليبارسكي» الكلام:

- عندما تشفى تماماً، ستعود لتقيم بين رفاقك ولتشاركهم في معيشتهم وفي مصيرهم.

فتمتم «نيقولا»:

- شكراً لك، يا صاحب السعادة.

فظلّ «ليبارسكي» برهة في وسط الخيمة، مسروراً بطيبة قلبه، ويشعر بمتعة كبيرة، كأنه في أرجوحة تهتز به. ثم خرج راضياً عن نفسه وقلبه يطفح بالتسامح، بالرقة والعذوبة وبإحساسه بالصداقة مع جميع الناس، وهو أسف، تقريباً لأنه لا يجد شخصاً آخر يصفح عنه، في ذلك اليوم.

بعد ذهابه، ألقى «نيقولا» على «صوفيا» نظرة غامضة، تنم عن التردد، فقالت:

- كم أنا مسرورة! كنت أخشى من أن يجعلك تتهي نقاهتك في إحدى زنزانات السجن!

فغمغم «نيقولا»:

- ربما كان ذلك أفضل.

- ولماذا؟

فلم يجب، واستلقى ثانية على سريره، فلم تجرؤ على أن تلح عليه بالأسئلة، وكأنها شعرت بأنها بعد أن توصلا إلى إقامة ذلك التوازن بينهما، يمكن للكلام الجاد والصريح أن يُفسد كل شيء.

★★★

بعد أن غادرت القافلة مدينة «فريخني- أودنسك»، اتجهت نحو الجنوب، على طريق متعرج، يتجه في السهل، صعوداً عبر تلال متلاصقة تكسوها الأشجار الحراجية. وفي السماء كانت تبدو بعض السحب الداكنة. ثم أخذ المطر ينهمر، بصورة رتيبة، هادئاً، ناعماً، ونفاذاً. فغمرت المنظر الطبيعي الأخضر الداكنة، ستارة من الخيوط المائية. وأخذت السواقي والجداول تخرج منبثقة من كل مكان ومن جميع الجهات، بشكل مفاجئ وبفوضى مرحة. وكان غطاء العربة يقي «نيقولا» و «صوفيا» من البلبل، وعندما تجتاز العربة أحد المنعطفات، كانا يريان، بعيداً أمامها المساجين الآخرين يسيرون في صف طويل، تبللهم هالة من الغبار الفضي، وقد جمعوا رؤوسهم

بين أكتافهم، بينما كانت أرجلهم تغوص في الوحل. وشعر «نيقولا» بالخجل لأنّ ملابسه ظلت جافة، بينما كان رفاقه قد ابتلت ثيابهم، وهو يسيرون تحت المطر. وثلاث مرات نزل من العربة ليلحق بهم، ولكنه كان يضطر للصعود ثانية إلى العربة، لعدم قدرته على المشي. وبناء على تدخل «صوفيا»، فقد لامه الدكتور «وولف» على محاولاته تلك، فوعده بألا يحاول ذلك من جديد. ولكنه ظلّ يتحمل على مضض رؤية رفاقه وقد ابتلت ملابسهم وهو يسيرون بعيداً، على الطريق. وكان الجنود قد لفوا القماش المشمع على بنادقهم، ووضعوا على قبعاتهم أغطية واقية. وفي صف المساجين الأول، كان يسير، كالعادة، «زفاليشين» القصير القامة، بملابسه السوداء، تحت مظلة يرفعها إلى الأعلى، وقد التصق به هيكلان نسائيان ضخمان، التفا بمعطفين ووشاحين، كان أحدهما هو الأمير «تروبيتزوكوّي» والآخر هو الأمير «فولكونسكي» وبعدهم كان يسير العملاق «اياكوبوفيتش» كأنه أحد ملوك المشرق تحت قبة سرادق، لم تكن سوى بطانية ركبت على أربعة قضبان.

وآخرون، ممن هم أقل حظاً، كانوا يحتمون من المطر، بأغطية الصناديق أو بأقمشة الأكياس. والأكثر جرأة وهمة كانوا يمشون حاسري الرؤوس، وقمصانهم ملتصقة بأجسادهم. وخلفهم، كانت العربات تجر نفسها، وعند كل ارتجاج تتمايل أغطيتها من اليمين إلى اليسار، على أطواقها المسترخية، فتبدو كتنانير نسائية ضخمة كثيرة الطيّات.

وقال «نيقولا»:

- إذا توقف المطر، فسأحاول مع ذلك أن أمشي قليلاً معهم.

فقالت له «صوفيا»

- كلا، إنّ حالتك لا تسمح لك، حتى الآن، بالمشي!

- وكيف أبدو وأنا في العربة، مع زوجتي، بينما جميع الرفاق...؟

وارتبك، ولم يكمل جملته، لأنه للمرة الأولى، منذ أسابيع عديدة، فيستخدم عبارة: «زوجتي» عندما يتحدث عن «صوفيا». وأدركت سبب ارتباكه، فانزعجت من ذلك، وتأثرت في آن واحد. فهذه الإشارة المباشرة، وتلك النظرة الحادة والبراقة، دفعا بها وأرجعاها إلى زمن الملذات الجسدية الزوجية، التي كانت تعتقد أنها قد نسيته.

وكان واضحاً أنّ «نيقولا» يخشى أن يزعجها ويرجعها تستاء منه، لدرجة أنه لم يجرؤ حتى على النظر إليها كرجل. كان يظل متباعداً، كأنما مشاعره وعواطفه، وفي غاية السعادة لأنها قبلت أن ترافقه بعد كل ما حدث بينهما.

وتوقفت القافلة في موقع معتم، رطب ومنخفض، كان بين رابيتين تغطيهما أشجار الصنوبر، وتزينهما بعض الشلالات الفضية اللون. وجلب أحد «البوريات» إلى الخيمة، كوباً من الدم، شربه «نيقولا» بقرف واشمئزاز، كالعادة، فعلقت بعض اللآلىء الحمراء بشعر شاربه الأشقر. فمسح فمه، ولمس خدّيه: الهرب والمرض- لم يكن قد خلق ذقنه منذ شهر، فتمتم:

- كان عليّ أن أحلق ذقني.

فقالت له «صوفيا»:

- ولماذا؟ فشكلك جيد، هكذا.

قالت هذا دون تفكير أو رويّة، واحمر وجهها فجأة:

هاتان العينان الخضراوان البراقتان، وهذه الذقن المغطاة بشذرات ذهبية ونحاسية- إنه يشبه فارساً مغامراً روسياً من فرسان القرون الوسطى. وهذا الشعر الطويل!... كان له الشعر الطويل نفسه، وهذه التسريحة نفسها، عندما رأته للمرة الأولى في باريس. وشعرت بأنها قد ارتبكت، كما لو كانت تقف أما رجل غريب، لا تعرفه، وتهرباً من هذا الموقف، انصرفت

إلى الاهتمام ببعض الأعمال المنزلية اليومية، ففتحت الحقائب ورتبت الملابس، وأسرعت إلى حيث يطبخ الطعام، لكي تجلب وجبة الغداء.

تناول «نيقولا» طعامه بنهم يثير الشفقة. وعندما زاره الدكتور «وولف» فيما بعد، صرح بأنه راضٍ عن حالته الصحية. كان المطر لا يزال ينهمر. وقماش الخيمة السميك والملبّد يرتعش تحت عصفات الرياح والمطر. وخيم الظلام بسرعة. فهيأت «صوفيا» السريرين. كان بينهما ستارة تفصلها في الليل عن «نيقولا» وناولته أدويته، ساعدته على الاستلقاء في سريره، وانسحبت إلى ركنها، لكي تخلع ملابسها، هي أيضا. ودوى جرس منع التجول، عندما كانت تأوي إلى سريرها وتندس تحت أغطيتها. والآن وقد زال الخطر عن «نيقولا» فهي لن تخشى أن تستيقظ مذعورة على صوت أنينه وتوجعه وشكواه، كما كان يحصل لها في كثير من الأحيان في بداية مرضه. وتمنيا لبعضهما، عن بعد، ليلة سعيدة، عبر الظلام الذي يكتنف الخيمة. وسمعته «صوفيا» يتنفس بعمق، مع ذلك الشخير الخفيف، الذي كانت قد اعتادت عليه وتعرفه جيداً. وأثناء ذلك، لم تستطع أن تنام. كانت تصغي لانهمار المطر، وللصوت الذي يرسله العمود الذي يحمل سقف الخيمة، وعيناها مفتوحتان، تحملق بهما عبر الظلام الدامس. وكانت هذه الأصوات الليلية تثير خيالها وتلهبه، فتقول في سرها إنّ «نيقولا» قد تعافى واستردّ قواه، وأخذ يعود ليصبح رجلاً سوياً وطبيعياً، وإنه، من لحظة إلى أخرى، يمكنه أن ينهض ويأتي إليها ليضمها بين ذراعيه، فهل سيكون عليها، عند ذلك أن تدفعه وتنبذه من جديد؟ إنها لم تعد تعرف ماذا ترغب، ولا ماذا تخشى.

عند الفجر، وعندما قرعت طبول الاستيقاظ، نهضت على الفور، واقفة على قدميها. أما هو، فلم يتحرك، كان لا يزال يغطّ في نومه، فاستطاعت أن تغسل وجهها بماء السطل الذي كان هناك وأن تسرّح شعرها وترتدي

ملابسها، خلف ستارتها، دون أي انزعاج. وقد أثارتها ونشّطت حيويتها بهجة يصعب تفسيرها.

ونظرت إلى وجهها في المرآة، فلاحظت عليه مسحة من النضارة، على الرغم من الليلة السيئة التي أمضتها وعانت فيها من الأرق المزعج. وبعد أن فكرت قليلاً، أسدلت شعرها، وعملت منه جديلة دفعتها إلى وراء رأسها، وأنزلتها على مؤخرة عنقها، مثلما رأت ذلك في إحدى صحف الأزياء. وعندما لاحظت أنّ المطر قد توقف، غيرت فستانها الرمادي الذي ترتديه كل يوم، وارتدت بدلاً منه فستاناً «أحمر نارياً» ووضعت على كتفيها وشاحاً من «الموسلّين» الرقيق والشفاف، وبدا لها أنها بهذا الهندام الجديد، أخذ جسمها يتنفس بمزيد من الارتياح، وأنّ حركاتها أصبحت أكثر مرونة مما كانت عليه في السابق. واقتربت من «نيقولا» بهدوء، وهي تمشي على رؤوس أصابعها، كان قد استيقظ لتوّه، وبدا شعره مشعثاً، وهو يبتسم عن أسنانه البيضاء، عبر شعيرات لحيته، الذهبية اللون.

فقال لها، على استحياء:

- لكم أنت جميلة!

فتظاهرت بأنها لم تسمعه، وطلبت منه أن يسرع بإصلاح زينته وأن يتناول أدويته؛ ويرتدي ملابسه، وبعد ذلك عليه أن يبقى مستلقياً على سريره، حسب تعليمات الطبيب.

فالقافلة لن تستأنف السفر إلا عند الساعة الثانية بعد الظهر، وذلك لإتاحة الوقت لصانعي العربات بإصلاح بعض العربات المعطّلة والتي أصيبت ببعض الأضرار، أثناء سيرها. وجلب أحد «البوريات» الذين يعملون في المخيم، الماء الحارّ من أجل الشاي وثلاث قطع من الخبز لكل شخص. ففتحت «صوفيا» وعاءً يحتوي على المربى. وأخذت تضع منه على قطع الخبز، وتتأمل «نيقولا»، بسرور، وهو يلتهمها بشهية كبيرة، وكانا قد

انتهيا من تناول فطورهما، عندما أتت «أليكسندرين مورافييف» لتطمئن على المريض ولتسأل عن أخباره. وكانت «صوفيا» تدرك أنّ هذه المرأة الذكية، الطيبة القلب والرصينة، هي حليفتها الوحيدة.

ولم يمض على وصولها عشر دقائق، حتى وصل أيضاً الدكتور «وولف» وكأنما حدث ذلك بمحض المصادفة، وبدا أكثر حيوية، وأشدّ رغبة في التحدث، من المعتاد. وبعد كل عبارة يقولها، كان ينظر إلى «أليكسندرين»، ليطلب موافقتها على ما قاله، وكانت صداقتهما تشبه الحب، ومع ذلك فلم يكن هنالك ما يمكن أن يلاما عليه! وانصرفا سوية، فأخذت «صوفيا» تنظر إليهما من مدخل الخيمة: كانت المرآة الشابة تستند على ذراع الطبيب، وهما يسيران عبر الحشائش والأعشاب الطويلة، وقد غمرتهما أشعة الشمس، والبخار يتصاعد حولهما من الأرض التي بللها المطر.

فشعرت «صوفيا» بتوق وبأمنيات غامضة تغمر قلبها: كانت هي أيضاً متعطشة للعيش وللتمتع بالحياة.

وبعد ذلك بقليل رأت مجموعة من السجناء، جميعهم، من أصدقاء «نيقولا» وقد أتوا لزيارته، مغتنمين فرصة رفع الحظر الذي كان «ليبارسكي» قد فرضه على تحركاتهم، فاستقبلتهم «صوفيا» بشيء من الضيق والانزعاج، ولكنهم كانوا على قدر كبير من الكياسة، والمجاملة، بحيث إنهم لم يبدوا لها استياءً أو عداء. فجلست في الخارج، عند مدخل الخيمة، وفي يدها كتاب. وكانت تسمع، وراء ظهرها، في داخل الخيمة، الضحكات الصاخبة تختلط مع الأصوات الرجالية القوية، كان بعضهم يروي للبعض الآخر الأحداث الطارئة التي حصلت أثناء مسيرة القافلة. وكان مرحهم سريع العدوى، ينتقل بسهولة، بحيث إنّ «صوفيا» أخذت تبتسم في الفراغ، دون أن تعرف سبباً لذلك، وهي تحدق في صفحة من الكتاب، ناسيت أن تقرأ ما كتب فيها.

قُدم طعام الغداء في وقت مبكر أكثر من المعتاد، واستأنفت القافلة السير لتقطع مسافة قصيرة لا تتعدى العشرة كيلومترات، حيث تصل إلى قرية «ترياغاتيّ». وهناك تقيم جماعة من الـ «Stocroiemy» أو «المؤمنين القدامى» الذين، يقال أنّ أجدادهم نفتهم إلى سيبيريا القيصرتان: «آنّ ايونوفنا» و «كاترين الكبرى». وكان «نيقولا» وهو مستلق في العربة التي تسير وهي ترسل القرقعة والصرير، يشرح لـ «صوفيا» أنّ الناس الذين سيرونهم في تلك القرية، لا يشكلون بالمعنى الحقيقي للكلمة طائفة مستقلة ومتعصّبة، بل جماعة من المنشقين.

فهم يرفضون الخضوع لإصلاح الكتب المقدسة، الذي أمر به البطريك «نيكون» في القرن السابع عشر. وبالنسبة لهم، فحتى الأخطاء التي تكتشف في نسخ تلك النصوص، تُعَدّ مقدسة، لأن إيمان أجدادهم يستند عليها. وبعد أن حرموا، ونبذوا من الجماعة، وطاردهم الجيش أبعدوا، ولكنّ كل ذلك لم يمنعهم من أن يتكاثروا وينتشروا في تلك المنطقة كلها. وسرّت «صوفيا» من الحيوية التي كان «نيقولا» يروي بها تلك الأحداث. فقد ذكرتها بلهجة أحاديثهما السابقة.

وقد ظلاّ يتحدثان هكذا أثناء نصف الوقت الذي استغرقته تلك المرحلة. وتوقفت القافلة عند أحد الأنهار. ليس عليه جسر، وينبغي عبوره من إحدى المخاضات. فعبره المشاة والخيالة، والعربات الأولى، دون صعوبة تذكر. ولكنّ الطنابر التي تحمل الأمتعة الثقيلة، غاصت عجلاتها في الوحول. ونزل «نيقولا» و «صوفيا» من عربتهما وانضمّا إلى المساجين المتجمعين على ضفة النهر. وفي وسط التيار بدت العربة الضخمة التي تحمل البيانو، وجميع أدوات المساجين الموسيقية مائلة، وهي تكاد تنقلب، والرياح تعصف بغطائها، وخلفها مقطورة تحتوي على جانب مما تحتويه مكتبة السجن من المكتب، كانت أيضاً في وضع حرج ودقيق. وكان بعض المساجين العاديين

السابقين وعدد من أفراد قبيلة «البوريات» يغوصون في الماء حتى أفخاذهم حول العربتين المعرضتين لخطر الانجراف مع مياه النهر، بينما كان هواة الموسيقا يشكون ويصيحون وهم يقفون على ضفة النهر:

- إنهم لا يجيدون القيام بهذا العمل، وسيتركون مياه النهر تجرف العربتين!...

- ولن نستطيع أن نجد «بيانو» آخر، أبداً؟

وصاح «مورافييفّ»!

- والكتب! الكتب أيها السادة!... هل فكرتم بها؟...

وماذا سنفعل من دون كتب؟...

وكان «ليبارسكي» يسير في كل الاتجاهات، داعياً أولئك المثقفين المضطربين جميعهم إلى التزام الهدوء، وعلى الرغم من مطالبته لهم بعدم التدخل والبقاء بعيداً عن النهر، فقد نزل بعضهم إلى الماء.

فصاح بهم الجنرال:

- لا تنزلوا إلى النهر! ففيه دوّارات وأماكن خطرة!...

فلم يصغوا له، وبعد قليل، أصبح أكثر المساجين يحيطون بالعربتين الغائصتين في المياه الموحلة. وكان «نيقولا» يتميز غيظاً لكونه له يستطيع مساعدة رفاقه، بينما ظلت «صوفيا» تمسك بذراعه. وهناك، في النهر، كانت أحصنة العربتين تشدّ بكل قوتها، والرجال وقد أحنوا ظهورهم يدفعونهما بكل ما أوتوا من قوة، ومع كل اهتزازة تحدث في صندوق العربة، تتحرك حبال «البيانو» وترسل بعض الأنغام، وتسمع بعض الأصوات وهي تتصاعد من الآلات الموسيقية الأخرى كالصنّاجات والقيثارات، حتى يخيل لمن يسمعها أنّ هنالك جوقة موسيقية صغيرة محتجزة داخل صندوق العربة، قد أخذت تحتج على المجازفة بها وتعريضها للغرق. وأخيراً، وعبر الصياح القوي والمتنافر، المعبر عن الفوز، اقتلعت العجلات من الوحول،

وانطلقت العربتان نحو الضفة، فتعالت صيحات البهجة والفرح، تحيةً لهذا الإنجاز المهم، فقد أنقذت الآلات الموسيقية، وكذلك الكتب، وإن كان بعضها، أي التي كانت في الأسفل، قد تبللت، ولكنها ستجف بسرعة، عندما تتعرض لأشعة الشمس.

واستأنف المساجين السير، بخطوات ثابتة.

وأخذت الجبال الموحشة تنخفض وتختفي، وغابت عن الأنظار صخورها العالية وغاباتها المظلمة، وبعد أحد المنعطفات امتدت سهول منبسطة، لينة غنية، سهلة العبور، تكثر فيها الحقول المستطيلة الأشكال، المتعددة الألوان: ففيها ما هو أصفر وأخضر وأسمر، وفيها بعض الأشجار، ترتاح في ظلها الحيوانات، وهناك أيضاً قرية حديثة البناء، جديدة تماماً، ونظيفة جداً، بيوتها واسعة ومتباعدة، بحيث يخيل لمن يراها، إنه ليس وإياها في سيبيريا، بل في جهة مّا، بالقرب من موسكو، أو من «ايا روسلافل».

كان ذلك يوم أحد. فأتى السكان، بملابس العيد، لمشاهدة القافلة: وبدا الرجال طويلي القامة، متيني البنية، طويلي اللحى، يرتدون الجلابيب الزرقاء، ويتزينون بأحزمة حمراء، وكانت النساء بدينات وموّردات الوجنات، وقد ارتدين الفساتين الحريرية، والمعاطف ذات الياقات المصنوعة من فرو «السمّور»، الفاخر، واعتمرن «الشعرية» أي الإكليل الوطني المزين بالذهب، وهو باللآلئ الزجاجية. وقدّم أحد الرجال المتقدمين بالسن، إلى «ليبارسكي» على صينية من خشب، خبزاً وملحاً، كرمز للضيافة وحسن الاستقبال.

وأقيم المخيم في أحد المروج العائدة للقرية. وكانت «صوفيا» منهمكة في ترتيب حوائجها في خيمة التمريض، عندما دخل الجنرال، بشكل مفاجئ، وهو يدمدم متذمراً، وقبعته تحت إبطه، وأبلغها، إنه بناء على التقرير الطبي الأخير، فإن صحة المريض لم تعد تستدعي أن تسهر عليه، في الليل، وأضاف قائلاً:

- ولذلك، عليك أن تعودي لتتامي مع بقية زوجات المساجين.

فظلت «صوفيا» لبعض الوقت، حائرة ذاهلة. فقد أحدث لديها الطابع الفجائي للتغيير انطباعاً بالإحباط وخيبة الأمل. وأخذت تفكر بالطريقة التي ستستقبلها بها أولئك النسوة اللواتي يتّصفن بالشراسة والعجرفة.

وسألته:

- وفي النهار، هل أستطيع أن أرى زوجي؟

فأجابها «ليبارسكي».

- بالتأكيد، تستطيعين مرافقته في النهار، والعناية به، ولن تتركيه إلا عند انطفاء الأضواء.

فلا بد أنّ الجنرال قد رضخ لضغوط أولئك الزوجات، الكثيرات المطالب. وبعد أن انصرف، اقتربت من «نيقولا»، فرأت في وجهه عيني طفل حزين. فأعادت لها البهجة هيئته التي كانت تنم عن الذهول والعجز عن الوفاء، والتعبير عن الامتنان.

وقالت له:

- ذلك صحيح، فأنت، تقريباً، لم تعد بحاجة لي!...

فلم يردّ بشيء، ولكنه ازداد تجهماً، وسرت بمشاكسته هكذا، حتى لحظة الفراق، وعندما كانت تهمّ بالانصراف، وتتركه لوحده، شعرت بانقباض شديد في صدرها، لدرجة أنها لم تعد لديها رغبة ولا قدرة على الابتسام. وظلا، خلال فترة طويلة، واقفين، أحدهما مقابل الآخر، صامتين، عينا كل منهما تحدّق في عيني الآخر. ولأنّ نظرة «نيقولا» أخذت تزداد حدّة، فقد استدارت «صوفيا» وانصرفت.

كان أحد رجال «البوريات» قد نقل أمتعتها، وعندما وصلت إلى أمام خيمتها السابقة، وجدت جميع النساء جالسات أمام مدخلها، للاستمتاع بالأحاديث الودية المعتادة. ولم تطمئن لما أبدينه من هدوء وسكينة عند

وصولها، وتقدمت متيقظة الذهن، ومستعدة للرد عند أول نقد لاذع يصدر من أحداهن. ولكن لم يحصل شيء من ذلك. فلا بد من أن تكون «أليكسندرين مورافييفا» قد نصحتهن وأقنعتهن بالإقلاع عن التهجم عليها، لأنهنّ قد أبدين روح المصالحة وأخذن يتودّدن إليها، بحيث إنها أخذت تتساءل فيما إذا كانت قد كفّرت عن خطيئتها واستردت سمعتها لديهن، بفضل العناية التي قدمتها لـ «نيقولا». وذهبت «كاترين تروبيتزوكوي» إلى حد سؤالها عن صحة «مريضها» ثم أخذن يتحدثن عن الإقامة في «بيتروفسك» في المستقبل القريب، التي كانت تطرح بعض المشكلات على أكثرية الزوجات. فاللواتي منهن لم يبنين بيوتاً كن يفكرن باستئجار بعض الغرف، التي يمكن أن تكون قريبة من السجن.

كانت «صوفيا» أشد اضطراباً بسبب بعض المشاعر التي تضايقها، من أن تستطيع أن تتخذ قراراً في هذا الموضوع. وللمرة الأولى في حياتها كانت تفضل ألا تتوقع أي شيء وألا تخطط أو تفكر بالمستقبل، وأن تترك الأحداث والظروف تملي عليها سلوكها وتصرفاتها. وجرى الحديث أيضاً عن قرب وصول البارونة «روزين» والسيدة «ريوشننفسكي» والآنسة «كاميليا لودانتو» خطيبة «ايفاشيف». وهما من حيث المبدأ، امرأتان «صالحتان جداً» لأنهما قبلتا، هما أيضاً، التخلي عن كل شيء، واللحاق «بمن يحبه قلباهما» إلى سيبيريا. ولكن، بالطبع، لكل قاعدة استثناءات وشواذ. وأبدت «أليزابيت ناريشكين» هذه الملاحظة، وهي تنظر إلى صوفيا». وكانت الوخزة طائشة ورعناء، لدرجة أن «صوفيا» أنفت من الردّ عليها. ولم تحصل أي إشارة، أو تلميح آخر، حتى حلول الظلام.

ودفع ظهور النجوم السيدات للتحليق في عالم الخيال والأوهام، فلزمن الصمت ولم يعدن يتكلمن، بل أخذن يتنهدن، وانطلقن، كل منهن، من جهتها، في أحلام وتخيلات، لم تعد تتناسب مع أعمارهن. كان الأولاد

والرجال قد ناموا، منذ فترة طويلة، ونيران المخيم أخذت تخمد، بين الخيام المدببة، والخفراء أخذوا ينادون بعضهم عن بعد. وعلى أطراف الغابة أخذت بعض الحيوانات ترسل أصوتها. وأخيراً نهضت «ماري فولكونسكي» وذهبت إلى خيمتها، فتبعتها بقية السيدات. كنّ يبدلن ملابسهن في الظلام، تلمّسا، وكانت الخيام تهتز وتتحرك، عندما يدفع قماش مرفق أو ركبة. وتأخرت «صوفيا» في الذهاب، ولم تغادر مكانها إلا بعد أن ذهبت زميلاتها جميعهن.

وأخذت، وهي مستلقية بين «ناتاليا فونفيزين» و «أليزابيت ناريشكين» تفكر بـ «نيقولا»، الذي ظل لوحده، في خيمته، وقد تمدد عند مدخلها، من الخارج أحد «البوريات» ليخدمه ويقدم له ما قد يحتاجه. وكانت تحاول ألا تبدي نحوه سوى اهتمام معقول، ولكنها، في كل لحظة أخذت تفاجئها دفقة من المحبة والعطف وتختلط بهمهّا واهتمامها كممرضة.

ومنذ الفجر، ارتدت ملابسها، وأصلحت زينتها بسرعة، وذهبت مسرعة إلى قرب سرير وزجها. رائع، مدهش!

فهو هناك، على سريره، سليم معافى، وقد سرّ كثيراً لرؤيتها. وعلى الفور، أبدت بعض التحفظ. فالأمر أقوى منها ويفوق قدرتها: ففي كل مرة يقوم بها بخطوة إلى الأمام، تقوم هي بخطوة إلى الوراء. وتناولا طعام الفطور سوية، ولآنّ ذلك اليوم كان يقوم استراحة، فقد خرجا للسير والتنزه في المخيم. وكانت «صوفيا» مزهوة بأن تبدو مع «نيقولا» أمام كل أولئك الرجال والنساء، الذين اغتابوها وحاولوا أن يسيئوا إليها.

كان عمدة «تارباغاتيي» قد دعا المساجين لزيارة قريته، ولم يرفض «ليبارسكي» دعوته. فكانوا كجماعة من محبي الاطلاع الذين يسافرون للتسلية وللترفيه عن أنفسهم عندما ساروا في الشارع الرئيسي. وكانت الزوجات يستندن على أذرعة أزواجهن. ورافقهم كدليل، فلاح قوي البنية

في الأربعين من العمر. وستة جنود، للمحافظة على شكليات النظام. وبدت لهم المساكن، الـ «إيسبات» كبيرة ونظيفة، لنوافذها درفات زجاجية مزدوجة، وأسطحتها من القرميد الأسود «الأردواز». وأدراج مداخلها مغطاة ومزينة بالخشب المقطع والملون. وفي الداخل غرف حقيقية، أرضيتها الخشبية مصقولة ومدهونة، ومفروشة بقطع الأثاث الخشبية الجميلة. وفي كل غرفة مدفأة هولندية ملبسة بالخزف الصيني. ومرآبها يحتوي على عربات جاهزة ومعتنى بها جيداً. وفي إسطبلاتها كثير من الخيول القوية، العريضة الأكفال، والنظيفة الأجسام، والمستودعات ملأى بالعلف...

ولكن على الرغم من هذه البحبوحة، وتوفر كل الحاجيات، فلم يكن هناك كنيسة، بل «مصلى» صغير من الخشب أقيم في أحد أطراف القرية، وبدا مظهره المتواضع متناقضاً مع ضخامة واتساع بيوت القرويين. وشرح للزائرين الفلاح الذي كان يرافقهم بأنّ «المؤمنين القدامى» لم يكن لديهم كاهن، وأنهم يصلون، ويقيمون شعائرهم الدينية حسب ما جاء في «الكتب» السابقة لإصلاح «نيكون»[1] يقدسون أيقونات قديمة جداً، ويختارون من بينهم قارئاً للنصوص والكتب المقدسة، وخادماً للمصلى. وحسب قواعد وقوانين هذه «الأخوية»، ليس لأحد الحق، تحت طائلة ارتكاب الخطيئة، أن يحلق ذقنه، أن يرسم إشارة الصليب بثلاثة أصابع، ولا أن يدخن، أو يتناول الخمر أو الشاي، أو «الأدوية الكيميائية» ولا أن يلقح ضد الجدري... فالتقوى، والزهد والاعتدال في المأكل والمشرب، واحترام العمل، وحسّ التوفير والاقتصاد، كل هذا، سمح لهؤلاء الرجال، ولهؤلاء النسوة، الذين ظلوا مضطهدين، زمناً طويلاً، أن يكدسوا ثروات

١- «نيكيتا مينوف» الملقب بـ «نيكون» (١٦٠٥- ١٦٨١) بطريرك موسكو (١٦٥٢) من انصار عودة الأرثوذكسية الروسية الى مصادرها اليونانية تبني إصلاحات أحدثت حركة انشقاق (المؤمنون القدامى): (reckon). عزل من منصبه، سنة ١٦٦٧- المترجم

طائلة، وقد جمعوا هذه الثروات واغتنوا عن طريق بيعهم للصينيين القمح والحبوب الأخرى وجلود الحيوانات.

وسأله «نيقولا»:

- وهل جميع القرى، في هذه المنطقة، مزدهرة وغنية بهذا الشكل؟

فأجابه الدليل، بفخر واعتزاز:

- جميع قرى «المؤمنين القدامى»، نعم!

- ولماذا قرى الجماعات الأخرى ليست مزدهرة مثلها؟

- ذلك لأنّ أفراد الجماعات الأخرى لا يستيقظون مع شروق الشمس ليذهبوا إلى العمل، لأن تعاطي مشروب «الكواس» «le kwoass» المسكر يثقل رؤوسهم. ولأنهم يدخنون لتمضية الوقت، ولأنهم لا يعرفون أن يضعوا جانباً «كوبيكاً» واحداً، يدخرونه لحين الحاجة إليه...

- وكم يبلغ عدد «المؤمنون القدامى» هنا؟

- لا أدري... ربما يبلغ عددهم عشرة آلاف... وربما عشرين ألف... وعلى مسافة ستين كيلو متراً، على وجه التقريب، وفي جميع الاتجاهات، تجد جماعات منهم، في كل مكان!...

وعندما انتهت جولتهم في القرية، دعاهم بعض سكانها، لكي يأتوا ويتناولوا عندهم، إن لم يكن الشاي- وهو مشروب شيطاني- «فالسبيتن» «le sleitem» على الأقل وهو شراب مغلي، أساسه العسل، وهو لا يمكن أن يغضب الله. وتوزع المساجين إلى ست مجموعات، وكل مجموعة رافقها أحد الجنود.

واستقبل «نيقولا» و «صوفيا» عجوز في الثمانين من العمر، يدعى: «تشابونين»، وكان يحيط به أبناؤه، وأحفاده وأبناء أحفاده، الذين كان أصغرهم في السابعة عشرة من العمر.

وكان بينهم خمسة وعشرون قد طالت لحاهم، وبدت التجاعيد على وجوه البعض منهم، وتقوست ظهورهم، ودبّ الشيب في شعرهم، وآخرون

موردو الخدود، النضارة بادية على وجوهم، والزغب الحريري بادٍ على ذقونهم. وجميعهم، تدل ملامح الجبهة المنخفضة والأنف الأفطس، على أنهم ينتمون لأسرة واحدة. لم يكن هنالك نساء حول المائدة، فيما عدا السيدات المدعوات. وفتيات المنزل، البدينات، اللواتي تزين بالشرائط والحلي، أخذن يقدمن شراب «السبيتين» «le sluiten» بأقداح قواعدها مفضضة، دون أن يرفعن نظرهن نحو المدعوين. ولكنّ الجميع لم يشربوا، وانتظروا أن يأتي رئيس تلك «العشيرة» وعندما بدا أخيراً، وقف الجميع. كان قد بلغ العاشرة بعد المئة من عمره، وجهه نحيل مجعد، لحيته بيضاء، ويمشي دون أن يتوكأ على عصا فانحنى ابنه، وهو في الثمانين من العمر، بكل احترام أمامه، واصطحبه إلى مكان الرئاسة. فبارك الشيخ الحاضرين بيده النحيلة، وجلس ثم رفع كأسه، واقترح أن يشرب الحاضرون نخب أولئك الذين يعانون من الآلام. وبعد ذلك، سأله أحدهم فيما إذا كان يتذكر يوم وصوله إلى «تاربا غايتي».

فأجابه بصوت، بالكاد بدا متهدّجاً بعض الشيء:

- وكيف لا أتذكره، كنت في الثالثة عشرة من عمري، عندما نفت أهلي الإمبراطورية «آن ايونوفنا» سنة ١٧٣٣.

كانت عدة قرى بكاملها، في منطقتنا قد رفضت الخضوع لطقوس وشعائر «نيكون» الجديدة. وهكذا، كان علينا أن نتخلى عن كل شيء، ونرحل بالعربات، سيراً على الأقدام، إلى سيبيريا. وأمضينا شهوراً وشهوراً في تلك المسيرة. وفي «فريخني- أودنسك» قال لنا مفوض الحكومة إنه يجب علينا أن نقيم على ضفة نهر «تاباغتي» وأننا سنعفى من الضرائب والرسوم لمدة أربع سنوات وهكذا، فقد أتينا إلى هنا، وكانت المنطقة أشبه بالصحراء القاحلة، فبنينا بيوتنا، واستصلحنا أراضينا ونمينا عائلاتنا، وعشنا كما كان يريد الله. وقد كافأنا الله. مثلما يكافئ كل من يجدّ

ويشتغل. وفي فترة بداية عملنا في الوادي، كانت أجرة العامل، اليومية، خمسة «كوبيكات»...

وتحدث خلال فترة طويلة من الوقت، دون أن يخطئ أبداً في التواريخ أو الأرقام. وفجأة، بدا عليه التعب، فأغمض عينيه، وأخذ فكّه الأسفل يرتجف. فاقتاده ابنه إلى غرفته.

وعندما أصبحا في الشارع، قال «نيقولا» لـ «صوفيا»:

- أليس ذا مغزى، هذا اللقاء، فيما وراء بحيرة «بايكال» بين جميع الغرقى، من ضحايا الإيمان؟ بين أولئك الذين عملوا في سبيل مثل أعلى ديني. وفي الحالة الأولى كما في الثانية. الأمر يتعلق برجال مؤمنين وشجعان. وقد أدّى بي الأمر، أخيراً، إلى الاعتقاد بأن القيصر بإصداره أحكاماً ظالمة، إنما يخدم سيبيريا بشكل أفضل، وإنه بفرضه البؤس والتعاسة، في الوقت الحاضر على بعض الأفراد إنما يهيئ الازدهار لمنطقة واسعة، بكاملها، في المستقبل. وأنه في كل مرة يبدو مخطئاً في نظر أبناء وطنه، فهو سيبدو رابحاً في نظر الأجيال المقبلة. فهل يمكن أن تكون عظمة أي دولة لا تتفق وتتلازم مع سعادة رعاياها؟

ألا يمكن إيجاد أمة قوية إلا بواسطة الظلم والعبودية والاضطهاد؟ وهل ينبغي لنا أن ننتمي، من أجل قدر روسيا التاريخي، أن ينفى إلى الصحارى الآلاف والآلاف، من أمثالنا؟ هذا أمر فظيع ومخيف، يا «صوفيا»!...

وبدا منفعلاً ومتهيّجاً جداً، لدرجة أنها شعرت بالخوف: فلا بدّ أنّ خروجه لأول مرة، قد أتعبه، وربما يكون قد أصيب بنوبة حمى؟ وأخذ الجنود ينظمون صفوف المساجين لإعادتهم إلى المخيم. وسار الجميع. فأمسكت «صوفيا» بيد «نيقولا»، كان قد هدأ، وأخذت تراقبه خلسة وبكل انتباه، وهي قلقة وسعيدة في آن معاً.

٦

جلس «ليبارسكي» على العشب الأخضر، عند جذع سنديانة ضخمة، ودعا جميع السيدات ليتخذن أماكنهن حوله.

جلس بتراخٍ، وهنّ يطوين فساتينهن الفضفاضة. فخلبت لبّه تلك اللوحة التي شكلتها تلك الوجوه النضرة والجميلة، المتجهة نحوه، بشيء من الفضول، لدرجة أنه نسي، في تلك اللحظة، ما كان عليه أن يقول لهن، ثم تمالك نفسه، وقال بلهجة رسمية:

- كما تعلمن، أيتها السيدات، فقد اقتربنا من نهاية رحلتنا. وبتقديري، وبناءً على الحسابات التي قمت بها، فإننا سنصل إلى «بيتروفسك» بعد عشرة أيام. ويجب عليّ، أن أتخذ، منذ الآن، بعض الإجراءات المتعلقة بموضوع الإقامة في السجن، فمن هنّ، من بينكن، اللواتي يرغبن بالإقامة في زنزانات أزواجهن؟ سأذكر الأسماء، وتكفي الإجابة بنعم أو بلا.

وتناول جدولاً من جيبه، وبدأ:

- الأميرة «فولكونسكي»؟

- نعم.

- الأميرة «تروبيتزوكوّي»؟

- نعم.

- السيدة «مورافييف»؟

- نعم. ولكن، يا صاحب السعادة، هذا لا يمنع من أن يكون لنا منزل، بالقرب من السجن، يقيم فيه أولادنا، ونستطيع نحن أيضاً أن نذهب إليه، عندما نرغب بذلك؟

- بالتأكيد! فالنظام حاسم وصريح بشأن هذه المسألة.

- السيدة «أناكلوف»؟

- نعم.

كانت النساء تعلن الموافقة، ولكنّ بعضهن يلفظن كلمة «نعم» على استحياء، بينما كان يلفظها البعض الآخر، بزهو وافتخار.

وكانت «صوفيا» تنتظر دورها.

- السيدة «أوزاريف»؟

فانصبت جميع النظرات عليها، كما تغرز الدبابيس في المدبّبة فشعرت بقلبها يخفق بقوة، وقالت بحزم:

- نعم!

فوجّه لها «ليبارسكي» تحية عبر ابتسامة خفيفة، جعلتها تحمرّ، خجلاً، كان اسمها الأخير في الجدول. ولم يكن هنالك «كلا» واحدة.

فقال «ليبارسكي»:

- حسن، كانت تساورني بعض الشكوك حول هذا الموضوع الآن، بقيت مسألة يجب تسويتها والبت بها: فالبعض منكنّ لديهن منازل في «بيتروفسك» يجب عليهن فرشها وتجهيزها، والبقية، لا بدّ أنهن يردن، على الأقل، وضع بعض الحوائج واللوازم في الزنزانات التي سيقمن فيها مع أزواجهن.

لذلك، يجب أن تذهبن بسرعة مع عربات الأمتعة والأثاث، وتسبقن القافلة. وسيرافق عرباتكن بعض الخيالة، من جنود القوزاق. وسينظم الحركة ويقودها الملازم «فاتروشكين».

وسـرّت الـسيدات كـثيراً بهـذا الاقـتراح، فجمـيعهن: الأمـيرات أو بنـات الشعب العاديات، بدا بريق السرور في أعينهنّ لفكرة ترتيب عائلي والإقامة فيه، وبفيض من العواطف أخذن يشكرن «ليبارسـكي». و «صوفيا»، الـتي كانت أقل حماسة منهن، اقتدت بهن، لكي لا تبدو شاذة، وفردية في تصرّفها. كانت تفكر بالحزن الذي سيسببه لها ولـ «نيقولا»، هذا الفراق الذي سيحصل قريباً: «بالنسبة لهنّ عشرة أيام ليست شيئاً يذكر، ولكن، بالنسبة لي، أنا!... وفاجأتها هذه الفكرة، وكأنها عودة لأيام الفتوة والشباب. وبدا «ليبارسكي» مبتهجاً ومنفتحاً، وسط حلقة من النساء الجميلات. وأمسكت «ماري فولكونسكي» بأحد ذراعيه، وأمسكت «كاترين تروبيتزوكوّي» بذراعه الآخر، الأولى كانت طويلة ونحيفة، والثانية قصيرة وبدينة، فبدا وهو محصور بينهما «كسماور» بين باقتين من الزهور. وعادت السيدات إلى وسط المخيم، لإبلاغ الجنرال أزواجهن، ولأنّ هؤلاء ليس لديهم أي معرفة أو اهتمام بأمور تنظيم وتجهيز المنازل العائلية، فقد كانت فرحتهم بهذا الخبر أقل من فرحة زوجاتهم، حتى أنّ بعضهم أخذوا يتساءلون فيما إذا كان ذهابهن بسرعة، وقبل الجميع، ضرورياً ومفيداً. فأسكتهم زوجاتهم بحجج وأدلة لا جدوى منها. وبينما كانوا يتناقشون، جذب «نيقولا» زوجته إلى وراء الخيمة، وسألها، والاضطراب بادٍ على وجهه:

- وأنت؟ أتذهبين أيضاً؟

فأجابته:

- بلى، إني ذاهبة.

- ولماذا؟

- لكي أرتب زنزانتنا.

- أنت إذن ستقيمين معي؟

فحاولت جاهده أن تبدو طبيعية ، وأجابته بلهجة تنم عن عدم الاهتمام:

- بالتأكيد!

- أوه! يا «صوفيا»!

وأمسك يديها الاثنتين، وغطاهما بالقبل، فتركته يفعل ذلك وهي تشعر بضيق في صدرها ، وعيناها مغرورقتان بالدموع.

وفي اللحظة التالية، أيقظتها من غفلتها ، أصوات قوية ، وفجأة وجدت نفسها محاطة بالنساء فابتعد «نيقولا» عنها آسفاً. وأمضت برهة حتى فهمت ماذا كانت «أليكسندرين مورافييفّ» تقول لها :

- هيا بنا إلى العربة ، سنسير بمزيد من السرعة ، وأعتقد أننا سنستطيع الوصول إلى هناك خلال يومين أو ثلاثة أيام ، وسيتيح ذلك لنا أكثر من أسبوع ، لترتيب الأمور ، قبل وصول أولئك السادة. فماذا نعمل هنا؟ لا شيء! سننطلق بعد ساعة.

وقد رافق «ليبارسكي» على ذلك. هيا ، أسرعي!..

فأومأت «صوفيا» برأسها. بأنها موافقة ، وهي تشعر أنّ فرصة كبيرة قد فاتتها وابتعدت عنها. ولكن، ماذا يمكنها أن تفعل بمفردها ضد كل هؤلاء النسوة المتشوقات لسرعة الانطلاق والسفر. وبدأت، على مضض، تتهيأ للسفر ، وبينما كانت ترتب ملابسها وحوائجها ، كان «نيقولا» يراقبها ويتابع حركاتها ، خطوة بعد خطوة. وكان الحزن الذي يبديه ، يعزيها عن خيبتها هي. وأخيراً ، قالت له:

- لن يطول الفراق، يا «نيقولا»! وسوف ترى!...

وأخذ بعض رجال «البوريات» يضعون الأمتعة في العربات بينما كان الأزواج يرسمون إشارة الصليب أمام زوجاتهم ويقبلون الأطفال الذين كنّ يحملنهم بين أذرعتهنّ. وبدت وجوه الرجال متجهمة ، وبالمقابل، بدت الزوجات مسرورات بشأن العمل الذي ينتظرهنّ في «بيتروفسك» ، والواحدة

بعد الأخرى، تخلصن من الضم والمعانقة، وصعدن إلى عرباتهن. كان «نيقولا» يمسك بيدي «صوفيا» وفجأة خطت خطوة إلى الأمام. وتلامست شفاههما، فأدهشته هذه السعادة التي فوجئ بها، والتفتت وهمست له:

- إلى اللقاء القريب، يا «نيقولا»... إلى اللقاء القريب!...

وقبل أن يستطيع أن يتمالك نفسه، رآها وقد أصبحت في العربة جالسة بين «ناتاليا فونفيزين» و «أليزابيت ناريشكين»، وهي تبتسم له، تظلل وجهها قبعة من القش، وحول عنقها ياقة من «الدنتيلا» البيضاء. فعصفت بقلبه موجة من الحب، وخشي أن يفقد «صوفيا» بعد أن استردّها بأعجوبة، ووجدها من جديد، ألن تعود فتنفصل وتتباعد عنه، أثناء هذا الفراق الذي سيدوم عشرة أيام؟ كان الناس يروحون ويجيئون حوله، ويدفعونه ويصطدمون به أحياناً، دون أن يشعر بهم. وأخذ «ليبارسكي» يلقي تعليماته على الملازم «فاتروشكين» الذي أصبح الكفيل المسؤول عن حياة السيدات. وقد اصطف الجنود القوزاقيون على صهوات جيادهم بمحاذاة العربات. وأخذت هذه الجياد، وخيول العربات، تصهل وقد نفذ صبرها. وأخيراً، ها هي إشارة الانطلاق: فقد رفع الجنرال ذراعه، ثم خفضه، موجهاً إصبعه إلى الأمام، كأنه يعطي الأمر لمفرزة من الخيالة، بالقيام بالهجوم، وقال:

- هيا، اذهبوا! وليحفظكم الله!...

وردّ عليه صرير النوابض، عندما انطلقت العربات، مسرعةً على الطريق الذي بدا جيداً. وأخذ المساجين الذي تجمعوا أمام خيامهم، ينظرون عبر اغبرار الشمس إلى جميع سيدات المخيم وهنّ يبتعدن، ملوّحات بالمناديل، وقبعاتهن المزدانة بالريش وبالأشرطة، تقفز وتتمايل على إيقاع ارتجاج واهتزازات العربات. وبعد قليل، لم تعد أجمل تلك الوجوه سوى بقع وردية غير واضحة الملامح. وظل «نيقولا» يتبع «صوفيا» بناظريه حتى اللحظة التي اختفت فيها خلف مجموعة من الأشجار. عند ذلك أحسّ بضعف شديد

ينتابه، لدرجة أنه أعتقد أنّ مرضه قد عاد إليه من جديد. فأمسكه «يوري ألمازوف» من كتفيه، واصطحبه إلى الخيمة.

وبعد ذلك بقليل، انطلقت العربات التي تحمل الحقائب والمفروشات والآلات الموسيقية والمكتبية، وظلّ الدويّ القوي الذي أحدثته يتردد صداه، لفترة طويلة في أجواء تلك البراري.

★★★

كانت القافلة تجتاز آنذاك منطقة زراعية مأهولة، تكثر فيها قرى «المؤمنون القدامى». كان الجو مكفهراً، ولكن المطر لم يهطل. وكان «نيقولا» يسير بضعة كيلومترات مع المساجين، وعندما يشعر بالتعب، يصعد إلى إحدى العربات. وقد أخذ رفاقه يبدون له مزيداً من المودة بعد فشله بالهرب وإصابته بالمرض. وإن كانوا كلهم مطلعين على خلافاته مع زوجته، فلم يكن أحد يسأله عن هذا الموضوع. وعلاوة على ذلك، فإنه، هو نفسه، لم يعد يعتقد أنه قد حلت به مصيبة. فقد أصبح متأكداً بأنّ «صوفيا» لم تخنه. وحبه لها الذي أخذ يشعر به من جديد هو أفضل ردّ على الشكوك التي ساورته في بداية الأمر. وأخذ يحلم بها في الوقت الحاضر، مثلما كان يحلم بكأس من الماء العذب، عندما كان يموت من العطش، في الجبل، فهي ماثلة أمام عينيه، في الليل وفي النهار، وحسب مزاجه وحالته النفسية، تارة كان يحزن، عندما يتبادر إلى ذهنه أنها قد نقمت عليه وتخلّت عنه، وتارة يفرح وينتشي عندما يتذكر الفرصة التي ستتاح له في «بيتروفسك». ويحصل معه أيضاً أن يقول في سره، إنها يمكن أن تمرض، أو أن تتعرض لأحد الحوادث... كل هذه الافتراضات كانت تنتهي بتشكيل سحابة في ذهنه، حيث تمتزج العذوبة بالرغبة والقلق بالألم. ولم يكن «يوري ألمازوف» يفارقه أبداً. ولكنّ «نيقولا» لم يكن يريد أن يجعل منه نجيّه والمؤتمن على أسراره. ومع ذلك،

فقد اعترف له، ذات مساء، بينما كانا جالسين قرب النار، في المخيم، قائلاً:

- أعتقد أني أسير نحو السعادة.

فقال «يوري ألمازوف» متأوهاً:

- إني أحسدك! وأقول لك، فيما بيننا، إني يمكن أن أفضل أن يكون لي امرأة تسبب لي العذاب، على ألا يكون لي امرأة بالمرة!

وكان المساجين العزاب مقتنعين بأنّ «بيتروفسك»، وهي مدينة صناعية، وأكثر أهمية وضخامة من «تشيتا»، وفيها تجمع سكاني كبير، يمكن أن يجدوا فيها العديد من الفتيات المتساهلات اللواتي يمكن أن يلبين ما يطلب منهن، وأن يتجاوبن مع رغباتهم. وكان يروي أنه يحصل هناك، في الأرض البور المهجورة، خلف معمل سكب المعادن، أمور غريبة ومضحكة! وكان «يوري ألمازوف» وهو يروي هذه الإشاعات، يشعّ في عينيه بريق عجيب. أما «نيقولا» فكان يشعر أنه غريب عن كل تلك الأحاديث الوقحة. إذ إنّ الحب، بالنسبة له، يتصف بالأهمية والقداسة كأي ديانة من الديانات السماوية، وكان يفكر بأنّ الرجل الجالس على الشاطئ ليس لديه المفهوم نفسه عن الأوقيانوس، الذي لدى الرجل الذي يغامر ويتعرض للأخطار، بعيداً على أمواجه، وقد غابت الأرض عن ناظريه.

ومع اقتراب القافلة من الهدف الذي تقصده، كان التذمر ونفاذ الصبر يبدوان على المساجين الأكثر هدوءاً، لأنّ كلاً منهم كان يتوقع أن يطرأ تغيير وتجديد في حياته وطريقة معيشته. وحتى أولئك الذين لن تستقبلهم هناك أي امرأة، أخذوا يتزينون ويتأنقون. وأراد الكثيرون منهم أن يحلقوا ذقونهم، وأثناء ذلك. كان «نيقولا» يبدو متردداً بشأن لحيته. فقد كان لديه انطباع بأنه لو احتفظ بها وظل كما هو آنذاك، فسيرضيها ويعجبها تماماً. وبدافع من الحكمة والتروي قرر ألا يمس منها شعرة إلا إذا طلبت منه أن يحلقها.

وعلى مسافة ستين «فيرست» «Verstes»، أي ما يقرب من خمسة وستين كيلومتراً من «بيتروفسك»، وحسب جواز الطريق، انضمت المجموعة التي يقودها «ليبارسكي» إلى تلك التي يقودها ابن أخيه. والأصدقاء الذين كان كل منهم في مجموعة، وانفصلوا عن بعضهم خلال فترة طويلة، أخذوا يرسلون صيحات البهجة والفرح عندما التقوا مع بعضهم. ومن جديد اجتمع شمل المساجين، بكامل عددهم، فعمت الفرحة بين جميع المساجين، كما شعر الحراس أيضاً بالارتياح. وروى مساجين المجموعة الأولى، أنهم رأوا العربات التي تقل السيدات وهي تمرّ مسرعة، وهذه الصورة جعلت الأزواج يرغبون بأن تسرع القافلة في سيرها ولكنّ «ليبارسكي» بدافع من الحكمة والتروي، رفض الموافقة على ضغط المواعيد، والإسراع بالسير. وفي آخر توقف للاستراحة، بالقرب من قرية «كاراشيبير» قليل من الرجال استطاعوا إغماض عيونهم، والنوم في تلك الليلة.

وفي اليوم التالي الواقع في ٢٣ أيلول «سبتمبر» منذ أن بزغ الفجر، كان الجميع قد نهضوا، غسلوا أيديهم ووجوههم وتجمعوا، بعد أن ارتدوا ملابسهم، وقد نفذ صبرهم، وأخذوا يشعرون بالتنمل في سيقانهم. وساروا بخطى ثابتة، نحو غابة من أشجار الصنوبر، التي كانت تتدلى من أغصانها الرفيعة لحى من نبات الحزاز و «الأشنة». وكان يتراءى عبر جذوع تلك الأشجار. الجرداء، منحدر غير واضح المعالم. وشيئاً فشيئاً أخذت الأرض تبدو أكثر انحناءً، وازدادت المسافات التي تفصل بين الأشجار، وتوغل الطريق بين أدغال من العليق، ليس لها شكل محدّد. وإلى الأسفل، بدت بعض المستنقعات التي نبتت فيها بعض الأعشاب الطويلة والقاسية. وتصاعدت الصيحات من بعض المساجين الذين يسيرون في المقدمة.

- انظروا! انظروا! ها هي «بيتروفسك»!

فاندفع جميع المساجين نحو المنعطف الذي يطلّ على الوادي. وكان «نيقولا» هو آخر من وصل إلى هناك، وتحت قدميه امتد سهل، إسفنجي المنظر، يخترقه نهر، على ضفته خطان، أحدهما أخضر عفن، والآخر أصفر كالرمل. وفي وسط ذلك السهل الواسع والمكشوف، بدت القرية، بمنازلها المغطاة بالقرميد، والتي ترتفع بينها مداخن أحد المعامل. وهناك بناء ضخم، على شكل حذوة الحصان، منفصل عن منازل القرية، طليت جدرانه باللون البرتقالي، وبدا سطحه مغطى بالقرميد الأحمر. وبعد أن لمحه المساجين، لم يستطيعوا، بعد ذلك، أن ينظروا إلى شيء آخر. وبدا وكأنه يشوه المنظر ويسيء إليه. وتمتم «نيقولا»:

- أهذا المبنى لنا؟

فغمغم «يوري ألمازوف»:

- نعم، يبدو أنه لنا. ألم تتبيّن طرازه المعماري الخاص بالسجون الذي يتصف بالبساطة والمتانة. وجدرانه التي تطلى، بصورة إجبارية باللون البرتقالي الأصفر. ومحرسه المخطط باللونين الأبيض والأسود...

وأحنى الرجال رؤوسهم، وبدا عليهم الإعياء الشديد، فهم بالحقيقة يعرفون ماذا ينتظرهم في نهاية الرحلة، ولكنهم، بعد أن أمضوا شهراً ونصف، في الهواء الطلق، متمتعين بحرية نسبية، فقد أُفرغت، بالنسبة لهم، كلمة «سجن» من أي معنى، وعندما وجدوا أنفسهم، وقد عادوا ليبقوا داخل جدران حقيقية، أخذوا يندبون سوء حظهم:

- إنهم لم يكذبوا علينا، فالمبنى ليس فيه نوافذ!

- والأراضي المحيطة به سبخة ومستنقعية!

- والبعوض منتشر فوقها، ويأتي إلى هنا!

- إنها لفضيحة مشينة!

وسمع الجنرال «ليبارسكي» تلك الاحتجاجات التي كانت تتردد هناك، فاقترب، وقد بدا عليه الاستياء الشديد:

- ألا تخجلون؟! إنه ممتاز، هذا السجن! ولا يوجد في أمريكا سجن أفضل منه! وسترون ذلك، عندما تصبحون في داخله!...

ولم يقتنع أحد بذلك. واستأنفت القافلة سيرها، من دون حماسة أو نشاط. وبدا لسوء الحظ أنّ الملاحظة المتعلقة بالبعوض، صحيحة، ولها ما يسوغها: إذ إنّ أعدادها أخذت تتزايد، مع انحدار الطريق المتعرج، نحو أسفل الوادي. وكان لكل سجين سحابة صغيرة من تلك الحشرات، خاصة به، أخذ يدافع عن نفسه ضدها بتوجيه الصفعات على وجهه. وكان صف المساجين يتقدم عبر جلبة خفيفة من التصفيق الخافت. وفجأة توقف الرجال: فهنالك عربة مسرعة تتقدم نحوهم، وبعد برهة من التردد، عرفوا العربة وركابها، وصاح «يوري ألمازوف»:

- هؤلاء هن سيداتنا!

ولكنه كان مخطئاً: فالسيدتان اللتان نزلتا من العربة، بملابسهما الجميلة، لم يكن المساجين يعرفونهما، هذا، على الأقل، ما أعتقده بعضهم، في بداية الأمر. ولكنّ «روزين» و «يوشنفسكي» اندفعا إلى الأمام، وهما يرسلان صيحات الفرح: إنهما زوجتاهما، اللتان لم يرياهما منذ أربع سنوات، وقد قدمتا من «بيتروفسك» لاستقبالهما! فأخذ العملاق «روزين» يؤرجح بين ذراعيه دمية، دوائر أطراف فستانها صنعت من الأطلس البنفسجي اللون. بينما ضمّ «يوشنفسكي» إلى صدره بقوة مخلوقة ضعيفة، بادية الاضطراب والذهول، بعد أن سقطت قبعتها عن رأسها وتدحرجت على الأرض. وأخذت الدموع، الأسئلة، القبلات والأجوبة، كلها تمتزج مع بعضها بالنسبة لهم بينما كانت من الرفاق المتأثرين والصامتين قد تكونت حولهم لمشاهدة هذا اللقاء الحميمي والمؤثر. وبعد ذلك بدأت التعارف: مع

«ليبارسكي» أولاً، ثم مع المساجين، وكان كل منهم ينحني وهو «يخبط» بالأرض كعب حذائه المهترئ. ويقبل، بصورة احتفالية، اليد الممدودة نحوه. واستغرقت العملية خمس عشرة دقيقة. ومن سجين لآخر، كانت السيدتان تهمسان دائماً، العبارة نفسها:

- أعرفك جيداً، لأنّ زوجي حدثني كثيراً عنك في الرسائل التي كانت تكتبها بالنيابة عنه، إحدى النساء الطيبات القلب!

وأكدتا لهم أيضاً أن بقية الزوجات بصحة جيدة، وأنهن ينتظرن وصول القافلة، بفارغ الصبر. ثم أخرجت البارونة «روزين» من حقيبتها رزمة من الصحف، وقالت، بأعلى صوتها:

- أيها السادة، لديّ خبر مهم أبلغكم إياه: لقد اندلعت الثورة في فرنسا!

فكان لهذا التصريح وقع الصاعقة. وبعد صمت قصير سببته الصدمة، تصاعدت الهتافات والصيحات، من كل جانب:

- هذا غير ممكن! متى؟ وكيف؟

والبارونة «روزين» التي بدت بشكل واضح متأثرة جداً بنجاح المفاجأة التي أحدثتها، ازدردّت لعابها، وأجابت:

- في أواخر تموز «يوليو» الماضي أطيح بـ «شارل العاشر» عن العرش لأنه أراد تعليق حرية الصحافة، وحلّ مجلس النواب. وثلاثة أيام من القتال، كانت كافية! والآن «لويس- فيليب دورليان» هو الذي تسلمّ العرش! وقد وعد بإقامة العديد من المؤسسات الجمهورية حوله!

كانت تبدو وكأنها تلقي درساً. وكان الرجال يرهفون سمعهم لكلامها، وأخذوا يتخاطفون الصحف التي أحضرتها. وتجمع عدد منهم حول كل صحيفة. وانحنى «نيقولا» فوق كتف «يوري ألمازوف» وأخذ يقرأ سطراً من كل ثلاثة أسطر، وكل شيء كان يختلط في ذهنه. ولم يكن يفهم جيداً أسباب دوافع هذا الانقلاب السياسي الذي حدث على بعد آلاف الكيلومترات من

سيبيريا. ولكنه كان متحمساً وفرحاً لأنّ فرنسا بعد أن أوحت لمتمردي كانون الأول بحس الحرية ولقنتهم حبها، فهي تعطيهم مرة أخرى مثالاً لثورة ناجحة. وفي أي مكان على سطح الكرة الأرضية يحدث تمرد على السلطة، فهذه الهزة، حسب رأيه، تُعَدّ صحيّة ومفيدة، لأنها تهيئ لزعزعة البناء الروسي. وصدمة بعد أخرى، ويتسع الصدع ويكبر حتى يتجاوز أوروبا. وسوف يستيقظ القيصر، ذات يوم، إذا لم يتعظ ويأخذ حذره، ليجد قدميه متدليين في الفراغ. وكل شيء يكون قد صدر وانطلق من ذلك البلد الصغير السداسيّ الشكل، صديق النساء الجميلات والكرمة والكتب. ودفعت «نيقولا» نحو «صوفيا» موجة قوية من الامتنان، كما لو أنها ساهمت بشكل ما في هذا النصر الذي حققه «العادلون». فلم يكن يستطيع الامتناع عن إشراكها في جميع مشاريع فرنسا، الكبرى. وقال في سره: «كم ستكون سعيدة، سعيدة وفخورة!» وشعر برغبة شديدة لسحقها بين ذراعيه، إلى أن تتقطع أنفاسها. ودون أن يفكر بذلك أو أن يتوقعه، انطلق هتاف من صدره:

- عاشت فرنسا!

وفي الحال، ردّد رفاقه الهتاف بصوت واحد:

- عاشت فرنسا! مرحى لها! وألف مرحى!

فأسرع «ليبارسكي» نحوهم، وقد جحظت عيناه:

- ماذا بكم! هل جننتم؟! ماذا لو سمعكم أحد ما؟!...

هذا تخريب!.. وأنا أطلب منكم الالتزام بالصمت!.. وإلاّ، فسأجعلكم تخيمون هنا!... طوال النهار، وطوال الليل، إذا اقتضى الأمر ذلك!..

كان يرغي ويزيد تحت شاربه الأشيب. فصعدت السيدتان، وقد شعرتا بالخوف والخجل، العرية. وهدأ الذين كانوا يردّدون الهتافات، وصمتوا. ولكنّ فرحة سياسية عارمة، وجريئة كانت تشع من أعينهم. وانتظموا من جديد في صفوف منتظمة، رافعي الرؤوس، كالعسكريين. وعندما صدر الأمر:

«إلى الأمـام، سـر!»، بـدلاً مـن أن يجـروا أرجلـهم، كعـادتهم، أخـذوا يسيرون على الإيقاع، وبخطى موزونة.

وظلـوا يـسيرون هـكـذا في صـفوف نظاميـة، واتجهـوا نـزولاً علـى سـفح الرابية، مروا بالقرب من إحدى الكنائس وساروا بمحاذاة مقبرة، ثم تـابعوا سيرهم، مـارين مـن أمـام معمـل، تكـدس بـالقرب منـه جبلان مـن خبـث المعـادن. وكـان الهـواء مشبعاً برائحـة الـسّخام والـصلب الحـارّ. وبغبـار نـاعم أسود يؤلم العيون. وأخذ العمال يتزاحمون بجانب الطريق، وكثيرون منهم بدت على جباههم الدمغة التي يوصم بها الذين حكم عليهم بالسجن مع الأشـغال الـشاقة. وحيّـا قائـد شـرطة «بيتروفـسك»، الـذي تـزين صـدره عـدة أوسمة، «ليبارسكي» منذ مروره. ومن بعيد بعد الحدائق الصغيرة والهزيلة و «الإيـسبات» الـتي تتـصاعد منهـا الـدخان، بـدت بعـض المنـازل الخـشبية الجديدة، التي يلمع طلاؤها. وكلها كانت تبدو، الكبيرة منها والصغيرة، أنها بيوت عائلية. لم تكن أنيقة ولكنها ضخمة ورحبة، وتحيط بها قطعة أرض واسعة، يمكـن أن تـنشأ فيهـا حديقـة أو باحـة أو أن تبنـى فيهـا بعـض الملحقات والمنتفعات... وما زال بعض النجارين يشتغلون على الأسطحة. وأمام كل مدخل، وقفت إحدى زوجات السجناء. وكنّ قد وجدن هـذه الطريقـة واستخدمنها، لكـي يعـرف أزواجهـن عنـد مَـرورهم، مـن أول نظـرة، كـل منهم المنزل الذي يعود له ولزوجته.

وأخذن يلوحن بالمناديل وهنّ يقفن على أطراف أصابع أرجلهنّ. وكانت «صوفيا» و «ناتاليا فونفيزين»، اللتان لم توصيا على بنـاء أيّ منـزل، تقفـان بعيـداً، بـالقرب مـن مـستودع للخـشب. وفـوجئ «نيقـولا» بنفحـة مـن الـسعادة أذهلتـه، كأنهـا قـرع الـصنجات: هـا هـي زوجتـه تبتسم لـه! فـصاح، دون أن يخرج من الصف:

- أسمعت الخبر؟ الثورة في فرنسا!..

فقالت:

- نعم، نعم! هذا رائع!

وفي غمرة حماسته، أخذ ينشد النشيد الوطني الفرنسي «المارسييليز» ومن سجين إلى آخر انتشر الإنشاد وشمل القافلة كلها. وقويت الأصوات، وفجأة تعالى النشيد، وأخذ يردّده الجميع، باللغة الفرنسية، وبلكنة روسية رهيبة:

«Allons enfocnts de la poctri- i- e!.»

هيا، يا أبناء الوط..... ن!...

فالتفت «ليبارسكي» غاضباً، وهو على صهوة جواده الأبيض، وأخذ يتلوى ويجول بنظره في كل الاتجاهات ملوحاً بيده لكي يبلغ المساجين الأمر بأن يسكتوا، ويكفوا عن الإنشاد. ولكن لم يبد على أحد أنه فهم ماذا يريد منهم والجنود الذين يجهلون أنهم ينصاعون لموسيقى مخربة، تنشطوا وانتعشوا واستقامت قاماتهم وبرزت صدروهم. وانضمت جميع السيدات إلى الموكب. كنّ يسرن بخطى وئيدة، وقد رفعن أطراف فساتينهن. وكان الجنود القوزاقيون يشكلون حرس مؤخرة الموكب. ، بينما كان لا يزال النشيد الوطني الفرنسي يحلّق فوق الرؤوس. وفتح باب السجن على مصراعيه. وقدّم الخفراء السلاح، بينما كان المساجين ينشدون:

«!Morchons. Marchons! Du,m socng impur alreuve mos sillons»

هيا، لنمشي ولنمشي!

وليرو الدم الملوث أرضنا!

واندفعوا إلى باحة واسعة محاطة بحاجز عال. وأغلق باب السجن. وسمع «نيقولا» صوت المزاليج، المألوف، وهي تدخل في الثقوب المخصصة لها، وصرير المفاتيح الضخمة وهي تدور في أقفالها. وانتهى حلمه بالخضرة

وبالسماء، في سرداب مظلم. وخمدت في الحال حماسة الرجال، وغادروا الصفوف وتفرقوا وهم يلقون حولهم نظرات تنم عن القلق الشديد. وترجّل «ليبارسكي» نفض الغبار عن بزته، وقال مزمجراً وهو متجهم الوجه:

- لقد وجهتم لي إهانة كبيرة، أيها السادة!

فقال «يوري ألمازوف»:

- إنّ قيادة جماعة تنشد النشيد الوطني الفرنسي، ألا تسبب إهانة لأحد!

- لا تردّ! فنحن في روسيا، على حدّ علمي! والمرور بالمدينة بهذا الشكل، لم يكن سوى وقاحة وخرق للنظام! وسأظل أذكر ذلك!.. آه! نعم، سأظل أذكره ما حييت!...

جوزيف، عليك أن تقود المساجين إلى زنزاناتهم!

فسألته «ماري فولكونسكي» مع كل ما أوتيت من فتنة وسحر:

- ألا تأتي معنا، يا صاحب السعادة.

- كلا! اعذريني! فهكذا يتاح لكم الوقت لكي تغنوا ما يحلو لكم أن تغنوه. إيه! هيا يا جوزيف ماذا تنتظر؟

فذهب «جوزيف» لتنفيذ ما أمره به عمه، وسار في مقدمة الجميع، بخطوات متثاقلة وقد أحنى كتفه، وبدا كمضيف يقود ضيوفه.

وتلا الساحة الكبيرة العامة، ساحات صغيرة، يبلغ عددها ثمانية فصلت عن بعضها بحواجز من الأوتاد، وعلى هذه الباحات الثمانية أقيمت مداخل لاثني عشر قسماً، وكل مدخل يؤدي إلى ممر تنفتح عليه أبواب متماثلة. والزنزانات، وعددها ستة أو خمسة في كل ممر، كانت جميعها بمساحات وقياسات موحدة- سبع خطوات طولاً وست خطوات عرضاً- وجميعها معتمة تماماً، لأنها ليس لها نوافذ، والضوء يدخل إليها عبر مستطيل صغير، مزود بالقضبان الحديدية، مفتوح في أعلى مصراع الباب.

فأخذ المساجين يتذمرون ويحتجون:

- يا لها من كارثة! إننا لن نستطيع أن نقرأ، حتى في وضح النهار!

فوافق «جوزيف ليبارسكي» على ذلك، واعترف، قائلاً:

- أعرف، أعرف ذلك، فالإنارة سيئة، لا تفي بالغرض، ولكن، ماذا هنالك، فهذا أمر بسيط! وإجمالاً، لا تستطيعون الإنكار أنّ هذه الزنزانات واسعة ومريحة، إنها غرف حقيقية! ولكل منكم غرفته! وعندما ترتبونها وتجهزونها!.. وأعتقد أنّ السيدات قد باشرن القيام بذلك!...

فقالت «بولين أنانكوف»:

- بالتأكيد! أتريد أن تلقي نظرة عليها؟

- لم أجرؤ على أن أطلب منكنّ ذلك!...

وتبع الزوار، وهم يتمتمون ويتهامسون فيما بينهم، السيدات إلى آخر البناء، حيث توجد الأقسام ١ و١٢ المخصصة للعائلات، وهناك تعالت صيحات الإعجاب: كانت كل زنزانة مفروشة ومزينة بعناية وذوق. وخلال ثمانية أيام، استنفرت الزوجات جميع النجارين والدهانين، للعمل في تلك الزنزانات، واشترين من المخازن القليلة في «بيتروفسك» كل ما وجدته فيها. فالأسرة مغطاة بقماش مزين بالزهور. أرائك مريحة، رفوف صفت عليها الكتب، طاولات صغيرة، صور على الجدران، باقات زهور في أواني ظريفة... وأخذت «ربات البيوت» تمتدح الترتيبات التي قمن بها، بشيء من التواضع المصطنع:

- إنّ الأمر في غاية البساطة!... كان ينبغي تدبير الأمور كيفما اتفق، وبالوسائل المتوفرة، والتي أتيحت لنا هنا!...

وأمسكت «صوفيا» بيد «نيقولا» واقتادته إلى آخر الممر، وأشارت له إلى غرفة جدرانها وردية اللون، فيها سريران صغيران توأمان، صنعا من الخشب الأبيض، ومكتب من خشب الزان، وأريكة مغطاة بقش الخيزران المجدول.

وقالت له:

- هذه غرفتنا.

لم يكن قد رأى في حياته شيئاً أجمل منها ، فطفحت عيناه بالدموع:

- شكراً ، يا «صوفيا»!

ولم يستطع أن يضيف على ذلك شيئاً ، فقد لحق به جمهور من رفاقه، وكان على «صوفيا» أن تبتسم، بدورها ، للمديح والتهاني، وأن تشرح كيف رتبت الغرفة... وآنذاك، كان بقية السجناء، غير المتزوجين، في عجلة من أمرهم، لترتيب أماكن إقامتهم، بأنفسهم. فقد أنزلت أمتعتهم وحوائجهم، كلها معاً ، في الممرات، ولكنّ زنزاناتهم وعددها ينوف على الخمسين، لم تكن جاهزة تماماً.

فطلبوا من السيدات المساعدة، وإرشادهم كيف يستطيعون ترتيب زنزاناتهم وتزيينها. و «نيقولا» الذي كان يرغب كثيراً بالبقاء بمفرده مع «صوفيا»، اضطر إلى تركها تذهب. ومشى وراءها ، دون أن يهتم بشيء، وهو بادي الغبطة والسعادة.

وأخذت هي تسير متنقلة بين المساجين، لتشرف على ترتيب الكراسي، المناضد والأسرة، التي قدمتها للسجناء. وكان الحراس هم الذين يقومون بنقلها ، لقاء إكرامية زهيدة. وقد نزعوا سترات بزاتهم ووضعوها جانباً ، وشمروا عن سواعدهم، وأخذوا يحملون المفروشات وقطع الأثاث وينقلونها ، ويفتحوا الصناديق. وكانت «صوفيا» تعطيهم الأوامر والتعليمات، وهي تقف عند عتبة الباب:

- إلى اليسار، أكثر قليلاً!... أكثر إلى الوسط!... كلاّ، كان وضعها أفضل في السابق!... أعيدوا السرير إلى مكان الطاولة والطاولة إلى مكان السرير!...

كانت الأرض مغطاة بالقش. والهواء مشبع برائحة الدهان والصمغ والذين سيقيمون في تلك الزنزانات، أخذوا يصعدون على اسكملات وقد

نفـذ صـبرهم، ليـدقوا المـسامير في الجـدران، لتثبيـت الرفـوف أو لتعليـق الإطارات التي تضم بعض الصور. وعبر السجن كله، لم يكنّ يسمع سوى قـرع المطـارق وصـرير المناشـير. وكـان الجنـود يقـدمون الأدوات والمـواد الضرورية، بما فيها المسامير والبراغي. حتى أنه كان هنالك أحد العجزة، أخذ ينتقل من غرفة إلى أخرى، حاملاً، مقابل فرشاة الدهان، لكي يصلح المكان الذي تشوه طلاؤه، مقابل خمسين «كوبيكاً» لكل عملية إصلاح.

وحتى المساء، وعبر ضوضاء كالتي تسود الفندق الذي يغص بالنزلاء، ظلت السيدات تعمل حتى تحولت الزنزانات إلى خلوات ومخادع مريحة ومحببـة. وكـنّ يـستعرن مـن بعـضهن بعـض اللـوازم والأدوات المنزليـة: كالسماور، المكواة، الطناجر، الكماشة. ومع ذلك، فإنّ «ليبارسكي» لم يبدُ للعيـان، فقـد ظـل متواريـاً: إنـه مـستاء وحـرد: فمـا زالـت كلمـات «المارسييليز» تدوي في أذنيه، وأصداؤها تتردد في ذهنه.

وغادرت الأمهات، من زوجات المساجين، السجن، للإشراف على منامة أبنائهن، في البيوت الصغيرة والجديدة، وإعطاء التعليمات للخادمات اللواتي اسـتأجرنهن، مـن القريـة. وهكـذا، فقـد كـان هنالـك، بالنـسبة لهـن، مسكنان، أحدهما مخصص للحب الذي تكنه الأم لأبنائها، والآخر للحب المتبـادل بـين الـزوجين. وبـين المـسكنين، عليهم أن يسرعن دائمـاً بالتنقـل، للقيام بجميع التزامات حياتهن، كنساء. وعدن إلى السجن، في وقت متأخر مـن الليـل، وهـنّ مرتاحـات البـال. وقـدّم الحساء أحد الحـراس على موائـد أقيمـت في الممـرات. كـان بـارداً، وسيئاً، ولكـنّ أحـداً لم يـشكُ أو يتـذمر بسبب ذلك، فالتعب الذي أصاب المسافرين من جراء تلك الرحلة الطويلة، ووجـودهم في بيئـة ومكـان جديـدين، جعـل أكثـر المتـشددين يـصبحون متساهلين ويغضون الطـرف عـن أمـور كهذه. ثم، كـان هنالـك قضية تلك الثورة التي حدثت في فرنسا والتي أثارت حماسة الجميع، ولم يتحـدث أحد

إلا عنها أثناء تناول الطعام. ومع أسف «صوفيا» الشديد، لأنّ «الأيام المجيدة الثلاثة»[1] لم تؤدّ لإقامة النظام الجمهوري في فرنسا فكانت تعزى نفسها عن ذلك بتفكيرها أنّ دوق «أورليان» الذي أصبح يدعى «لويس فيليب»، له ماضٍ يتسم بالتحرر. ووالده، الذي قتل الملك، أعدم شنقاً. وهو نفسه، سبق له أن حارب وشارك في معركة «Jemmocpea»[2]، ومنذ لك الحين، كان دائماً يجاهر الرجعيين المتطرفين بالعداء الشديد.

ألا يقال أنّ أول عمل قام به، عندما بدا للجماهير من على شرفة «دار البلدية» هو أنه ضمّ إلى قلبه العلم المثلث الألوان، وعائق «لافاييت»؟[3] وكان هذا دليلاً حسناً يبشر بالخير.

ولكن ما كان يفتن «صوفيا» بخاصة، ويدخل السرور، إلى قلبها، هو أنّ الثورة أرادها وقام بها وقادها الشعب بأجمعه. وحسب ما نشرته الصحف الروسية فإنّ عمال وبرجوازيي باريس، قد قاتلوا جنباً إلى جنب وفي صف واحد، ونهبوا مستودعات الأسلحة. ونزعوا بلاط الشوارع، وأقاموا المتاريس والحواجز...

١- «الأيام المجيدة الثلاثة»: (٢٧، ٢٨، ٢٩ من شهر تموز (يوليو) سنة ١٨٣٠، أيام الثورة التي اندلعت في تلك السنة، ووضعت حداً لحكم الملك «شارل العاشر».

٢- معركة «Jemmocpea»: المعركة التي نشبت بالقرب من «mons» في بلجيكا، والتي حقق فيها «دوموريز» النصر على النمساويين، وهذه المعركة هي التي ولدت في فرنسا فكرة الانتفاضة والثورة الجماهيرية.

٣- «lo Fayette»: جنرال وسياسي فرنسي (١٧٥٧- ١٨٣٤) شارك منذ سنة (١٧٧٧) في حرب استقلال الولايات المتحدة، إلى جانب الثوار، وبرز في فرنسا كزعيم للطبقة الأرستقراطية المستنيرة والمتحررة والراغبة بإجراء المصالحة بين الملكية والثورة تقلد العديد من المناصب وهاجر من سنة (١٧٩٢) إلى (سنة ١٨٠٠) ورفض أي منصب في عهد نابليون، أي زمن الحكم الإمبراطوري وعين قائداً للحرس الوطني سنة ١٨٣٠. وهو أحد مؤسسي نظام الحكم الملكي الذي أقيم في ذلك الشهر، ولكنه ما لبث ان انفصل عنه، بسرعة - المترجم

وانتصار هذه الحركة أوضح الخطأ الكبير الذي ارتكبه «متمردو كانون الأول» بعدم إشراكهم الشعب بكامله في حركتهم الانقلابية.

وقد صرحت «صوفيا» بذلك بكل جرأة. فوافق جميع الرجال على رأيها. ولكنّ النساء، بالمقابل، فقد نظرن إليها باستياء وكأنها تشجع وتمتدح نقائص وعيوب أزواجهن، عندما تتحدث معهم في السياسية.

وقال «نيقولا»:

- والأمر المستغرب، والذي يثير الدهشة، هو غضب القيصر، ونقمته على «لويس- فيليب»، الملك الشعبي! فهل طالعتم الصحف؟ لقد صدر الأمر لجميع الرعايا الروس بمغادرة فرنسا، وبمنع السماح للرعايا الفرنسيين بالدخول إلى الإمبراطورية الروسية. ويمنع حمل أو رفع الشارة الوطنية المثلثة الألوان، ويمنع استقبال السفن الفرنسية التي ترفع العلم الجديد، في المرافئ الروسية! ولم يكن هنالك سوى القليل لكي يعلن القيصر «نيقولا الأول» الحرب على فرنسا، لأن الفرنسيين قد اختاروا ملكاً لا يلائمه!

فقال الأمير «تروبيتزوكوّي»:

- ربما كانت قد حصلت هذه الحرب، لو أنّ النظام الجمهوري أقيم، بعد خلع الملك «شارل العاشر» عن العرش، ولكن «لويس فيليب» هو، على كل حال، ملك، وإن كان قد أحيط ببعض المظاهر الشعبية، ولذلك فإنّ مبدأ نظام الحكم الملكي ظلّ قائماً وسليماً!

فقال «أنانكوف»:

- ولكنّ هذا مؤقت، و «لويس فيليب» ليس سوى مرحلة وفترة انتقالية. ودفعة كتف أخرى، فسيضع الفرنسيون مكانه رئيساً منتخباً من قبل الشعب، ويمكن أن يعزل من قبله، أيضاً!

كانت «صوفيا» تصغي لهؤلاء المساجين الروس يتحدثون عن الحرية الفرنسية، وقد انقبض صدرها، لكونها بعيدة إلى هذه الدرجة عن وطنها!

بل وربما كانت لن تعود إليه أبداً! ولذلك كان عليها أن تقنع بألا تُعَدّ فرنسا، من الآن فصاعداً، سوى مجموعة من الذكريات.

وبشكل مفاجئ، بدت لها فظيعة جداً مغادرتها للبلاد التي ولدت فيها، وحيث كانت الأفكار التي تبنتها ودافعت عنها على الدوام، قد أوشكت على الانتصار، في حين أنها أتت لتنتهي حياتها في بلاد يسود فيها أشدّ أنظمة الحكم استبداداً وانغلاقاً، وليس هذا وحسب، بل أيضاً في سجن يقع في أقصى مجاهل سيبيريا! وفي إحدى اللحظات، تساءلت عما كانت تفعله بين هؤلاء الناس، بينما كانت تمر في ذهنها صور لمناظر الريف الفرنسي، ولأحد شوارع باريس، ولأرصفة نهر «السين» ولمنزل والديها، ولوجه والدها ووجه أمها اللذين ماتا كلاهما في فترة لا تتعدى بضعة أشهر، واللذين لا تعرف شيئاً عن حياتهما خلال السنوات الأخيرة من عمرها... ولكنّ «نيقولا» الجالس إلى الجانب الآخر من المائدة، كان ينظر إليها بعطف شديد جعلها تنسى حنينها إلى وطنها، وتبتسم له بكل جوارحها.

فتأثر جداً بهذا الوفاق. حقاً، لقد كانت الثورة التي حدثت في فرنسا تلهب مشاعره، ولكن ليس بقدر ما كانت تثيره وتلهب مشاعره إمكانية انفراده بـ «صوفيا»، وتمضيه الليل بكامله معها. كان يأمل أن تكون آنذاك قد تحررت من التفكير في السياسة، بعد أن حان الوقت لذلك، وللتفرغ لمبادلته الحب والمودة. وطالت فترة تناول طعام العشاء. وعندما شبع الرجال لم يعودوا يتكلمون عن الثورة أو الميثاق، بل عن المطبخ والطبخ، عن الأثاث والمفروشات. وفي الوقت نفسه، كانوا يتأملون زوجاتهم باشتهاءٍ شديد. لأنّ هذه المرة، ستكون الأولى، منذ خمس سنوات، التي يتاح لهم فيها أن يقضوا الليل بكامله معهنّ. ولكثرة ما فكروا بذلك، أخذ يتزايد تذمرهم ونفاذ صبرهم، وبدؤوا يتململون على مقاعدهم، ويهملون متابعة الحديث، ويفركون قطع الخبز و«يدعبلونها» بين أصابعهم. وأثناء ذلك،

كانت زوجاتهم تبدي المزيد من مظاهر الغنج والدلال، فلم يكن هنالك سوى النظرات الجانبية، والتنهدات العميقة والمتعددة النغمات والألوان، رفيف الجفون، وثرثرة لا جدوى منها كتلك التي تقوم بها الطالبات اللاهيات. و «صوفيا» نفسها، كانت تشارك أيضاً بهذا العرض النسائي. بينما كان ذلك يسبب لـ «نيقولا» ألماً في جميع عضلات جسمه، وأخيراً، أعطت «بولين أنانكوف» إشارة الانصراف، متذرّعة بأنها متعبة. وفي الحال وقف الرجال، مستعدين لمغادرة المكان، فهم منذ أكثر من ساعة ينتظرون هذه اللحظة. وكان للنساء وجوه ملائكية. وكنّ يتلوين من النعاس، ووراءهن يقف أزواجهن، وهم يتظاهرون بالبراءة. وتبادل الجميع تحية المساء، كما يفعل المسافرون في ممرات الفندق الذي ينزلون فيه. وكل زوجين ذهبا إلى زنزانتهما.

وأغلقت «صوفيا» الباب، وأشعلت شمعة. كانت الحواجز بين الزنزانات رقيقة، ، بحيث يسمع سكان إحدى الزنزانات أحاديث جيرانهم في الزنزانة الأخرى. وكان «نيقولا» يقف، متصلباً، لا يعرف ماذا عليه أن يقول، وقد تدلى ذراعاه، وبدا مشبعاً برغبته التي أربكته. وخطت «صوفيا» خطوة نحوه، فغمره عطر شعرها. كانت تقف اتجاه الضوء، فبدا وجهها المعتم محاطاً بهالة ذهبية، وكانت أسنانها تلمع. وعلى استحياء، وبشيء من الخوف، ضم إليه قامة مرنة ومطواعة. ولم تبدر منها أي حركة تنم عن التراجع أو الابتعاد. وبعينين واسعتين، أخذت تنظر إليه. ولم يكن يجرؤ حتى ذلك الحين أن يصدق أنّ الحظ سيساعده على إتاحة هذه الفرصة. وكانت هي التي سندت فمها على شفتي «نيقولا»، ثم جذبته نحو السرير وهي تبتعد بخفةٍ ورشاقة.

وفيما بعد، أخذا يصغيان، وهما متشابكان وملتصقان بشدة على السرير الضيق، إلى الرنين الموحش الذي يرسله جرس منع التجول، وقد

امتزجت أنفاسهما ودقات قلبيهما، بعضاً ببعض. كان الظلام الدامس يسود الزنزانة، وكل شيء فيها بدا أسود اللون. وغمرت «صوفيا» سعادة بهيمية وهادئة، شغلتها عن كل شيء، فلم تعد تناقش ذلك الإحساس بالتحالف التام والرائع، مع الطبيعية. وكما لو أنّ «نيقولا» كان الذكر الوحيد على سطح الكرة الأرضية، القادر على إرضائها وإشباع رغباتها. وأخذت خطوات ثقيلة تقترب في الممر، فهمست في إذن «نيقولا»:

- ما هذا؟ ومن القادم؟

- إنه الحارس!

- وماذا أتى يعمل؟

- ليغلق علينا الأبواب، ويحبسنا، من دون شك.

وبالفعل، فقد سمعا صوت المزلاج، والمفتاح وهو يدور في القفل. فكتمت «صوفيا» ارتعاشة: فهي سجينة طوال الليل، في زنزانة، مع زوجها، ويستحيل عليها أن تخرج. والصراخ، أو الشكوى والتوسل، كل ذلك لا يجدي فتيلاً. فالتصقت بمزيد من الشدّة بـ «نيقولا»، فوشوشها، قائلاً:

- أحبّك.

فأغمضت «صوفيا» عينيها: لقد التقى بها، بالأمس، وهي، بالكاد تعرفه. وكان كل شيء يبدأ من جديد، بالنسبة لهما، بقوى وأوهام فتوة جديدة.

وابتعد وقع الخطى، وهي تسير متنقلة من زنزانة إلى أخرى، وخلف كل باب من أبوابها، هنالك، زوجان ينتفضان عند سماعهما الصوت الحاد والجاف، الذي لا صدى له، والذي ينجم عن إغلاق المزلاج.

★★★

الجزء الثالث

١

كان «ليبارسكي» جالساً وراء منضدة عمله في الغرفة الواسعة ذات الجدران العارية التي يستعملها كمكتب، يصغي بأناة وصبر لزوجات المساجين، وهنّ يشكين له، ويتذمرن في عدم وجود نوافذ في الزنزانات. ومرة أخرى، وجد نفسه مضطراً للاعتراف بأنّ المساجين وزوجاتهم محقون في شكواهم من إجراء قامت به الحكومة. وكان صوت «ماري فولكونسكي» قوياً يكاد يثقب له أذنيه:

- نحن نرفض العيش في هذه الأوضاع، يا صاحب السعادة! لأنّ علينا، أمّا أن نمتنع عن المطالعة، ونحرم منها طوال النهار، وأمّا أن نشعل الشموع منذ الصباح لنستنير بضوئها!

وأمنت «كاترين تروبيتزوكوّي» على ما قالته زميلتها:

- لقد تعبت عينا زوجي، وقد ضعفت، وانخفضت قدرته على الرؤية، خلال أسبوع من إقامتنا هنا في «بيرتوفسك».

وقالت «أليكسندرين مورافييفّ»، شاكية ومتأوّهة:

- لو أننا نستطيع فقط الجلوس في الممرات، لكي نطالع ونعمل، ولكنها مفتوحة من جميع الجهات، ومع حلول بوادر البرد، يتجمد من يجلس فيها!

وقالت «بولين أنانكوف»:

- أضف إلى ذلك أنّ الرطوبة تبدو وكأنها تخرج من الأرض!

والجدران أصبحت مشققة ومتصدعة، منذ الآن، والمدافئ لا تعمل جيداً، ونحن نرتجف من البرد، وهنالك كثير من البعوض والحشرات الأخرى!

وشكت «ناتاليا فونفيزين»، قائلة:

- هذا معيب، ومخجل جداً!

و «ليبارسكي» الذي أخذ يتلقى الطعنات من كل جانب، اضطر لأن ينزوي ويدافع عن نفسه. وبالطبع، كما هي العادة دائماً. كانت السيدات تُعَدّنه المسؤول عن مصائبهنّ، وكأنه السيد المطلق الذي يحكم السجن، ويتصرف بكل شؤونه كما يحلو له. فحتى يفهمن أنه مجرد سجين، كأحد أزواجهن؟! ولكل ما هنالك، أنه يرتدي بزة رسمية ذات كتافيات، ويحمل لقباً، ورتبة عسكرية، ولكنه لا يتمتع بحرية تزيد عن حرية المساجين! وعلاوة على ذلك، فليس هنالك في روسيا، سوى المساجين، من أعلى إلى أدنى درجات المراتب الاجتماعية. وكل سجين في الطبقة العليا، لديه سجناء آخرون يخضعون لسلطته، وهؤلاء، أنفسهم، يصبحون رؤساء لمساجين أقل حظاً وخطوة منهم ومع ذلك، فهم يتحكمون بسجناء أكثر حطّة وبؤساً، وهكذا دواليك، حتى آخر حارس في أحد السجون، وإلى آخر سجين، حكم عليه بالسجن. مع الأشغال الشاقة. ولن تستطيع أبداً أي «Movrseillouse» وأيّ نشيد وطني فرنسي، التغلب على هذا الهرم البشري، الذي تغيب قمته في السحاب، هناك في «سان بطرسبورغ» والذي تغوص قاعدته في أوحال سجون سيبيريا. وعندما وصل «ليبارسكي» إلى هذا الحد من القناعة في تفكيره، شعر بانزعاج شديد فلماذا أخذ يفكر هكذا، وإلى أين سيؤدي به هذا التفكير ألم يصبه «متمردو كانون الأول» بعدوى أفكارهم؟ أولم يتأثر بها بسبب معاشرته لهم؟ وبدا آنذاك كمؤمن فقد الإيمان للتوّ، وأخذ يتساءل وهو حائر.

وقالت «صوفيا»:

- أول عمل يجب القيام به، هو إصدار الأمر بخرق الجدران وفتح النوافذ!

فانتفض «ليبارسكي» ورفت أجفانه الثقيلة، وتمتم:

- الأمر والنهي! وإصدار الأمر! كيف تفكرين هكذا؟ أيتها السيدة، وبدلاً من ذلك، انظري إلى هذا!

ونهض، ثم بسط مخططاً على المنضدة، فتطاولت نحوه أعناق السيدات. فسألهن:

- أترون نوافذ في هذا المخطط؟

- كلاّ!

- كيف يمكنني، إذن، إن أفتح هذه النوافذ التي تطالبون بها؟

فصاحت «كاترين تروبيتزوكوّي»:

- ولكن، في نهاية الأمر، وعلى أي حال، يا صاحب السعادة، أنت حاكم السجن، وهذا البناء موضوع تحت أمرتك وسلطتك، ويمكنك أن تنفذ فيها الأعمال التي ترى أنها ضرورية!

فهزّ «ليبارسكي» كتفيه، وأشار بإصبعه إلى حاشية وتوقيع، في الزاوية العليا اليسارية من المخطط، وقال:

- وهذا، الذي كتب هنا، ألم تلاحظنه؟ إنّ هذا المخطط، الذي يُعَدّ وثيقة رسمية، قد وافق عليه ووقعه الإمبراطور. وإذا كان الإمبراطور قد قرر بألا يكون هنالك نوافذ، فلن أحاول أنا، الجنرال المسكين، وأنا على وشك الإحالة على التقاعد، مجرد التفكير بمخالفة إرادته!

فقالت «صوفيا»:

- إذن، يجب علينا أن نخضع ونعيش كالديدان؟! ولكن، أرجوك أن تأخذ علماً بأنك إذا لم تتدخل، فإنّ أزواجنا سيضربون عن الطعام، ويفضلون الموت جوعاً، على المعيشة الكئيبة في هذا الظلام!

وقد خطرت لها هذه الفكرة وهي تتكلم، ولكنها عبرت عنها بحماسة وباقتناع شديد، لدرجة أنّ بقية النساء قد خدعن وصدقنها، وأخذن يتبادلن النظرات القلقة. ولكنهن أدركن في الحال أنها حيلة، وأيدن «صوفيا» فيما قالته:

- تماماً، يا صاحب السعادة، لأنهم بالحقيقة، قد نفذ صبرهم!

- إذا قاموا بهذه التظاهرة اليائسة، فسيكون الذنب في ذلك ذنبكن، وعليكن تقع مسؤولية كل ما قد يحدث!

- وستكون الفضيحة كبيرة، لا يمكن إصلاحها أو سترها والتكتم عليها!...

وأخذت كل منهن تدلي بدلوها، وتتحدث كما يحلو لها. فجنّ جنون «ليبارسكي»: فهؤلاء الرجال، بالفعل يمكن أن يرتكبوا أسوأ الحماقات وزوجاتهم- وكلهنّ مهووسات! - بدلاً من أن يعملن على تهدئتهم، فإنهنّ يثرنهم. وقال:

- سأوجّه، هذا المساء تقريراً إلى الإمبراطور، أطلب فيه الأذن بفتح النوافذ، وأنتن، من جهتكن، اكتبن إلى من تراسلونهم عادة: أقاربكم، أصدقاءكم، من لكنّ بهم علاقة من أصحاب النفوذ، واصفين السجن بأنه أسوأ وضع. وسأدع رسائلكنّ تمر. وستقرؤها الرقابة وسترفع عنها تقريراً إلى الإمبراطور. وحيال ضخامة وكثرة الاحتجاجات، لا يمكنه إلا أن يوافق على طلبي.

- وإذا رفض الموافقة عليه؟

- سوف نلح على طلبنا، بكل الطرق والوسائل، إلى أن يقتنع ويوافق عليه، ولكن، إذا أردتن أن أؤيدكنّ في هذه القضية أيدوني، أنتن، أيضاً: قلن لأزواجكن بأن يلتزموا الهدوء التام...

فوعدنه بذلك. وتم الاتفاق والتحالف. فصاحت «بولين أنانكوف»، بمرح:

- ويستطيع «نيقولا بيستوجيف» عمل رسمات ولوحات مائية تمثل مناظر لداخل الزنزانات، ويمكننا أن نرسل هذه الصور مع رسائلنا إلى أصدقائنا، فليس هنالك أي وصف يبزّ ويتفوق على صورة دقيقة وناجحة!

فقال «ليبارسكي»:

- فكرة ممتازة! اطلبن منه القيام بهذا العمل، باسمي، إذن. ولكن، عليه أن يختار جيداً الزنزانات التي سيرسمها، فلو رسم إحدى زنزاناتكن، أيتها السيدات، لأثار المزيد من الإعجاب، بدلاً من إثارته الشفقة والرثاء!

وابتسمت السيدات، وقد سرهن هذا المديح، وشعر «ليبارسكي» بأنّ الأرض التي يقف عليها قد استردّت صلابتها تحت قدميه، وقال: مستأنفاً الكلام:

- وعليه أيضاً، بهذه المناسبة نفسها، أن يرسم بعض مناظر مسكني، أنا، لكي أرسلها إلى «سان بطرسبورغ»، لأني طوال حياتي لم أسكن في منزل قبيح إلى هذه الدرجة!

فقالت «صوفيا»:

- وماذا تعيب على هذا المنزل، فهو فسيح، وحسن الإنارة...

وقالت «ماري فولكونسكي»، وهي تلقي نظرة على الأرائك الثقيلة المصفوفة بجانب الجدران، وعلى الإسكملات الموضوعة كالنجوم أو حجارة الحدود، في زوايا الغرفة، الأربعة.

وأبدت «اليكسندرين مورافييفّ» رأيها، قائلة:

- يكفي القيام ببعض الترتيبات والتعديلات البسيطة!

فبدا متردداً، لأنه يخشى أن يفقد هيبته، فيما لو تقبل نصائحهن ومن جهتهنّ، فقد تابعن إحالة نظراتهن على كل شيء، بشكل ينم عن الرغبة بالترتيب والتنظيم، وكأنهن يملكن المنزل، لدرجة أنّ «ليبارسكي» بدأ يشعر أنه لم يعد تماماً في بيته وتمتم:

- لم أجرؤ على أن أطلب مساعدتكنّ...

ولم يطلبن منه أن يكرر ذلك. فبدأن بترتيب المكتب، حيث كنّ موجودات فيه. ونادى «ليبارسكي» أربعة جنود لمساعدة السيدات. فحصلت بلبلة كبيرة، ونقلت بعض قطع الأثاث من أماكنها، والحقيقة أنّ آراء السيدات وأذواقهن، بشأن تلك الترتيبات لم تكن متفقة ومتطابقة، وقد حصلت بعض المناقشات حول العديد من التفاصيل والأمور البسيطة، ولكنهن، في كل مرة، كنّ يتوصلن إلى تسوية، يوافق عليها الجميع. ومن شدّة حماستهن أثناء العمل، فقد نسين أنّ الجنرال موجود بينهن، وكنّ يتحدثن عنه وكأنه قد منع من أن يبدي لهنّ رأيه بأيّ شيء.

- سيكون مكانه هنا أفضل، لكي نعمل، والنافذة وراء ظهره... أو بانحراف بسيط.. نعم!.. نعم!.. وضعه يصبح مناسباً جداً، هكذا!... الضوء يأتيه من جهته اليسرى...

يجب أن نقرب له هذا المكتب، لكي لا يضطر للنهوض إذا احتاج أن يتناول عنه إحدى الوثائق!...

فاستسلم «ليبارسكي» لسعادة غمرته، وهو يرى هؤلاء النسوة اللواتي يمكن أن يكنّ بناته، وهنّ يعتنين بشؤونه بكل رقة ولطف، ويدللنه بهذا الشكل! ومن المكتب، ذهب الجميع إلى الردهة الكبيرة، ثم إلى الردهة الصغيرة وإلى قاعة الطعام، ثم إلى غرفة النوم، وأخيراً ذهبوا إلى الديوان، حيث أخذ بعض الكتبة يتابعون بانزعاج تبديل أماكن طاولاتهم، كراسيهم وأضابيرهم.

وفي كل مكان، بعد مرور العاصفة، كان يكتشف منظر جديد، وبيئة، وزينة جديدة وجميلة. وكان الجنرال يتبع خطوات تلك الساحرات، قائلاً في سره: «ربما ينبغي أن أدعوهن لتناول طعام العشاء، مكافأة لهن، ولكي أشكرهن على ما بذلن من جهد، ولكني، عند ذلك يجب أن أدعو

أزواجهن أيضاً. وهؤلاء الأزواج هم سجنائي. ولذلك فهذا مستحيل، نعم مستحيل!...»

وعندما انتهت الترتيبات، أوعز بأن تقدم لهنّ «الشمبانيا» في مكتبه. فوافقت السيدات على أن يتناولن معه قليلاً من هذا الخمر.

وجميعهن كانت وجناتهنّ موردّة بعد عراكهن مع المفروشات وقطع الأثاث. وبعد انصرافهن، جلس «ليبارسكي» إلى مكتبه وبدأ بكتابة تقريره عن مساوئ البناء الموجودة في سجن «بيتروفسك» ولم يسبق له أبداً أن أبدى مثل هذه القسوة على الأخطاء الإدارية.

وكان يتوقف عن الكتابة أحياناً، ويقرأ ثانية ما كتبه، خشيةً من أن يكون قد بالغ في النقد واللوم. ولكنه ما يلبث أن يعود إلى التفكير بالسيدات فيتناول الريشة ويستأنف الكتابة بقوة وحزم.

★★★

وأرسل «ليبارسكي» تقريره، والسيدات أرسلن رسائلهنّ المتضمنة انتقاداتهن واعتراضاتهن، وأرفقن تلك الرسائل ببعض الصور والرسوم التي عملها «نيقولا بيستوجيف»، وبانتظار ردود الفعل التي ستصدر من «سان بطرسبورغ»، استأنفت الحياة سيرها المنتظم المعتاد في «بيرتوفسك». وكان جرس الاستيقاظ يرنّ في الساعة السابعة صباحاً، وبينما تبقى الزوجات مرتاحات في أسرّتهن، كان الرجال ينهضون، يغسلون وجوههم، يرتدون ملابسهم وينادون الحارس الذي يجلب الشاي والخبز الأسود. وبعد أن تساعد النساء أزواجهن على تنظيف وترتيب الغرف، يخرجن من السجن، في الصباح الباكر الذي يغشى جوّه ضباب كثيف، وقد ارتدت كل منهن معطفها، ويسرعن خلسة وكأنهن هاربات من ذلك السجن وهن يرتجفن من البرد، نحو بيوتهن عبر طريق تكثر فيها الوحول. كنّ على عجلة من أمرهن، متشوقات لرؤية أبنائهن، ولترتيب زينتهنّ وإنجازها. ولأنّ الجنرال

لم يسمح للخادمات بالدخول إلى السجن فكن يقمن ببعض الخدمات والأعمال اللازمة هناك، في المنزل.

واستأجرت «صوفيا» غرفتين مفروشتين في منزل مهندس يعمل في المعمل، وخادمة وأحد العمال. وكانت تذهب إلى هناك، بينما يكون «نيقولا» قد ذهب مع رفاقه، إلى العمل، وهذا العمل كان بالحقيقة أقل جدوى، وأكثر عبثية من العمل الذي كانوا يقومون به في «تشيتا».

فلكي يشغلهم، كان «ليبارسكي» يرسلهم، تارة إلى معمل صهر وسكب المعادن، لكي يدفعوا العربات النقالة- ولكنّ العمال هناك كانوا يتذمرون من رعونتهم وعدم مهارتهم- وتارة، يرسلهم إلى المطحنة- ولكن لم يكن يوجد هناك كثير من الحبوب المعدة للطحن كي تكفي لتشغيل الجميع، لذلك كانوا يعملون بالتنظيف والتعزيل، وبمساعدة عمال البناء بنقل الحجارة ومواد البناء الأخرى.

وعند الظهر، كان «الأمراء السجناء» - كما كانوا يلقبونهم في البلدة- يعودون إلى السجن لتناول طعام الغداء. وهناك، يلتقي الأزواج بزوجاتهم، وقد تأنقن بزينتهن. فيتناولون الطعام في الممرات، على أقسام، وعلى دفعات متوالية، لأنّ الأمكنة لا تتسع للجميع، دفعة وحادة، ولكنّ الأزواج والزوجات بدلاً من تناول طعام السجن المعتاد، كانوا يجلبون بعض الأطعمة من منازلهم، حيث كان الخدم يسلمونها في سلالٍ مغطاة إلى مركز الحراسة، ومن هناك يجلبها أحد الحجاب إلى الزوجين، اللذين لم يبق عليهم سوى تسخينها على المدافئ، فكانت تختلط أبخرة وروائح الأطعمة، مع بعضها. ويجري تبادل بعضها بين الموائد المختلفة. وكانت كل سيدة تتحدث عن مهارة طباخها، وتتم المقارنة بين مهاراتهم. وبعد ذلك، يُرجع الحاجب الأواني الفارغة إلى الخادم الذي ينتظرها في الخارج، بالقرب من باب السجن.

وعند الساعة الثانية بعد الظهر، يذهب المساجين، مرة أخرى للعمل، الذي يستمر حتى الرابعة والنصف أو الخامسة، ثم يعودون لكي يتمشوا ويتنزهوا في الباحة الرئيسة، ويتناولون الشاي، في الساعة السادسة، ويطالعون على ضوء الشموع. ونحو الساعة الثامنة، يجتمعون من جديد، لتناول طعام العشاء. وجرس النوم ومنع التجول يُقرع في العاشرة مساءً. ويوم السبت يقتاد جميع المساجين إلى الحمامات. وتوزيع البريد يتم يوم الأحد. وفي يوم الأحد، أيضاً، يأتي أحد الكهنة لزيارة المساجين، الذين لم يكن يسمح لهم بالذهاب دائماً إلى الكنيسة. فكانت النساء تذهب إليها بالنيابة عنهم، وتجلب لهم منها «الخبر المبارك». وهنالك استثناء وحيد، كما كانت الحال عليه، في تشيتا: ليلة عيد الفصح، حيث كانوا يشهدون القداس، ويتناولون «القربان». وكان بينهم بعض شديدي الإيمان، ولذلك كانوا يتألمون لبقائهم بعيدين عن المشاركة في النشاطات والحياة الدينية. ولم يكن «ليبارسكي» يستطيع أن يتحمل مسؤولية السماح لهم بالذهاب إلى الكنيسة، ولكنه منحهم تسهيلات وتنازلات قيّمة أخرى. أما بالحقيقة فإنّ كلاً من هذه التسهيلات كان يرافقها بعض الشروط والقيود التي تقلل من أهميتها وتحدّد مداها، وهكذا، فإنه، على سبيل المثال، عندما منح المساجين الحق بحيازة الورق والحبر والريش، في زنزاناتهم، منعهم، كما كانت الحال في الماضي، من مراسلة أقاربهم وأصدقائهم، بصورة مباشرة. وكذلك فكان يرى أنه إذا كان للنساء الحق بأن يبقوا في السجن طوال المدة التي يرغبون البقاء هناك، فلم يكن مسموحاً للرجال بالذهاب إلى مساكن زوجاتهم إلا إذا قرّر الدكتور «وولف» أنهن مريضات، وبحاجة للمساعدة وللرعاية. وكان يبدو أنّ هذه العراقيل والقيود ضد تمتع المساجين بالحرية والسعادة، لم يكن القصد منها جعلهم يلتزمون بالنظام والانضباط، بقدر ما كان المقصود منها أن يظل الجنرال مطمئناً على

شؤون عمله. وهي تشكل انتقادات ضميره المهني، الأخيرة، وكان يظنّ أنه لو تساهل كثيراً، وسلّم بكل هذه الأمور، فكأنه قد تخلى تماماً عن السلطة التي منحته إياها وظيفته. وهكذا فقد استمرت الزوجات بكتابة الرسائل نيابة عن المساجين، وكأن هؤلاء أميون، لا يجيدون الكتابة والقراءة. ومع ذلك، فإنهم كانوا يجدون متعة وسعادة، بالعمل خلال ساعات طويلة بالكتابة وتسويد العديد من صفحات الورق. ومعظمهم، انطلقوا في المجالات الأدبية، فأخذوا ينظمون الشعر، ويضعون الدراسات التاريخية السياسية والاجتماعية، ويدونون المذكرات الشخصية. وبدأ «نيقولا» العمل في تأليف دراسة تاريخية عن منشأ الحركة الثورية في روسيا.

وأصبحت مكتبة السجن تضم ما يقرب من أربعة آلاف كتاب، ولا يزال يرد إليها كثير من الكتب، بواسطة البريد.

وبترخيص من «ليبارسكي» اشتركت «تعاونية» المساجين، بجميع الصحف الروسية، وببعض الصحف الأجنبية: «صحيفة المناقشات»، «الدستورية»، «صحيفة فرانكفورت»، «المجلة الموسوعية»، «المجلة البريطانية»، «مجلة العالمين»، «مجلة باريس»... وبموجب النظام الذي وضعه «متمردو كانون الأول» بأنفسهم، يستطيع كل قارئ الاحتفاظ بالصحيفة لمدة ساعتين، وبالمجلة لمدة ثلاثة أيام. وكان الحراس يمرون من غرفة إلى أخرى، وهم يحملون جداول، لتسجيل مواعيد الإعارة، باليوم والساعة، وعناوين النشرات والمطبوعات، وأسماء المساجين الذين يستعيرونها، ويجرون عمليات التبادل، عند الحاجة إلى ذلك. واستؤنف إلقاء المحاضرات كالتي كانت تلقى في «تشيتا» حول موضوعات مختلفة ومتنوعة. وكما كان يحصل في «تشيتا» أيضاً، فقد افتتح هواة الأشغال اليدوية، مشاغل للنجارة، للخراطة، لتجليد الكتب، لإعادة وتجديد نعال الأحذية، وللخياطة، في الجناح المخصص لإدارة السجن. وفي غضون ذلك، كانت «التعاونية» قد

تدعّمت وتوسّعت. لأنّ المساجين الأكثر غنى، كانوا يمدّون صندوقها بمبالغ ضخمة، لكي يستطيع، رفاقهم الذين كانت مساهمتهم أقل أهمية، من العيش في بحبوحة، ودون أن ينقصهم شيء. حتى أنه قد أقيم نظام للتعاون المشترك والمتبادل، يسمح بتخصيص رأسمال صغير لأي سجين عند مغادرته السجن، وإرساله إلى المكان الذي تحدد فيه إقامته الإجبارية. وجميع حسابات هذه التعاونية كانت تراقبها وتدققها لجنة مكونة من أعضاء ينتخبهم المساجين. وكان للتعاونية رئيس، خازن، مسؤول عن المشتريات، مسؤول عن المطبخ، واختصاصي بالعناية ببستان الخضار والفواكه...

كانت السيدات تحسّن الطعام المشترك الذي تقدمه إدارة السجن للمساجين، والذي يتناوله الرجال العزاب الذين يعيشون منفردين لوحدهم، بإضافة بعض المأكولات إلى مائدتهم. وكان بعضهن قد اشترين بقرة أو بقرتين، للحصول على الحليب عندما يرغبن بذلك. وغيرهن أخذن يربين الدواجن، في حدائقهن. وهناك منهن من اشترين بعض الخراف وعهدن بحراستها والعناية بها إلى أحد القرويين. لأنهن كنّ يتلقين من ذويهن، إعانات مالية مهمة، إن كان بصورة رسمية، أو خفية بواسطة المسافرين أو التجار. وكانت «صوفيا» بين اللواتي كنّ أقل حظاً في هذا المجال. والنقود التي أرسلها حموها سابقاً تشكل موردها الوحيد. وهو لم يستمر بإرسال النقود لكنّته، لأنه، دون شك، كان ينتظر أن تطلب هي منه أن يفعل ذلك. ولكنها كانت أكثر كبرياءً، من أن تتنازل لمثل هذا الطلب. ولم يمنعه هذا من الاستمرار بالكتابة لها بانتظام، لكي يبلغها أخبار «سيرج» الصغير. وكثيراً ما كانت تقرأ رسائله أكثر من مرة، لكي تحاول أن تتصور الطفل وهو يكبر ويترعرع في «كشتوفكا».

ولكنها لم تكن تتحدث إلى أحد عن عاطفتها نحو هذا الصغير، وعن حنينها إليه، لأنها بالحقيقة، بطبيعتها لم تكن تميل أبداً إلى البوح

بأسرارها إلى أيّ كان. ومع ذلك، فإنها بعد أن اغتيبت، وقوطعت من قبل كل الزوجات، تقريباً، عادت فوجدت نفسها، من جديد، محاطة بالصديقات واستعادتها للحظوة بينهن، حصلت، دون شرح وتفسير، ودون مقدمات أو تمهيد، وشيئاً فشيئاً، أخذت تشعر أن الجو حولها أصبح دافئاً، وأنّ تقدير بقية السيدات لها، قد عاد، دون أن تعمل شيئاً لكي تستردّه. وتجمع الزوجات بعد أن تفرق، لبعض الوقت، عاد فاتحد، بل وأصبح أكثر قوة، بوصول القادمتين الجديدتين: البارونة «روزين» والسيدة «يوشنفسكي». واللواتي منهن لم يكن لهن بيوت، أقمن أخيراً، كما فعلت «صوفيا» في غرف مستأجرة. ولكي يكنّ في أقرب مكان من أزواجهن، فقد اخترن جميعهن الإقامة في الشارع الذي يؤدي إلى السجن. وهذا الشارع الذي تحيط به، من قديم، أراضٍ بور ومهجورة، أصبح يُعَدّ الحي الذي تقيم فيه زوجات المساجين. وأطلق عليه سكان «بيتروفسك» اسم «شارع السيدات».

وأجمل البيوت كان بيت «آل مورافييفّ». و «صوفيا» كانت تذهب إليه كثيراً، لكي تتبادل الأحاديث مع «أليكسندرين». لأنها ترتاح كثيراً لهذه المرأة الذكية، الطيبة القلب، والصادقة العاطفة. وكانت «أليكسندرين» تعيش قصة: فحبها البريء والشديد للدكتور «وولف» يعرفه الجميع. ولأن «ليبارسكي» سمح لهذا الطبيب بأن يخرج من السجن لكي يزور المرضى في المدينة، فأصبحت تستطيع أن تراه في النهار. وبسرعة عملت على بناء مخبر صغير، قرب منزلها، لكي يستطيع الدكتور «وولف» العمل، وتحضير أدويته فيه.

وكل مساء، على وجه التقريب، كان يعقد اجتماع في إحدى الزنزانات الخاصة بالمتزوجين. وكانت «ماري فولكونسكي» قد غطت جدران زنزانة زوجها بقماشٍ حريري، برتقالي اللون، وأحضرت من «ايروكوتسك»

أريكتين من خشب الزان، خزانة مكتبة، وسجادة عجمية. وفي هذه الزنزانة، وضع أيضاً «البيانو» الذي كان في سجن «تشيتا».

وبعد تناول طعام العشاء، وحتى إعلان منع التجول، كانت تعزف عليه بعض ألحان «غلوك»، وألحان «بلانجيني»، وتقرأ القصائد والأشعار وتناقش الأخبار السياسية التي نشرتها الصحف ويجرب التعليق عليها. وكانت جلبة الأصوات، والألحان، التي تصدر عن الزنزانة، تثير حزن المساجين غير المتزوجين، القابعين في خلوة زنزاناتهم. وفي لحظات معينة، كان يحصل لدى «صوفيا» انطباع بأنها تشارك في حفلة استقبال اجتماعية راقية، في «سان بطرسبورغ»، وفي صالون خاص يضم بعض الأصدقاء الحميمين. ولكنّ الحارس الكسيح، الذي يراقب الممر، كان يوقظها من أحلامها ومن أوهامها، عندما يمدّ رأسه من فتحة الباب، ويهزّ حزمة مفاتيحه:

- لقد حان وقت النوم، أيها السيدات والسادة!.

ثم يحبس كل زوجين في زنزانتهما: دفع المزلاج، دار المفتاح دورتين في القفل، ودورة واحدة دارها مفتاح آخر في قفل ثانٍ. و «صوفيا» التي أصبحت لوحدها مع «نيقولا» تظل تتحدث، عبر الظلام، لفترة طويلة، عن الأمور البسيطة الكثيرة التي تشكل حياتهما اليومية وكانا يتناقشان أيضاً في شؤون مستقبليهما، هذا المستقبل الغامض والمجهول، الذي لم يكن هنالك أي دليل يساعد على تبين ملامحه، وعلى التنبؤ كيف سيكون.

كان «نيقولا» يعتقد أنه سيرسل لكي يقيم بصورة إجبارية، في مكان معين، بعد أربع سنوات، على أبعد تقدير، أي سنة «١٨٣٤» ولكنّ «صوفيا» تظل مصرة على الاعتقاد بأنّ القيصر سيخفّف عقوبة «متمردي كانون الأول»، بمناسبة ذكرى حدث من الأحداث المواتية والسعيدة. وبعد أن مرت وانقضت فرحة التلاقي من جديد، واستعادة العلاقات، وجعلها سوية كما في السابق. كانت تعيش سعيدة، بكل بساطة، مع «نيقولا»، وتشعر كأنّ

حرارة هادئة ومتزنة تغشى جسمها، حتى أن الوقت الذي كانت تمضيه وهي تقوم بأعمال بسيطة واعتيادية، أخذ يرتدي طابعاً يتسم بالمحبة والحنان، لم تكن قد تبيّنته أو شعرت به، قبل ذلك الحين.

ولكم كانت تود لو أنها تتمتع بمزيد من الذكاء لكي تستحوذ بشكل أفضل على هذا السرور المبعثر عبر لحظات الزمن، وتتعم به بصورة تامة- وفي بعض الأحيان، كانت تفكر بـ «نيكيتا» من جديد، ولكن كما يفكر المرء بحلم بعيد، مر عليه زمن طويل، محبب إلى النفس، ولكنه لا يتمتع بصلابة المنطق وقوته. كان يخيل لها أنها عرفته في حياة أخرى، وفي فترة لم تكن قد التقت بها، بعد، بزوجها.

والواقع الحقيقي، هو هنا، بوجود «نيقولا» وحضوره. وليس هنالك أي ذكرى تساوي حضوراً واقعياً. وهي كانت مؤهلة للتمتع بالأفراح المادية، والملموسة، وغريزتها تحنيها وتميل بها نحو الأرض، نحو الإنسان. وكم مرة لامت فيها «نيقولا»، وعابت عليه أنه يسر ويرضى بأفكار سياسية ضبابية، تكاد تكون خيالية أو وهمية، بينما كان هناك الكثير مما ينبغي عمله، مباشرة وعلى الفور من أجل القرويين والفلاحين الذين يعملون في ملكيته؟ كان هو الخيالي الذي يعيش في الأوهام. وكانت هي المتعلقة والواقعية، التي تريد أن تعمل بما يوحي به العقل والمنطق. وها هي تعود إلى القيام بدورها الحقيقي. وبعد بعض التردد، طلبت من زوجها أن يحلق ذقنه من جديد، وعندما يصبح بلا لحية، فسيبدو أكثر فتوة وشباباً. وهو قوي وجميل. وفي الليل، عندما كانت تستيقظ، وهي مستلقية بجانبه، يعود فيراودها الأمل بأن تنجب منه ولداً.

★★★

وفي شهر كانون الأول (ديسمبر) على الرغم من التقرير الذي أرسله الجنرال، حاكم السجن، والرسائل والصور التي أرسلت إلى «سان

بطرسبورغ»، لم يكن القيصر قد أعلن قراره بعد بموضوع فتح النوافذ في جدران الزنزانات. هذه النوافذ التي كانت تسبب الكوابيس للجنرال، وكان يبدو لها، بالنسبة له، معنى خفي، غيبي. وهو يُعَدّها رموزاً للضياء وللنور، للذكاء وللإيمان. وأن يرفض تحقيقها لهؤلاء الرجال، فذلك لا يقل خطورة عن حرمانهم من معونة ونعمة الدين. والحكومة التي تكون مؤيدة للجدار الأصم والملتحم الذي لا ينفذ منه لا نور ولا هواء، لا يمكن أن يحبها الله. وقد تلقى وهو في هذا التهيؤ وهذه الحالة النفسية، وبصورة مفاجئة، أن الثورة قد اندلعت في «فرصوفيا»: فقد قام بعض المتمردين البولونيين، الذين ألهبت حماستهم الثورة الفرنسية التي نشبت في شهر تموز (يوليو) ومعظمهم من الطلاب والضباط وضباط الصف، بذبح أحد الجنرالات، وقتلوا أحد رؤساء الشرطة، وأرغموا الدوق الأكبر «كونستنتان» على الهرب. والقيصر، الذي بدا له أن التفاوض مع المجلس الذي يتولى الحكم في بولونيا، أصبح مستحيلاً، فقد كلف الفيلد ماريشال «دييبيتش»، الذي سبق له أن انتصر على الأتراك، باجتياز الحدود مع جيشه القوي، وسحق المتمردين الذين أشعلوا تلك الثورة. ومع اعتراف «ليبارسكي» بأن في تمرد هؤلاء الشباب، وثورتهم على السلطة الروسية شيئاً من الجنون، فإنه لم يكن يستطيع أن ينسى أنهم أبناء وطنه.

وباعتباره جنرالاً في الجيش الروسي، فإنه يجب عليه أن يدين عملهم وأن يستنكر تصرفاتهم، ولكنه كبولوني، فهو لا يستطيع إلا أن يعجب بهم وأن يرثي لحالهم، في آن واحد. ويا له من توافق غريب: فالقضية بدأت بالنسبة لهم أيضاً، في شهر كانون الأول (ديسمبر)! إنهم إذن «متمردو كانون الأول» من نوع آخر، بل من جنسية أخرى.

والحال هي أن الآراء بين المساجين بدت مختلفة ومتباينة، والتعاطف الذي يشعر به معظمهم مع المتمردين، بدا مشوباً بالتحفظ والتردد، لأن

البولونيين لم يكونوا يحاولون التخلص من نير القيصر واستبداده، وحسب، ولكنهم يريدون أيضاً، وعلى الخصوص، الانفصال عن الإمبراطورية الروسية. وهذا الأمر، يجد الروسي وإن كان ليبرالياً ومتحرراً، صعوبة كبيرة في تقبله. وعلاوة على ذلك، فإن شرف الجيش وسمعته كانا يتوقفان على نتيجة القتال، وكثير من المساجين ما زالوا يتذكرون جيداً بأنهم كانوا ضباطاً في الحرس الإمبراطوري. وأدعى «نيقولا» أن انتصار البولونيين، يجب أن يتمناه الجميع، لأنه سيؤدي، دون شك، إلى إحداث تغيير في نظام الحكم في روسيا. وقال في إحدى الأمسيات، في زنزانة آل «تروبيتزوكوّي»:

- يجب أن نضع مثلنا الأعلى الذي يتمثل بالنظام الجمهوري، فوق كبريائنا الوطني!

وهذا التصريح أثار جدلاً حاداً جداً، ولكن الذي أعلنه استطاع في نهاية الأمر إقناع مستمعيه بهذا الرأي، الأمر الذي جعل «صوفيا» تشعر بفخر وزهوٍ شديدين. والحقيقة، هي أن بداية الحملة التي حصلت في مطلع الشتاء، كانت نتيجتها لصالح الروس ومواتية لهم، بشكل واضح، لدرجة أنه لم يكن أحد يستطيع، نظرياً، أن يأمل أو أن يتوقع نجاح البولونيين وفوزهم في ثورتهم. ومنذ الأيام الأولى من شهر شباط (فبراير)، كان «دييبيتش» قد طرد العدو ودفعه إلى داخل جدران «فرصوفيا»، وتوقف هناك بملء إرادته، ناوياً محاصرة المدينة، وجعلها تتعرض لمجاعة تقضي عليها. وأثناء ذلك، كان وباء الكوليرا، الخطير، ينتشر في روسيا، قادماً من الجنوب، ومتجهاً صعوداً نحو العاصمة.

وقضى على القسم الأكبر من أفراد الجيش. كما كان ينشر الموت بشكل متزايد، بين السكان المدنيين. وفي جميع المناطق والجهات، أقيمت نطاقات الحجر الصحي.

وهــذه العوائــق منعــت الآنــسة «كاميليــا لودانتــو» مــن الــسفر إلى «بيتروفسك»، الأمر الذي أحزن خطيبها «ايفاشيف». وكان لقسوة الشتاء، والأخبار السياسية، السيئة، وقضية النوافذ، تأثير سيئ على مزاج «ليبارسكي» أيضاً، فلم يكن يجد له سلوى إلا بالاختلاط مع مساجينه ومعاشرتهم. فكان يقوم بزيارتهم كل يوم، ويمضي وقتاً طويلاً معهم في الزنزانات. وذات مساء، بينما كان «نيقولا» و «صوفيا» يتناولان الشاي في زنزانتهما، رأياه يدخل، وعلى صدره وسام جديد، بين جميع الأوسمة الأخرى: «صليب الفارس القديس فلاديمير». وعندما هنآه على تكريمه بهذا الوسام، شرح لهما بلهجة تنم عن الضيق والارتباك، بأنه تلقى هذا التكريم، لكونه حقق نقل المساجين من «تشيتا» إلى «بيتروفسك» دون أن يفقد أي رجل منهم، ودون حدوث أي مشكلات يمكن أن تذكر. وقال، وهو يحدق بشدة بـ «نيقولا»:

- لولا قليل، لما أنعم علي بهذا الوسام، أبداً، أليس كذلك؟

فتمتم «نيقولا»

- كان ذلك سيحزنني كثيراً، يا صاحب السعادة!

فهز «ليبارسكي» كتفيه:

- يمكن أن تكون مخطئاً بذلك، فكل هذا، قليل الأهمية بالنسبة لي!

ولم يكن يقول ذلك، بتواضع مصطنع. فهذا الدليل على التقدير، الذي كان فيما مضى يتمناه، ويرغب كثيراً بالحصول عليه، لم يعد يحدث لديه أي فرح أو سرور. وعلى النقيض من ذلك، فقد شعر بالانزعاج لتلقيه هذا الوسام:

لأن الإمبراطور، عرّضه لسخرية «متمردي كانون الأول».

بمكافأته على الإشراف على تلك الرحلة، وكأنه حقق نصراً عسكرياً، بقوة السلاح. وقد سبق لبعض هؤلاء السادة، الذين التقى بهم في الباحة أن قدموا له التهنئة، وعلى شفاههم ابتسامة ساخرة. ودهش عندما تبين له بشكل

مفاجئ، أنه، في حالات معينة، يهمه رأيهم أكثر من رأي القيصر. وهو مع ذلك لا يستطيع أن ينزع هذا الصليب عن بزته، لأن الإمبراطور سيحاط علماً بذلك. ويمكن حينئذٍ أن تنقض عليه الصاعقة، ويغوص في الهاوية التي يكتنفها الظلام، في كافة أرجائها!... والأفضل هو عدم التفكير في ذلك.

وقال، وهو يجلس على الأريكة التي قدمها له «نيقولا»:

- لم يرد، حتى الآن، أي شيء بشأن النوافذ. وقد أرسلت تقريراً ثانياً...

فقالت «صوفيا»:

- لا بد أن القيصر لديه، في الوقت الحاضر، أمور أخرى، غير شكوانا وانتقاداتنا، تشغل فكره. وما هي أخبار الحرب؟

- ليس هنالك معارك مهمة. والثوار يناوشون الجيش الروسي.

وينبغي انتظار الربيع، لكي تستأنف المعارك الكبيرة. إنه أمر مخيف! والمغامرة دامية! دامية ولا جدوى منها!...

فقال «نيقولا»:

- ربما لن يكون الأمر كذلك، يا صاحب السعادة، حتى ولو سحق المتمردون، وقضي عليهم، فإن مشروعهم لن يكون عبثياً، وغير ذي جدوى! فهو يلي مشروعنا، ويهيئ لمشاريع أخرى، تحصل في الغد القريب...

فهز «ليبارسكي» رأسه الكبير، وباروكته الباهتة، وغمغم، متابعاً شرح فكرته:

- لقد أساؤوا اختيار الوقت للقيام بثورتهم! كان ينبغي عليهم أن يتحركوا، ويقوموا بها، سنة ١٨٢٨، أو في سنة ١٨٢٩)، عندما كان جيشنا مشغولاً في حربه مع تركيا... ولاحظ فجأة، أنه ينحاز بشكل مكشوف إلى جانب الثوار، ولذلك، صحح بلهجة حادة:

- بالطبع، أنا أتكلم، مبدياً هذا الرأي، من وجهة النظر الإستراتيجية، وعلم وضع الخطط الحربية!..

وسألته «صوفيا»:

- أتريد كأساً من الشاي، يا صاحب السعادة؟

فأجابها:

- بكل سرور.

وكان ذلك الإلهاء مناسباً ومجدياً، فبين جرعتين من الشاي، أخذ يتفحص الزنزانة بنظراته: الجدران بدأت تغطيها الرطوبة، والسقف قد تشقق، وتباعدت قطع الخزف التي تغطي المدفأة، عن بعضها.

فقال، متأوهاً:

- كل شيء يبدو سيئاً وفاسداً. والمهندسون والمتعهدون طلبوا أغلى الأسعار وأضخم الأجور، وأشادوا بناءً غير صالح، بأرخص الأسعار! إنهم هم اللصوص، وأنتم الذين تسجنون!

كانت الشموع ينبعث منها صوت كالنشيش وهي مشتعلة في حاملاتها النحاسية. والريح الجليدية تعصف في طول الممر وعرضه، ولكن الجو في الغرفة، كان دافئاً. وقدمت «صوفيا» بعض أقراص الحلوى التي صنعها طباخ «أليكسندرين مورافييف». ولم يعد لدى «ليبارسكي» رغبة بالانصراف، فقد أخذ يأكل ويشرب، وهو مسترخٍ وبادي الارتياح، متمتعاً بحياة عائلية. وتمتم:

- لكم هذا حسن وجميل!

فسألته «صوفيا»:

- وما هو الحسن والجميل، يا صاحب السعادة؟

- وجودكم وحياتكم هنا!.... أرجو المعذرة، فأنتم لا تستطيعون تفهم ذلك!.... يجب أن يكون أحدكم في مثل سني، ووضعي، لكي يفكر هكذا!.... وسيأتي يوم، يخلى فيه سبيلكم!... فتذهبون! وسأبقى، وحيداً، بمفردي!...

وبدا وجهه واجماً، فوق صليب «الفارس سان فلاديمير» الذي منحه إياه «القيصر، منذ فترة وجيزة. وبشكل مفاجئ، أخذ يتصور برعب شديد، انصراف مساجينه، وتوزعهم في جهات مختلفة.

فماذا سيحل به وماذا سيعمل، عندما لم يعد لديه أحد، لكي يراقبه، ويشرف على حراسته في سجنه؟!

فقال «نيقولا» بلهجة تنم عن المرارة:

- إنّ ذهابنا من هنا، لن يحصل في وقت قريب.

- بلى! بلى! سوف تحصلون على تخفيف العقوبة، كلكم. أنت أولاً، ثم يأتي دور الآخرين! وخلال خمسة عشر سنة، لن يظل في «بيتروفسك» سجين واحد! وسوف ترون!...

وأخذ يحسب، وهو يتكلم، أنه بعد خمس عشرة سنة، يكون قد مات.

فمرت سحابة سوداء أمام عينيه وأضاف بلهجة تنم عن الحزن الشديد:

- وسيكون هذا آخر منصب أشغله.

وتبادر إلى ذهنه: «سأدفن هنا. وأين أكون أحسن حالاً، من وجودي، في راحتي الأبدية، فوق هذه الرابية الجميلة، التي تطل على السجن؟» وكان يبدو مكتئباً. وفي غاية الحزن، لدرجة أن «صوفيا» لامته وأنبته على ذلك. وبدت «بولين أنانكوف» وزوجها، عند عتبة الباب، وبعد ذلك أتى الزوجان «تروبيتزوكوّي» والزوجان «فولكونسكي»، وقد جذبتهم جلبة الأصوات. فدعت «صوفيا» «ليبارسكي» لتناول طعام العشاء معهم، فتردد لحظة، ثم وافق، وكأنه يثب ويلقي بنفسه في الماء.

واستمرت السهرة حتى العاشرة، وعندما أتى الحارس الكسيح، حاملاً رزمة مفاتيحه لكي يحبس كل زوج وزوجته في زنزانتهما، كان الجنرال هو الذي بدا أنه محروم ومعاقب. وفاجأه رنين جرس منع التجول، وهو في الممر، أمام صف الأبواب المغلقة. وخرج، محني الرأس، رد على تحية الخفراء، وسار متوغلاً في الظلام الدامس، الذي كانت تتطاير عبره ندائف الثلج.

٢

المحترم «نيقولا ميكايلوفيتش»،

«أرى لزاماً عليّ أن أنقل لك خبراً محزناً، وهو أن والدك المحترم:

«ميشيل بوريسوفيتش» قد توفي بتاريخ ١٨ شباط (فبراير) الماضي في «كشتوفكا»، بعد أن أصيب بمرض الكوليرا الذي انتشر في منطقتنا، وأودى بحياة كثير من الناس. وقد مات كمسيحي متمتعاً بالإيمان، ومؤدياً لواجباته الدينية، وهذا سيخفف، على ما أعتقد، ألمك وحزنك عليه. وقد قرر في وصيته إجراءات، ليست لسوء الحظ، في مصلحتك. لأنه اعتبر أنك تصرفت كفرد نكث بالعهد، وكابن غير مؤهل لأن ترثه، وأنك بذلك قد دنست اسم «آل أوزاريف» وهو لذلك يحرمك من الميراث، ويطلب أن تقسم ثروته العقارية بين كنته، وحفيده القاصر. وزوجتك، وهي خاضعة لوضع المحكومين السياسيين لا تستطيع بالطبع التصرف بهذا الميراث، بأي حال من الأحوال، ولكني مكلف، بصفتي عميد الطبقة النبيلة في منطقة «بيسكوف» بالسهر على مصلحتها، وبأن أدفع لها نصف قيمة إيرادات الملكية. ولذلك فإني أرسلت للجنرال «اليبارسكي» لحسابها مبلغ خمسة آلاف ومائتي وسبعة عشر «روبلاً»، طبقاً للبيان المرفق.

وفيما يتعلق بابن أختك «سيرج»، فإن والده «فلاديمير كريوفيتش سيدوف» هو الذي سيتولى تربيته. وهو، علاوة على ذلك، يقيم في «كشتوفكا»، ويشرف بنفسه على جميع شؤون الملكية. والخالق، بحكمته التي لا حدود لها، لم يكن يستطيع أن يتصور حلاً أفضل من هذا.

وأعتقد أنك ستوافق على منح ثقتك التامة لصهرك، فهو، بالإضافة إلى ذلك يحظى بتأييد الحاكم وبتأييدي، أيضاً.

تفضل، أيها المحترم «نيقولا ميكايلوفيتش» بقبول التعبير عن فائق إخلاصي وعن تعازي الصادقة».

«ي. ف. ساخاروف،

عميد الطبقة النبيلة في منطقة بيسكوف».

كانت «صوفيا» تقرأ الرسالة، من فوق كتف «نيقولا»، ووصلا سوية إلى السطر الأخير، ونظر كل منهما إلى الآخر.

فتمتم «نيقولا»:

- ليرحمه الله! فليس هنالك في العالم من أراد لي الشر والأذى، أكثر منه! ورسم على صدره إشارة الصليب.

وقالت «صوفيا»:

- ومع ذلك، فإني لم أكن أعتقد أنه يمكن أن يحرمك من الميراث!

- أما أنا، فكنت متأكداً من ذلك، فقد ظل منطقياً مع نفسه، حتى النهاية. في كراهيته لي، وفي ضعفه حيالك. وهذه النقود، كان ينبغي ألا نقبلها! ومع ذلك، فإننا سنقبلها... لأننا بأمس الحاجة لها! وهذا أمر مؤلم، ومحزن جداً!..

وظلا صامتين، هو جالس على الأريكة الوحيدة الموجودة في الزنزانة، وهي واقفة ومتكئة على المسند، وظل المتوفى يخيم عليهما. ودون أن يغمض «نيقولا» عينيه، كان يتصور وجهاً كثير التجاعيد، بعارضين كثيفين، وحدقتين براقتين، تحت حاجبين ينسدل شعرهما على العينين. ولكنه لم يعد يشعر بالخوف من ذلك «البعبع» بردائه المنزلي المزخرف على الطريقة الألمانية، الذي كان يرعبه، في فترة شبابه. ومهما كان يكرهه، فقد كان هنالك الكثير من الذكريات التي تربط أحدهما بالأخر، بحيث إنه

لا يمكن إلا أن يتأثر، وأن يهتز ويتزعزع حتى أعمق وأدق جذور حياته، بهذا الرحيل غير المتوقع. فالمحبرة المصنوعة من الدهنج، ورائحة التبغ. واليد التي برزت عروقها وبدت عليها أمارات الشيخوخة وهي تمسك متشنجة قبضة العصا، وكثير غير ذلك، من الدلالات والذكريات، التي يعرف هو وحده، مدى تأثيرها في نفسه. وتقبل بسرعة نبأ الوفاة، ولكنه بالكاد بدأ يتقبل الأمر الواقع الجديد. وانتابه إحساس بالفراغ. كما لو أن أرتال جنود المشاة الذين كانوا يسيرون أمامه، قد تساقطوا صرعى كلهم، وأنه وجد نفسه، فجأة، مكشوفاً أمام العدو. وفكر بـ «سيدوف»، فتحول حزنه إلى غضب شديد، وغمغم مزمجراً، وهو يدعك الرسالة:

- لقد توصل الوغد إلى غايته!

ولم يكن يطيق أن يرى هذا الرجل الذي هدده بالتشهير به وأراد أن يبتزه، والذي وشى به إلى «صوفيا» ودفع «ماري» إلى الانتحار، ووسخ وخرب كل شيء حوله، وقد أصبح اليوم سيد «كشتوفكا»، ومالكها. ولا بد أنه يضحك الآن لتحقيقه هذا الفوز، وهو الذي منعه «ميشيل بوريسوفيتش» فيما مضى، من الدخول إلى منزله! فبأي متعة وقحة، يجلس الآن على أريكة حميّه، ويتجول في أملاكه، ويتحكم بفلاحيه، ويحتسي خمره، وينام في سريره وينفق نقوده ويصطاد طيوره ويضاجع خادماته فأين هي العدالة الإلهية، وأين أصبحت عدالة السماء، إذا كان المسؤول عن مصائب أسرة بكاملها، يحصل على أرزاق وأملاك ضحاياه، كمكافأة له على جرائمه الشنعاء؟!

واستأنف الكلام، قائلاً:

- كان علي أن أبحث عنه، وأن أجده، أتحداه ليبارزني، وأن أقتله، عندما كنت لا أزال حراً طليقاً!

وتمتمت «صوفيا»:

- عندما أفكر أن «سيرج» سيربيه هذا النذل!

- نعم! هذا أمر خطير ومخيف! يجب أن نعمل شيئاً ما!

فهزت «صوفيا» رأسها:

- ليس هنالك ما يمكن عمله. فنحن عزل وضعفاء، يا «نيقولا». و «سيدوف» هو والد الطفل ووصيه الشرعي، وإليه تعود إذن إدارة الملكية التي ورثها «سيرج» معي.

- تستطيعين، مع ذلك...

- لا أستطيع أن أعمل شيئاً، فأنا، مثلك، مجردة من جميع حقوقي المدنية، ولم أعد موجودة، في نظر القانون، وعلي أن أنحني وأرضخ للأمر الواقع..

فضرب قبضتيه، إحداهما بالأخرى:

- يا للعار! آه! يا عزيزتي المسكينة! إنك لم تنتهي من اكتشاف كل الأذى الذي سببته لك!

فأمسكت يده وشدت عليها بقوة، كما لو أنها كانت تريد مساعدته على اجتياز معبر صعب، وقالت له:

- اسكت، فالسعادة الحقيقية ليست قضية ظروف ومناسبات.

- إذا أخلي سبيلي، ذات يوم، وإذا استطعت العودة إلى روسيا..

فقالت له، وهي تبتسم:

- ستكون قد تقدمت بك السن كثيراً، لدرجة أنك لن يكون لديك آنذاك، أي رغبة، بالنضال والكفاح! ولا بأن تقاتل أحداً!

فنهض مضطرباً، وعيناه مبتلتان بالدموع، وقد توسعت حدقتاهما بتأثير فكرة قوية راودته آنذاك، وقال:

- هذا صحيح! فنحن لا نستطيع حتى أن نأمل ذلك!..

وظل، حتى المساء، في حالة من الشرود، مستسلماً لأحلام اليقظة، تراوده الهواجس والأوهام، وكأنه أصيب بوهن شديد.

وفي اليوم التالي، استطاعت «صوفيا» أن تواسيه وتشجعه محدثة إياه عن الأشياء التي ستشتريها بالنقود الأولى التي تلقتها من الميراث: بعض المفروشات وقطع الأثاث، بساط وسجادة، كتب، وصور. فكان يوافق على كل ما تقوله. وبجعله يهتم بهذه الأمور البسيطة، كانت تعيد ارتباطه بمجريات الأحداث اليومية، وتعيد له أيضاً حب الحياة والتعلق بها.

وفي الوقت الذي كان فيه الجميع قد نسوا موضوع النوافذ وكفوا عن التفكير بمشكلتها، تلقى «ليبارسكي» رسالة من «ينكندروف» يخبره فيها أن الإمبراطور قد وافق على ما طلبه المساجين في عريضتهم، ولكن ينبغي أن تكون النوافذ صغيرة ومزودة بقضبان حديدية، لكي تكون الغرف، على أي حال، تبدو وكأنها زنزانات في سجن. وبدأت الأشغال في الربيع. وعلى الرغم من توسلات السيدات، فقد وسخ العمال الطلاء والستائر والسجاجيد، وبعض المفروشات وقطع الأثاث.

وبعد أن أنجزوا عملهم وانصرفوا، دخل إلى الزنزانات بعض النور. ومع ذلك فإن تلك الفتحات قد أحدثت في أماكن عالية جداً، لدرجة أن المساجين اضطروا إلى صنع منصات، يجلسون عليها، لكي يستطيعوا القراءة.

وكانوا يبدون وهم فوق تلك المنصات وكأنهم يقومون بالتمثيل في إحدى المسرحيات.

ومن جديد، عاودت الزوجات الشكوى والتذمر، إلى «ليبارسكي»؛ فقال لهن، متأوهاً:

- ألا يمكن أن تقنعن بشيء، وأن أراكن راضيات، مسرورات، أبداً فأنا لم أسطع إلا أن أتقيد تماماً بما جاء في الرسالة من إرشادات وتعليمات! ولو أني تساهلت في تطبيق الإجراءات المطلوبة، لكان صدر الأمر بسد تلك النوافذ، عند إجراء أول تفتيش!

فقال له «صوفيا»:

- ولكنك تعرف جيداً، أنه لن يكون هنالك تفتيش!

- أنت مخطئة بهذا، أيتها السيدة! وعليكن جميعاً أن تثقن بخبرتي الطويلة. فليس هنا أي حيز أو ركن في روسيا، إلا ويخضع للتفتيش، بين يوم وآخر، وعند ذلك، حذار مما قد يحصل!..

وبصورة عفوية، أنزل رأسه بين كتفيه. فتساءلت «صوفيا» فيما إذا كان لا يفعل ذلك عمداً لكي يخيف نفسه. فهي لم يكن يبعد بها الأمر عن الاعتقاد، بأن هنالك جانباً من المتعة المرضية في خوف الموظفين الروس من رؤسائهم، الأعلى منهم درجة في التسلسل الوظيفي.

ودخلت أشعة الشمس الأولى إلى السجن عبر النوافذ التي ثقبت مجدداً، في الجدران. وبعد هيمنة الثلج وحكمه، انتشرت الوحول، وهيمنت في كل مكان. وأخذت سفوح الجبال تخضر، بينما لم يكن أسفل الوادي سوى مساحة واسعة من الغضار الأسمر والدبق، تتخللها بعض السبخات والمستنقعات الصغيرة.

وكان الدخان الأسود يتصاعد من مداخن المعمل. تحت سماء صافية زرقاء. وفي الشوارع، ألقيت بعض الألواح الخشبية، لوقاية المارة من أن تغوص أقدامهم في الوحل. وكانت عجلات العربات تقلب عجيناً داكناً. وسحابات البعوض تحوم حول أماكن تجمع المياه. وأخذ الموظفون يرتدون ملابسهم الصيفية،. وستراتهم البيضاء، وأخذت بعض المظلات المزدانة بالأشرطة الملونة، تبدو، كالأزهار، على الأرصفة. وكان المساجين يشتغلون في المطحنة، وفي الساحة الكبيرة العامة، التي حولت إلى بستان لزراعة الخضار. وعند المساء، يلتقي المساجين، بمجموعات متعددة أمام مداخل الزنزانات، وينهمكون بمناقشة أخبار الحرب. فبعد أن قام الجيش الروسي بهجوم كبير وناجح، بدا وكأنه قد توقف متردداً، بل ومتراجعاً،

حيال المقاومة البولونية العنيدة التي ارتدت طابعاً وطنياً، بل وقومياً أيضاً. وكان المتمردون ينضمون بأعداد كبيرة إلى الثوار، قادمين من كافة المقاطعات، ويناوشون الجيش الروسي النظامي ويقاتلونه، وهو لم يكن في وضع يحسد عليه، إذ إن تجهيزاته، إمداداته وتموينه، وخدماته الصحية، لم تكن في المستوى المطلوب الذي يتناسب مع تلك الظروف. وكان يقال أن الجنود الذين يرتدون بزات الاستعراض، ليس لديهم حتى فروة من جلد خروف، يضعها أحدهم على ظهره لكي تدفئه، في الليالي الباردة. والتقدم والتراجع كانا يتواليان، على ضفاف «لافيستول» دون التوصل إلى نتيجة حاسمة. وفي شهر أيار (مايس)، دفع البولونيون الحرس الإمبراطوري، وأرغموه على الانسحاب والتراجع، بسرعة وبصورة غير منتظمة. ولم يسترد الوضع ألا بصعوبة وبمشقة كبيرة، ومن جديد تراجع البولونيون حتى جدران «فرصوفيا».

ومات «الفيلد ماريشال» «ييبتيش»، وبعده، مات أيضاً الدوق الأكبر «كونستانتان»، بعد إصابتهما بالكوليرا. فتولى الجنرال «باسكيفيتش» إدارة العمليات. فعلق على ذلك بعض المساجين، قائلين:

«مع هذا الجنرال، سوف تسير الأمور، من تلقاء نفسها! فقد برهن على ما يجيد عمله، حيال معركة «بريفان»! وكان هنالك آخرون، ومن بينهم «نيقولا» يأسفون لكون فرنسا لم تدعم بولونيا، عسكرياً، في هذا النزاع.

أما «ليبارسكي» من جهته، فكان يفكر بوطنه الأصلي وبمسقط رأسه، المضطرب، الذي أثقلته الجراح وأخذ ينزف دماً، وبآلاف الشباب الوطنيين، الذين قتلوا في ميادين الحرب، وكانت تبدو على وجهه أحياناً تعابير القلق، والتأثر الشديد، وفي بعض الأحيان، لم يكن يسمع ما يقوله أحدهم وهو يتحدث إليه. كما لو أنه كان هنالك حديث آخر، أكثر أهمية، قد استرعى انتباهه، فأخذ يصغي إليه. وكان المساجين يرون أن

هيئته تدل على أنه متعب، وقد تقدمت به السن. كما أن حرارة الصيف الشديدة، قد سببت له المزيد من الإرهاق. وكان يبدو شاحب الوجه، شارد النظرات، ضعيف الساقين، ولم يكن يخرج إلا عند غروب الشمس. وأوعز بالاعتناء بالحديقة التابعة لمنزله، ودعا السيدات للحضور إليها للتنزه مع أطفالهن. ومن نافذة مكتبه، كان ينظر إلى تلك القامات الرشيقة بفساتينها الزاهية الألوان، وهي تتجول في مماشي الحديقة، فتغمر قلبه بهجة عارمة، وبناء على توصية الجنرال، زرعت بعض الأحواض بالزهور، ووضعت بعض المقاعد الريفية الصغيرة، في بعض جوانب الحديقة، وأحدثت فيها مغارة اصطناعية، لكي يلعب فيها الأطفال، وباختصار، فإنه لم يكن يدري ماذا عليه أن يبتكر، لكي يفاجئ به الزائرات عندما يحضرن للتنزه في الحديقة. وعندما لا يكون الحر شديداً جداً، كان يذهب لكي يتبادل معهن بعض الكلمات، وليربت على خدود الأطفال، ويعود، مسروراً إلى مكتبه، ولديه انطباع بأنه لم يضع وقته، في ذلك النهار.

وفي ذلك الصيف، أرسل سجينان، من الفئة الخامسة، هما: «كوهيلبيكر» و «ريبين» إلى الإقامة الإجبارية في إحدى القرى البعيدة. وعوض عن حزن الباقين في السجن بسبب رحيل، رفيقيهم بفرحة وصول الآنسة «كاميليا لودانتو» يوم التاسع من أيلول (سبتمبر) التي دخلت إلى «بيتروفسك» في عربة عتيقة، يغطيها الغبار، ومعها وصيفة شقراء، وعبد عملاق، يحمل بلطة في زناره.

واتجهت بهم العربة مباشرة إلى منزل «ماري فولكونسكي»، حيث كان ينتظرها «ايفاشيف».

ولم يكن وحده هناك، فقد دفع الفضول جميع السيدات إلى الحضور إلى هناك أيضاً. ولكن الفتاة القادمة، بدلاً من أن ترتمي بين ذراعي خطيبها، وقفت صامتة، لا تبدي أي حركة، شاحبة الوجه، وعيناها

مغرورقتان بالدموع. وبدا عليها أنها تجد صعوبة بأن تتبين في هذا الرجل البالغ والبدين، والذي تنم ملامحه عن الخشونة والقسوة، ذلك الفتى المراهق الرشيق القامة، الذي أغراها وأحبته، فيما مضى، وهو، من جهته، لم يبدُ عليه أنه لقي في هذه المسافرة المتعبة والذابلة، المربية الفرنسية الصغيرة، بنت الثمانية عشرة من عمرها، التي لا يزال يحتفظ بذكراها. وبدا واضحاً أنهما، كليهما، قد أصيبا بخيبة أمل، وكأن كلا منهما خائف من الآخر. «فهل سيرغمهما قرار اتخذ بلا ترو، على العيش معاً، في سيبيريا طوال حياتهما؟ أليس من الأفضل، بالنسبة لهما أن يتقبلا خطأهما ويعترفا به وينفصلا، فتعود، هي، إلى موسكو، ويعود، هو إلى السجن؟ ولو كنت مكان «كاميليا لودانتو» لسافرت في الحال!.. هذا ما كانت تفكر به «صوفيا» وهذا هو رأيها في هذه القضية.

وصاح «ايفاشيف»، بعد جهد واضح يستحق الثناء عليه.

- كاميليا! حبيبتي العزيزة!..

فاغرورقت أعين السيدات بالدموع. وانتزعت بعض المناديل من حقائب اليد. وأخيراً، حان للعواطف أن تتكلم!

وقالت «كاميليا لودانتو» متأوهةً:

- باسيل! يا له من يوم سعيد، هذا اليوم!

وتقدمت خطوة نحو «ايفاشيف»، وانهارت على صدره، وكأنها قد أغمي عليها. و «ماري فولكونسكي» وقد توقعت أن يحصل شيء من هذا القبيل، في لقاء مفاجئ، بعد فراق طويل، كانت قد هيأت قارورة أملاح. وعندما استعادت الفتاة وعيها، تلفظت بالعبارة التقليدية: «أين أنا؟» وبكت قليلاً، ثم شكرت السيدات العشر، اللواتي كن يوجهن نحوها ابتساماتهن الحانية، وجلست بجانب خطيبها، الذي كان يتأملها متأثراً، وكأنها بعثت حية، بعد موتها.

وحصل حفل الزفاف بعد أسبوع، أي بتاريخ السادس عشر من أيلول، في كنيسة «بيتروفسك» الصغيرة. وجميع المساجين حضروا هذا الحفل، الذي جرى، على النقيض من حفل زفاف «بولين» و «أنانكوف» الغريب الشكل، في «تشيتا»، بصورة طبيعية تقريباً: فليس هنالك سلاسل وأغلال تقيد رجلي زوج المستقبل، ولكن، خلف ظهره يقف خفير يحرسه. و «ليبارسكي» كان الإشبين، والأميرة «فولكونسكي» الإشبينة، التي قدمت بعد انتهاء الحفل، طعام العشاء للعريسين ولأصدقائهما، في منزلها الكائن في شارع السيدات. وأقيمت المائدة في ثلاث غرف متصلة ببعضها. وغطاؤها المزين بالزهور والشموع، وأواني الكريستال، كان يعكس على الوجوه ملامح العيد. وانهمك بالقيام بالخدمة حول المائدة خمسة عشر خادماً، يرتدون لباساً موحداً أحمر اللون. وجميع أطباق الطعام، كالمقبلات والسمك ولحم الدجاج واللحم المشوي، والفطائر، حضرت في المنزل. والخمور فرنسية. وعند تناول الحلوى، تبودلت الأنخاب وألقيت بعض الخطابات. وكان «ليبارسكي» يرأس الحفلة، وهو بادي السرور، محتقن الوجه، في مكانه المتميز بين الأميرتين. وعند الساعة العاشرة إلا الربع، أعلن أنه يمنح الزوجين الشابين، عوضاً عن رحلة شهر العسل، الأذن بأن يعيشا سوية، خلال ثمانية أيام، خارج السجن. وقوبلت هذه المبادرة الكريمة بالتصفيق الحاد. فرد على التصفيق بتحية رسمية، مع أن أزرار بزته كانت مفككوكة، والشمبانيا تثير البريق في عينيه. وهمس له ابن أخيه كلاماً، في أذنه، فحاول، عدة مرات تحيته بإشارة من يده، ولكنه ألح عليه، فغمغم «ليبارسكي» متذمراً:

- إنك تزعجني! وتفسد وتخرب كل شيء!

ثم صرح، على مضض، وبصوت قوي:

- أيها السادة، سيعلن منع التجول، بعد عشر دقائق، تفضلوا بالعودة إلى زنزاناتكم...

فنهض جميع الرجال، ما عدا «ايفاشيف».

وأضاف «ليبارسكي» وهو ينظر إلى السيدات:

- إني آسف جداً! وأؤكد لكن أني كنت أفضل أن تظل هذه الحفلة الظريفة مستمرة!

فقالت السيدات:

- نحن ذاهبات معهم.

فضرب جبينه بباطن يده:

- هذا صحيح! لقد نسيت! أرجو المعذرة!..

ورافق الجميع إلى غرفة الانتظار، حيث كان أربعة جنود مسلحين، ينتظرون المدعوين، لكي يقتادوهم إلى السجن.

في اليوم التالي، وبعد تناول الشاي، الساعة السادسة، اجتمع المساجين في الساحة الكبرى، لمناقشة مشكلة أثارها، في اليوم السابق، بعد حفل القِران الديني، الأميران «تروبيتزوكوّي» و «فولكونسكي».

بما أن السلطات ترفض إعطاء المساجين حق الذهاب بحرية إلى الكنيسة لحضور القداس، ألا يستطيع هؤلاء أن يكتتبوا لجمع النقود اللازمة لبناء كنيسة في السجن؟ ولن تزيد كلفة هذا البناء عن اثني عشر ألف روبل. و «التعاونية» لديها إمكانية تقديم هذا المبلغ.

وأي صدى سيكون لهذا المشروع، في العالم، فيما لو تكلل بالنجاح؟!

وربما تأثر القيصر، نفسه، بهذه المبادرة التي تعبر عن تقوى جماعية؟

والعرض الذي قدمه الأمير «تروبيتزوكوّي» لشرح المشروع، أثار الانفعال لدى مستمعيه، لدرجة أن معظمهم اغرورقت أعينهم بالدموع. حتى أولئك الذين لم يكونوا مؤمنين تماماً، أيدوا فكرته.

وكانوا قد وصلوا إلى مناقشة مسألة اختيار المكان الذي ستبنى فيه الكنيسة، عندما تدخل «نيقولا»:

- ألا تخشون، من أننا بإشادتنا كنيسة في السجن، أن نقطع آخر صلة لنا بالعالم الخارجي؟ فقد سمح لنا، مرة في السنة، الاختلاط ببقية الناس، للصلاة وتناول القربان المقدس. وهذه الفرصة الصغيرة والوحيدة للمشاركة في حياة الآخرين، سوف نفقدها، فيما لو أصغينا لما تقولون، ووافقنا عليه...

فأجابه الأمير «تروبيتزوكوّي»:

- هذا ضرر ثانوي وبسيط، بالمقارنة مع الارتياح الذي سيشعر به جميع المتقين في مجموعتنا، عند ارتيادهم الكنيسة، بكل حرية، وكلما رغبوا بذلك!

- نفترض أننا قبلنا بهذا!.. ولكن هذه الكنيسة يجب أن تبنى بمواد جيدة، صلبة ومتينة..

- آه! نعم! نحن لا نريدها كوخاً من خشب، على شاكلة كنيسة «بيتروفسك»!..

- البناء الذي ستشيدونه، سيظل إذن قائماً لسنوات عديدة.. أي لمدة أطول من بقائنا هنا!... ألا تظنون أننا كلما حسنا وضع السجن، كلما ازداد ميل السلطات الإدارية واشتدت رغبتها باستخدامه؟

فتجمدت وتجهمت جميع الوجوه.

عند ذلك، صاح الأمير «فولكونسكي» بأعلى صوته:

- هذا غير معقول!

فرد عليه «زفاليشين»، قائلاً:

- ليس إلى تلك الدرجة التي تتصورها، لأنه بالفعل، سيكون شنيعاً جداً، أن نساعد بحماستنا الدينية الشديدة على تحويل هذا السجن المؤقت إلى سجن دائم ومستمر. وسيكون لأجيال عديدة ممن سيحكم عليهم بالسجن الحق، بأن يعيبوا علينا ذلك، في المستقبل!

وقال «نيقولا»:

- هذا، دون أن نحسب حساباً لما قد يحصل، فيما إذا أصبحت الكنيسة موجودة داخل هذه الجدران، إذ إن الحراس، على سبيل المثال، يمكن أن يسجلوا أسماء الذين لا يذهبون إليها! وسوف يتم اكتشاف الملحدين وذوي الفكر الحر، بسرعة!..

فقال الأمير «تروبيتزوكوي»:

- لا يمكن أن يوافق «ليبارسكي» على ارتكاب مثل هذا العمل الخسيس!

- أنا لا أتكلم عنه، ولكن عن الحاكم الذي سيخلفه، في يوم من الأيام! وأنت تعرف مثلي عادات قادتنا، وشدة اعتمادهم على التحريات البوليسية. وسوف يسرون كثيراً باستغلال الوسيلة التي تقدمونها لهم، للتفتيش في ضمائرنا واكتشاف مكنونات أسرارها!..

وخفف هذا التأكيد من حماسة أكثرية المساجين. وظل الأمير «تروبيتزوكوي» صامتاً، لبعض الوقت، لا يرد، ثم قال، بلهجة جافة:

- يجب تقدير هذا المشروع، والنظر إليه، ليس بموجب دواعيه ومسوغاته، بل بموجب الإيمان به!

فقال «نيقولا»:

- لست أقل إيماناً منك!

- ولكن، ما قلته للتو يثبت العكس!

فقال «زفاليشين»:

- أيها السادة! أيها السادة! أرجو أن تهدؤوا قليلاً!

ولأنه قصير القامة، فقد صعد على حجر، لكي يجعل الجميع يرونه ويسمعونه جيداً. وبدا بشعره الطويل ولحيته الطويلة أيضاً، وعيناه تبرقان حدة وذكاء، وقد ضم «توراته» إلى قلبه، وقال:

- لا أظن أن بإمكانكم اتهامي بأني ملحد، إذن! فأنا أرى أن «أوزاريف» على صواب، وهو يقول الحقيقة. والرأي الديني لكل منا هو

قضية شخصية وهي أكثر حميمية وأكثر أهمية وخطورة، وأكثر جدارة بالاحترام، من أن يكون لمؤيدي فكرة بناء كنيسة، حتى ولو كانوا يشكلون الأكثرية، الحق بأن يفرضوا إرادتهم على الآخرين. وبتصرفهم بهذا الشكل، فهم ينتهكون مبدأ حرية الضمير، وهو مبدأ مقدس، أليس هو أحد المبادئ التي ناضلنا من أجلها، على الدوام؟

فصفق له رفاقه، باستثناء نحو عشرة من المتشددين الذين يصعب إقناعهم، وقد تجمعوا حول الأميرين «فولكونسكي» و «تروبيتزوكوّي».

واستأنف «زفاليشين» الكلام:

- بما أنكم تريدون أن تنفقوا نقوداً في مشروع ديني ينم عن التقوى، فإليكم ما اقترحه عليكم: لقد استطعتم أن تلاحظوا بالأمس، أن كنيسة «بيتروفسك» متداعية في كل جهاتها، وتكاد تنهار.

فلنخصص إذن الاثني عشر ألف روبل، التي تحدثتم عنها لبناء كنيسة جديدة، لن تكون خاصة بالمساجين وحدهم، بل مفتوحة الأبواب لجميع الناس، خارج السجن. وحينئذٍ يكون لعملنا الطابع النزيه، غير المغرض وغير النفعي، الذي يميز المشاريع المسيحية الحقيقية، وعند ذلك، نستطيع أن نفخر، نحن المساجين، المنبوذين، بأننا قدمنا معبداً للرجال الأحرار. وبيت الله، هذا، الذي سيبنى بنقودنا، سوف يصبح صرحاً ومعلماً أبدياً، يخلد ذكرى إقامتنا في هذه المدينة!

فأبدى الأمير «تروبيتزوكوّي» الملاحظة التالية:

- إنه صرح أبدي، لن يسمح لنا بزيارته ألا مرة في السنة!

وهذا ثمن غالٍ جداً لقاء الحق بالذهاب لحضور القداس!

- ليس بذهاب الرجل إلى القداس، يضمن دخوله إلى الجنة!

- لكم أود معرفة رأي أحد الكهنة، بأقوالك هذه.

فقال «زفاليشين» وهو يشير إلى التوراة، وعيناه تقدح شرراً:

- ليس هنالك أي كاهن يستطيع القيام مقام هذه!

فسأله الأمير «فولكونسكي»، بلهجة تنم عن السخرية:

- أيمكن أن تكون بروتستنتياً؟

- إني أرثوذكسي مثلك، ولكني أضع الروح فوق النص، والإنجيل فوق الكهنة!

فقال «نيقولا»:

- أيها السادة! خذوا حذركم! فنحن نكاد نضيع، ونضل عن الطريق المؤدي إلى غايتنا، والمسألة هي في معرفة فيما إذا كان يجب علينا أن نبني كنيسة في السجن، أم خارج السجن!

وهذا كل ما هنالك! ولذلك فأنا أقترح إجراء التصويت!

فتعالت بعض الأصوات:

- نعم! نعم! فلنصوّت! وإلا فأننا لن نحل هذه المشكلة!

فأحضر «يوري ألمازوف» ورقاً وأقلاماً، وأخذ يتجول بين الصفوف وهو يحمل قبعة ليجمع فيها الأوراق. وفرزت الأصوات، في الحال، وكانت النتيجة سبعة وعشرين صوتاً لمؤيدي «زفاليشين»، مقابل أحد عشر صوتاً لأنصار «تروبيتزوكوّي».

فقال الأمير:

- حسن، أنا أخضع لما قررته الأكثرية. ابنوا إذن كنيسة لسكان «بيتروفسك»، ولكني مصر على الاعتقاد بأن أريحيتكم عبثية، وغير معقولة!

وبينما كان المساجين يناقشون نتائج قرارهم، وما سينتج عنه، وصل «ليبارسكي» لاهثاً يعرج قليلاً في مشيته، وقبعته مائلة على رأسه.

ولا بد من أن يكون أحد الحراس قد أخبره أن اجتماعاً مهماً قد انعقد في الساحة. فطلب تفسيراً لذلك. وبينما كان «زفاليشين» يروي له تفاصيل

ما حدث، كان وجهه يزداد تجهماً، تحت الريشة التي تزين قبعته. وقال، أخيراً:

- نعم، نعم، إنها نوايا حسنة وعمل نبيل، ولا أستطيع إلا الموافقة عليه.. ولكني لا أدري فيما إذا كان حاكم سيبيريا الشرقية يشاطرني الرأي.. فأنا أخشى من أن يرى في ذلك شيئاً من...

ماذا يمكنني أن أقول؟.. حب الظهور والتبيّن في رغبتكم بتقديم كنيسة كهدية للمدينة.. كما لو أنها لا تملك المال الكافي لترغب بالحصول على ما تريد!..

فسأله «نيقولا»:

- أليست هذه هي الحقيقة؟

- هنالك حقائق لا ينبغي التصريح بها. ثم هنالك أمر أزعجني في الطريقة التي قررتم بها ذلك!

- لقد أجرينا التصويت اللازم!

- تماماً!.. لم يكن ينبغي... ولن ينبغي بعد الآن...

فالتصويت عادة جمهورية.. ولا أريد أن تستقر هذه العادة هنا.. وبخاصة عندما يتعلق الأمر بالبت بمسألة مقدسة.. ففي هذا.. في هذا شيء من الكفر والإلحاد! فالتصويت والاقتراع العام، والتمثيل، ورغبة وإرادة الأكثرية.. وبعد قليل، وتعمدون إلى التفكير بالجمعية التأسيسية وبتأسيسها!..

اتركوا كل هذا للفرنسيين!..

أخذ «متمردو كانون الأول» ينظرون إلى بعضهم، بدهشة شديدة. لأنهم لم يعودوا يتبينون حاكمهم العجوز في هذا الممثل الرعديد للسلطات الإدارية. وأدرك «نيقولا» أن «ليبارسكي» هو في أحد أيامه المشؤومة التي تساوره فيها الوساوس، ويشعر بالندم على ما فعل، وبالحاجة للإقلاع عن ذلك، وبالتوبة.

وفي بعض الأحيان، يتغلب عليه التعب والسن، فينسى أريحيته الطبيعية، فيجن جنونه، ويتراجع، فيتبنى من جديد، وبسرعة العادات والأساليب الرسمية التي علمه إياها رؤساؤه، أثناء خدمته في الجيش التي استمرت أكثر من نصف قرن. فهل قرأ تعابير السخرية في تلك العيون المثبتة عليه؟ وفجأة، بدا عليه الاضطراب، فأنهى تلك المقابلة المزعجة:

- حسن، سأرى... سأرفع تقريراً... وآمل أن تحصلوا على موافقة السلطات على مشروعكم... أحييكم، أيها السادة..

وابتعد، وهو محني الظهر، أكثر قليلاً مما كان عليه، عندما أتى.

وفي اليوم التالي، الأحد، اطلع المساجين، عندما فتحوا الصحف، على نبأ استسلام «فرصوفيا». ولا شك في أن «ليبارسكي» كان مطلعاً على هذا النبأ، عندما تحدث إليهم، في الباحة. ومرة أخرى، انقسموا وتباينت آراؤهم: فمنهم من فرحوا، لأنهم لم يروا في ذلك الحدث سوى انتصار للجيش الروسي، ومنهم من شعر بالحزن لفشل ثورة ليبرالية، تحررية، نشبت على حدود الإمبراطورية الروسية. وكان القائد العام «باسكيفيتش» قد كتب في تقريره، الذي أرسله إلى القيصر:

«فرصوفيا» تحت قدميك، يا صاحب الجلالة!»

ويقال أن القيصر تلقى هذا التقرير، وهو مسافر، على أحد الطرقات، وبعد أن قرأه، ركع على الوحل، شكراً لله. وبعد أن أنهي شكره وصلاته، لا بد أنه أخذ يفكر بكيفية معاقبته للمتمردين. ويمكن التكهن بأن العقوبة ستكون مرعبة.

وبعد بضعة أيام، أقيمت صلاة للشكر في كنيسة «بيتروفسك» وقد تلقى جميع موظفي المدينة الأمر بحضورها وهم يرتدون ملابسهم الرسمية.

وكان «ليبارسكي» يصغي، وهو راكع في الصف الأول، للكاهن الذي يتبع مذهباً غير مذهبه، وهو يمجد المولى ويشكره، لأنه ساعد

الروس على سحق البولونيين. وكان يرسم إشارة الصليب، وهو يفكر: «ماذا أعمل هنا؟ هذا عار! كان ينبغي علي أن أصرخ، وأن أنصرف وأرد أوسمتي! ولكني لا أستطيع أن أفعل ذلك!

فبزتي العسكرية أقوى مني! وهي ملتصقة بجلدي، تدعمني، تقودني وترشدني! لو أن جماعة «فرصوفيا» يرونني!.. وأنا أحمل هذا الاسم: «ليبارسكي»!.. اسم آبائي وأجدادي!..

وأخذ نشيد حماسي، يتغنى بالنصر، يتصاعد تحت القبة التي تشققت وبهت لونها. وأخذت الرؤوس المستعبدة تنحني وسط سحابة من دخان البخور. وفجأة نهض المؤمنون جميعهم، سوية. فحذا «ليبارسكي» حذوهم. ومن كان يمكنه أن يفهمه بين هذه الجماعة من الرجال الآليين والمسيرين؟ كان يشعر بألم في ركبتيه، وأخذت ذقنه ترتجف، بينما سالت الدموع على خديه النحيلين والذابلين.

٣

من بين زوجات المساجين، الإحدى عشرة اللواتي يسكنَّ في «بيتروفسك»، كان يوجد على الدوام واحدة، على الأقل، حبلى وكانت الولادات تتوالى: لدى «آل أنانكوف»، و «آل فولكونسكي»، و «آل ايفاشيف» و «آل تروبيتزوكوّي» و «آل روزين». وهؤلاء الأطفال الذين يولدون في المنفى، وبالقرب من السجن، كانت أمهاتهم تحاول جاهدة أن تؤمن لهم تربية متوازية ونظامية. وكن يتمنين من كل قلوبهن أن يصبحوا، في المستقبل، قادرين على الانتماء إلى الطبقة التي تخصهم في المجتمع. وكن يعتقدن بأن القيصر لن ينفذ قراره الذي يُعَدّهم بموجبه على الدوام أبناء جماعة حكموا بالسجن مع الأشغال الشاقة، وبالتالي كعبيد للتاج. وبانتظار استعادة حقوقهم، كانوا يكبرون ويترعرعون سوية، ولديهم انطباع بأنهم ينتمون لأسرة كبيرة. في حين أن أكبرهم لم يكن قد تجاوز السنة الثالثة من العمر. ولم يكن وارداً بعد، أن تشرح لهم الشروط والظروف الخاصة لولادتهم ولمجيئهم إلى هذا العالم. وبالنسبة لهم، كان عادياً وطبيعياً أن يسجن آباؤهم في الزنزانات، ليلاً، وأن يرافقهم، في النهار، حراس مسلحون. وكان لكل من هؤلاء الأطفال، عدد كبير من الأعمام والعمات، عليه أن يحبهم، لدرجة أنه كان يرتبك ويتحير كيف عليه أن يوزع محبته. وكانوا جميعاً، الصبيان والبنات يلعبون، بعد الظهر، في حديقة «ليبارسكي». حيث يوجد في فصل الشتاء، منحدر من الثلج للتزحلق عليه، وفي الصيف، أراجيح وتلال صغيرة من الرمل، وحوض قليل

العمق، للسباحة، ولكي يقذف فيها الأطفال زوارقهم الورقية، ويشاهدونها وهي تعوم على سطح الماء. وأكثرية الزوجات اللواتي كن منهمكات بتربية أطفالهن، والعناية بهم، لم يكن لديهن فراغ، يشعرن خلاله بالملل. وبالمقابل فقد بدأ أزواجهن يجدون الوقت طويلاً وبعد موجة الحماسة التي انتابتهم، في البداية، للدراسة وللمطالعة، فقد استسلم بعضهم لأحلام اليقظة، للبطالة، ولاجترار ذكريات الماضي والعيش معها.

كان المساجين العزاب، هم الذين يعانون، ويتألمون أكثر من غيرهم، بسبب تلك الحياة الرتيبة. وكان حرمانهم من النساء يعذب البعض منهم، لدرجة أنه يكاد يفقدهم صوابهم. ولكثرة ما نادى «يوري ألمازوف» فتيات، وهو ذاهب للعمل في المطحنة، فقد توصل في نهاية الأمر إلى إغواء إحداهن: «غالينا» فوعدته بأن تذهب إليه في السجن. ولكن كيف يمكنه أن يجعلها تدخل من الباب؟ فبعد أن استبعد عدة حلول بدت له خطيرة وجريئة أكثر مما ينبغي. قرر أن يستخدم لهذا الغرض عربة بائع الماء. فقبل الرجل، لقاء مكافأة مغرية. وخبأ «غالينا» في برميل فارغ، أحاطه بالبراميل المملوءة بالماء. وأتى، كعادته في كل مساء، عند الساعة السادسة، بعربته التي تحمل البراميل، والتي توقفت عند مركز الحراسة. وكان الخفراء قد تلقوا رشوة مناسبة، فسمحوا للعربة بالدخول، وجذبوا الفتاة من مخبئها واقتادوها إلى زنزانة «يوري ألمازوف». وكان بعض المساجين العزاب قد اصطفوا عند درج المدخل لمشاهدتها، فأخذوا يحملقون بها بأعينهم، وبصعوبة يمتنعون عن الضحك. وبعد نصف ساعة، تقريباً، فتح باب زنزانة «يوري ألمازوف» من جديد، وهو يرسل صريراً قوياً، وخرجت الزائرة. كانت شقراء، عليها مسحة من الجمال، ترتدي الملابس القروية، ضخمة الردفين، واسعة الحضن، وبدت مشعثة الشعر، ملابسها مدعوكة، وهي تلقي حولها نظرات جريئة. وعند مرورها، استوقفها «سثيستونوف» و «سولوفيف»

و «مودزالفسكي» وتكلموا معها بصوت خافت. فأخذت تعض خرزات عقدها، الزجاجية، وأعطتهم وعداً، قابلوه بتحية أعلنوها بأصوات عالية. وفي غضون ذلك، كان صاحب العربة قد أنزل البراميل الملأى، وحمل البراميل الفارغة التي أحضرها في اليوم السابق، فنزلت «غالينا» في أحدها. وهي تبتسم ابتسامة ملائكية، صعدت نحو السماء، قبل أن يلقى فوق رأسها غطاء البرميل.

وفي اليوم التالي، عادت مع ثلاث صديقات، في ثلاثة براميل أخرى. ولم تقتصر خطوات الفتيات وخدماتهم على الرجال الذين دعونهن، بل أخذن يتنقلن وهن يتضاحكن، من زنزانة إلى أخرى. وكان العازبون يشيرون إليهن، من عتبة الباب، متنافسين فيما بينهم. وكان بائع الماء ينتظرهن إلى أن يفرغن من إرضاء جميع زبائنهن، لكي يخرجهن من السجن، في براميل عربته. وفي هذه المرة لاحظ، من بعيد، بعض الأزواج، هذه التحركات، فخافوا من أن تطلع عليها زوجاتهم: فأي فضيحة ستحصل فيما إذا علمن أن هنالك فتيات مستهترات يمارسن الدعارة داخل جدران السجن!

وهل يمكن أن يقبل رجل شريف بأن تلتقي إحدى الزوجات، كالأميرة «تروبيتزوكوّي» على سبيل المثال، وجها لوجه، في الممر، مع عاهرة، وقد غادرت لتوها، سرير أحد المساجين؟! بل، لقد صرح «أنانكوف» و «مورافييفّ» بأن هذه الممارسة التي دشنها «ألمازوف»، بالإضافة إلى عدم أخلاقيتها، أخذت تحرم المساجين من كمية كبيرة من الماء الذي لهم الحق بالحصول عليه. ولأن عدد البراميل يظل هو نفسه، لا يتغير في كل مرة، فكل امرأة تأتي في أحدها، كانت تسبب نقصاً في ماء الشرب، يعادل سعة ذلك البرميل. عطش مقابل عطش، وكان المعترضون يقولون إن عطشهم أكثر مدعاة للاحترام من عطش رفاقهم، الذي يحاولون إرواءه بواسطة هؤلاء الفتيات. و «نيقولا» وهو أكثر تسامحاً من الآخرين، ادعى

أن البرد الشديد، سوف يقلل من عدد رحلات بائع الماء، في ذهابه وإيابه، وبالتالي، فسوف يتناقص عدد الفتيات اللواتي ينقلهن. ولكن الثلوج انهمرت والنهر تجمد، وأشعلت النيران في المواقد، دون أن يطرأ أي نقص على حاجة المساجين العازبين للماء الصالح للشرب. وفي شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٣٢ كان على صاحب العربة، لكي يستجيب لطلباتهم، أن يضاعف عدد البراميل التي ينقلها على عربته. ونتيجة لذلك، قرر الأزواج مطالبة المسؤولين بشرح وتفسير هذه الفوضى، وأسبابها. وعقدوا اجتماعاً، بمعزل عن السيدات ومن دون علمهم، في مستودع أدوات البستنة. وتولى الأمير «تروبيتزوكوّي» الكلام، نيابة عن الأزواج. ومنذ أن تلفظ بكلماته الأولى، قاطعه «يوري ألمازوف»:

- لماذا يكون للرجال المتزوجين وحدهم الحق بأن يتمتعوا بأوقات هنيئة، في السجن؟ لقد تحملنا طوال عدة سنين مظاهر ومشاهد حياتكم الزوجية، بينما لم يكن لدينا شيء نضعه تحت ضرسنا ونتمتع بهّ، والآن، عندما وجدنا أخيراً الوسيلة التي تتيح لنا أن نلهو ونتسلى قليلاً، تأتي لتلقي علينا درساً في الأخلاق؟!

فرفع الأمير «تروبيتزوكوّي» أنفه الكبير، غاضباً، وقال:

- كيف يمكنك أن تقارن بين الحياة اللائقة والشريفة التي نعيشها مع زوجاتنا، وبين العلاقات الإباحية التي تقيمونها مع هؤلاء الفتيات المستهترات؟

- مع تأكيدي لك احترامي العميق لزوجاتكم، فإني لا أستطيع أن أتناسى أنهن، أولاً وقبل كل شيء، نساء. وإن لم يكن هنالك سوى هذه الصفة المشتركة، مع الفتيات اللواتي يأتين لزيارتنا، ففي تقديري أن..

فصاح به الأمير «تروبيتزوكوّي»:

- اسكت! إنّ كلامك يشكل إهانة لنساء جديرات بالإعجاب، لا يمكن توجيه أي لوم لهن، وهذه إهانة شنيعة لهؤلاء الملائكة! وأنا لا أسمح بذلك، ولا أتغاضى عنه! ويجب عليك، في الحال، أن تقدم لي اعتذارك!

فسأله «يوري ألمازوف» الصغير القامة، وقد شحب وجهه، من شدة الغيظ:

- ولماذا؟ إني لم أشتمك!

- بلى. عندما عبرت بالطريقة التي تكلمت بها، فقد وجهت لي إهانة شخصية.

- أنا لا أوافق أبداً على هذا الرأي.

- أنت إذن ترفض الاعتراف بخطئك؟

في هذه الحالة، فإني أطلب إصلاح هذا الخطأ بواسطة السلاح، فاعتبر نفسك أنك صُفعت، وأنا أدعوك للمبارزة.

- أنا تحت أمرك، ورهن إشارتك، أيها الأمير!

كان بقية المساجين يتابعون هذه الملاسنة، باهتمام في غير أوانه، ولا محله، فجميعهم يبدو عليهم أنهم نسوا أن الرجلين اللذين يريدان أن يتبارزا كانا سجينين، وفيما يتعلق بالأسلحة، فإنهما لا يملكان سوى سكيني جيب، غفلت عنهما يقظة الحراس. وكان «نيقولا» هو الأول، الذي تنبه لهذا الاسترسال في الجدل، والخروج عن الموضوع، ولذلك قال:

- أيها السادة! وأنتما أيها السيدان، أرجوكما أن تستدركا الخطأ! فنحن في السجن!

فرد عليه الأمير «تروبيتزوكوّي»:

- وهل هذا يُعَدّ مسوغاً، لكي يتصرف البعض منا كالأنذال، وكالأوغاد؟

فقال «سفيستونوف»، بخبث:

- إذا كنت تخشى أن تلاحظ السيدات، ذات يوم، ما يحصل لدينا، فعليك أن تنصحهن بالإقامة في مكان آخر، فجميعهن لديهن منازل في المدينة!

فقال «نيقولا» متذمراً:

- لا تتلفظ بالحماقات! فالذي ينبغي عمله، على الأقل، هو مراعاة التستر والتكتم في طريقة استقبالكم لهؤلاء الآنسات!

- إنهن يحضرن في البراميل، ولا يمكن التستر عليهن أكثر من ذلك!

- لو أنكم لا تستقبلون سوى واحدة، في كل مرة!..

فقال «يوري ألمازوف» بلهجة حاسمة:

- هذه الطريقة لن تكون مجدية، وواحدة بمفردها، لا تكفي، ولا تفي بالغرض. وإحضار الماء في المرة القادمة، سيحصل غداً، كما هي العادة.

فقال الأمير «تروبيتزوكوّي» باستياء، وبلهجة تنم عن الاشمئزاز والقرف موجهاً كلامه للمتزوجين:

- هيا بنا، تعالوا أيها السادة. فنحن هنا بالحقيقة في رفقة من جلساء السوء!

وأسف «نيقولا» كثيراً، لهذا الخلاف الذي حصل بين المتزوجين والعزاب. وتبادر إلى ذهنه أنّ بادرة عدائية كهذه، ما كان من الممكن أن تحصل في «تشيتا»، حيث كان يقيم المساجين جنباً إلى جنب، في قاعات واسعة، دون أي تمييز فيما بينهم، على أساس الثروة، الرفاهية، أو الوضع الاجتماعي. وعلى المائدة كانوا يتناولون أطباق الطعام نفسها، سوية. والأفراح والأتراح، بل وكل شيء كان عاماً ومشتركاً بينهم. وإذا شكا أحدهم من أنه لا يجد لحظة لينفرد ويخلو إلى نفسه بها. فكان عليه أن يعترف أنه بالمقابل، محاط بالتعاطف الأخوي، من الصباح وحتى المساء.

والتحسينات التي حصلت في «بيتروفسك» على مصير وأوضاع «متمردي كانون الأول» لم تعمل إلا على إبراز الفروق الموجودة بينهم.

ولأن كل سجين له الآن زنزانة خاصة به، فقد فرشها حسب إمكاناته وذوقه. ولذلك فإن الذين لا يتلقون نقوداً من أقاربهم، كانوا يقيمون في غرف تشكو من عري تقشفي رهباني، أما الأكثر غنى، بينهم، فكانوا يسترخون ويتبخترون في مساكن مريحة، مفروشة بالسجاد، ومزينة باللوحات والتحف والأواني المزخرفة، وبمقارنة رفيقين من المساجين، اللذين أدينا بجريمة سياسية واحدة، نجد أحدهما بملابس رثة وبالية، والآخر يرتدي الملابس الأنيقة. ولأن كل سجين كان يقيم بمفرده، في زنزانته، فقد اعتادوا شيئاً فشيئاً، على أن يعيش كل منهم لنفسه، مهتماً بما يخصه وحسب.

وبعد أن ساد عهد من الإخاء والتعاون، بدأ عهد تسود فيه الفردية والأنانية. وإقامة الزوجات في السجن، زادت أيضاً من حدة وخطورة هذا الانقسام. ومجرد وجودهن داخل تلك الجدران كان عاملاً مثيراً للغيرة والحسد والخلافات، وبتأثيرهن، أخذ المساجين المتحابون ورفاق السلاح، فيما مضى، يجتمعون حسب منبتهم الطبقي، وتبعاً لتجانس أوضاعهم الاجتماعية. ودون أن يعرفن ذلك، كن يحدثن الإثارة لدى العازبين، بفساتينهن، وهن يتجولن ذهاباً وإياباً في السجن. ولو أرادوا أن يظلوا هادئين، ملتزمين بجادة العقل والصواب، لمنعتهم من ذلك تلك التحركات المستمرة التي تقوم بها هؤلاء النساء، حولهم. وفي كل لحظة، كن يرجعن لهم هاجسهم، وفكرتهم الثابتة، لو فارقاهم لبعض الوقت. والفضيحة التي أثارها الأمير «تروبيتزوكوّي» كانت أولى نتائج تفرق وتشتت الجماعة. وكان «نيقولا» ينتظر بقلق، متوقعاً ما سيحدث كتتمة لكل ذلك.

وفي اليوم التالي، الساعة السادسة مساءً، وفي الموعد المحدد، بكل دقة وانتظام، دخل بائع الماء بعربته إلى الباحة، يرافقه بعض الجنود. وهم

يمزحون ويتضاحكون. وكان «يوري ألمازوف» وبعض رفاقه قد تجمعوا أمام المستودع لكي يشاهدوا عملية تفريغ البراميل من محتوياتها. وقد انضم إليهم «نيقولا». وكان العزاب يتراهنون على سبيل التسلية، بشأن معرفة البراميل التي تحتوي الفتيات. وكان سائق العربة قد أخرج، للتو، أربع قرويات، وأخذن يصلحن حول أجسامهن، فساتينهن المدعوكة، عندما تجهمت وتجمدت، خوفاً، جميع الوجوه: كان «ليبارسكي» قد برز فجأة عند زاوية الحاجز. فمن هو الذي أخبره؟! هل «تروبيتزوكوّي» هو الذي فعل ذلك؟ لم يكن «نيقولا» يستطيع أن يصدق أنه يمكن أن يرتكب هذه الفعلة، وفضل أن يفترض أن الوشاية قد صدرت من أحد الحراس. وانفجر غضب الجنرال بعنف شديد، لدرجة أن الزائرات عدن بسرعة إلى براميلهن.

فدار حول العربة، وأخذ يضرب جوانب البراميل بقبضته: كان بعضها ينجم عنه صوت مكتوم، مخنوق، والبعض الآخر يرسل صوتاً أجوف ويتصاعد معه صوت آخر كصوت الفئران المذعورة، وهي تقع في المصيدة.

وقال «ليبارسكي» مزمجراً، وهو يمسك ببائع الماء، من ياقته:

- يا لك من وغد!

والرجل، الذي كان طويل القامة، قوي البنية، وملتحياً، أخذ يرتجف، وهو يتمتم:

- لقد خُدعت وأخطأت بحسن نية، يا صاحب السعادة. وأنت تعلم كيف يحصل ذلك: فنحن نغرف الماء من النهر، و «الحوريات» يأتين معه!..

وهذا التفسير الخيالي، الشعري والرومانسي، زاد من غيظ «ليبارسكي» وأدى إلى نفاذ صبره، فصاح به:

- أتهزأ بي، يا ابن الكلبة، سأجعل الخشب الأخضر ينبت على منكبيك!

فقفـز سـائق العربـة، علـى مقعـده، وقـد استبد بـه الـذعر، وجـه عـدة ضـربات بسوطه إلى أحـصنته، وانطلـق مـسرعاً بعربتـه، دون أن ينـزل منهـا لا ماءه ولا بناته.

وبعد ذهابه، وعندما أصبحت الباحة خالية، التفت «ليبارسـكي» نحو المساجين، وقال بلهجة قوية:

- أيها الزناة المنافقين! لقد أتيت لأتحدث إليكم عن كنيستكم، التي وافـق علـى مـشروعها حـاكم سـيبيريا الـشرقية، بـدافع مـن طيبـة قلبـه، فأجدكم مع بعض العاهرات!

واستمر يصرخ خـلال ثـلاث دقـائق. ثـم عـرض لـه «يوري ألمـازوف» بهـدوء ولطـف وجهـة نظـر المـساجين العـازبين، الـذين، كمـا قـال، هـم رجـال كـالآخرين، ولا يـستطيعون، ومعظمهـم في سـن الـشباب، وبحالـة صـحية جيدة، الاستغناء عن النساء.

فرد عليه الجنرال، قائلاً:

- لقد استغنيتم عنهن تماماً، حتى الآن!

فقال «يوري ألمازوف» متأوهاً:

- ولكـن، مقابـل أي آلام! ويـستطيع الـدكتور «وولـف» أن يقـول لـك أن حرمانـاً مـن هـذا النـوع يـضر بـصحة الأشـخاص الأسـوياء، الـذين يتمتعـون بقـواهم الطبيعيـة. ولأنـك لا تريـد أن تـسمح للفتيـات بالـدخول إلى الـسجن، اسمح لنا أن نذهب لنلتقي بهن خارج السجن. وإذا لزم الأمر، أرفق كـلاً منـا بجندي...

وهـذا الاقـتراح الـذي أبـداه «يـوري ألمـازوف» دون أن يـكـون مؤمنـاً بـه بـدا وكأنه قد هدأ غضب الجنرال. فحالما كان أحدهم يتحدث إليه في موضوع يتعلق بالتنظيم، يشعر على الفور بمزيد من الارتياح. وفي كل شـيء، كـان يغيظه الارتجال، الشذوذ والفوضى.

والسجين، عندما يكون يسير على خطاه جندي يحرسه، فهو معذور مسبقاً عن كل تصرفاته ومشاريعه. ولذلك قال:

- سوف نرى، سأدرس الموضوع...

وانصرف حاملاً هذه الفكرة في ذهنه. وبعد أسبوع، أعلن أن كل سجين يتقدم بطلب للخروج من السجن، سيسمح له بالذهاب إلى المدينة، يرافقه أحد الحراس «لزيارة بعض الأشخاص، من معارفه».

وفي الأيام الأولى، أخذ يتزاحم المساجين العزاب على التسابق من أجل الخروج. وبعد ذلك خفت حماستهم. وقد امتنع بعضهم عن طلب الأذن بالخروج. فالفتيات اللواتي التقى بهن بعضهم، كنّ مخيبات للآمال، بشكل يفوق الحد. وفي معظم الأحيان، كان الجنود الذين يرافقونهم، يقومون بعدهم بالعملية نفسها وبالسعر نفسه. وتفشت بعض الأمراض، عالجها الدكتور «وولف» بعناية وإخلاص، دون أن يشفى أحد منها، تماماً.

استغل المتزوجون فرصة التسهيلات والأذون التي تعطى للعازبين فطالبوا بأن يسمح لهم بالذهاب للاجتماع بزوجاتهم في منازلهن الكائنة في شارع السيدات. وما أعطاه «ليبارسكي» لبعضهم، لا يستطيع أن يمتنع عن إعطائه للآخرين وبعد انقضاء فترة قصيرة من الوقت لم يعد هنالك عدد كاف من الجنود لمرافقة هؤلاء السادة، أثناء خروجهم وتنقلاتهم.

وقد حصل بعضهم على الأذن بالخروج والتجول كما يحلو لهم، بعد أن أقسموا بشرفهم بأنهم سيعودون إلى السجن قبل الإعلان عن منع التجول. وبعد ذلك، سمح «ليبارسكي» للأزواج بتمضية يوم الأحد في المنازل، مع زوجاتهم. وعندما كان هؤلاء يستمرون بالإقامة هناك، حتى صباح الثلاثاء، كان يغض الطرف عن ذلك. وكانت الزنزانات (من رقم ١ إلى الرقم ١٢) تبدو خالية، في معظم الأحيان، تقريباً. وبالمقابل كانت المنازل الكائنة في شارع السيدات تزداد تجهيزاً وأهميةً، فقد أصبح آنذاك، لدى

«آل فولكونسكي» عشرة خدامين، ولدى «آل تروبيتزوكوّي» ثمانية، ولدى «آل مورافييفّ» سبعة، وكانت شحنات المفروشات وقطع الأثاث والسجاجيد واللوحات، ترد باستمرار من «سان بطرسبورغ». والسيدة «كاميليا» عملت هي أيضاً، على بناء دارة، أي «فيلا» على حد تعبيرها. وخلافاً لتكهنات السيدات، السابقة، فإن زواجها بـ «ايفاشيف» بدا، موفقاً وسعيداً:

فكانا يبدوان، في معظمهم الأحيان، يتأبط أحدهما ذراع الآخر، وهما يتبادلان النظرات العاطفية التي تنم عن الحب، ويرددان، أمام من يريد أن يستمع لهما، أنهما لن يبقى لديهما ما يطلبانه من الله، بعد أن يرزقهما طفلاً.

وبانتظار تحقيق هذا الحلم، كانت «كاميليا» قد اشترت بقرة وعدة دجاجات وبعض الأرانب، وأخذت تعمل بحماسة بالغة في تربيتها والعناية بها.

وبدؤوا يستقبلون بعضهم بين منزل وآخر، ويقيمون الحفلات، ومع ذلك، فقد ظل أعيان المدينة ووجهاؤها يتحاشون ارتياد منازل «متمردي كانون الأول» الذين كانوا يتزاورون فيما بينهم وحسب، وإن كانوا يحظون بالتقدير من الجميع. و «ليبارسكي» وحده، هو الذي كان لا يخشى الاختلاط بهم، مشكلاً همزة الوصل بين المساجين و «المجتمع».

والحقيقة هي أن النخبة في «بيتروفسك»- الحاكم، قائد الشرطة، مدير المعمل، مدير البريد، المهندسون، وموظفو الدرجة الأولى- كانت تثير لديه السأم، أما زوجات وبنات هؤلاء المسؤولين الكبار، فكان يجدهن قبيحات، حمقاوات، يرتدين أسوأ الملابس، ويتصفن بالعجرفة والغرور. وتحت إدارة هذه المجموعة الصغيرة من الموظفين الإداريين يعيش سكان المدينة، ومعظمهم من العمال الأحرار، ومن المساجين السابقين الذين يعملون في معمل صهر وسكب المعادن. وفي قاع المدينة، هناك البؤس والجهل، وفي

أعلاها، قسوة القلوب، فقدان اللياقة والأسلوب الحسن في التعامل، وعدم وجود أي مثل أعلى لدى أحد. فيا له من فرق كبير بين هذا العالم وبين عالم المساجين؟! ومع هؤلاء، إنما «ليبارسكي» كان يشعر بمزيد من الارتياح. وكانت ألسنة السوء، توشوش، في صالونات «بيتروفسك» بأنه كان مغرماً بـ «سيدات سيبيريا»!

ويوم الرابع والعشرين من نيسان (ابريل) بمناسبة عيد القديسة «أليزابيت» الذي تحل فيه ذكرى مولد السيدة «ناريشكين». أرسلت هذه دعوات لجميع المساجين المتزوجين ولزوجاتهم ولبعض العازبين أيضاً وحملها إليهم الخادم المكلف باستقبال المدعويين، مرتدياً حلته الرسمية. فاتفقت الزوجات فيما بينهن على ارتداء «ملابس أفضل قليلاً من ملابسهن الاعتيادية» واكتفت «صوفيا» بارتداء فستانها «الأحمر الناري» وقد أضافت إليه، بهذه المناسبة، بعض الشرائط المخملية السوداء. وعندما دخلت متأبطة ذراع «نيقولا» إلى صالون السيدة «نارشكين»، تبين لها أنها لم تبلغ في أناقتها مستوى أناقة بقية السيدات، اللواتي كانت الكثيرات بينهن، قد سرحن شعرهن وصففنه على شكل جدائل، مزينة بالأزهار الاصطناعية، وارتدين صدارات «مقورة» تكشف عن الجزء الأكبر من العنق والكتفين، وتنانير من قماش «التول» الرقيق الشفاف، أو من «الكريب» الرقيق الذي تزينه أزهار متعددة الألوان. وكان واضحاً أن تلك الملابس والزينات قد تم تحضيرها، في المنازل، وعلى عجل. ولكنها كلها تنم عن الرغبة بإدهاش الآخرين، ونيل إعجابهم. وكانت السيدات يمتدحن بعضهن، وكل منهن تهنئ صديقاتها على حسن هندامهن وزينتهن، ويكثرن من توزيع الابتسامات والغمزات، ومن تحريك المراوح اليدوية. وكان جهدهن كبيراً للتذكير باستقبالات «سان بطرسبورغ»، وجعل استقبالهن هذا يشبهها لدرجة أن ذلك أثار لدى «صوفيا» مزيجاً من الانزعاج والشفقة. وكانت

متأكدة من أنهنّ على الرغم من زينـاتهنّ ومجـاملاتهنّ لبعـضهنّ أن ينخـدعن بكـل ذلـك، لأن في أعمـاق بهجـتهن، لابـد مـن أن يبقـى هنالـك إحـساس يذكرهن بطعم السجن.

- عزيزتي، أن فستانك مدهش!

- وتسريحة شعرك! يجب عليك، من كل بد، أن تعيريني وصيفتك! فهي تعمل كالساحرة بيديها الماهرتين! أتعلمين ماذا قالت لي وصيفتي؟..

وكان السادة وقد ارتدوا الملابس الرسمية السوداء (الفراك) والصداري البيضاء، يبدون في وضع مصطنع ومتكلف. وبسب ارتفاع عدد العزاب بينهم، كان يوجد عشرة رجال مقابل كل امرأة. وقد شكل ذلك عدم تناسب مزعج حتى بالنسبة لأولئك اللواتي يرغبن بالحصول على التملق والتزلف.

أما الجنرال «ليبارسكي» الذي كان يعاني من وذمة في ساقيه، فقد اضطر إلى البقاء في بيته. وقد احتلت جوقة صغيرة من القرويين، وكأنها على المنصة، وأخذت تعزف بهدوء، بعض الألحان على «البلاليكا»، بينما أخذ الخدم يوزعون كؤوس المرطبات على المدعوين. وبعد أن جرى تبادل التهاني، وعبارات التبريك، خيم الصمت والبرود على الحاضرين. فلم يكن لدى أحد شيء يقوله. وشعور الرجال بأنهم متنكرون وفي غير وضعهم العادي والطبيعي، أربكهم وجمد تفكيرهم، وحرمهم من البراعة في الكلام، كما أربك السيدات، وحرمهن من الإحساس بالمرح والارتياح. وانطلق «نيقولا» في جدل سياسي، مع الأمير «تروبيتزوكوّي» والدكتور «وولف». في فرنسا، كان «لويس فيليب» (الملك- المواطن) قد أعاد النظام إلى سابق عهده، وصادر لمصلحته الانتصار الشعبي. وفي بولونيا، حل القيصر المجلس التشريعي، وسرح الجيش البولوني، وألغى السلطات الإدارية المستقلة، ونفى زعماء التمرد إلى مناطق نائية، وأخضع البلاد

بكاملها إلى سلطته وسيطرته. أفلن تثير هذه القسوة التي فاقت الحد، ثورات جديدة؟

فاحتجت السيدات:

- لا مجال للمناقشات الجادّة، في هذه الأمسية!

كن قد عزمن على الرقص! وتكون هذه هي المرة الأولى التي يرقصن فيها منذ أن حُكم على أزواجهن بالسجن. وتتحى عازفو «البلاليكا» واحتل السجين «يوشنفسكي» مقعده بجانب «البيانو»، وأخذت أصابعه تعزف بسرعة وقوة، لحن «الفالس». فأخذ الرجال ينظرون إلى بعضهم خلال برهة طويلة، وقد اعتراهم الارتباك، دون أن يجرؤوا على الانصياع لهذه الموسيقا، تلبية لندائها، وكأنها تدعوهم إلى ارتكاب المنكر وانتهاك الحرمات. إذ إن القضية التي خدموها وضحوا من أجلها، وأدينوا بسببها، وتعرضوا لهذه العقوبة التي يقاسونها، كان يبدو لهم، أنها تتطلب منهم، بل وتفرض عليهم وقاراً، لا يتفق مع هذا النوع من التسليات المرحة. كان «نيقولا» يتأمل «صوفيا» بإعجاب، وكانت تبتسم له، وفي نظراتها نداء صامت. وكان ضوء الشمعدانات يضفي على بشرتها لوناً ذهبياً، ويزيد من حدة نظراتها.

وأخيراً، نهض الأمير «تروبيتزوكوّي» وانحنى أمام صاحبة البيت. وافتتحا حفلة الرقص، مع شيء من الوقار في مظهرهما، وأخذ الجميع يراقبونهما، دون أن يجرؤ أحد، حتى تلك اللحظة، على الإقتداء بهما. وكان «يوشنفسكي» وهو منحنٍ على البيانو، يضيف إلى الألحان كثيراً من المحسنات والزغردات، والأنغام المكررة بسرعة، التي تحرك شغاف القلب. وفجأة ضم «نيقولا» إليه «صوفيا» ناسياً الرابع عشر من كانون الأول (ديسمبر) و الثورة، والسجن. وانطلقت أقدامهما مع الإيقاع، في شوط دائري ورشيق، فلحق بهما أزواج آخرون، وفي برهة وجيزة، كان لكل سيدة مراقصها. وأخذت «صوفيا» تتأرجح، بقامتها الرشيقة، ومنكبيها المرنين،

وذراعها الأيمن ممدود باسترخاء، وهي تتمايل بسحر ودلال، دون أن تتحول نظراتها عن وجه «نيقولا» الذي بدت عليه تعابير الوقار والمحبة والحنان. لم يكن يتكلم معها، ولكنها كانت تعرف أنه مثلها، يفكر بماضيهما، وبفترة شبابهما، وبحفلات رقص أخرى، وبالفرص الضائعة، وبالحب الذي ينتصر ويتغلب على محن وتجارب الزمن.

«كما في الماضي... تقريباً كما في الماضي.. وربما أفضل..» وكانت المرايا، وقطع الأثاث، ولهيب الشمعدانات، ووجوه المدعوين، تدور حولهما، وقد أصبحا مركز العالم. وشعرت بدوار ينتابها وبصعوبة بالتنفس، فاستندت خلال لحظة على صدر زوجها. كان لديه قوة دائمة، تبعث في نفسها الطمأنينة. ودون أن يتوقفا عن الرقص، اقتادها إلى آخر القاعة، فتهادت على إحدى الأرائك، أمالت رأسها إلى الوراء، وقالت بصوت متهدج:

- لم أعد معتادة على هذا!

وهو أيضاً، كان يلهث، متعباً، ولكنه بدافع من الزهو والغرور، زم منخريه، أطبق شفتيه، وتظاهر بأنه يتنفس بهدوء، كانت قطرات العرق تتلألأ على جبينه الذي بدا فيه وريد منتفخ. ولاحظت «صوفيا» أنه قد نضج واكتمل نموه، بل لقد تقدمت به السن، وكاد يبلغ سن الشيخوخة، وجعلها ذلك تشعر برضى غريب. كما لو أن هذا الميل الهادئ والعذب إلى الذبول كان من صنعها هي وكما لو أنه أصبح ينتمي إليها، وأصبحت تمتلكه بشكل أقوى واضمن، لأنه أصبح لديه تجاعيد تحيط بعينيه:

وهمست في أذنه:

- كان عليك أن تراقص ربة المنزل.

فبدرت منه تكشيرة كتلك التي تبدر من صبي غير مهذب، ووعدها بأن يدعو السيدة «نارشكين» للرقص، في الرقصة الشعبية التالية. وفي تلك

اللحظة، حصل تزاحم بجانب الباب، وتقدم ابن أخ «ليبارسكي» بين الراقصين. وبدا قلقاً ومنفعلاً، لدرجة أن الموسيقا قد توقفت. وقال:

- أرجو المعذرة لإحداثي هذا التشويش في اجتماعكم، ولكن الجنرال «ليبارسكي» أرسلني لكي أخبركم بأن الجنرال «ايفانوف» مرافق وزير الحربية قد وصل بشكل مفاجئ، من أجل تفتيش السجن. ويمكن أنه يريد القيام بذلك، في الحال. فعليكم أن تسرعوا بالعودة إلى زنزاناتكم. وهناك تغيّرون ملابسكم وعلى السيدات ألا يفكرن بالذهاب معكم! لأن ذلك سيكون له أسوأ تأثير! هيا، بسرعة، أيها السادة، بسرعة! فالأمر يتوقف عليه أمننا وسلامتنا، جميعاً!

فحدث تزاحم واندفاع نحو المخرج. واستاءت صاحبة المنزل كثيراً، وأخذ الرجال المضطربون يمرون من أمامها متجهمي الوجوه، كما لو أن حريقاً قد اندلع في صالونها، حتى أن بعضهم نسي أن يقبل يدها، مودعاً، وكان قد بقي كثير من الطعام ومن الشراب على المائدة! وعانق «نيقولا» «صوفيا»، انحنى أمام السيدة «نارشكين» وهرول مسرعاً إلى خارج المنزل، ولحسن الحظ لم يكن هنالك سوى عبور الشارع للوصول إلى السجن. وأخذت مجموعة متراصة ممن كانوا في تلك الحفلة يمرون مسرعين أمام مركز الحراسة، وهم يرتدون الملابس الرسمية السوداء والصداري البيضاء، كأنهم في عيد أو حفل رسمي. ولم تنقضِ سوى عشر دقائق، حتى خلع جميعهم تلك الملابس الاحتفالية. وأصبحوا مساجين يرتدون أسوأ الملابس.

ولم يقم الجنرال «ايفانوف» بزيارتهم إلا في صباح اليوم التالي. وهو شخص بدين جداً، يتصف بمزيد من الهيبة والوقار، ويحمل كثيراً من الأوسمة، وبدا وكأنه يجد صعوبة في التحرك. وكان «ليبارسكي» يرافقه، وهو شاحب الوجه.

وفي إحدى زاويتي فمه بدت حركة لا إرادية تنم عن الألم. ويعرج ولكنه يرفض أن يستخدم عكازاً. ومن وقت لآخر، كان يهمس في أذن المفتش بعض المعلومات الشبيهة بالاعتذارات. وعندما دخلا إلى غرفة «نيقولا» وقف هذا، لكي يستقبلهما.

وقال «ليبارسكي»:

- وهذا «نيقولا ميكايلوفيتش أوزاريف»: لا شيء يستحق الذكر، بشأنه.

ولا بد من أنه كان يردد هذه العبارة، وهو يذكر له أسماء جميع المساجين، لكي يعرفه عليهم، وكانت هيئته التي تنم عن التزلف، تبعث على التأثر، وقد أحزنت أغلبية المساجين و «نيقولا» من جهته، وهو يقدره كثيراً، فقد تألم لرؤيته وهو يتزلف أمام هذا المسؤول الممتلئ زهواً وإعجاباً بنفسه. فماذا يخشى، وما الذي يقلقه؟ فالإحالة على التقاعد، التي يمكن أن يخاف منها، وهو في هذه السن، هو الموت! ولكنه، لم يكن يفكر به، وهو لا يزال يمارس عمله، ومتشبث بمتابعة الخدمة.

وسأل الجنرال «ايفانوف» «نيقولا»:

- إلى أي فئة تنتمي؟

فأجابه «نيقولا»

- إلى الفئة الرابعة.

- ألديك أي شكوى تتعلق بالمسكن أو بالطعام؟

- أبداً، يا صاحب السعادة؟

- كيف تمضي أوقات فراغك؟

- بالمطالعة والدراسة.

- أي نوع من الدراسة؟

كان القلق بادياً على وجه «ليبارسكي»، كأنه والد يجتاز ابنه امتحاناً صعباً. وأخذ يحرك شفتيه، كما كان يفعل «نيقولا» ومعه، في الوقت

نفسه، كما لو أنه يريد مساعدته على الإجابة بصورة صحيحة على الأسئلة.

فقال «نيقولا»:

- التاريخ، السياسة والفلسفة.

فاستاء الجنرال «ايفانوف»، قطب جبينه، واكفهر وجهه المترهل الخدين، وقال بحدة وجفاء:

- هذه علوم مزيفة، علوم خطيرة!

فأسرع «ليبارسكي» إلى القول:

- هو يعمل أيضاً بالأشغال اليدوية: كالنجارة، وبعض الأعمال الميكانيكية البسيطة... والكثير من مساجيننا تعلموا بعض الحرف في السجن... وهذا سوف يفيدهم كثيراً، عندما يرسلون إلى أماكن إقامتهم الإجبارية..

فسأله الجنرال «ايفانوف»:

- وزوجاتهم، أين هن؟

فارتعشت عضلة صغيرة تحت جفن «ليبارسكي»، الأيسر، وقال، متلعثماً:

- في بيوتهن... وهن يأتين إلى هنا، من وقت لآخر، حسب ما يسمح لهن النظام بذلك، ولكنهنّ، عادة... نعم.. يبقين في بيوتهن، وهؤلاء السادة ليس لهم الحق بالذهاب لزيارتهن، إلا في حالة الإصابة بمرض خطير.. وعلى الدوام.. نعم، على الدوام، تحت حراسة أحد الجنودّ.. وبشأن هذا الموضوع، أنا لا أتساهل مطلقاً!.. ولهم كل ما يريدون، ولكن تحت المراقبة والحراسة!..

فخرج المفتش، دون أن يضيف أي كلمة، وتبعه «ليبارسكي» وهو يعرج. وعند اجتيازه عتبة الباب ألقى على «نيقولا» نظرة تنم عن الأسى والضيق.

وسافر الجنرال «ايفانوف» في اليوم التالي، وأوى «ليبارسكي» إلى سريره. فهذه الزيارة المفاجئة أثرت كثيراً على مقاومته وعلى معنوياته. وشعر بأن قلبه مريض، وأعصابه متعبة، ولذلك أراد أن يكتب للإمبراطور، مقدماً استقالته. وأفضى بذلك للدكتور «وولف»، الذي أسرع فنقل هذا الخبر إلى رفاقه، فعم الاضطراب والقلق بين المساجين جميعهم، إذ إن قدوم حاكم جديد لسجن «بيتروفسك»، يعني بالنسبة لهم، تشديد النظام والانضباط، في السجن، بكل تأكيد. فاقترح «نيقولا» عليهم أن يشكلوا وفداً، يذهب في الحال، لمقابلة الجنرال. واستقبل «ليبارسكي» أعضاء الوفد، وهو يجلس في سريره وقد ألقى على كتفيه سترة عسكرية. ولم يسبق لهم أبداً أن رأوه أكثر شيخوخة وأكثر تعباً وإرهاقاً. ولأنه لم يحلق ذقنه منذ عدة أيام. فقد بدا وجهه، كأنه مغطى بشوك تجمدت عليه قطرات الندى. وكان يضع يده على قلبه ويتنفس بصعوبة.

وقال له «نيقولا» متمتماً:

- إنه لأمر مستحيل أن تغادر وتتركنا، يا صاحب السعادة، فماذا سيحل بنا بعد ذهابك؟! فلن يتفهمنا أحد، ولن يساعدنا، كما كنت تفعل، أنت! وإذا لزم الأمر، فإننا سنقوم نحن، بأنفسنا، بالمحافظة على النظام والانضباط، كما تريد، بشرط واحد فقط، وهو أن تبقى معنا!..

فتأثر «ليبارسكي» كثيراً، عند سماعه هذا الكلام، وأخذت التجاعيد تتحرك في وجهه، كما لو أنه أخذ يتحول إلى قطع متعددة. وانتفخت جفونه وقد امتلأت بدموع الشيخوخة. وقال، متلجلجاً:

- أنتم فتيان طيبون... شكراً لكم.. ولكن الأمر فوق طاقتي، ويتجاوز قواي.. وعلاوة على ذلك، فإن الإمبراطور، بعد بضعة أيام، سيبلغني استياءه مني..

- وكيف عرفت ذلك؟

- لقد أدركته، وأنا أراقب «ايفانوف» فهو لم يقل لي شيئاً، ولكني قرأت تقريره في عينيه. وفي هذه الساعة، بالذات، ربما يكون قد انتهى الأمر، وعين ضابط آخر ليحل محلي؟!

- انتظر، على الأقل، أن تُبلّغ ذلك بصورة رسمية، يا صاحب السعادة!

- إني أفضل أن أستبق الأحداث.

- أبدافع من الكبرياء، عزة النفس؟

- نعم.

والدكتور «وولف»، الذي كان يصغي لهذا النقاش، تدخل، بقوة وحزم:

- لست في حالة صحية تسمح لك، بأن تحسم مسألة، لها هذا القدر الكبير من الأهمية! عليك أن تنتظر حتى تشفى، وبعد ذلك تستطيع أن تتخذ قرارك المناسب!

ثم التفت نحو رفاقه، وأضاف:

- أرجوكم أن تتصرفوا، أيها السادة، فسعادته بحاجة للراحة.

وطوال شهر آخر، ظل المساجين يعانون من قلق شديد: إذ إن «ليبارسكي» لم يكن يغادر غرفته أبداً، وفي كل يوم يتحدث عن تقديم استقالته، وكل يوم، كان الدكتور «وولف» يردعه عن القيام بذلك. وعبر هذا العراك اليومي، أخذت قوى المريض تضعف بسرعة. ووصل إلى حالة من الحساسية العصبية، بحيث إن الأدوية الاعتيادية لم يعد لها أي تأثير عليه ولم تعد تجدي نفعاً.

وكان الدكتور «وولف» يروي، إنه كثيراً ما يطلب بعض المصنفات والأضابير القديمة، وأدلة وشهادات بالثناء عليه، وشكره على خدماته، يعود تاريخها إلى عهد «كاترين الكبرى» و «بولس الأول»، «أليكسندر الأول». كما يطلب أن يحضروا له بعض الخرائط والمصورات العسكرية،

القديمة، التي تمزقت طياتها، بسبب قدمها وكثرة استعمالها فيبسطها على سريره، ويستغرق في تأملها، وهو شارد الذهن، طوال عدة ساعات: لقد كان يستعيد، بصمت، ذكريات خدمته العسكرية الطويلة، وكأنه يعيشها من جديد.

وفي صباح يوم أحد، وقد تجمع المساجين في الباحة، بانتظار توزيع البريد، بدا لهم فجأة شخص، كأنه عائد من العالم الآخر: كان «ليبارسكي» يتقدم نحوهم وهو يستند برفق على ذراع الدكتور «وولف»، وقد ارتدى بزة العرض والاحتفالات، وعلى صدره جميع أوسمته، وتمنطق بالوشاح الأكبر، كان وجهه لا يزال شاحباً، ولكن ملامحه تنم عن الارتياح، وفي نظرته يشع بريق فتوة جديدة. وتحدث إليهم، قائلاً:

- أيها السادة، يسرني أن أحيطكم علماً أن الإمبراطور، بعد اطلاعه على تقرير الجنرال «ايفانوف» وجه لي رسالة شخصية، لتهنئتي على حسن إدارة وتنظيم السجن، وعلى وضعكم الجيد، وحسن تصرفكم، أثناء عملية التفتيش. وهو يسمح ببناء الكنيسة، شريطة أن ترسل له المصورات اللازمة، قبل البدء بالعمل، لكي يوافق عليها.

فصاح «يوري ألمازوف»:

- مرحى!

فردد الجميع هتافه، بينما كان «ليبارسكي» يبتسم مسروراً وقال «نيقولا»:

- آمل أنك لن تفكر بعد الآن، بان تذهب وتتركنا، يا صاحب السعادة!

فتمتم «ليبارسكي»، وهو يغمز بعينه:

- سنحاول متابعة بقية الطريق سوية.

وبعد ذهابه، صرح الدكتور «وولف» للمساجين، قائلاً:

- لم أستطع أن أفهم شيئاً في قضيته! فقد كان في أسوأ حالة، يشكو من أمور كثيرة. دقات قلبه غير منتظمة، ساقاه متورّمتان، وحرارته مرتفعة. وتلقى الرسالة، وكما يحدث في السحر، فقد زالت الوذمة وخف الورم. ورأيت ذلك بأم عينيّ!

فطبيبه الحقيقي، لست أنا، بل القيصر، هو طبيبه الذي شفاه من مرضه!

٤

أحيا استسلام «فرصوفيا»، لدى المساجين، الأمل، بصدور عفو، في القريب العاجل. ولكن، لم يلِ ذلك أي إجراء ينم عن الرحمة، كما أن مولد طفل ثالث للقيصر لم يخفف من قسوة هذا الأخير. وآنذاك، ولأنه كان ينبغي أن يكون لدى المساجين هدف، لكي يهتموا بالمستقبل، فقد أخذوا يؤكدون لبعضهم أن العقوبة سوف تخفف عنهم، بمناسبة الذكرى العاشرة للثورة، أي أن عليهم أن يقضوا ثلاث سنوات أخرى، بانتظار ذلك اليوم!

وانتهى الصيف بشكل مفاجئ. بزخات باردة من الأمطار وبتساقط الثلوج. واقتربت السماء من الأرض. وغمر «بيتروفسك» كلها جو شتوي كئيب. وفي تشرين الأول (أكتوبر) أجهضت «أليكسندرين مورافييفّ»، فسبب لها ذلك، ضعفاً شديداً، وبعد فترة قصيرة تعرضت للبرد، وأخذت تسعل، فأوت إلى سريرها، وقد انتابتها حمى شديدة. وتبين للدكتور «وولف» بعد أن فحصها جيداً، أنها مصابة بذات الجنب، وكان جسم المريضة متعباً ونحيلاً جداً، لدرجة أنه لم يكن هنالك أي علاج يمكن أن يحقق لها الشفاء، ولا حتى الارتياح.

كانت تتنفس بصعوبة، وبشكل متقطع، وكأن رئتيها قد تجمدتا وتوقفتا عن العمل. وعلى الرغم من الاحتياطات التي تتخذها، كانت تشعر، عند أدنى جهد تبذله لكي تتنفس، بوخزات حادة تمزق صدرها. وكان العرق يتصبب على وجهها الشاحب بملامحه التي تنم عن الإرهاق،

ووجنتيه اللتين يميل لونهما إلى البنفسجي. وبعد فترة وجيزة، لم تعد تستطيع الدفاع عن نفسها ضد الموت الذي أخذ يصارعها. وكانت صحوتها، ونفاذ بصيرتها مخيفتين بالنسبة لجميع الذين يحيطون بها. وتلقت «الأسرار الأخيرة»، وودعت زوجها، ولكنها طلبت أن تترك ابنتها نائمة، واكتفت بأن تضم بين ذراعيها دمية الطفلة. وأخذت تغطي بالقبلات تلك الدمية، المصنوعة من خرق القماش، والدموع تسيل من عينيها. وقد شهدت جميع السيدات احتضارها، صامتات، وقد انتابهن رعب شديد. ووجهت كلمة لكل واحدة منهن.

وقالت لـ «صوفيا»، وهي تلهث:

- لقد خشيت كثيراً، فيما مضى، من أن تنفصلي عن زوجك! لقد خلق كل منكما للآخر!.. ابقيا سوية.. دائماً.. على الدوام... وإلى الأبد!..

ولاقت «صوفيا» صعوبة كبيرة في حبس دموعها. فهذه الراحلة، هي أفضل صديقة لها. وهي الوحيدة التي فهمتها، ودافعت عنها. كان هنالك شمعتان تنيران الغرفة. وسقط رأس المريضة على الوسادة. وبدت بشرتها شاحبة، وشفتاها تنفتحان عن نفس مبحوح وأجش يشبه الحشرجة. وأرسلت تنهيده عميقة، ارتدت حدقتاها وغابتا، ثم سكنت وتجمدت تماماً.

فارتمى «نيكيتا مورافييف» على جسم زوجته، والشهقات تهز كتفيه. وفي الجانب الآخر من السرير، وقف الدكتور «وولف» محني الرأس، وهو الذي كان يحب كثيراً «أليكسندرين» ولكنه لم يستطع إنقاذها. وأغلق عيني المتوفاة، بعد أن أصبحت جثة هامدة. ووصل «ليبارسكي» متأخراً. وبعد فوات الوقت. وقد احتاج لمن يساعده كي يستطيع الركوع على ركبتيه. وظل هكذا، لفترة طويلة، وهو يصلي، أو يحلم، حيال ذلك الشكل الكريستالي والرخامي، الذي لا عمر له، ولا وزن، ولا صفة البشر العاديين.

ودخل إلى الغرفة كل من في السجن، للمرور أمام جثمان المتوفاة، وإلقاء النظرة الأخيرة عليه. والمتوفاة، التي كانت ترتدي أجمل فساتينها بدت وكأنها تشاهد عبر جفونها المطبقة أولئك الذين شاركتهم في قدرهم وحياتهم، وهم يمرون ببطء، من أمامها.

وصنع لها «نيقولا بيستوجيف» تابوتاً بطّنه بقماش «التفته»، الحريري الناعم، سكري اللون وذهب بعض مساجين الحق العام العاديين، الذين أخلي سبيلهم سابقاً، وأخذوا يعملون في السجن كخدم، إلى المقبرة، حيث أزالوا الثلج المتراكم هناك، وحفروا القبر في الأرض القاسية والمتجمدة. ومشى في الجنازة وراء النعش جميع المساجين وقد حمل كل منهم شمعة. وفي الكنيسة، كان البرد قارساً جداً، لدرجة أن «صوفيا» شعرت وكأن دماغها قد تجمد. وأمام النعش، الذي أخذ الكاهن ينثر عليه دخان البخور، أخذت تفكر، بأمواتها، وتتذكرهم بشكل غامض ومشوش، وهي شديدة الأسف لشعورها بأنهم أصبحوا بعيدين جداً: فصورة أبيها وصورة أمها، أخذتا تمحيان، شيئاً فشيئاً في ذاكرتها، و «ماري» الصغيرة التي رحلت، باكراً جداً، وقبل الأوان، بدت لها وكأنها لم يكن لها وجود أبداً بين الأحياء. و «نيكيتا» نفسه، أخذ يفقد، مع مرور الزمن، من دقة ملامحه، من حرارته، ومن حقيقته البشرية، عبر ما يكسبه كسر خفي وعجيب وكان عمها «ميشيل بوريسوفيتش» وحده من بين جميع الأموات، هو الذي ظل عصياً على النسيان، يقاوم عمله البطيء، بطبعه القاسي والفظ، وبالقناع ذي الملامح البارزة الذي يستر وجهه. وهي لم تعد تكرهه، ولكنها كانت تتذكره أحياناً وتشعر بنوع من الخشية، كما لو أنه لا يزال يستطيع أن يؤذيها، وهو في داخل القبر. وبعد القيام بالصلوات الأخيرة، حمل ستة مساجين نعش «أليكسندرين» على أكتافهم وخرجوا، في ذلك الجو الجليدي والبرد القارس. وخلفهم مشى «نيكيتا مورافييف»

محني الظهر. وتأملته «صوفيا» بدهشة مشوبة بالألم، وهو يمر من أمامها: كان قد شاب وأبيض شعره.

في اليوم التالي، عمل «نيقولا بيستوجيف» على إقامة مصلى صغير فوق القبر. كان هذا هو أول حداد يحل بجماعة المساجين. والنساء اللواتي، كن يسهرن سوية على العناية بالطفلة اليتيمة، أخذن يفكرن بأنهن، هن أيضاً، يمكن أن يرحلن ويتركن أطفالاً صغاراً «فماذا سيحل بهم بعد رحيلنا؟» كان هذا السؤال يلازمهن جميعاً، ويعذبهن. فأخذن يتبادلن الوعود المهيبة، ويعهدن بأطفالهن لبعضهن، بموجب وصايا يكتبنها، ويرتدين ثياباً كثيفة، تعطي المزيد من الدفء، ويزدن منها أكثر من المعتاد، ويرقدن في الأسرة، عند أدنى توعك يشعرن به. وكان على الدكتور «وولف» أن يوبخ البعض منهن، لتناولهن أكثر مما ينبغي من الأدوية.

على الرغم من الحزن الشديد الذي أصاب الجماعة، في أواخر السنة، فقد أقيمت شجرات عيد الميلاد، في جميع المساكن التي كان فيها أطفال. وأخذ سكان «بيتروفسك» يتنزهون في شارع السيدات لكي يتفرجوا، من النوافذ، على شجيرات الصنوبر المزينة باللعب، بالحلوى وبالنجوم المصنوعة من الورق الذهبي.

وكان أطفال العمال، وقد ألصقوا أنوفهم على زجاج النوافذ. يحسدون أطفال المساجين.

وأهم عملية توزيع الهدايا واللعب، حصلت في منزل «بولين أنانكوف». و «نيقولا» و «صوفيا» حضرا الحفلة. وكان الأطفال، بملابسهم الجديدة، الزاهية، يقتربون الواحد بعد الآخر، من ربة البيت، الجالسة بالقرب من «جبل» من العلب المزينة بالشرائط الزرقاء والحمراء والوردية، ليتلقى كل منهم هديته، ويسرع إلى إحدى زوايا الغرفة لكي يفك الشريط ويفتح العلبة.

وسقطت الصغيرة «ساشا ترووبيتزوكوّي» على مؤخرتها، وهي تحاول الانحناء أمام السيدة «بولين» تحية لها، عندما فتح الباب، بينما كان الجميع يضحكون على الصغيرة «ساشا» وبدا «يوري ألمازوف» جاحظ العينين، وأخذ يلوح بصحيفة، رفعها كاللافتة فوق رأسه، وأخذ يصرخ:

- استمعوا!.. استمعوا جميعكم!.. لقد وصل البريد!..

هنالك خبر عظيم!.. العفو!...

وفي الحال، كف الجميع عن الضحك، وتشكلت حلقة حول القادم الجديد، الذي بسط على المنضدة عدداً من صحيفة «العاجز الروسي»، يحمل تاريخ ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٣٢. وقد أمضى هذا العدد نحو شهر حتى وصل إلى «بيتروفسك» ويعود تاريخ المرسوم الذي نشر فيه إلى الثامن من تشرين الثاني، وهو اليوم الذي أقيم فيه الاحتفال بتعميد الابن الرابع للإمبراطور، الذي أطلق عليه اسم، ولقب «الدوق الأكبر ميشيل نيقولاييفتش».

«وبهذه المناسبة، ولرغبتنا الشديدة بإعطاء دليلاً جديداً على حلمنا، وتسامحنا مع المجرمين الذين عكروا أمن الدولة، المذكورة أسماؤهم، فيما يلي، قررنا تخفيف عقوباتهم...»

ويلي ذلك قائمة بالأسماء. ويستفيد محكومو الفئات الثلاثة الأولى من تخفيض خمس سنوات من مدة عقوبتهم. أما جماعة الفئة الرابعة- التي ينتمي إليها «نيقولا» - فينبغي إخلاء سبيلهم، على الفور، وإرسالهم إلى الإقامة الإجبارية المراقبة، أو، إذا كانوا يفضلون، يتم تجنيدهم وإلحاقهم بالجيش الذي يقاتل في القوقاز. ومن شدة فرحة «نيقولا» أمسك يد «صوفيا»، ورفعها إلى شفتيه. وحولهما، أخذت السيدات تتهامسن فرحات. وبعضهن يبكين تأثراً وفرحاً، ويرسمن إشارة الصليب على صدورهن. بينما كان الرجال يتخاطفون الصحيفة، لكي يتأكدوا من أن أسماءهم موجودة فعلاً في الجدول.

وكانت «كاميليا» وهي في الشهر الثامن من الحمل، تتنهد وقد ضمت يديها على بطنها:

- الطفل الذي أحمله، سيبلغ الثالثة من عمره، عندما سنرحل من هنا! آه! يا باسيل، لنرفع شكرنا وتضرعاتنا إلى الله!

وقالت «كاترين تروبيتزوكوي»:

- وهكذا لن يبقى علينا سوى تسع سنوات، وأنتما، يا «بولين»، كم يبقى عليكما؟

- أكثر من خمس سنوات.

- سوف يمر الوقت ويمضي بسرعة!

وأخذت «ناتاليا فونفيرين» تردد، وهي توجه نظراتها نحو الأيقونة المعلقة في الصالون:

- الحمد والشكر لله! الحمد والشكر لله!

ولأن السيدات كن في منتهى السعادة، لتلقيهن، بمناسبة عيد الميلاد، من القيصر، هذه الهدية غير المتوقعة، فقد نسين الأطفال الذين كانوا، من جهتهم، ينتظرون متابعة توزيع الهدايا. وقد ظلوا جميعهم، البنات والصبيان، برهة طويلة، مندهشين وحائرين، ينظرون إلى الكبار المنهمكين في هرج ومرج من الكلام والضحك، ثم بدأ الأكثر خجلاً بينهم، يتباكون، بينما أخذ الأكثر قوة وجرأة، يستولون على العلب والهدايا المخصصة لغيرهم، فنشبت المعارك فيما بينهم من أجل أصغر لعبة أو أصغر صفارة خشبية. ولكن صراخ الأطفال وبكاءهم ودموعهم لم يزعج أهلهم الذين استمروا في الضحك وتبادل التهاني والضم والعناق، لمسوغات وأسباب غير مفهومة تماماً. ولأن الخناقات بين الأطفال قد تطورت وازدادت خطورة، فقد تدخلت المربيات واقتدن أولئك المتقاتلين الذين كان كل منهم، يضم إلى صدره لعبة لم تعد، في حقيقة الأمر، تهمه أو تعنيه بأي شكل.

وبعد أن قرأ الجميع الصحيفة، وأعاد بعضهم قراءتها مرة ثانية، اقترح عليهم الأمير «تروبيتزوكوّي» الذهاب لزيارة «ليبارسكي» لكي يعرفوا فيما إذا كان قد أطلع على القرار الذي اتخذه القيصر.

وكانت السيدات أكثر تذمراً، ونفاد صبر، من أجل الحصول على معلومات إضافية. وكانت مجموعة مكونة من ثلاثين شخصاً، على وجه التقريب، هي التي اتجهت، عبر الثلج نحو منزل الجنرال، الذي استقبلهم بكل بساطة وطيبة قلب، وهنأهم على العفو الذي شملهم، ولكنه أكد لهم، بأنه، مثلهم، لم يطلع على الخبر إلا عن طريق الصحف. وإنه عندما يتلقى تعليمات رسمية بشأن أماكن الإقامة الإجبارية المخصصة لمساجين الفئة الرابعة، الذين سيخلى سبيلهم، فسوف يبلغهم إياها، في الحال. وقال له بعضهم بأنهم يريدون الانضمام إلى الجيش بدا الأمير «أودويفسكي» أكثر من الجميع تصميماً بهذا الشأن.

وخيل لـ «صوفيا» أن «نيقولا» كان ينظر إليه بغيرة وجسد، بهذا الخصوص. ولا شك أنه، هو أيضاً، ربما كان اختار الانضمام إلى الجيش، والذهاب لمقاتلة «الجركس» لو لم يكن متزوجاً! وخلال جزء من الثانية، تبادر إلى ذهنها، وقالت في سرها إنها تشكل عبئاً يثقل كاهله، وتمنعه من أن يعيش على هواه، وكما يحلو له. لكنه، في تلك اللحظة، اقترب منها، وهمس في أذنها:

- أحرار، يا «صوفيا»، سنصبح أحراراً! فهل تعرفين ماذا يعني ذلك؟

فقالت له:

- نعم، أعرف، ولكن إلى أين سيرسلوننا؟

- ليس لهذا أي أهمية! فمعك، وبرفقتك، أنا مستعد لأنصب خيمتي في إحدى الصحارى. ثم، بعد بضع سنوات نمضيها في سيبيريا، سوف يسمحون لنا بالعودة للإقامة في منازلنا، في روسيا! سترين ذلك، وعليك أن تثقي بما أقوله لك!

كانا يتلامسان بالمنكبين، وقد تدلى ذراعاهما. وعلى مستوى فخذيهما، شكلت أصابعهما المتشابكة عقدة، بل رباطاً حياً.

وطلب «ليبارسكي» من الحاجب إحضار «الشمبانيا»، فقد اعتاد أن يحتسي منها بضعة كؤوس، في المناسبات المهمة، على الرغم من تحذيرات الدكتور «وولف».

وقال، بلهجة تنم عن البهجة والفرح:

- أيها السادة والسيدات، أقترح عليكم، أن تشربوا معي نخب صحة الإمبراطور، الذي برهن لكم جميعاً، لتوه، عن عناية ورعاية فائقتين!

وكان، هو الوحيد الذي رفع كأسه، ومن حوله، بدت الوجوه متجهمة ومغلقة، وكأنها أصبحت هكذا، بناءً على إشارة تلقتها. وبدت النساء أيضاً أكثر عداءً من الرجال. فمرت سحابة حزن في عيني «ليبارسكي». ومن جديد، انفتحت حفرة عميقة بينه وبين المعتقلين. وليس هنالك شك بأنه موجود في المكان الوحيد في روسيا الذي لا يلاقي فيه صدى ولا تجاوباً، نخب من هذا النوع. ولا جدوى من الإلحاح. فأفرغ كأسه، جرعة واحدة، وطلب من الحاجب أن يملأه ثانية. وفي هذه المرة، قال الأمير «تروبيتزوكوي»:

- نخب صحتك، أنت، يا «ستانيسلاس رومانوفيتش»!

فتقدم الجميع خطوة إلى الأمام، وصاحوا بصوت واحد:

- نعم، نعم! نخب صحتك، يا صاحب السعادة!

حياة مديدة، وعمر سعيد! نشكرك على كل شيء!

فقطب «ليبارسكي» حاجبيه، لكي يخفي تأثره الشديد: فهؤلاء الليبراليون العصاة يقبلونه كسيد لهم. ولو أنه كان مكان القيصر، لما تمرد أو ثار أحد، يوم الرابع عشر من كانون الأول (ديسمبر). وبدت له الفكرة غريبة جداً، لدرجة أنه خشي من أن يكون قد أفرط في الشراب.

كانت «الشمبانيا» تلذع لسانه، واغرورقت عيناه بالدموع، وقال، بصوت أجش ومتهدج:

- نخب صداقتنا!

وقرع كأسه بكؤوس المساجين وبكؤوس زوجاتهم.

★★★

وأخذت الأيام تمر، وإذن السفر لم يأتِ. بعد موجة قوية من الحماسة، أخذ محكومو الفئة الرابعة ينظرون إلى المستقبل بقلق شديد.

فقد عاشوا زمناً طويلاً في علاقة فكرية قوية مع رفاقهم، لدرجة أنهم أخذوا يتألمون لأن عليهم أن يفارقوهم، وإلى الأبد، دون شك. ويضاف إلى الحزن الذي يسببه الفراق، خوف غريب حيال أبعاد وقوانين العالم الذي يبدأ فيما وراء السجن. ففي المجتمع الصغير المغلق الدافئ والأخوي، الذي كان يضمهم في السجن، كان الحرمان من الحرية، يعوض عنه الشعور بالأمن التام والمطلق، هنا لم يكن أحد يترك لوحده، ليعتمد على نفسه وحسب. وعند أقل صعوبة مادية كانت أو معنوية، يتعاون الجيران فيما بينهم على حلها وتجاوزها. وهؤلاء الذين عرفوا هذا الجو الذي تسوده الكرامة، الحمية والأريحية والتفاهم السياسي، لا يمكنهم إلا أن يخافوا من أن يلقى بهم، اليوم أو غداً في مجتمع الناس العاديين. ووجودهم في حيز مغلق، لم يكن من شأنه أبداً أن يشحذ هممهم ويقوى عزائمهم، بل جعلهم، على النقيض من ذلك، أكثر قابلية للعطب، للانزواء وللانطواء على الذات. وإذا كانوا قد تعلموا الكثير من مطالعتهم للكتب، واستماعهم للمحاضرات، فإنهم لم يتقدموا أبداً في علم العيش وممارسة الحياة. ولذلك سوف يجدون أنفسهم في غربة، ضعفاء وعزل من أي سلاح، بين أناس لا يستطيعون أن يفهموهم. أناس قساة، واقعيون، يهتمون

بمصالحهم، يقوم لديهم حب المال مقام حب القريب. أناس لم يسبق لهم أبداً أن سمعوا شيئاً عن يوم الرابع عشر من كانون الأول.

كان «نيقولا» يستعرض هذه الأفكار في ذهنه، دون أن يذكر لـ «صوفيا» شيئاً منها، لكي لا يوهن عزيمتها. وهي، من جهتها، كانت تبذل جهداً كبيراً لكي تبدو قوية وشجاعة. فقد باعت بعض قطع الأثاث، واشترت بثمنها ملابس توفر الدفء. ووصل إذن السفر بتاريخ الخامس عشر من شباط (فبراير): المكان الذي ينبغي الوصول إليه، هو مدينة «ايركوتسك» حيث سيحدد الحاكم «ليفنسكي» لكل شخص المكان الذي سينفى إليه. وغضب «ليبارسكي» كثيراً، لأن «بنكندَورف» لم يجد أنه كان من المناسب أن يطلعه شخصياً على تلك الأماكن: «كأن الأمر يتعلق بأحد أسرار الدولة! فهل يمكن أن يشكّوا بي، في العاصمة؟» ومن بين السيدات، كانت «صوفيا» «اليزابيت ناريشكين» و «ناتاليا فونفيرين» فقط، هن اللواتي سيسافرن مع أزواجهن. والأمر الذي أصدرته الحكومة يقضي بأن يتم الرحيل على دفعات بمعدل رحيل أسرة واحدة كل يومين.

والأمسية الأخيرة التي أمضاها «نيقولا» و «صوفيا» في «بيتروفسك» كانت حزينة. فقد قاما بجولة على الزنزانات، وعانقا الذين سيبقون وودعاهم. ثم ذهبا إلى منزل «بولين أنانكوف» التي كانت قد هيأت حفل عشاء على شرفهما. وحضره «ليبارسكي» وقد بدا عابساً، مكتئباً، دامع العينين. وعندما أوشكوا على الانتهاء من تناول الطعام، تكلم، متمنياً للمسافرين، رحلة مريحة وسعيدة، بلهجة اتسمت بشيء من الحماسة، وبدا وكأنه قد حفظ هذا الخطاب غيباً وعن ظهر قلب. ولكن صوته أخذ يتقطع، فألقى على من حوله نظرة تنم عن الاضطراب، أحنى رأسه وتمتم بين شفتيه وتحت شاربه:

- كونوا سعداء، يا أبنائي! ولا تنسوا العجوز الذي أضأتم السنوات الأخيرة من حياته! ولا أدري إذا كنت قد استطعت أن أجعل إقامتكم هنا، أكثر سهولة ويسراً، ولكنني عملت كأفضل ما بوسعي، في سبيل تحقيق هذه الغاية!..

وتمخط في منديل كبير أحمر، تنهد، وتناول من جديد شوكته وسكينه، وإن كان لم يعد يوجد شيء في صحنه.

وعندما نهضوا، وغادروا المائدة، انتحى الأمير «تروبيتزوكوي» بـ «نيقولا»، جانباً، وقال له:

- وهكذا، فسنبني تلك الكنيسة، بعد رحيلكم عن «بيتروفسك» ومن دون وجودك أنت، بشكل خاص، الذي دافعت عن فكرة بنائها بكل حماسة وبلاغة! آه! لو أن بني البشر يعرفون كم تستطيع الأحداث أن تعاكس مقاصدهم وغاياتهم، وتحبطها إذن لما قاموا أبداً بأي عمل عظيم. وكل شيء يبدو أنه أفضل، هكذا! إني أغبطك، يا عزيزي! فالخروج من السجن، ولادة ثانية! وسوف تعيش، وتتمتع بالحياة، أخيرا!...

فقال له «نيقولا»:

- نعم، ولكن بين أي نوع من الناس؟ يبدو لي أنه لم يعد هنالك أي شيء مشترك بيني وبين غالبية أبناء وطني. أرسلني إلى القطب الشمالي، إلى بين طيور «البطريق» فلن أشعر بمزيد من الغربة!..

وفي اليوم التالي، عند الفجر، خرج «نيقولا» و «صوفيا» من منزلهما. كان هنالك زحافتان تنتظران أمام الباب: واحدة لهما، والأخرى لضابط الصف «بوبرويسكي» المكلف بمرافقتهما. وبينما كان الخدم يحملون الأمتعة والحقائب. بدت بعض الفوانيس في آخر الشارع. وأخذت تقترب وهي تهتز وتتأرجح. إنهن بعض السيدات وفي مقدمتهن «ماري فولكونسكي» قادمات ليقلن كلمة وداع أخيرة، تعبيراً عن صداقتهن للمسافرين. كما أن

بعض المساجين الذين استيقظوا باكراً، تسللوا إلى خارج السجن، وانضموا إلى المجموعة، كانت الشعلات الصغيرة الصفراء ترتعش داخل أقفاصها الزجاجية، وتضيء، بصورة متقطعة، وجوهاً بدا عليها التأثر الشديد، بينما كانت ندفات الثلج الناعمة، تتطاير في كل الاتجاهات. والجليد متجمد بشكلٍ قاسٍ، يكاد يشقق الحجارة ويصدعها. والقطرات المتجمدة البيضاء أخذت تغطي ظهور الخيل. وكانت «صوفيا» تجد صعوبة كي تصدق أن هؤلاء النساء أنفسهن اللواتي يبكين لفراقها، كن فيما مضى أسوأ عدوّاتها.

- اكتبي لنا، يا «صوفيا»!.. ربما حالفنا الحظ، وأرسلنا إلى المنطقة نفسها التي تذهبين إليها!... رحلة سعيدة!.. وليحفظك الله!..

واقترب «يوري المازوف» منها وهمس لها: اسمحي لي بقبلة فنظرت إليه: صغير الجسم، نحيف، قصير القامة، عيناه السوداوان تلمعان تحت حاجبين كثيفين أسودين.

واستأنف الكلام:

- لم يسبق لي أبداً أن قلت لك شيئاً عن هذا، ولكنك كنت في كثير من الأحيان عروس أحلامي. وكنت، ولا أزال احسد «نيقولا». وسأصبح تعيساً جداً، لكوني لن أستطيع رؤيتك بعد الآن!..

فقربت له خدها، فمسه بطرف شفتيه. وقبلها رجال آخرون. كانت تشعر أنها ضعيفة، مضطربة وحائرة، وعلى استعداد لأن تصرخ: «نحن باقون!» وساعدها «نيقولا» على الصعود إلى الزحافة. وقالت:

- الوداع، يا أصدقائي! الوداع!..

وانسابت منازل شارع السيدات أمام ناظريها.

وكانت، وهي متكورة وملتصقة بـ «نيقولا» تحت غطاء مصنوع من جلد الدب، تشاهد ذهاب ذلك العالم الودّي الصغير، الذي يبدو من

المؤكد أنها لن تراه أبداً بعد ذلك، مرة أخرى، وهناك في هالة من الضوء، بدا بعض الناس الباقين والمهووسين، وهم يلوحون بأيديهم، وبمناديلهم. وتجاوزت الزحافة منزل الجنرال، وكان هنالك مصباح مشتعل، خلف زجاج نافذة مكتبه. فهل استيقظ منذ تلك الساعة المبكرة. كانت الخيل تسير بخطى وئيدة، والأجراس ترسل رنينها الخافت في ذلك الجو الجليدي، وعلى الأرض أصبح الثلج مسوداً وباهتاً، في الوقت الذي انتشرت فيه رائحة الحديد المسبوك والحار، لقد اقتربوا من المعمل. وكانت مداخنه يتصاعد منها الدخان وتبصق في الجو ونحو السماء، من وقت لآخر حزماً من الشرارات الحمراء. وقد أسرع بعض العمال، في سيرهم، متجهين نحو مدخل المعمل، وهم يحملون الفوانيس. وابتعدوا عن طريق الزحافتين، ونزع بعضهم قبعاتهم عن رؤوسهم. فالتفتت «صوفيا» وتأملت، لبضع ثوانٍ، بحزن عميق، هذا الموكب من «الحباحب» اللامعة، وهو يسير في الصباح الباكر. وأخذت المنازل تتباعد عن بعضها، وتبدو أكثر بؤساً وقذارة.

واتجه الطريق صعوداً، وأخذت مزاليج الزحافات ترسل صريراً قوياً، ثم بدت الكنيسة، قديمة متداعية، مطمورة في الثلج حتى بطنها، تعلوها قببها الجميلة، عائمة في الضباب كالبالونات.

وبالقرب منها المقبرة. وبين مئات الصلبان الريفية البسيطة، التي بدت مفروشة بشكل مائل في الثلج الأبيض، بدا قبر «أليكسندرين مورافييف» المبني على شكل «مصلى» على واجهته إحدى الصور المقدسة، وفي داخله مصباح صغير يتلألأ خلف الحاجز المغلق. فرسم سائق الزحافة و «نيقولا» إشارة الصليب. وحذا حذوهما ضابط الصف الذي كان يتبعهما بزحافته. وأحنت «صوفيا» رأسها واستعادت بعطف وحنان ذكرى صديقتها التي رحلت. وظلت تفكر فترة طويلة بصداقتهما القصيرة الأمد والتي لم

تكتمل، ثم تشوشت واضطربت أفكارها، وشغل ذهنها رنين الأجراس، فرقدت واستسلمت لحركات سير الزحافة، بينما أخذت الأحصنة تسرع في جريها. وأحاط «نيقولا» بذارعه كتفي «صوفيا». وبدت الغابة منفتحة أمام الزحافتين. وأخذ الاغبرار الذهبي يعبر من خلال أغصان الأشجار المتشابكة: لقد أشرقت الشمس.

٥

كانت الخيل تعدو على الأرض المتجمدة وظلالها المائلة تتشوه وهي تقع على حدبات التلال. وأخذت «صوفيا» تنظر إلى الأمام مباشرة ولا تلمح سوى السهل الأبيض، وفي وسطه تماماً، ظهر السائق الضخم الذي يستره ثوبه المصنوع من جلد الذئب. وكانت أشعة الشمس، الصفراء تنتشر تحت سماء أبيضت جوانبها.

وكان «نيقولا» قد غفا، وأخذ رأسه يهتز يميناً ويساراً. وكانت الزحافة قد غادرت «فريخني- أودنسك» واتجهت نحو بحيرة «بايكال».

وقد مضت ستة أيام، منذ أن بدأ المسافرون رحلتهم، وفي طريقهم إلى «ايركوتسك» كانوا يستبدلون الزحافات والسواقين في كل محطة استراحة. وجواز مرورهم الذي يحمل ثلاثة أختام، يمنحهم الأفضلية على المسافرين العاديين. وهبت ريح خفيفة، لامست الأرض وأثارت سحابات متموجة من الثلج الذي تناثرت ذراته التي لا تحصى، وهي تتلألأ في الفضاء، وبدت وكأنها معلقة فيه.

واختفت العلامات التي تحدد جانبي الطريق، وقد غطتها الثلوج التي تراكمت فوقها. واختبأت الشمس. ولفح البرد القارس وجه «صوفيا». والتفت السائق بكل جسمه. وقد لف بعض الخرق حول وجهه لكي لا يبلع غبار الثلج. ولم يكن يبدو سوى عينيه، تحت قبعته. وصاح بصوت حاد عبر «كمامته»:

- اعملوا مثلي!... وإلا، فبعد قليل ستتشكل كتلة من الجليد في صدوركم!..

فأيقظت «صوفيا» «نيقولا» وربط كل منهما منديلاً على فمه، واندسا جيداً تحت الغطاء. واشتدت العاصفة الثلجية وازدادت عنفاً، لدرجة أن النظر كان يصطدم بجدار أبيض، على بعد خطوتين أمام الأحصنة. وعلى الرغم من خفض الغطاء الجلدي كانت رشقات الثلج تدخل مندفعة بقوة إلى داخل الزحافة. وفي هذا الجو الضبابي، الذي لا يكاد يرى فيه شيء سوى ندفات الثلج المتلألئة، كانت العاصفة الهوجاء تئن وتنوح كامرأة فقدت ابنها. ومع ذلك فلم تكن «صوفيا» تشعر بالخوف: فوجود «نيقولا» كان كافياً، لإشاعة الطمأنينة في نفسها.

ووصلوا، عند حلول الظلام إلى محطة الاستراحة: قرية تكاد تكون خالية من السكان، والثلج المتراكم يصل إلى حافة النوافذ، وانطلقت الأحصنة في باحة المحطة، ثم توقفت أمام درج المدخل الخشبي. وشعر أعناقها المشعث يهتز مع هبات الريح.

وفي قاعة الانتظار، انتشرت حرارة شديدة، وبخار يشبه البخار الذي ينتشر في الحمامات. وكان هنالك نحو خمسة عشر مسافراً مستلقين على المقاعد الطويلة، وقد استسلموا إلى غفوة، يطردون بها النعاس والتعب، عبر رائحة الأحذية المبللة، وحساء الملفوف. لم يكن هنالك خيل. ولكن ضابط الصف «بوبرويسكي» أبدى استياءه، وأبرز جواز المرور الذي بحوزته، وهو يحمل ثلاثة أختام، عند ذلك، تذكر مدير المحطة، فجأة، أنه لا يزال لديه في الإسطبل بعض الأحصنة التي أمضت فترة الاستراحة.

وبعد فترة قصيرة من الوقت، تناولوا خلالها الطعام، على المائدة الكبيرة في قاعة انتظار المسافرين، وشربوا الشاي الساخن المعطر بـ «الروم» استأنفوا رحلتهم عبر ظلام الليل الذي كانت تتلألأ فيه ندفات الثلج المتطايرة.

ومن مرحلة إلى أخرى وصل المسافران ومرافقهما إلى بحيرة «البايكال» التي كانت متجمدة تماماً، بشكل يسمح بعبورها بالزحافة. كانت الرياح

قد هدأت. وأخذت أشعة الشمس الحمراء تبدد نتف وبقايا الغيوم الأخيرة. وكانت قمم الجبال تبرز بلون أزرق فاتح، على ذلك التوهج الشديد الذي يشبه توهج الحريق. وكانت كتلها الصلبة تحيط بمرآه البحيرة الواسعة، ذلك البحر الداخلي الراكد والمتجمد. ستون «فرست» للوصول إلى محطة الاستراحة التالية. عندما نزلت الزحافة عن الضفة، وانطلقت في تلك الصحراء المستوية والبيضاء، انقبض قلب «صوفيا». فقد سمعت أن «القوقعة» أي هذه الطبقة السميكة من الجليد التي تغطي سطح البحيرة، تتصدع أحياناً وتنهار تحت ثقل العربات. والأحصنة وكأنها تشعر بالخطر، كادت تطير بسرعة عدوها، وبدت ممدودة الأعناق رشيقة الحوافر. وتلا ارتجاجات واهتزازات الطريق، انزلاق هادئ ومستمر، غريب التأثير، يشبه تحركات الحالمين، بين السماء والأرض. وعندما بدت الشمس في السمت وفي أعلى درجة في قبة الفلك. اختفت جميع الألوان، ووجدت «صوفيا» نفسها محتجزة في موشور من البلور الصافي. وكان البرد يخترق عظامها. وأصبح منخراها بويقين متجمدين، تكاد لا تشعر بهما. وأخذت أنفاسها تتحول إلى بخار، وكانت سرعة الزحافة تقطع لها تنفسها. وعدة مرات، ظنت أنها أصبحت عمياء في ذلك التوهج فأغمضت عينيها. وعندما تفتحهما كانت تكتشف العالم نفسه، غير المأهول، المجرد والمعنوي، الهندسي ببساطته، فلم تعد تتمنى أن تخرج منه، وقد انبهرت وخلب لبها من جديد. وناولها «نيقولا» «المطرة» التي تحوي مشروب «الروم»، فشرب كل منهما بدوره من فوهتها، دون الحاجة إلى أقداح. فشعرت «صوفيا» بالنشاط وبتحسن حالتها النفسية، وهمست في أذن «نيقولا»:

- ما أجمل هذا، يا «نيقولا»! وكم نحن سعداء!

ودوى صوت انهيار كبير أحدث فرقعة قوية، وبدا صدع عميق أخذ يتحرك على سطح البحيرة، ويتقدم بانحراف وبصورة غير مباشرة، وكأنه

يريد أن يقطع طريق الزحافة. فألهب السائق بسوطه ظهر جياده، وسبق الصدع بسرعته. فالتفتت «صوفيا» وهي تكاد تموت من الرعب، والزحافة الثانية، كانت هي أيضاً قد مرت بسلام، وأصبحت في الجانب الآمن، إلى الوراء، بدت قطعة كبيرة كالمصطبة، بل كالرصيف، اقتطعت، تقصفت وأخذت تدور وتتأرجح محدثة تموجاً، ودوياً يصم الآذان. ورسم السائق إشارة الصليب على صدره. وعلى البعد، أخذ يرتسم ويبدو بوضوح شريط ضفة البحيرة، الأخرى، التي نبت عليها القصب والكثير من الشجيرات والأعشاب الطويلة. ونزلت «صوفيا» على اليابسة وهي تشعر بارتياح شديد. والعبور كله، من بدايته وحتى نهايته استغرق أقل من ثلاث ساعات.

وفي محطة الاستراحة، أحدث جواز المرور الذي يحمله «بوبرويسكي» مرة أخرى، ما يشبه المعجزة. وفي وقت متأخر من الليل اجتازت الزحافتان حاجز مدينة «ايركوتسك»، حيث كان الجميع، حتى الخفراء، مستغرقين في النوم. فإلى أين يذهبون في مثل تلك الساعة؟ ودون أن تتردد «صوفيا» أشارت إلى ضابط الصف بالذهاب إلى فندق «بروسبير رابودان».

وقرع الباب كثيراً، قبل أن يأتي خادم، متمهلاً، وقد خدره النعاس، ليوارب الباب قليلاً، ويعلن بصوت خافت وأجش بأنه لا يوجد في الفندق أي غرفة خالية. وبينما كان «نيقولا» يتحدث إليه ويفاوضه مستفسراً، بدا «بروسبير رابودان» بردائه المنزلي، الأسمر الذهبي على رأسه طاقية قطنية، وبيده هراوة، بعد أن استيقظ على الجلبة التي حصلت. وعندما رأى «صوفيا» وعرفها، ارتعشت ملامح وجهه، كما ترتعش الحلوى الهلامية في طبق، تعرض للاهتزاز، وصاح:

- آه! يا إلهي! يا لها من فرحة بلقياك ثانية! ادخلوا بسرعة فلك أنت، يوجد دائماً مكان هنا! ولكن كيف حصل وسمحوا لك بالمجيء إلى «ايركوتسك»؟

فقالت له:

- لأن زوجي، الذي تراه، قد أنهى المدة التي حكم عليه بأن يمضيها في السجن. وقد أرسلونا إلى مقر الإقامة الإجبارية، ونحن لا نعرف، حتى الآن، إلى أين سنذهب..

فقال «بروسبير رابودان»:

- هذا رائع! يشرفني أن أتعرف عليك، أيها السيد، ولكن، هل تناولتما طعام العشاء، على الأقل؟

فاعترفت له «صوفيا» بأنهما لم يفعلا ذلك.

وفي لمح البصر، دعا المسافرين للجلوس إلى مائدة الضيوف، حيث وضع الخدم أمامهم «جبلاً» من اللحوم الباردة. وبدافع من التحفظ والتقدير، جلس ضابط الصف، على حدة، بعيداً عنهما، وأخذ يلتهم الطعام وهو صامت، وقد أحنى ظهره فوقه كما لو أنه كان يخشى أن ينتزع من أمامه قبل أن يشبع. ولم يكن «بروسبير رابودان» يحول نظره عن «نيقولا»، بينما كان يسأل «صوفيا» عن حياتها، وكيف كانت تقضي وقتها في «تشيتا» ولم تكن هي تستطيع التخلص من الشعور بالضيق، إذ إن ألف ذكرى عن إقامتها السابقة في «ايركوتسك» أخذت تعود إلى ذاكرتها. هذه الجدران المزدانة بالصور الفرنسية، قطع الأثاث الضخمة، وحاجز الدرج، كلها كانت تعيد إلى ذهنها شبح عبد شاب، أشقر الوجه، حديدي المنكبين. وكانت تتبعه، بالفكر، وهو يسير في الفندق بخطوات واسعة وهادئة، فهل يعلم «بروسبير رابودان» كيف انتهى كل ذلك، يا ترى؟: الهروب، التوقيف ثم الموت تحت سياط الجلاد.. بلى! لأنهم، بالتأكيد، قد استجوبوه، عندما كانوا يجرون التحقيق! والمهم الآن، هو، ألا يتطرق إلى هذا الموضوع، في حديثه معها، إذ إن أي إشارة بهذا الشأن سوف تجرح كبرياء «نيقولا» وكرامته. وكانت ترتجف خوفاً من أن تفقد كل شيء بسبب كلمة

طائشة. فلماذا أتت إلى هذا الفندق؟ فهذا آخر مكان كان ينبغي لها أن تقتاد زوجها إليه. وفوق الباب، هنالك لوحة كتب عليها: «ليس هنالك كلام طيب ولا طعام لذيذ، سوى ما يأتي من باريس». وكان على إحدى الموائد بقايا فطيرة تجمع حولها الذباب.

وقال «بروسبير رابودان»، وهو يغمز بعينه:

- حلوى فرنسية، أتريدين تذوقها؟

فقالت له «صوفيا»:

- كلا، شكراً.

فهي تعرف تلك الحلوى الكثيرة السكر، لأنها تناولت منها فيما مضى. ولكنه ألح عليها:

- قطعة صغيرة، على سبيل الذكرى!..

فانصاعت له. فهو يزعجها بسماجته. وحتى الانتهاء من تناول الطعام، كانت تتكلم بحماسة مصطنعة عن «تشيتا» وعن «بيتروفسك» لكي تمنع «بروسبير رابودان» من دفع الحديث في اتجاه شائك. واعتقدت أنها قد ربحت الجولة، عندما قال بسذاجة، مستغلاً فترة ساد فيها الصمت:

- الحقيقة، أنك لا بد من أن تكوني مستاءة مني، لأني لم أرد أبداً على بعض الأسئلة التي ألقيتها علي في رسائلك! ولكني لم أكن أستطيع أن أفعل ذلك، دون أن أجازف بالإساءة إليك وإلى خادمك، الذي غادر وتركني، دون أن يقول لي شيئاً!..

فتمتمت «صوفيا»:

أعرف، أعرف!

ووجهت نظرة إلى «نيقولا». كان يراقبها، دون أن يتدخل أو يعترض. فجن جنونها، وهي تشعر بالخجل، وبغضب شديد. بينما تابع الآخر حديثه، مبدياً شفقة سمجة:

- يا لها من مأساة مرعبة!... فلو أنه أطلعني على ما يشغل باله لو أنه استشارني، لكنت استبقيته!.. ولكنه انطلق كالمجنون!.. آه! من الشباب! لابد من أنك قد حزنت كثيراً من أجله، يا سيدتي المسكينة!..

فقالت باقتضاب:

- نعم، وعلينا ألا نتكلم عن ذلك، بعد الآن.

وأخذت تفكر، وقد انتابها اليأس: «لقد أفسد كل شيء! ولن يكون «نيقولا» هذا المساء، هو نفسه، وفي وضعه الطبيعي!

وقال «نيقولا» بصوت، بدا غريب النبرات:

- لا بد من أن تكوني متعبة، يا «صوفيا»، أليس من الأفضل أن نذهب لننام؟..

فصاح «بروسبير رابودان»، بلهجة تنم عن التشدق والتفخيم:

- سأدلكما على جناحكما!

وسبقهما على الدرج، ودفع أحد الأبواب، وعندما اجتازت «صوفيا» العتبة، اعتقدت أنها عادت إلى الغرفة نفسها التي أقامت فيها سابقاً. وتسمرت نظرتها على الأرضية الخشبية المطلية باللون الأحمر، وبها خوف وهمي من أن ترى جسم «نيكيتا» وهو يتلوى من شدة الألم، يرتسم عليها. ولكن اللوحات الخشبية المتوازية رفضت اللعبة. والمكان كان مطهراً و«معزماً» عليه. وأشعل «بروسبير رابودان» شمعتين، تمنى لنزيلي فندقه ليلة سعيدة، وانسحب متمهلاً، على أطراف مقدمة خُفّية.

وعندما بقيت «صوفيا» بمفردها مع «نيقولا» تنبهت آخذة الحذر. كان واقفاً أمامها يتفرس فيها بانتباه. لم يكن في عينيه أي ريبة أوشك، بل انبهار هادئ، ينم عن الطمأنينة. فأدركت أنه لم يعد يحسب حساباً ل «نيكيتا»، وأنه أصبح، بالنسبة له، شخصاً لا يؤبه به. وفي الحال، شعرت بالارتياح، وأن كل شيء قد أصبح سهلاً وخفيفاً في ذهنها، الأمر الذي

جعلها تنسى تعبها. وغمرتها بهجة غريبة. وبحركة سريعة انتزعت الدبابيس التي تصفف بها شعرها، فانسدل على منكبيها بحركة هادئة. فانحنى «نيقولا» عليها وضمها بين ذارعيه بكثير من القوة والعطف، بحيث إنها شعرت بأنها مرغوبة، محمية ومفهومة، في آن واحد.

★★★

في اليوم التالي، ذهبا لمقابلة الجنرال «ليفنسكي» حاكم سيبيريا الشرقية. كان رجلاً طويل القامة، وجهه واسع وهادئ. وبعد أن رحب بزائريه وسألهما عن أخبار ذلك «العجوز الطيب ليبارسكي»، فتح مصنفاً كان على مكتبه، بلل إصبعه بلعابه، قلب بضع صفحات، وقال وهو يرسل تنهيدة:

- قبل أن أعلن لكما عن مكان إقامتكما في المنفى، يهمني أن أوضح لكما أني لست أنا الذي اخترته لكما. إذ إن الحكومة أرسلت لي جدولاً بأسماء الأماكن، وكان علي أن أجري القرعة بين جميع محكومي الفئة الرابعة، لتحديد مكان إقامة كل واحد منهم. ولو أني أنا الذي وضعت هذا الجدول، لما كنت سجلت فيه سوى أسماء مدن وبلدات كبيرة ومهمة. ولكنهم، في «سان بطرسبورغ» لا يعرفون سيبيريا جيداً وهم يعتمدون على الخرائط والمصورات، وكلها مغلوطة، وطافحة بالأخطاء. ويتصورون أن نقطة مدورة سوداء، وإلى جانبها اسم، تدل دوماً على قرية كبيرة...

فتبادل «نيقولا» و «صوفيا» نظرات تنم عن القلق.

وتابع «ليفنسكي» كلامه:

- ولكني أسرع إلى القول بأنكما محظوظان! ومحظوظان جداً!

إذ إن المكان الذي خصص لكما: «ميرتفي- كولتوك»، على ضفة بحيرة «البايكال» موقعه رائع، وهو عبارة عن قرية صغيرة وجميلة تثير التأمل والأحلام. حيث يتاح لكما التمتع بمسرات الصيد البري واصطياد

السمك. وسيكون لديكما قطعة أرض جيدة وواسعة لممارسة الأعمال الزراعية..

فسأله «نيقولا»:

- وماذا عن رفاقنا؟ هل سيأتي أحد منهم ليسكن بجوارنا؟

فقال «ليفنسكي»:

- آه! كلا ، فلدي تعليمات تقضي بتوزيع المساجين الذين يخلى سبيلهم وتشتيتهم في أركان سيبيريا الأربعة. فحتى الأخوين، ليس لهما الحق بأن يعيشا سوية أو متجاورين. وهكذا فمن حسن الحظ أنهم لم يفرضوا علي أن أفرق حتى أفراد العائلة الواحدة وأن أفصل بين الزوج وزوجته!

فتمتمت «صوفيا»:

- إني لا أفهم هذا! فأي خطر ينجم من إتاحة الفرصة لأصدقاء ورفاق كانوا معاً في السجن، للإقامة متجاورين، وجنباً إلى جنب كما كانوا يعيشون في السجن؟!

فبدت ابتسامة كبيرة على شفتي الجنرال:

- هذه المسألة تتجاوز صلاحياتي، ومع ذلك فإني ألفت نظرك إلى أن الإنسان يسأم إذا بقي على اتصال دائم مع الأشخاص أنفسهم، فالمرء بحاجة للتغيير والتجديد، والذهن يحتاج للتنشيط وللتهوية، ألا تخلطين أوراق اللعب، قبل البدء بجولة لعب جديدة؟!

ورفع إصبعه، ، وأضاف بلهجة مسرحية:

- إن جولة جديدة تبدأ ، بالنسبة لكما! ومن المناسب أن تبدآها ، متناسيين الماضي تماماً! وستريان كيف سعيدين، هناك في «ميرتفي-كولتوك»!

فسأله «نيقولا»:

- وأين سنسكن؟

- في منزل أحد المبعدين، وقد سبق لي أن أخبرته بأن عليه أن يعطيكما غرفة، بل غرفتين إذا لزم الأمر.

- وإذا لم تعجبنا الإقامة عند هذا الرجل؟..

- عند ذلك تستطيعان العمل على بناء منزل خاص بكما، بعيداً بعض الشيء عنه، فليس الأرض هي التي ستنقصكما هناك!

- ومتى يجب علينا أن نسافر؟

- غداً، وسأرسل لكما، إلى الفندق، رسالة تتضمن جميع التعليمات المتعلقة بإقامتكما هناك. وسيرافقكما أحد جنود القوزاق إلى مسكنكما الجديد. وأنصحكما بأن تشتريا بعض الحاجيات والمواد قبل السفر.

ونهض «ليفنسكي». وهذا يعني أن المقابلة قد انتهت.

وألفى «نيقولا» و «صوفيا» نفسيهما حائرين في غرفة الانتظار فهما لا يعرفان فيما إذا كان عليهما أن يفرحا أم أن يقلقا من هذا الانتقال إلى ذلك المكان البعيد، والإقامة فيه. وأثناء حيرة «صوفيا» وقلقها، تذكرت الملازم «كوفشينوف» الذي ساعدها فيما مضى، على حل مشكلتها وخلافاتها مع السلطات الإدارية المحلية. فاستدعته بواسطة الحاجب. وخلال أربع سنوات ونصف، كان «كوفشينوف» قد تضخم جسمه وازداد وزنه، وارتفعت رتبته. وكان الضابط الذي انحنى أمامها بعد عشر دقائق، رائداً، ناصح الوجه. مورد الخدين بارز البطن، مصاباً بالصلع المبكر. وقد غير مكتبه، ويتصدر الآن قاعة واسعة، تحت صورة كاملة للإمبراطور وهو واقف، فهل رتبته الجديدة، أم أن وجود «نيقولا» هو الذي جعله يبدو أقل لطفاً ومودة؟ فقد أكد بجفاء أن ليس لديه فيما يتعلق بـ «ميرتفي-كولتوك» سوى بعض المعلومات التي تشيد بها وتمتدحها، وأشار إلى نقطة صغيرة على الخريطة، في الجنوب غير بعيدة عن الحدود الصينية:

- إنها تقع هنا!

وعندما سألته «صوفيا» على استحياء، فيما إذا كان من الممكن بفضل مساعدته، الحصول على مكان للإقامة، يكون أكثر قرباً من «ايركوتسك» انتفض، ودخلت ذقنه في عنقه، وقال:

- إن أوامر «سان بطرسبورغ» لا تقبل المناقشة، ولا يمكن تعديلها، أيتها السيدة. وأنا أسف لذلك..

فتبادر إلى ذهنها أنها لو كانت لوحدها لاستطاعت إقناعه بتغيير رأيه.

وعندما خرجت بصحبة «نيقولا»، كان رنين أجراس الكنائس يصم الآذان، فبدا لها أنه في أي مكان آخر، غير «ايركوتسك» لا يمكن أن يكون للأجراس دوي بهذه القوة والصفاء، ولا شك بأن ذلك يعود لكون درجة الحرارة (٣٩) تحت الصفر، تكسب الجو نقاءً وصفاءً مثاليين. وكانت زرقة السماء أكثر نقاءً من بياض الثلج. والشوارع مزدحمة بالناس. و «البسطات» أمام المخازن والدكاكين، عليها كثير من الحبوب الغريبة والمواد الغذائية المتنوعة الأوروبية والشرقية. وقد انقضت عدة سنوات، لم ير خلالها «نيقولا» و «صوفيا» مخازن حقيقية كهذه. ولم يكن من الممكن أن يجدا في دكاكين «بيتروفسك» الفقيرة والبائسة، مثل هذه البضائع المتنوعة: الفراء، الخمارات، الأقمشة، الأحذية، والأدوات المنزلية. كان كل شيء يبدو جميلاً لـ «صوفيا»، ويحظى بإعجابها، وتشعر بالرغبة بشراء كل شيء! ولكن عقلها كان يقاوم رغبتها. فقد هيأت قائمة بالأشياء الضرورية التي تريد شراءها، وأكدت لـ «نيقولا» أنها ستتقيد بها: سكر، ملح، طحين، رز، شاي، شموع، خيطان قنب، بلطة، معول، سكاكين... وكانا يتنقلان من دكان إلى أخرى، يتشاوران بصوت خافت، ينصرفان لأن «ذلك الشيء أغلى مما ينبغي!» ولكنهما ما يلبثان أن يعودا «لأنه، مع ذلك، ضروري جداً، ولا يمكن الاستغناء عنه ويطلبان

إرسال الأشياء التي اشترياها، وتسليمها إلى المسؤول في الفندق. ولا يكادان يتخلصان من هذا الهم، حتى يأخذان بإجراء الحسابات باهتمام واضح حيال إغراءات جديدة، وبلغت قيمة مشترياتهما أكثر من مائتي روبل، وهذا ما أخاف «نيقولا» وسبب له القلق، ولكن «صوفيا» برهنت له بأنه لم يكن بالإمكان تأمين تلك المواد والحاجيات الضرورية، بأقل من هذا المبلغ. وهكذا، فتارة هو الذي كان يقلق، ويبدي مخاوفه بشأن المستقبل، وهي التي تطمئنه وتشجعه، وتارة أخرى، كانت هي التي تعترف بقلة وضعف حماستها بشأن الذهاب للإقامة في «ميرتفي كولتوك» وكان هو الذي يلومها لكون همتها تفتر بسرعة.

وفي صباح اليوم التالي، وفي ساعة مبكرة جداً، أتى جندي قوزاقي شاب، مصحوباً بزحافتين، ليصطحبهما من الفندق. فساعدهما «بروسبير رابودان» على الصعود إلى زحافتهما، غطاهما جيداً وزودهما بمؤونة من المأكولات والمواد الغذائية، تكفيهما لمدة أسبوع. والجندي القوزاقي، وهو شاب أصهب، أفطس الأنف، أبلغهما، بأن الأمر الذي تلقاه يقضي بإيصالهما إلى مقر إقامتها، خلال ثمانية وأربعين ساعة.

فسأله «نيقولا»:

- وهل تعرف «ميرتفي- كولتوك»؟

فأجابه الجندي الشاب:

- كلا، ولكن بعض رفاقي ذهبوا إلى هناك، يبدو أن الطريق سيئ، وعر جداً، وأن المنطقة المجاورة لتلك القرية، تكثر فيها الدببة. ولكن، لا تخافا فأنا أجيد استعمال بندقيتي! وصعد الزحافة الثانية التي تحمل الأمتعة والحقائب.

وسكب «بروسبير رابودان» دمعتين، لوح بمنديله، وانطلقت الزحافتان.

☆☆☆

وبين ساعة وأخرى، كانت أشجار غابة الصنوبر تزداد كثافة، وأخذت الزحافة تتوغل بين أعمدة لا نهاية لها. كان البرد قارساً، مثلما كان على بحيرة «البايكال». و «صوفيا» وهي ملتصقة بـ «نيقولا»، لم تكن تستطيع أن تحرك أفكارها ولا أعضاءها أو أطرافها، وكأن كل شيء فيها قد تجمد. وكان جمود ذهنها شديداً لدرجة أنها، حتى عندما يغيرون الأحصنة في محطات الاستراحة، لم تكن تستيقظ من غفلتها. ومن الخدر الذي اعتراها. وخيم الظلام، وهم يتابعون السير في أراضٍ تكثر فيها الأشجار. وأخذ الطريق يتجه صعوداً على سفح جبل. ولم يكن يسمع تقصف غصن ولا صوت أي حيوان. ومن وقت لآخر، كان يبدو، عبر فرجة في الغابة، نجم، في سماء، بدا لونها غامق الزرقة. وكانت الأحصنة تلهث، وتنفخ بقوة وهي تهز أجراسها الصغيرة.

و «صوفيا» و «نيقولا» وقد أنهكهما الأرق، أخذا يتأملان طلوع الصباح. وقد التصق على وجه كل منهما قناع من الجليد. وفجأة بدت الأشجار وكأنها قد أصبحت هياكل ذهبية، وفزاعات ترتدي أثواباً أرجوانية. والشمس وقد قفزت فوق الأفق، رشقت أرض الغابة بأسهم ملتهبة. وأخذت جميع صفيحات الثلج الكريستالية، وجميع براعم الأغصان. وابر الصنوبر الرفيعة، تتلألأ كلها سوية وفي آن واحد، وامتلأ الجو بالآلاف من نتف الضوء التي انتشرت فيه، بحيث كان عليهما أن يغمضا أعينهما لتحاشي الانبهار المزعج. وشيئاً فشيئاً، أخذ هجوم أشعة الشمس يهدأ تدريجياً، ووراء الشعانين المتدرجة بصفوف فوق بعضها، امتد فضاء لازوردي، يصعب تصور صفاءه. وعبرت الزحافة ممراً ضيقاً تعصف فيه الرياح. واتجهت نزولاً على منحدر وعر، وأخذت المسافات تتباعد بين الأشجار التي أصبحت أقل عدداً واقل كثافة. وبدت في الأفق سلسلة من الجبال.

فأشار السائق إليها بسوطه، وصاح:

- جبال «خاما دابان»، وبعدها مباشرة: الصين!

وهناك، بعد أحد منعطفات الطريق، بسط المشهد جناحيه وأخذ يحلق. وفي الأسفل، ذلك الترس الجليدي، ما هو سوى بحيرة «البايكال» وإلى الوراء قليلاً، تلك النقاط السوداء، هي خيام إحدى قبائل «البوريات».

فقال السائق:

- ها هي «ميرتفي كولتوك»!

فشد «نيقولا» بقوة على يد «صوفيا»، وظلا صامتين، عاجزين عن النطق بأي كلمة بسبب القلق الشديد الذي انتابهما. وبعد عدة ساعات من التزحلق الصامت، وصلت الزحافتان إلى أسفل الجبل، تجاوزتا خيام السكان المحليين، وتوقفتا أمام «ايسبا» بيت منفرد، مبني من الألواح الخشبية وجذوع الأشجار. وبدا على درج المدخل، فلاح عجوز، نحيل الجسم، أسمر اللون، أبيض اللحية، حيا القادمين بانحناءة شديدة، وقال:

- أهلاً وسهلاً بكما! لقد أخبرني الحاكم، الأسبوع الماضي، بأنكما ستحضران عما قريب. أريد أن أتخلى لكما عن نصف المنزل. وزوجتي العجوز وأنا، سنقيم في النصف الآخر. ولن يكلفكما ذلك سوى خمسة روبلات في الشهر.

فقال له «نيقولا»:

- هذا حسن. ونحن، بطبيعة الحال، ليس لدينا خيار آخر، أليس كذلك؟

- إيه، كلا! إلا إذا كنتما تفضلان الإقامة عند قبيلة «البوريات»؟

- وهل أنتما الروسيان الوحيدان هنا؟

- نعم. أنا وزوجتي...

وابتسم، وكانت «وصمة» المساجين السابقين، بادية، كحفرة صغيرة، وردية اللون في خده الأسمر وساعد «نيقولا» «صوفيا» على النزول من

الزحافة. فوقفت بصعوبة على ساقيها الخدرتين والمتصلبتين، وأخذت أذناها تطنان. وظلت خلال برهة قصيرة منذهلة، وحائرة حيال مصيرها الجديد والأخير.

ولم تستطع أن تصدق أن هذا «الكوخ» الضائع في هذه المنطقة النائية يمثل نهاية الرحلة الشاقة والطويلة. وعصف بها اليأس كما يعصف الإعصار بالشجرة ويهزها بعنف. وأخذت ترتجف من شدة التعب، وخيبة الأمل والخوف. وخنقتها العبرات، فتمتمت:

- هذا مستحيل، يا «نيقولا»! فلن نستطيع أبداً أن نعيش هنا! علينا أن نعمل شيئاً ما!..

فضمها بقوة بين ذراعيه، وهو، مثلها، محبط، خائر العزيمة وحزين جداً، لدرجة أنه لم يجد ما يقوله لكي يواسيها ويشجعها.

وبدت، بجانب صاحب المنزل، عجوز قصيرة القامة، مجعدة الوجه، وقد فقدت بعض أسنانها. فقال الرجل:

- هذه زوجتي: «بيربيتوي»، وأنا اسمي «سيميون». وسنكون سعيدين بمساعدتكما. غرفتكما جاهزة، تفضلا بالدخول..

فتبع «نيقولا» و «صوفيا» مضيفهما، ودخلا إلى غرفة مربعة ونظيفة، فيها سرير، منضدة، مقعد طويل وصندوق خشبي. وكانت تنبعث حرارة لطيفة من مدفأة خزفية. وعلى أرضية الغرفة الخشبية الخشنة، مدت بعض جلود الذئاب. وكان لها ثلاث نوافذ صغيرة، مزودة، بدلاً من الألواح الزجاجية بالأغشية الرقيقة التي تستخرج من جوف الأسماك، والتي كانت تحول ضوء النهار إلى شعشعة صفراء اللون ولزجة، وهنالك، في إحدى الزوايا، قرب الأيقونة، ترتعش شعلة مصباح صغير. وأحضر السائق والجندي الحقائب والأمتعة. ولكن «صوفيا» لم تكن في حالة نفسية تسمح لها بفتحها وفك أحزمتها. وجلست على إحدى الحقائب، وقد أحنت رأسها.

فقدمت لها «بيربيتوي» قدحاً من الشاي، فأسرعت باحتسائه، لأنها كانت تشعر بعطش شديد. وسرت في جسمها حرارة لطيفة، جعلت أعصابها تهدأ قليلاً. و «نيقولا» أخذ يشرب أيضاً بجرعات كبيرة، مرسلاً صوتاً مسموعاً. وأخذت العجوز تراقبهما بعينيها الماكرتين الغائرتين بين مجموعة متشابكة من التجاعيد الناعمة.

ثم قالت:

- سوف تريان كيف أنكما ستألفان جيداً المعيشة في هذه المنطقة، فأنا وزوجي، نقيم فيها منذ ما يقرب من أربعين سنة، إذ إن الإمبراطورة «كاترين الكبرى» رحمها الله، أبعدت «سيميون» إلى هنا، بعد أن أمضى عشر سنوات في السجن، مع الأشغال الشاقة، لأنه كان قد قتل شاباً، دون أن يقصد ذلك عن عمد، وذلك بسببي أنا.. ولم أكن بريئة من الخطيئة: كانت عيناي تتحدثان مع كل الناس.. وهو، زوجي «سيميون» لم يكن يحب ذلك. ولم يكن يعرف مدى قوته آنذاك... حماقة الشباب وحياته كلها لن تكفي لدفع ثمنها!.. صحيح أن العاشق الظريف، لم يكن شخصاً عادياً، مثل أي كان!.. أستاذ مساعد في إحدى الكليات! وهذا ما دمرنا وسبب لنا الضياع! وأنتما، أيها السيد وأيتها السيدة، لماذا أرسلوكما إلى هنا؟ فمظهركما اللطيف والوديع، لا يدل على أنّ ضميريكما مثقلان بكثير من الذنوب والخطايا!..

فقال لها زوجها:

- دعيهما وشأنهما، أيتها الحمقاء! فأنت تزعجينهما! وكل إنسان لديه همومه التي تقلقه وتعذبه! وما جدوى الحديث عنها، طالما أنك لا تستطيعين أن تغيري شيئاً فيها؟

فصرح «نيقولا»، قائلاً:

- نحن سياسيون.

فسألته العجوز:

- وماذا يعني هذا؟ بحق من أخطأتم؟ ولمن سببتم الأذى؟

- لم نخطئ بحق أحد، ولم نسبب أي أذى لأحد.

- ولماذا عاقبوكما إذن؟

- لأننا أردنا أن نخلع القيصر، ونعطي الحرية للشعب.

فصاح «سيميون»:

- كنتم تريدون خلع القيصر! ليغفر لكم الله! هذا أشد خطورة من قتل أستاذ مساعد، في إحدى المدارس!

ورسم إشارة الصليب على صدره، وتابع كلامه:

- هنالك أمر يشغل بالي ويزعجني، بسببكما أنتما، الاثنين! ماذا ستعملان في الفصل الجميل، أي طوال الصيف؟ فنحن، أنا وزوجتي العجوز، سوف نذهب، حالما تذوب الثلوج، ونبتعد كثيراً عن «ميرتفي-كولتوك» نحو الغابات، لاصطياد «السمور» وكان بإمكاني تماماً أن اقترح أن ترافقانا. ولكن، يوجد هناك ذباب قذر وشرير. حتى ولو وضع المرء قناعاً على وجهه، فإنه لا يستطيع أن يتقي شره، ويحمي نفسه منه، أما نحن، فجلودنا مدبوغة وقاسية. ولكن، أنتما، فيمكن أن يسبب لكما ذلك الذباب، خلال ثمانية أيام، الحمى المميتة!

فسأله «نيقولا»:

- وكم من الوقت، يدوم غيابكما، عادةً؟

- بضعة أشهر، أي حتى نهاية الخريف. وبعد ذلك، نذهب إلى «ايركوتسك» لبيع الفراء، دفع الضرائب والرسوم، وشراء المؤونة. نعم، وأن كنا مبعدين، فإن لنا الحق بأن نتنقل ونتجول قليلاً وعندما يبدأ البرد، نعود إلى بيتنا، وهكذا... كل سنة!..

ففكـر «نيقـولا» بـأن الحيـاة يمكـن أن تـصبح أسـهل تحمـلاً مـن دون «بيريبتـوي» و «سـيميون» اللـذين لابـد مـن أن يكونـا ، بالحقيقـة شخـصين طيبين، ولـكنهما أكثر سذاجة من ألا يصبحا مملين ومزعجين، بعد طول الإقامة معهما. فالوحدة خير من معاشرة الأغنياء والثقلاء!

وقال «نيقولا»:

- إيه! حسن، بانتظـار عودتكمـا، سـنحرس «الايـسبا» ونعـتني بقطعـة الأرض التي خصصت لنا!

فقالت «بيريبتوي»:

- أنتما شجاعان، والله سيساعدكما. ولكن، عليكما أن تنتبها: ففي فصل الصيف يهرب معظم المساجين، «فرارية» ينزلون مـن الجبـل ويـأتون إلى هنا.

فعلق «سيميون» على ذلك، قائلاً:

- إنهم ليسوا أناساً سيئين، فكل ما يطلبونـه، هـو أن يقدم لهم الطعام. وإذا لم يحصلوا، على الخبز، على الأقل، عند ذلك، ربما لجؤوا إلى السلب والنهب، وإحراق المنازل!..

فصاحت «بيريبتوي»:

- ولكن هذا، نادراً ما يحدث! فنحن، من جهتنا، لم يحصل أي خلاف بيننا وبينهم. حقاً، لقد أصبحت أنا الآن عجوزاً، ولم يعودوا يلقون علي حتى أي نظرة. ولكني، فيما مضى، كنت أختبئ، خوفاً منهم، وأنصحك، يا سيدتي أن تفعلي مثلما كنت أفعل! فهكذا، وأنت جميلة، ونضرة، فلا بد من أن تشعلي في أوردتهم نيران الشيطان! وعند ذلك، حذار!..

وأرسلت ضحكات متقطعة وحادة، بينما أخذت بعض الثآليل تتراقص في وجهها. فألقى «نيقولا» نظرة على «صوفيا» وقد انتابه الذعر، عندما تبادر إلى ذهنه أن اللصوص يمكن أن يزعجوها ويعتدوا عليها. وتصور

نفسه، وقد فُوجئ، في عز الليل، وضُرب، وكُتف، وأخذ يشهد اغتصاب زوجته. ولا بد أن الذعر الذي انتابه من تصوره لذلك المشهد الفظيع، قد انعكس، وبدا واضحاً في عينيه، لأن «بيربيتوي»، استدركت، ببساطة وطيبة قلب:

- لا تقلق أبداً، يا سيدي! فإذا كنتما تؤمنان بالله، فلن يصيبكما مكروه. وأفضل وسيلة للعيش بأمن وسلام، في «ميرتفي- كولتوك»، هي وضع أيقونة فوق باب المنزل، وجرة ماء وبضعة أرغفة من الخبز، على درج المدخل. فيأكل «الفارون» الخبز، يشربون الماء، يرسمون إشارة الصليب، ويتابعون طريقهم. وهكذا، يظل الجميع مسرورين، وآمنين!

وبينما كانت تتكلم، خرج «نيقولا» مسرعاً، ليبحث عن الجندي القوزاقي. فوجده يلعب الورق، في السقيفة المائلة الملحقة بالمنزل، مع السائق:

- متى ستسافر؟

- غداً، صباحاً.

- سأعطيك رسالة، لتحملها للجنرال «ليفنسكي».

وعشرة روبلات دست في يد القوزاقي، ألهبت حماسته للموضوع. وعاد «نيقولا» إلى الغرفة، حيث فتحت «صوفيا» الحقيبة الكبيرة، وحالما أخرجت منها المحبرة، الريش والورق، جلس ليكتب الرسالة. وكان يبدو له بدهياً، أنّ «ليفنسكي»، عندما أرسله مع زوجته إلى هذا المكان النائي والمنعزل، كان يجهل إلى أي أخطار يعرضهما، كليهما.

وبأسلوب قوي، وصف للجنرال مساوئ «ميرتفي- كولتوك» وركز على عزلة المكان، وصعوبة الحصول على المواد التموينية، والخطر الذي يشكله الهاربون من السجون، وختم رسالته، متوسلاً، وطالباً بإلحاح، باسم أبسط درجات الرحمة والشفقة، تغيير مقر إقامتهما، بأسرع ما يمكن:

- «ما كنت لأجرؤ أن أتقدم لسعادتك بهذه الشكوى، لو كنت عازباً، ولكن اهتمامي بطمأنينة وشرف وحياة زوجتي أشد وأقوى من أن يبدد القلق الذي ينتابني حيال الصعوبات والمحن التي تنتظرها هنا».

وأيدت «صوفيا» ما كتبه في الرسالة ووافقت على الأفكار التي وردت فيها، واتفقت مع «نيقولا» على أن «ليفنسكي» لن يهمل شكواهما، ولن يقف منها موقف اللا مبالي. كانا قد بلغا تلك الدرجة من القلق والغم والتعب، التي يتقبل فيها الذهن، أي بارقة أمل، بعد أن يكون طار وبحث في كل الاتجاهات، لكي يحط عليها ويرتاح.

وهيأت لهما «بيريبيتوي» طعام العشاء: حساء الملفوف الحامض، الخبز الأسود، واللبن. فأكلا بمزيد من الشهية، وذهبا للنوم، في وقت مبكر. وكانا، وهما ملتصقان ببعضهما، يشعران أنهما وحيدان في هذا العالم، ضعيفان وسريعا العطب، كالأطفال الصغار. كان البيت يفرقع عبر برد الليل الدامس الظلام. وعند أقل صوت، كانت «صوفيا» ترتجف من شدة الخوف. وعلى الرغم من تعبها الشديد، فهي لم تغمض لها عين، حتى الفجر.

وفي اليوم التالي سلم «نيقولا» الرسالة إلى الشاب القوزاقي، وعند ذلك، انطلقت الزحافتان. وتعالى رنين أجراسهما. و «صوفيا» وهي تقف على درج المدخل، أخذت تنظر إليهما وهما تبتعدان، مستغرقة في التفكير. وفي أمسية اليوم السابق، استطاعت أن تصدق، بعد أن شجعها «نيقولا» وحرضها على ذلك، بأن أمام شكواهما فرصة كبيرة لتحقيق النتيجة المرجوة منها. أما الآن، وفي وضح النهار، فقد أخذت تتبين عبثية وعدم جدوى هذا النداء المنبعث من أعماق الصحراء، نحو شخص، عالي المقام، يصعب الوصول إليه. وعندما أخذت الزحافة الأخيرة تصغر، حتى تلاشت واختفت عبر بياض الثلج، حصل لديها انطباع، بأن تلك الزحافة لا تحمل أي رسالة وأن «نيقولا» لم يكتب شيئاً، وأن كل ذلك لم يكن سوى حلم، استيقظت منه، في تلك اللحظة.

٦

وحسب ما رواه لهما «سيميون»، فقد جرت العادة، أن يأتي، كل شهر، من «ايركوتسك» ضابط صف، كي يحضر البريد، ويتفقد الأمكنة. ولكن ستة أسابيع قد انقضت، دون أن يبدو أثر لأي مراسل. فعلى ما يبدو لم يكن هنالك رسائل للمبعدين. وأدرك «نيقولا» أن عريضته، ستظل دون جواب. ولم يسبق له أبداً، لا في «تشيتا» ولا في «بيتروفسك» أن شعر أنه إلى هذه الدرجة منقطع عن العالم ومعزول عنه. ولم يكن يجرؤ على البوح بما يجول في ذهنه من أفكار، لكي لا يحزن «صوفيا»، ولكن قلقاً شديداً كان ينتابه، عندما يفكر، أنه ربما بعد ثلاثين أو أربعين سنة، سوف يصبحان عجوزين، يقيمان في كوخ، بالقرب من ضفة بحيرة «البايكال» وقد نحل جسماهما وتيبسا، يعيشان وحيدين في عزلة تامة، وقد نسيهما الجميع، مثلهما في ذلك، مثل «سيميون» و «بيريبيتوي».

وأثناء ذلك، كانت «صوفيا» قد تأقلمت بشجاعة، واعتادت بسرعة على الحياة القاسية والرتيبة في «ميرتفي- كولتوك» وأخذت تهتم بالأعمال المنزلية، وتساعد «بيريبيتوي» على القيام بها، بينما أخذ «سيميون» يعلم «نيقولا» كيف يستطيع إصلاح وتدعيم أحد جوانب السقف، وكيف يصلح إحدى العربات أو كيف يحفر ثقباً في الجليد الذي يغطي سطح البحيرة، لكي يصطاد السمك، وكيف ينصب فخاً لاصطياد الطيور. وأخذت الأيام تمر بسرعة، والمودة تتزايد بين أفراد الأسرتين: فبعد أن شعر «نيقولا» و «صوفيا» بأنهما مختلفان جداً عن صاحبي المنزل، من حيث المولد

والتربيـة، وبعـد أن تمنيـا حتـى رحيلـهما، فقـد أخـذا يتعلمـان محبتهمـا، في بـساطتهما الـتي تتـسم بالهـدوء والاطمئنـان. و «سـيميون» و «بيربيتـوي» لم يكونا، بالحقيقة، قرويين عـاديين. فالاثنـان أصلهما من مقاطعة «نيجني - نوفغورود» وعاشا فيها زمناً طويلاً، كفلاحين حرين، يعملان في الزراعة في قطعـة أرض كـبيرة، هـي ملـك لهمـا، وقـد صـودرت مـع كـل مـا كانـا يملكانه، وبيع الكل، بعد أن حكم على «سيميون» بالسجن.

وعندما انتهت مدة عقوبته، لحقت به زوجته إلى «ميرتفي- كولتوك».

ولم يتلقيا أي خبر عن ابنتيهما وأبنائهما الثلاثة، الذين تركاهم في البلدة التي كانوا يقيمون فيها، وجميعهم، لابد من أن يكونوا قد تجاوزوا الأربعين من العمر. وبما أن لا هي ولا هو يجيد إمساك القلم، فقد اكتفيا بأن يتصورا كيـف أصـبح أبناؤهمـا، ومـاذا جـرى لهـم. فاقترحـت «صـوفيا» أن تكتـب للأبنـاء، نيابـة عـن الوالـدين، ولكـن هـؤلاء رفـضا اقتراحهـا: «عنـدما تتخـذ الحيـاة اتجاهـا معينـاً، ينبغـي عـدم معاكستها ومحاولـة تغيير اتجاههـا. ومـن الأفضل أيضاً أن ينسونا.» ولأنهما عاشا وشـاخا سوية، متقـابلين دائمـاً، وجهـاً لوجه، في عزلـة تامـة، فقـد انتهـى بهمـا الأمـر إلى أن أصبحا متمـاثلين تمامـاً، فقد انصقلت طباعهما وتساوت، بفعل احتكـاك أحـدهما بـالآخر، كحصى البحيرة. وما يقوله الرجل، كان يمكن أن تقوله المرأة، والعكس بـالعكس. ولم يكن يهمهما الوقت، فهما ليسا في عجلة من أمرهما. وفي هذه السن التي يأسف فيها كثيرون غيرهما، على شبابه، يحصل لمن يراهمـا انطبـاع بأنهمـا ينظران إلى مستقبل بعيد أمامهما. ولا شيء يخيفهما في العالم:

لا الوحـدة، ولا الـبرد، ولا اللـصوص، ولا الـذئاب، ولا الحميـات، لأن كـل مـا يحـصل مـن هـذه الأمـور، إنمـا يحـصل بـإرادة الله. وفي عـالم يرونـه طاهراً ونقيـاً، كمـا كـان في الأيام الأولى للخليقـة، العمـل نفسه لم يكـن يبدو لهما شـاقاً، أو عقوبة: «انظر إلى الجبال، فتشعر أنك غني!».

هذا ما كانت ترردده، عادة، العجوز «بيريبيتوي» وفي المساء تجتمع الأسرتان لتناول طعام العشاء، على مائدة واحدة. فيروي «سيميون» قصصاً عن الصيد. وتسرد «صوفيا» ذكرياتها عن «شارع السيدات»، فيصغي إليها مضيفاها بإعجاب، وهي تتذكر أسماء أمراء وأميرات. وتتقلهما إلى أجواء ساحرة، وكان يخيل لها وقد تأثرت بما ترويه أنها تتحدث عن أسعد فترة في حياتها. وما الذي كانت تبخل بإعطائه لكي ترى «ليبارسكي» يدخل فجأة إلى «الايسبا» وقبعته المزدانة بالريش، تحت إبطه، ثابت النظرة، والابتسامة تزين شاربه الجميل؟ كانت تفكر به كما تفكر الابنة بوالدها. والآخرون، ماذا جرى لهم؟ الدكتور «وولف»، «يوري ألمازوف»، و «بولين أنانكوف»، و «ماري فولكونسكي»... كان الجميع حولها، وفجأة، لم يعد هناك أحد! وقد كتبت رسائل لجميع السيدات، وأخذت تنتظر زيارة ضابط الصف لتسليمها له، ولكن مع مرور الوقت، تحول ذلك المراسل إلى وجه أسطوري، كانت تأمل على الدوام أن تراه، ولكنه لم يكن يبدو أبداً.

وفي منتصف شهر نيسان (ابريل) خفت وطأة البرد، وارتخت الثلوج وأخذت تذوب، فبدأ «سيميون» وزوجته يستعدان للسفر، فكان «بيريبيتوي» تعبئ المؤن في الأكياس، بينما كان «سيميون» ينظف بندقيته، ويشحذ سكاكينه، يشمع بعض الخيطان، ويصنع من الرصاص طلقات للبندقية. وكان الثلج يذوب حول «الايسبا» وأخذت الحشائش والأعشاب تبدو وتنتصب، والجداول تجري وتغني. وفي الليل عندما يسود الهدوء، تسمع فرقعة الجليد وهو ينكسر ويتقصف على سطح بحيرة «البايكال». وبدت الأمسية الأخيرة التي أمضاها العجوزان في البيت، حزينة. وخلالها، جددا توصياتهما كررا تبريكاتهما للباقين في المنزل. واحتسى الجميع كأساً من «الفودكا» التي يصنعها «سيميون» بنفسه. وترك ما بقي منها في برميل صغير، هدية لـ «نيقولا»، كما أعطاه أيضاً مسدساً وبلطة.

وفي اليوم التالي، عند الفجر، امتطى المسافران حصانيهما، وقد تدثرا بالفراء، وحملا الأكياس والحبال والعلب.

كانت «بيرييتوي» ترتدي سروالاً من الجلد، وتمتطي الحصان، على طريقة الرجال وكان وجهها ذو التجاعيد التي تشبه تجاعيد الخوخة الذابلة، يختفي نصفه تحت طاقية ضخمة من جلد الثعلب. كانت تبتسم، فيبدو ثقب أسود في وسط أسنانها:

- فليحفظكما الله! سنلتقي في فصل الشتاء!

صاحت «صوفيا»:

- نرجو لكما صيداً موفقاً، إلى اللقاء.

وشعرت بالمرارة في حلقها. وانطلق الحصانان على الدرب الموحل. وظلت «صوفيا» خلال فترة طويلة تتبع بنظرها هذين الخيالين الغريبين، اللذين يبدوان مسنين جداً بوجهيهما، وشابين بظهريهما، كانا يسيران خبباً في مجال تعرى من ثلوجه، حيث كانت القطع البيضاء الأخيرة، تزول مستسلمة لضغط الزهور البرية. وعندما ابتعدا، عاد «نيقولا» و «صوفيا» إلى البيت. وارتمى كل منهما بين ذراعي الآخر. وبدت لهما الحياة، وقد أصبحت، بشكل مفاجئ، أكثر صعوبة.

⭑⭑⭑

عدل «نيقولا» بسرعة عن فكرة استصلاح قطعة الأرض، التي خصصها له الحاكم، واكتفى بقيامه بالعناية ببستان «سيميون»، الصغير. ولإحداث بعض التغيير والتجديد في نمط معيشته، طرداً للرتابة والملل، كان يصطاد الطيور بالفخ أو يذهب مع جماعة «البوريات» لاصطياد السمك في بحيرة «البايكال» التي كانت تجذبه إليها، تسحره وتخلب لبه، وكان يحب كثيراً التنزه على ضفافها، والتحدث كثيراً مع أفراد قبيلة «البوريات» ومساعدتهم على إصلاح شباكهم. وفي كل مرة كان يرافقهم في أحد

قواربهم، فذلك يُعَدّ بمثابة عيد بالنسبة له. وكانت «صوفيا» تحسده لبقائه متحمساً على الرغم من السنوات الصعبة التي قضاها والمحن التي تعرض لها. كانت الحياة في الهواء الطلق تناسبه تماماً، وقد اكتسبت بشرته اللون البرونزي، وأصبحت مشيته مرنة ورشيقة، وعيناه براقتين. وكانت تدهش، عندما يتبادر إلى ذهنها أنه يزداد جمالاً مع تقدمه بالسن. وعندما يخيم الظلام، يحاصر في «الايسبا» معها، بعد أن يضع خبزاً وجرة ماء، على درج المدخل، من أجل المساجين الفارين. وأحياناً، كانت «صوفيا» تستيقظ في الليل مذعورة: فهنالك من يمشي حول المنزل. فتلمس كتف «نيقولا» وهي ترتعد من الخوف. فيجلس وهو في السرير، ودون أن يشعل الشمعة، يرهف السمع ويصغي، بدوره: إنها الريح تحرك أغصان الأشجار، أو المطر الذي ينهمر على السطح، أو طائر ليلي يرسل صيحة تنم عن القلق. ومع ذلك، فإنهما، عندما فتحا الباب، صباح ذات يوم، تبين لهما أن الخبز قد اختفى وأن الجرة فارغة. فتجمد الدم في أوردة «صوفيا». وأخذت تنظر وهي ترتجف إلى آثار الأقدام في الوحل، أمام درج المدخل. ومرت، بعد ذلك، عدة ليال، لم تستطع خلالها أن تنام. وكان، يبدو أن الهاربين الذين كانت تخشى شرهم، كانوا يتجولون في أماكن أخرى. إذ إن ما يوضع لهم من خبز وماء، كان يظل على حاله، دون أن يمس. ثم، من جديد، لم تجد، ذات يوم، لا الخبز ولا الماء. وانتهى بها الأمر إلى الاعتياد على مرور هؤلاء الزائرين المجهولين، الذين أخذوا يعودون كثيراً، وفي فترات متقاربة. وكانت تفكر بهم بخوف يمازجه الفضول وحب الاطلاع، مثلما كانت تفكر بوحوش الغابة، التي كانت تجازف بالاقتراب هي أيضاً، من عتبة الباب.

وبتاريخ ٢٣ أيار (مايس)، وصل أخيراً صف ضابط، قادماً من «ايركوتسك» يحمل البريد، الذي كان يتضمن رسالة إلى «نيقولا» من

الجنرال «ليفنسكي» يخبره فيها أن طلبه بتغيير مقر الإقامة، قد رفع إلى «سان بطرسبورغ» بطريق التسلسل، ورسالة أخرى من نقيب الأشراف في «بسكوف» يرسل فيها لـ «صوفيا»، ألف روبل من دخل حصتها من الملكية، وأخباراً جيدة عن الصغير «سيرج».

وأصرت على استبقاء المراسل لكي يتناول طعام العشاء. كان شاباً أحمق ومغروراً، ولكنه، على أي حال، وجه جديد، وشخص قادم من المدينة. وقبل ذلك بيومين، كان قد رأى بيوتاً، مخازناً، وأناساً يمرون في الشوارع! وأخذت تستجوبه بلهفة شديدة، ثم أخذت تشرح له بالتفصيل لماذا ترغب بمغادرة «ميرتفي- كولتوك»، كما لو أن هذا الشخص القليل الشأن يمكنه أن يدعم طلبها. كان يصغي إليها متظاهراً بالاهتمام، وهو يأكل ويشرب بشراهة. وبعد ذلك، ذهب واستلقى على سرير «سيميون» لينام وهو ثمل جداً. وعندما استيقظ، سلمته «صوفيا» جميع الرسائل التي كتبتها لسيدات «بيتروفسك»، ورسالة تتضمن شكوى أخرى، من «نيقولا» موجهة، هذه المرة، إلى الجنرال «بنكندورف».

وأقسم الشاب، وعيناه تبدوان نصف مغمضتين، ووجهه شاحب اللون، إنه سيعود بعد شهر بالضبط، وفي مثل ذلك اليوم. ولم يكد يصعد إلى عربته، حتى عاد فاستغرق في النوم، من جديد. وبعد رحيل ضابط الصف، أرسل «نيقولا» تنهيدة تنم عن الارتياح، فقد كان يخشى من أن يتأخر هذا المغفل بالرحيل، فيفوت عليه موعد ذهابه مع جماعة «البوريات» لصيد السمك. وحاولت «صوفيا» إقناعه بعدم الذهاب، لأن الطقس سيئ، والسماء مكفهرة، تنذر بانهمار المطر. فرد عليها بأن سوء الطقس يساعد بشكل أفضل على اصطياد سمك «الحفش»، فرافقته حتى خيام قبيلة «البوريات» ونظرت إليه وهو يصعد إلى زورق شراعي، مع أربعة من السكان المحليين بدوا نشيطين ومكشرين بشكل جعلهم يشبهون قرود «السباجو»

الأميركية وكان «نيقولا» قد وعدها بأنه سيعود قبل حلول الظلام. وابتعد الزورق وهو يتراقص متمايلاً على تموجات خفيفة، يعلوها الزبد الأبيض. وأخذ «نيقولا» يلوح لها بيده، وهو يقف في مؤخرة القارب، شعره مشعث، ووجهه الأسمر تمزقه ضحكة بيضاء. وكان يبدو أكثر طولاً بين أبناء قبيلة «البوريات»، الذين كانوا كلهم قصار القامة. وأجابته «صوفيا» على تحيته، وظلت تلوح له بيدها إلى أن غاب عن نظرها.

وبعد أن ابتعد، أخذت تمر من خيمة إلى أخرى، وتتبادل التحية والكلمات الودية مع سكانها. كان عددهم نحو ستين، موزعين على ثماني عائلات. وكان من الصعب التواصل معهم، والتحدث إليهم، فبالإضافة إلى كونهم لا يكادون يستطيعون التكلم باللغة الروسية فهم يبدون عديمي الاهتمام بإغراءات وفوائد النظافة والذكاء.

فكأنهم يعيشون في زمن مرت عليه عشرة قرون، ولذلك فهم يتخوفون من كل ما من شأنه تحسين أوضاعهم ومصيرهم. وبخاصة النساء اللواتي كن ينظرن بريبة وحذر إلى «صوفيا» عندما تبدي اهتمامها بأطفالهن، فهي كانت تجدهم جذابين، مرحين، وغريبي الشكل، بوجوههم المستديرة وعيونهم المائلة، وهيئاتهم الجادة والوقورة. وكانت تصنع لهم لعباً ودمى من خرق القماش، فكانوا يتقبلونها ويأخذونها، ولكنها لم ترهم يلعبون بها أبداً. والشخص الوحيد الذي استطاعت أن تتحدث معه بصورة طبيعية تقريباً، هو العجوز «فاوول» زعيم القبيلة. كان قصير القامة، أعور، ضخم الشفتين، حول فمه الكبير، الذي تبدو منه أسنانه المطلية بصباغ أسود. وأطالت المكوث تحت خيمته، التي تنتشر فيها رائحة اللحم المقدد، والدهن، والعرق والأوساخ، هذه الرائحة التي تتميز بها مخيمات «المغول». كان «فاوول» يدخن بغليون فضي. وكان عليها أن تدخن به ثلاث «سحبات». وعندما أعادت له غليونه، قال لها:

- الآن، لقد أصبحت من أسرتي التي تقيم في بيتي، احضري إليه، متى تشائين. ومعي أنا، وبحضوري، لن يصيبك أي أذى. واعلمي أني أجيد السحر قليلاً: وأتكلم مع الأرواح التي تسكن الأرض والتي تسكن مياه البحار..

فشكرته وعادت إلى البيت، حيث كانت تظن أن لديها كثيراً من الأعمال التي تأخرت بإنجازها. ولكنها، عندما دخلت إلى غرفتها لم تعد تعرف ماذا عليها أن تفعل. كان «نيقولا» قد ترك على المنضدة دفتراً يسجل فيه أفكاره السياسية، فأخذت تتصفحه، بتعاطف وحنان أم تنحني على مذكرات ابنها الخاصة والحميمية، وقد بدا لها بحالة جيدة جداً من خلال ما كتبه! فلم يتغير أو يبلى شيء من أفكاره، وكما في السابق، فهو لا يزال يؤمن بالانتصار النهائي الذي ستحققه الحرية على الاستبداد وبتهيؤ الشعوب وتطلعها إلى التمتع بالسعادة، وعلى الرغم من تجربة «متمردي كانون الأول» الفاشلة والمدمرة، فهو لا يزال يحتفظ بنوع من البراءة الأولية التي تجنبه أن يشعر باليأس. وكان هنالك دفتر آخر يتضمن وصفاً مفصلاً لانتفاضة الرابع عشر من كانون الأول. فلمن كان يسجل ذكرياته؟ آه لو أنهما رزقا طفلاً!..

وأخذت «صوفيا» تحلم وتفكر لبعض الوقت، ثم تنهدت، واستأنفت القراءة. وشيئاً فشيئاً، أخذت الغرفة تظلم في نظرها. فخرجت، ووقفت على درج المدخل. وأخذت السماء تكفهر في الجهة الغربية. وغطى ضباب عاصف وكثيف قمم الجبال، وحجبها عن الأنظار، وبدت طبقات ثقيلة من البخار، تميل إلى اللون البنفسجي، معلقة فوق بحيرة «البايكال». وفجأة أخذ المطر ينهمر. وتبادر إلى ذهن «صوفيا» وقد انتابها غضب خفيف يتسم بالعطف والحنان: «لقد قلت له ذلك، وحذرته!».

وعندما رأت معطف «نيقولا» الذي بقي معلقاً بمسمار قرب الباب، استاءت: «إنه أسوأ من طفل صغير! المهم هو ألا يصاب بالبرد!» وظل هذا الهم يساورها، بصورة متقطعة، حتى المساء.

وعندما بدأ الظلام يخيم، تدثرت برداء كثيف، حملت على ساعدها معطف «نيقولا» وسارت نزولاً، نحو ضفة البحيرة وأخذت تتفرس في الأفق وزخات المطر تجلدها بقوة، ليس هنالك أي زورق. كانت الأمواج تتدفق وتتكسر بعنف متزايد على شاطئ البحيرة، الذي تغطيه الحصى الملساء. وكان زبدها المصفر ينتشر ويتطاير، ويكاد يصل إلى قرب الخيام وهو يرسل صوتاً يشبه الفرقعة. وكان هنالك بعض الأطفال، عراة تماماً، شعرهم أسود، أعضاؤهم التناسلية تتأرجح، وقد أخذوا يلهون ويلعبون، وهم يتدحرجون مع الأمواج، على ضفة البحيرة. ولم يكونوا يصرخون أو يضحكون أثناء لعبهم. وبدا، على البعد، عمود ضخم من الضباب، وقد انتصب بين السماء المنخفضة وسطح البحيرة الهائج والمضطرب. وخيم الظلام، فاختلط فوران الماء وجيشانه مع سجف الليل السوداء. ومع ذلك، فلم يكن أحد، بين أفراد قبيلة «البوريات» يشعر بالقلق. وقال العجوز «فاوول» لـ «صوفيا»:

- إنهم، على الأرجح، قد نزلوا على الشاطئ، في مكان آخر، بسبب هذا الطقس السيئ. وسيخيمون هناك...

وعادت «صوفيا» إلى البيت، وهي تفكر بأن هذه المغامرة. لابد من أنها ستسحر «نيقولا» وتخلب لبه، وهو المتلهف على الدوام لكل جديد طارئ وغير متوقع. وكانت طباع زوجها هذه، غير الاعتيادية، تفتنها تارة، وتغيظها تارة أخرى، وبالتناوب. وأخذت تتصوره جالساً القرفصاء أمام نار من الحطب، ويداه مبسوطتان نحو اللهب، وهو يصغي «للبوريات» وهم يروون قصصاً عن السحر والتنبؤات.

وطوال الليل، ظلت تسمع الرياح وهي تئز وتدوي، والمطر المنهمر وهو يقرع السطح. وكانت مفاصل «الايسبا» تفرقع ومزلاج الباب يقفز في مساكه. وأمواج البحيرة تهاجم الشاطئ. وعند الفجر، هدأ عصف الرياح.

وعندما خرجت «صوفيا» ووقفت على درج المدخل، أحاط بها مشهد صامت، مبلل، ووديع. وبدت بحيرة «البايكال» هادئة، تتحلى بسكينة ملائكية. والشمس أخذت تولد، في آن واحد، في السماء وفي الماء. كما أخذت قلعة ضخمة من الغيوم تنهار بهدوء واسترخاء في أعلى السمت. وبدت الجبال نفسها، مستعدة لأن تنحل وتذوب في الهواء. وسيعود «نيقولا» ورفاقه، عما قريب، يدفع زورقهم نسيم هادئ ولطيف. وأمضت «صوفيا» بعض الوقت، غسلت خلالها وجهها ويديها وارتدت ملابسها، وشربت كأساً من الشاي الساخن، وذهبت بعد ذلك، إلى قرية «البوريات». فاستقبلها «فاوول» بالترحاب، واقترح عليها أن تدخل إلى خيمته. ولكنها فضلت البقاء في الخارج، لكي تشهد وصول الزورق. فقال لها «فاوول»:

- لا تستعجلي الأمر أكثر مما ينبغي، فربما استغلوا تحسن الطقس ليصطادوا المزيد من السمك!

- آه، كلا! إنه يعلم أني قلقة، وأني أنتظره!..

- عندما يقع السمك في الشبكة، فلن يحسب الصياد حساباً لأي امرأة!

وأخذ «فاوول» يضحك، وبدا وجهه شمساً من التجاعيد. وضحكت «صوفيا» أيضاً، بدافع من التحدي، ولكن قلبها لم يكن يشاركها في الضحك. ومع انقضاء الساعات ومرور الوقت، كان يستبد بها القلق وتزداد مخاوفها. وفي لحظات معينة، كان يخيل لها أنها قد تبينت شراعاً، عبر تلألؤ المياه. ويتبدد الوهم سريعاً، والفراغ الذي يلي تلك الاندفاعات نحو الأمل، يصبح تحمله، أكثر صعوبة.

ولاحظت «صوفيا» أن زوجات الرجال الذين ذهبوا مع «نيقولا»، أخذن يأتين، عند ذلك، من وقت لآخر، ويقفن على الشاطئ، وقد بدا القلق على وجوههنّ. وحاولت عدة مرات أن تتحدث إليهن. ولكنهن لم يكن يجبن، بل ينصرفن وقد خفضن جباههن واحنين ظهورهن. وبدت نظراتهن تنم عن

الخوف، بينما كانت أصابعهن السوداء من الوسخ، تتحسس بقلق التعاويذ والتمائم التي يحملنها في أعنقاهن. و «فاوول» وحده ظل واثقاً من النتيجة ومحتفظاً بهدوء لا يتزعزع:

- إنهم بحارة مهرة، لا يمكن أن يحصل لهم مكروه!

وهذا التأكيد، الذي طمأن «صوفيا» وهدأ روعها، في بداية الأمر، أغاظها، مع مرور الوقت. وعندما خيم الظلام، تفجر قلقها ومخاوفها:

- لا نستطيع أن نبقي ننتظر هكذا، ونحن مكتوفو الأيدي!..

فغمز «فاوول» بعينه اليسرى، كانت اليمنى مكورة وجاحظة كبياض البيضة:

- اطمئني،لقد استشرت الأرواح: إنها معنا وبجانبنا. وغداً سيسوى كل شيء. وبانتظار ذلك، عودي إلى البيت، فأنت بحاجة للراحة وللغذاء. وعندما يحصل شيء جديد، سأخبرك به.

رفضت «صوفيا» الذهاب، فهي لا تريد أن تبتعد عن البحيرة. وأشعل بعض رجال قبيلة «البوريات» النيران على الشاطئ لإرشاد البحارة. فانتشر دخان كثيف من الحطب المبلل، ثم تصاعد اللهب ودبت الحركة والحياة في الليل. وأخذت الشرارات والشظايا المشتعلة تتأرجح على الأمواج كشذرات الذهب.

وفي موعد تناول طعام العشاء، أوت كل أسرة إلى حجرها. حيث جلس الرجال والنساء، على شكل حلقة، وأخذوا يأكلون اللحم المجفف، ويشربون «شاي البريك»: (the de brique).

ولم تكن «صوفيا» تشعر بالجوع ولا بالنعاس. ومع ذلك، فقد وافقت على الاستلقاء على مفرش في خيمة الزعيم، التي كان ينام فيها مع زوجته وأولادهما الأربعة. وكان الشخير يتردد وتتغير نغمته فتصبح تارة خشنة وقوية، وتارة تصبح خافتة وناعمة.

وكانت الرائحة المنتشرة في الخيمة كريهة لا تطاق. وعبر الظلام، أخذ خوف «صوفيا» يشتد ويتزايد، مع دقات قلبها. وكان يخيل لها أنها تسمع وقع خطى على حصيات الشاطئ، وصوت مجذاف وهو يلامس سطح الماء أو تهيدة، وأنيناً. فتندفع مسرعة، إلى خارج الخيمة: ليس هنالك أحد. واللهب قد خمد. وهناك، في الظلام الدامس، الأمواج التي يعلوها الزبد، كشعر العجوز، الأبيض، تتلاطم متلاحقة ومستمرة إلى ما لا نهاية. وكانت «صوفيا» تدير رأسها ملتفتة إلى كل الجهات، وهي ترتعش من البرد ومن الخوف، فتعود إلى الخيمة، وتستلقي لبضع دقائق. وكان هاجسها قوياً جداً، لدرجة أنها غفت، ولديها انطباع بأنها لا تزال ساهرة، وهي تقف مقابل البحيرة.

وفجأة بدّد ضوء الشمس أحلامها، وأيقظها من نومها. فقفزت واقفة على قدميها، ولاحظت أن الخيمة خالية، فركضت مسرعة نحو ضفة البحيرة، ورأت «فاوول» راكباً في قارب قديم ومعه مجذافان.

فصاح، عندما رآها:

- لابد أنهم قد توقفوا في مكان ما، لإصلاح زورقهم!

أنا ذاهب لأبحث عنهم على البحيرة، وأثناء هذا الوقت، سيذهب بعض الخيالة للبحث عنهم على الشاطئ. وهكذا، فمن المؤكد أننا سنتوصل للعثور عليهم!

ومن جهة الغرب، أخذ بعض أفراد قبيلة «البوريات» يتوغلون في صف طويل بين أدغال القصب والأعشاب الطويلة، وهم يمتطون أحصنة صغيرة الجسم، طويلة الشعر. وأخذ القارب يبتعد، مدفوعاً بحركة المجاذيف القوية. فوضعت «صوفيا» يديها فوق عينيها لتحميهما من الشمس، وأخذت تنظر إلى تلك الذبابة المسرولة والغليظة القوائم وهي تسبح في شراب البحيرة الحلو. وأخذت تصغر شيئاً فشيئاً في مدى الرؤية، وبعد قليل، لم تعد سوى

نقطة سوداء على فاصلة من الظل الأخضر. ثم اختفت ولم يعد هنالك شيء. فأخذت «صوفيا» تفكر: «ربما يكون «نيقولا» قد هرب، كما فعل هو و «فيلات» فيما مضى؟ وربما سمعت، ذات يوم، أنه موجود في الصين أو في ألاسكا؟ كلا، إني مجنونة، نعم مجنونة! سوف يعود! بلى سيعود!..» كانت ترف وتغمز بعينيها، متشبثة بأوهامها، كالمقامر الذي يخسر، ويعاند ويرفض الاعتراف بأنه قد غلب وهزم. وكان هذا التناوب بين الأمل والشك، ينهك قواها. وأصبح جسمها وروحها متحدين، لا يشكلان سوى كيان واحد، في التوتر الذي أحدثه الانتظار والتوقع. ولم تعد تشعر حتى بحرارة الشمس التي تحرق وجهها. وأحضرت لها زوجة «فاوول» طعاماً لتأكل. فهزت رأسها بالرفض.

★★★

عاد الخيالة الذين أرسلهم «فاوول» عند غروب الشمس، ومن بعيد، عندما رأتهم «صوفيا» أسرعت للقائهم. كانوا يسيرون متمهلين، بمحاذاة الشاطئ. وكانت أشعة الشمس الأخيرة تتراءى مترافصة خلف أشكالهم السوداء. وظلالهم المائلة تنسحب على حصيات الشاطئ. وعندما اقتربت «صوفيا» منهم، لاحظت أنهم يحملون معهم رزماً كبيرة ملفوفة بمشمعات، وملقاة بالعرض على سروج أحصنتهم. وقال أحد «البوريات» الذي يجيد اللغة الروسية، وهو يتكلم ببطء شديد:

- لقد وجدنا ثلاثة من الخمسة، وقد ألقت بهم الأمواج على الشاطئ فانفتحت هاوية عميقة تحت قدمي «صوفيا» وشعرت بأنها ضعفت وأخذت ترتجف. وفجأة، مزقت حلقها صيحة مخيفة:

- «نيقولا»!

فقال «البوريات»، وهو يشير إلى الجسم الذي يحمله حصانه:

- اعتقد أن هذا هو زوجك، أتريدين أن تريه؟ سأفكه، وأنزله في الحال.

٧

على صوت التراب الذي أخذت تلقيه المعاول على النعش، أخذت «صوفيا» تحني رأسها. كان كل صوت يصدر من هناك يدوي في صدرها. وكانت تتصور «نيقولا» مستلقياً بين الخشبات وهو يصغي أيضاً في أعماق ظلمته لصوت انهيار كتل التراب والحصى، التي أخذت تفصله، شيئاً فشيئاً، عن العالم. لم تكن تستطيع تقبل فكرة موته، أو أن تعتاد عليها وتألفها. وحتى تلك اللحظة، كانت تحتفظ، إن لم يكن بالأمل، فعلى الأقل بشيء من الشك، فـ «نيقولا» لا يزال موجوداً، وهو في مكان آخر. وعثر في اليوم التالي على الجثتين المتبقيتين مع بقايا وأنقاض الزورق، الذي كان قد تحطم عند إحدى صخور الشاطئ. أثناء تلك العاصفة العاتية. وقد دفن رجال «البوريات» رفاقهم في الأرض نفسها حيث دفن «نيقولا» الذي كانوا قد عملوا له تابوتاً. وقد أسفت «صوفيا» كثيراً لعدم وجود كاهن كي يبارك الجثمان. وقبل أن يوضع في التابوت، تلت هي بعض الصلوات باللغة الروسية وبلكنة سيئة جداً، جعلت «نيقولا» دون شك، يبتسم، تحت قناع الغريق، الفظيع، الذي يغطي وجهه. هذا الوجه الشاحب المتورم، الذي أصبح كبير الحجم، وهذه التكشيرة البلهاء.. هذا ليس «نيقولا»! ليس هو، أبداً!.. وقد بدأ يخمد صوت التراب وهو ينهال على خشب التابوت، ولم يعد يسمع، واختفى التابوت في جوف الأرض ولم يعد يرى. وكان جميع أفراد قبيلة «البوريات»، رجالاً ونساءً يقفون على شكل دائرة حول الشخصين اللذين حفرا القبر.

وقد أحسنا اختيار المكان: بالقرب من المنزل، ومقابل البحيرة. وكان حديد المعاول، يلمع تحت أشعة الشمس، وبعد أن سوي التراب فوق الحفرة، ليشكل مرتفعاً صغيراً، غرس فيه، بعد ذلك، صليب، صنع من خشب أنقاض الزورق. وهكذا، قد انتهى كل شيء، فمر أفراد قبيلة «البوريات» أمام «صوفيا» لتحيتها وتعزيتها، وكل منهم يضع يده على قلبه. وكان آخر من تقدم نحوها، زعيم القبيلة، الذي قال لها:

- سأرسل رجلاً إلى «ايركوتسك» ليخبر الجنرال، بأن زوجك قد توفي.

فشكرته «صوفيا» وعادت إلى المنزل. هذا المنزل الذي كان «نيقولا» لا يزال يملؤه بوجوده: ملابسه، أوراقه، كتبه... كثير من الأشياء تدعوه إلى هذا المنزل وتشده إليه! فهو سيعود. هذا المساء، نعم إنه يمكن أن يعود! والدليل على ذلك؟ لو أنه حقاً مات لكانت أكثر حزناً وتعاسة. والحال هي أنها لا تتألم، كانت قد فنيت وزالت من الوجود. وأخذ مخلوق آلي يتصرف ويعمل بدلاً منها، بصورة دقيقة وعجيبة. وأخذت ترتب الغرفة، ووضعت جرة الماء والخبز على درج المدخل للهاربين من السجن، أغلقت الباب بالمفتاح، واستلقت بعد أن أطفأت الشمعة.

واستيقظت، في ظلام الليل، الدامس، وحيدة في ذلك السرير الكبير. وبحثت يدها عن مكان «نيقولا» بين الأغطية، وعلى الوسادة: الفراغ. البرد. بشكل دائم، وإلى الأبد. وما كان ذهنها لا يجرؤ على إدراكه، أدركه جسمها، بشكل مفاجئ. فشق صدرها نحيب حزين ومخيف. وأخذت تتمرغ منطوية على الذكريات: ثمانية عشر سنة من الحياة المشتركة، والحب، والحزن، والغيرة، والخناقات، والمشاريع، وفجأة، لم يعد هنالك شيء. فأجهشت بالبكاء، وأنهكتها وخنقتها الدموع.

وفي الصباح، لاحظت أن الخبز قد اختفى، وأن الجرة فارغة، ولم يكن أحد الهاربين المتجولين هو الذي أتى، بل «نيقولا». وتركته يبقى خارج

البيت. فقررت ألا تغلق الباب بالمفتاح، بعد اليوم. وفي الوقت نفسه، كانت تشعر بأن فكرتها عبثية وغير معقولة، وأنها تخرف وتهذي. وكان مفهوم هذا الانشطار، بل هذه الازدواجية لطيفاً بالنسبة لها ومخيفاً في آن معاً. كانت تعوم بين السماء والأرض.

وأخذت الأيام تمر، دون أن تشعر بذلك. ولم تكن تتساءل عما ستفعل وعما سيحل بها. وكثيراً ما كانت تجلس على حجر، مقابل قبر «نيقولا»، وتستغرق في تأملات عقيمة: أتستمر في العيش؟ لمن؟ ولأي شيء؟ ألم تنته مهمتها على الأرض؟ لقد أعطت أفضل ما لديها. ولم يعد لديها شيء تقوله لأحد. واهتمامها، بل ومصلحتها، ليست هنا، بل في مملكة الأفكار الغامضة، غير المؤكدة، والأمور المستحيلة..

وبعد مرور أسبوع على الدفن، عاد «البوريات» الذي أوفد إلى «ايركوتسك» مسرعاً ليعلن عن زيارة قريبة، سيقوم بها «ضابط كبير»، وبالفعل، فبعد يومين، وصل «الضابط الكبير» في عربة سيئة تعلوها الأوساخ، وتجرها أربعة أحصنة. ولم يكن سوى ملازم أوفده الجنرال «ليفنسكي» لإجراء التحقيق في المكان، وعلى الطبيعة.

ومنذ البداية أدركت «صوفيا» أن هذا الشاب ذا الرأس الكبير الأشقر، الذي يعلو جسماً صغيراً، سيكون معادياً لها. كان يدعى «يوزيريف» ويعوض عن قصر قامته بتصنع العظمة وبالإعجاب بنفسه، وهذا ما يرغمه على التكلم وهو يرفع ذقنه ويوسع منخريه. وأخذ، وهو يجلس خلف منضدة «نيقولا»، يستجوب جميع أفراد قبيلة «البوريات» عن ظروف وملابسات الحادث، ويسجل شهاداتهم على التوالي، في دفتر كبير، كان معه. وبعد ذلك، عندما بقي بمفرده مع «صوفيا» طلب منها أن تسمعه «روايتها الشخصية للأحداث التي حصلت».

فقالت له:

- ليس لدي ما أضيفه: لقد سافر زوجي، وهبت عاصفة هوجاء، فأعادوه ميتاً.

ولم تعجب بساطة هذه القصة وقصرها، الملازم «يوزيريف». فمن الواضح أنه كان يتمنى أن تظهر بعض التناقضات بين مختلف الشهادات، وأن تبدو المعلومات مشوشة وغامضة، من وجهة النظر العلمية، أي أن يكون هناك خفايا يجب اكتشافها، لكي يبرز مهارته ويرفع من قيمته لدى رؤسائه.

لذلك، قال، مع ابتسامة جانبية، ومراوغة، تحمل كثيراً من المعاني:

- هكذا، إذن، فالقضية، بالنسبة لك، في غاية البساطة؟

فأجابته «صوفيا»:

- ويا للأسف! نعم، أيها السيد.

- آمل أن تكون السلطات الإدارية من رأيك، وموافقة عليه. ولكن عليك أن تقتنعي بأني يستحيل علي أن أؤكد، بصورة رسمية، أن زوجك قد توفي، دون أن أتبين ذلك، وأتحقق منه بنفسي.

- لقد وصلت متأخراً، وبعد فوات الأوان!

- لا أنكر هذا، يا سيدتي، ومهمتي لابد من أن تصبح صعبة وحساسة، بسبب هذا التأخر، وسأكون مضطراً، لسوء الحظ، لنبش الجثة، وإخراجها من القبر.

وتلفظ بهذه الكلمات بطرف شفتيه، وهو يحدق بـ «صوفيا» ويوجه لها نظرة غامضة وباردة. وظلت لحظة لم تفهم خلالها شيئاً مما قاله، ثم هزتها، بشكل مفاجئ، انتفاضة: أينبش ذلك التراب المقدس، ويعكر راحة «نيقولا»، ويدنس جثمانه، من أجل إجراء تحقيق بوليسي أخير، وفي نهاية الأمر؟! أبداً، وعلى الإطلاق، أن هذا لن يحصل!

وصاحت، بأعلى صوتها:

- إني أمنعك من ذلك!

فانتفض «يوزيريف»:

- وبأي حق، أيتها السيدة؟ أنت تنسين أن زوجك كان مجرماً تجاه الدولة. وأنه كان موجوداً في الإقامة الإجبارية في «ميرتفي كولتوك». ومن يستطيع أن يثبت لي أنه لم يهرب، بعد أن تظاهر بالغرق، وأدعى أنه مات؟ ومن يثبت لي أن هذا الموت ليس عملية إخراج؟ ومن يمكنه أن يثبت لي أن القبر ليس فارغاً؟

وكانت «صوفيا» قد فكرت بكل شيء فيما عدا هذه الافتراضات الفظة والمهينة، فتمتمت:

- أيها السيد.. أيها السيد، هل تعتقد أني، أنا زوجته، أقبل بحصول هذه المهزلة الشنيعة؟! وماذا لو أقسمت لك بأني تعرفت على جثة زوجي، وساعدت على وضعها في نعشها، وأني.. وخنقتها العبرات. فنهض «يوزيريف» وقال:

- أنا أقوم بمهمة كلفت بالقيام بها، وأياً كانت عواطفي ومشاعري فإن علي أن أنفذ الأوامر.

واتجه نحو الباب، فاعترضت طريقه:

- أتوسل إليك، يا حضرة الملازم، ألا تفعل ذلك!

- ولكن، أيتها السيدة، بما أن علي أن أشهد في تقريري..

- إيه، حسن! اشهد، اشهد... ولكن لا تنبش قبر زوجي!...

- أتطلبين مني أن أكذب على رؤسائي؟

- أطلب منك أن تتصرف كرجل طيب ونبيل!

فأبعدها من طريقه، دون أن يجيب، وخرج فوقف على درج المدخل. كان بعض رجال قبيلة «البوريات» ينتظرون أمام المنزل صامتين، لا تبدر منهم أي حركة، وعلى رؤوسهم قبعاتهم المدببة، وقال لهم:

- اذهبوا وأحضروا المعاول!

فصاحت «صوفيا»، وهي تقف وراء «يوزيريف»:

- لا تذهبوا لإحضار تلك الأدوات، فهو يريد أن يجعلكم تنبشوا قبور الموتى!

كان وجهها شاحباً، تعابيره تنم عن الإرهاق الشديد، وعيناها حمراوين.

فتقدم «فاوول» وسأل الملازم:

- أصحيح ما تقوله السيدة؟

فأجابه الملازم، واعداً:

- إني لن أمس قبور موتى قبيلتكم، وأنا بحاجة للتأكد من موت المجرم بحق أمن الدولة: «أوزاريف»، وهذا كل ما هنالك!

فهز العجوز رأسه، وغمغم متذمراً:

- لا تطلب منا هذا، أيها الرئيس. فمنا نحن، لا يطلب هذا، لأنه يخالف معتقداتنا: فعندما تبدأ الرحلة الكبرى بالنسبة لإنسان ما، لم يعد يحق لأي «بورياتي» أن يزعجه. وإذا كنت تريد أن تفعل ذلك فنحن نعطيك معولاً وفأساً، ونفذ هذا العمل، أنت، بنفسك...

فاستشاط «يوزيريف» غضباً، وتطاير الشرر من عينيه:

- أترفضون الانصياع لأوامر الحاكم؟ سيكلفكم هذا غالياً! سأذكره في تقريري، ... نعم سأذكره!.. وسيرسلون الجنود!.. وسيعلمونكم السير خطوة فخطوة!.. أيها الكفرة الجاحدون!..

فتبادل رجال قبيلة «البوريات» نظرات تنم عن الحيرة والذهول. وأخذ «فاوول» يحك مؤخرة عنقه، ويكشر، متردداً، ولو مرت دقيقة أخرى من الصمت والهدوء، لكان وافق، وقال نعم، ولكن «صوفيا» اندفعت من مكانها، في تلك اللحظة، وكأنها أصيبت بمس من الجنون. وعبرت بستان الخضرة، دخلت إلى الكوخ الذي تحفظ فيه الأدوات الزراعية وخرجت منه وهي تحمل فأساً، واتجهت نحو القبر. كان عقلها يترنح، ولم تعد سيدة

نفسها، ولا تستطيع السيطرة على تحركاتها وتصرفاتها، والتحكم بها. وإذا كان على أحد ما أن يوقظ «نيقولا» من نومه، فلن يفعل ذلك شخص غريب، بل ستفعله هي، زوجته أمام الله. وكانت تتمتم:

- سأفعل ذلك، أنا.. أنا بمفردي!..

كان فستانها يعرقل حركة ساقيها. وبقوة، غرزت المعول في التراب. وفعلت ذلك وكأنها وجّهت ضربة إلى مخلوق حي. وسرت اهتزازة الصدمة المخيفة في ذراعيها، وبلغت قلبها. فانبعثت الدموع من عينيها، وهي ما زالت تردد بعناد وإصرار:

- سأفعل ذلك! سأفعله!

وللمرة الثانية، انغرز معولها في الأرض الرخوة، وضغطت برجلها على الحديد لكي يدخل بشكل أعمق. فأمسكت بها أيدٍ قاسية وقوية، فأخذت تقاوم وتتخبط، وهي تئن:

- دعوني، اتركوني!

ولكن «البرويات» كانوا يمسكونها بقوة واحترام. وكان «يوزيريف» يقف أمامها، مرتبكاً، شاحب الوجه، وأخذ يتمتم:

- أيتها السيدة! أيتها السيدة!.. ماذا بك؟.. هذا غير معقول!.. هدئي من روعك!..

كانت ترتجف، وأسنانها تصطك، دون أن تدرك ماذا حل بها، وانتزعوا منها المعول، وأعادوها إلى البيت، حيث أجلسوها على إحدى الأرائك، ثم قدموا لها كأساً من الشاي الساخن. ورأت «يوزيريف» وهي شاردة عبر غشاوة من الضباب المزعج والكريه، وهو يرتب أوراقه ويضعها في محفظة من الجلد الأحمر. وكان جماعة «البوريات» قد انصرفوا. ألم يكونوا منهمكين بفتح القبر؟ فنهضت على قدميها، وقد انتابها قلق شديد:

- أين هم؟ لا أريد..

فقال لها «يوزيريف»:

- اطمئني، أيتها السيدة، سنستغني عن إخراج الجثة، وسأذكر في تقريري أننا أجرينا كل ما يلزم، وأنه قد تبين لي أن كل شيء صحيح وعلى ما يرام... إيه!.. إنه «الروتين» الجامد والتقليدي، أليس كذلك؟.. فنحن مضطرون..

كان يتكلم بلهجة تنم عن المجاملة المقصودة، كمن يخاطب شخصاً غير سوي، حيث من البديهي، أنه كان يخشى أن تعتريها نوبة أخرى، من انهيار الأعصاب، وبدا وكأنه على عجلة من أمره كي يسرع بالانصراف، فحياها باختصار، وخرج وهو يسير إلى الخلف وينظر إليها، ثم صعد إلى عربته، فانطلقت به، مسرعةً.

وعندما تلاشى صوت الأجراس، تلفتت «صوفيا» حولها، وقد عاودها الحزن والرعب بعنف وبشكل مضاعف. وبعد أن أصبحت لوحدها، لم يعد لديها أي مسوغ لكي تتمالك نفسها وتكتم حزنها ولوعتها. وكان فراغ الغرفة يخيفها. واخترقت صدرها حشرجة خفية ومخنوقة. لم تكن تبكي، كانت تشهق وتتألم وعضلاتها تتقلص، وحجابها الحاجز يقفز ويتشنج، دون أن تستطيع السيطرة على تلك التحركات المخيفة التي عصفت بكيانها، وظلت فترة طويلة، تتخبط، يائسة، ثم انهارت قواها، وتخلت عنها. وخرجت من الأزمة العاصفة بدماغ فارغ وأعضاء منهكة. ودخلت في فترة من الهدوء والخمود والراحة. وبدا لها أن أي ضربة تصيبها من القدر لم تعد تستطيع أن تنال منها شيئاً أو أن تؤذيها، وأخذت تشعر أن بشرتها قد فقدت حساسيتها حتى كان يمكن أن تحترق يدها، دون أن ترتعش! وبعد أن بلغت هذه الحالة من الجمود المطلق، والشلل، أخذت تشعر بالدهشة لكونها تألمت كثيراً وبكت كثيراً أمام ذلك الضابط الصغير، الذي أوفدته «ايركوتسك» لكي ينبش القبر. وكانت تعرف جيداً، مع ذلك، أن عزيزها «نيقولا» الخاص بها، لم يكن يرقد تحت ذلك التراب.

ولا في أي مرة، شعرت بحضوره، عندما كانت تجلس قرب الصليب مستسلمة للتأمل والتفكير. وقد خطر على بالها أن «يوزيريف» لو أخرج التابوت بالفعل من القبر لما وجد شيئاً بداخله. وأنها كان عليها أن تدعه يفعل ذلك! فـ «نيقولا» سافر عبر البحيرة ولا يزال يبحر متابعاً رحلته. والصورة الأخيرة التي رأتها له، والتي تحتفظ بها ليست صورة جثة مشوهة، بل صورة رجل حي مرح، يقف في مؤخرة القارب، يلوح لها بيده، ويضحك بملء أسنانه البيضاء. وإذا كانت تريد أن تلتقي به وتنضم إليه، فعليها أن تسافر، بدورها، هي أيضاً، وأن تهرب وتغادر هذا المكان، الذي لن يعود إليه أبداً. عليها أن تعود إلى روسيا.. ولا يمكنهم منعها من أن تفعل ذلك، الآن، بعد موت زوجها، لأنه هو، وليست هي، الذي حكم عليه بأن يقضي بقية حياته في سيبيريا.

وبالطبع، فإنها ستأخذ معها، رفات «نيقولا» كي يدفن في «كشتوفكا»، وهناك سيكون في وضع أفضل، عندما يرقد في ظل شجرة كبيرة، بين والده وأخته.

ونهضت، وهي مضطربة جداً، وركضت مسرعة نحو القبر، لكي تطلب النصيحة والمشورة، كان ذهنها يعمل بقفزات غير منتظمة. فتارة تفكر كشخص عاقل ومتزن، وتارة أخرى يحصل في رأسها شيء من العطب، فتستسلم عند ذلك، وتتبنى افتراضات غريبة، تختطفها من هذا العالم وتملؤها رعباً وفرحاً. كان غبش المساء ينزل من أعالي الجبال. وعبر ذلك الغبش، كان الصليب، المصنوع والمسمر دون إتقان، يبدو لها أنه ليس لـ «نيقولا»، بل يمكن أن يكون لأي شخص آخر: وكانت «صوفيا» تنظر إليه ولا تتلقى منه أي جواب. وخلال خمس دقائق ظلت هكذا، مقابل شخص مجهول لم يكن لديه شيء يقوله لها. وسيظل بطبيعة الحال اخرس، طالما بقي هنا، ولم يرجع إلى «كشتوفكا». وأخذت تفرك يديها، الواحدة

بالأخرى بصورة آلية، ثم ذهبت إلى ضفة البحيرة. المزدانة، كالطاووس، باللونين الأخضر والأزرق اللماعين. وبدا القمر، شاحب اللون، في سماء لا تزال واضحة وصافية. وظلت خلال فترة طويلة، تنتظر، بجدية تامة، عودة قارب الصيد الذي استقله «نيقولا». وحيال تلك الهاوية من الظلام البراق كل شيء كان ممكناً. وأخيراً خيم الظلام الدامس تماماً.

عادت «صوفيا» إلى البيت، تناولت بعض الطعام، دون أن تدري لماذا فعلت ذلك، واستلقت على السرير، وأخذت تستعد لعدم النوم. وشقت فكرة قوية لنفسها طريقاً، عبر جميع العوائق في دماغها: عليها أن تغادر «ميرتفي- كولتوك» وهذا القبر المضلل والخداع. وأن تحصل على جواز مرور من الجنرال «ليفنسكي» لكي تعود إلى «كشتوفكا»، وإلى الأماكن نفسها حيث كانت هي و «نيقولا» في غاية السعادة. وهناك في موطن أعز ذكرياتها، ستلتقي بالصغير «سيرج» الذي أصبح آنذاك في الثامنة من عمره ولكنها لا تزال تتصوره كما كان عندما فارقته، طفلاً رضيعاً في القماط، راقداً في مهده، على فمه أثر الحليب، ومن عينه السوداوين والواسعتين يشع بريق ضاحك. ومع هذه الذكرى، شعرت بدفقة قوية من العطف، والحنين. آه! أن تضم بين ذراعيها، وتدفئ، وتهدهد، وتحافظ على هذه الحياة وهي في بداياتها! وأن تصبح، من جديد، مفيدة ونافعة! وبالطبع، سيكون «سيدوف» هناك، في «كشتوفكا». ولكنها، ستعطيه نقوداً، وتبعده، فهو رجل مستعد دائماً لأن يبيع نفسه، ويكفي أن يُحدّد له السعر المناسب. وهي غنية، لأن نصف الأملاك يخصها، وبعد أن تبعد «سيدوف» يصبح الصغير «سيرج» لها، تماماً، بل لها ولـ «نيقولا»، وسيهتمان به سوية، ويربيانه في ظل واتجاه أفكارهما، وسيجعلان منه ابنهما. وأصبح هذا الاقتناع الغريب، يشكل مركز ومحور فرحها، وأخذت تستعيد الأمل، وتلمح، في البعد. هدفاً: منزل «كشتوفكا» القديم، بجدرانه

المغطاة بالملاط الوردي اللون، وسطحه الأخضر الباهت، وأعمدته الأربعة على درج مدخله.

وطوال الليل، ظلت تحلم بذلك، بانفعال محموم. وفي اليوم التالي، طلبت من «فاوول» أن يصطحبها إلى «ايركوتسك». وهو بطبيعة الحال، كان عليه أن يذهب إلى سوق المدينة، لكي يبدل ما لديه من جلود وفراء ورقائق أجواف الأسماك، بشاي «البريك» والأدوات الزراعية، والسمن. فقال لـ «صوفيا»، إنه سيصطحبها بعربته، إذا كانت تستطيع الانتظار خمسة عشر يوماً. فشكرته وتذرعت بالصبر.

ولأنها كانت واثقة من عدم رجوعها إلى «ميرتفي- كولتوك» فقد وزعت، في اليوم السابق لموعد سفرها، على نساء قبيلة «البوريات» الأدوات المنزلية، التي لن تحتاجها بعد ذلك.

٨

قال الجنرال «ليفنسكي»، وهو يدعو «صوفيا» إلى الجلوس أمامه، في مكتبه:

- إني أعترف بدهشتي الشديدة لرؤيتك هنا، أيتها السيدة، في حين أني لم أمنحك الأذن بالانتقال.

كانت الرحلة بالعربة مع جماعة «البوريات» قد أنهكتها فسندت خاصرتيها الموجوعتين على جانبي الأريكة، وتلمست كتفيها المتعبين، وحدقت في عيني مخاطبها، وتمتمت:

كنت أظن، أني، بعد وفاة زوجي، لم أعد ملزمة شخصياً، بالبقاء في مقر الإقامة الإجبارية!

فردّ وهو يقطب حاجبيه:

- إن وفاة زوجك لا تغير شيئاً من واجباتك تجاه السلطات الإدارية. ومراعاة لحزنك وحدادك، أريد أن أغض الطرف عن مخالفتك للنظام، بقدومك إلى المدينة من دون إذن.

وأعدك أيضاً بعدم توجيه اللوم لمن اصطحبوك معهم. ولكني أعتمد عليك، بشأن عدم تكرار هذا التصرف غير المسؤول! لم تكن تتوقع هذا التأنيب، وفقدت بعض الثقة ببقية المحادثة. وتوقف «ليفنسكي» عن الكلام لبعض الوقت. استرخت ملامح وجهه، وقال بلهجة تنم عن اهتمام أبوي:

- أتصور أن هنالك سبباً مهماً دفعك إلى الحضور إلى «ايركوتسك» من تلقاء نفسك، فما هو هذا السبب؟

فاستجمعت «صوفيا» جرأتها، وانطلقت تروي الحديث الذي كانت قد أعدته. وبينما كانت تشرح للجنرال الغم الذي انتابها بسبب وفاة زوجها، واستحالة العيش بمفردها في «ميرتقي- كولتوك»، كان يصغي إليها، بمزيد من الأسف والشفقة، وكان يهز رأسه متأثراً بما ترويه له، وبدا وكأنه يتابع تفاصيل محنتها، خطوة فخطوة، بحيث أنها استطاعت أن تعتقد أنها ربحت الجولة، وقالت:

- ولأن زوجي قد توفي، فليس لدي أي مسوغ للبقاء هنا، يا صاحب السعادة. وأود العودة إلى روسيا، والعمل على نقل جثمانه، كي يدفن في الأرض التي تملكها أسرتنا، في «كشتوفكا» ألا تستطيع أن تساعدني في مسعاي؟

فتصلب جذع «ليفنسكي» وتطاول خلف مكتبه، وجحظت عيناه تحت قوسي حاجبيه المرفوعين، وبدا وكأنه يتلقى مفاجأة بعد أخرى من هذه الزائرة التي تبدو واثقة من نفسها، ولا تشك بشيء.

وقال:

- إني أسف لكوني أخيب أملك، أيتها السيدة. وقبل أي شيء أقول لك إن نقل جثمان المحكوم السياسي، ممنوع، وثانياً، أن أرملته ليس لها الحق بمغادرة سيبيريا.

فذهلت «صوفيا» كجريح أضاعت صوابه الصدمة بسبب الطعنة التي تلقاها، فلم تشعر بعد بقوة الضربة التي تلقتها، ولا بعمق الطعنة. وفجأة، أخذت تتمتم:

- هذا مستحيل، يا صاحب السعادة! فخطيئة زوجي قد زالت بزواله! ولأني أنا نفسي لست محكومة، فأنا حرة بالذهاب إلى أي مكان يحلو لي الذهاب إليه!

فسألها:

- قبل أن تلحقي «نيقولا ميكايلوفيتش أوزاريف» إلى سيبيريا، ألم توقعي على ورقة تعترفين فيها أنك مماثلة ونظيرة كمجرم أمن الدولة؟

فتمتمت:

- بلى.

وشعرت بالبرد يسري في أوردتها. وحصل لديها انطباع وهي جالسة في هذا المكتب الرسمي الفخم، الذي تكثر فيه الأواني البرونزية، وقطع الأثاث المصنوعة من خشب الزان الأحمر، والستائر والسجف الخضراء، أنها قد فقدت الصلة بكل ما هو إنساني.

وقال «ليفنسكي»:

- لا يهتم الناس عادة، بالقدر الكافي، بالتواقيع التي يوزعونها، هنا وهناك، ولا سيما السيدات! ومع ذلك، فإن صاحب الجلالة قد حسم مشكلة هذه النقطة التي تشغل بالك والمتعلقة بحقوق زوجات المحكومين، في إحدى جلسات مجلس الوزراء، منذ بضعة أسابيع، وبتاريخ ١٨ نيسان (ابريل) بالتحديد. ومن الأفضل أيضاً أن تلقي نظرة على المحضر الرسمي لتلك الجلسة...

وأخرج من أحدى الأضابير ورقة كبيرة، مغطاة بالكتابة، وتحمل الرقم المتسلسل: (٧٦٢)

وأضاف:

- لا تهتمي بالمقدمة، اقرئي مباشرة الفقرة الثانية، فهي التي تهمك.

وأشار بإصبعه إلى أحد السطور، فأخذت «صوفيا» تقرأ:

«بعد وفاة المجرمين بحق أمن الدولة، تعاد جميع الحقوق لزوجاتهم البريئات اللواتي شاركنهم في مصيرهم، مع السماح لهن بإدارة شؤون أملاكهن، واستيفاء إيراداتها، ولكن في حدود سيبيريا فقط، أما السماح لهن بالعودة إلى روسيا فلا يمكن إعطاؤه لأرامل المجرمين المذكورين إلا في بعض الحالات الاستثنائية، ويجب أن يسبق هذا الأذن قرار خاص يتخذه الإمبراطور».

وأعادت الورقة إلى المكتب، وكانت خيبة أملها شديدة، لدرجة أنها شعرت بدوار قد انتابها، وأخذ «ليفنسكي»، والنافذة واللوحات، كل شيء، يرتجف أمام عينها. وهكذا. فإنها بعد أن عاشت، عدة أسابيع وهي متيقنة من العودة في القريب العاجل إلى روسيا، يرفضون أن تتاح لها فرصة هذا الانتقام البسيط من القدر الغاشم. ومرة أخرى، بدا لها أن مستقبلها متعلق بإرادة القيصر، لدرجة أنه خيل لها أنه يشعر بمتعة خبيثة، من احتفاظه بالناس تحت سيطرته. وأنه يرخي قبضته التي يمسكهم بها، ثم يشددها، في اللحظة التي توشك فيه ضحاياه على نيل حريتهم وراحتهم.

وقال «ليفنسكي»، بمراوغه ودون اهتمام:

- تستطيعين، في أي وقت، أن تتقدمي بطلب، بهذا الشأن.

- وهل سيحقق هذا الطلب النتيجة المرجوة؟

- إني أشك في ذلك، لأن جلالته لا يريد أن يوجد سابقة في هذا المجال.

فهز أعصاب «صوفيا» غيظ شديد ينم عن الاحتقار والازدراء. وبانهيارها وانطوائها على نفسها، جعلتها أوهامها أكثر ضعفاً مما كانت عليه في السابق. وأذهلها خبث ورداءة الرجال الذين يتمتعون بالسلطة ويتولون إدارة شؤون الناس. وتبادر إلى ذهنها أن روسيا هي إحدى البلاد النادرة في العالم التي يتفق فيها كل الناس على محبة الشعب وكره الحكومة.

«والآن، ما العمل؟» واستغرقت في التفكير، وغاصت في أعماق ذاتها، باحثة عن جواب لهذا السؤال، عن أمر، أو طريقة، أو اتجاه، ولكنها لم تجد سوى العزلة والضعف، والعجز عن القيام بأي مسعى.

وقالت أخيراً:

- لا أستطيع أن أصدق، يا صاحب السعادة، أنكم تريدون احتجازي طوال حياتي في سيبيريا، في حين أني لم أرتكب ذنباً، كي أستحق هذه العقوبة، وأنا امرأة وحيدة. ولا أشكل خطراً على أحد..

فقال «ليفنسكي» وهو يبتسم ببرود:

- هذا صحيح، بالتأكيد، أيتها السيدة، ولكنك تخطئين عندما تُعَدّين سيبيريا منطقة للاحتجاز وللعقوبة. ويمكن للمرء أن يعيش سعيداً جداً على هذه الأرض الروسية الجميلة. وأنا أعرف كثيراً من الناس هنا، لا يريدون، مقابل أي شيء في العالم، أن يسكنوا في مكان آخر!

لم تكن تصغي له، بل مستغرقة في التفكير تبحث عن حل لمشكلتها، وفجأة، لاحت لها بارقة أمل، فصاحت بحماسة شديدة:

- هنالك أمر، يبدو أنك نسيته، يا سعادة الجنرال، وهو أمر في غاية الأهمية! فانا فرنسية!

- إيه، وماذا يعني ذلك؟

- لقد ذكر في وثيقتكم أن الأرامل يمكن أن يسمح لهن بالعودة إلى روسيا، في حالة استثنائية، والحال هي أني أشكل حالة استثنائية! إن لم يكن بسبب مصيبتي، فعلى الأقل بسبب جنسيتي!

ففكر «ليفنسكي» قليلاً، ، ووافق، قائلاً من طرف شفتيه:

- فعلاً، هذا صحيح.. وأنا أنصحك بأن تذكري هذه الملاحظة في عريضتك... فهي ربما أفادتك..

فقالت، فرحة:

- أترى ذلك، حقاً؟!

فأبدى حركة تنم عن الشك.

فاستأنفت الكلام:

- سأحضر لك غداً طلباً للسماح لي بنقل رفات زوجي، والسماح لي أنا أيضاً بالسفر! وبانتظار ورود جواب الإمبراطور سأعود إلى «بيتروفسك»، إلى عند الجنرال «ليبارسكي» الذي كان طيباً ولطيفاً جداً، بالنسبة لي وجميع أصدقائي لا يزالون هناك! وعندما أكون بينهم، أشعر بالطمأنينة، وأني أقل ضياعاً!..

وهمت بالاستئذان والانصراف، ولكن «ليفنسكي» هز رأسه بتثاقل، وقال:

- أحضري لي طلبك، إذا رغبت بذلك، ولكني يستحيل علي أن أسمح لك بالعودة إلى «بيتروفسك».

- ولماذا؟

- لأن ذلك المكان مخصص للمساجين ولزوجاتهم.

- لقد كان زوجي سجيناً!

- لم يكن كذلك، عندما مات!

- وماذا يغير هذا في الأمر؟

- لأنه، منذ أن أخلي سبيله، يجب اعتبارك أنت أيضاً قد أخلي سبيلك، وبالتالي فإنك لا تستطيعين الإقامة بين جماعة لم ينهوا بعد مدة إقامتهم في السجن.

كانت هذه الملاحظة غير معقولة أبداً، لدرجة أنها اعتقدت في بداية الأمر، أنه أوردها على سبيل المزاح، وصاحت بأعلى صوتها:

- ولكن «بيتروفسك» ستكون جنة الفردوس، بالنسبة لي إذا قارنتها بـ «ميرتفي- كولتوك»، وأنت لا ترغب على أي حال أن أصبح، بعد أن

أعطيت لي حريتي، أكثر بؤساً مما كنت عليه، يوم كان زوجي سجيناً!
وبدلاً من أن يكون الإبعاد إجراءً ينم عن الرحمة، يصبح إذن سببا لتشديد العقوبة.

وبينما كانت تتكلم، بدا لها أن شيئاً قد انغلق تماماً لدى «ليفنسكي» وأن عينيه أصبحتا قاسيتين تحت حاجبيه المقطبين. ولم يعد أمامها ضابط متقدم في السن، يحمل عدة أوسمة، بشوش ولطيف المعشر، بل شخص متحجر، صلب، جامد وبليد: لغز، وأحجية إدارية.

وقال:

- يمكن أن يكون الأمر هكذا، في حالتك، ولكن ليس لي الحق بأن أمنح لأحد أي استثناء. ولأنه لم يعد لك علاقة مع المحكومين السياسيين، فيجب عليك أن تعيشي بعيداً عنهم. فلا يسمح باختلاط الفئات والأنواع المختلفة. فهنالك أماكن للاحتجاز والسجن، وأماكن للنفي والإبعاد. فلو عاد المبعدون، من تلقاء أنفسهم إلى بين المعتقلين، فتصوري تلك الفوضى، التي تحصل، حينئذٍ!

فقالت، متأوهةً:

- إذن، ماذا تطلب مني؟

- ستعودين إلى «ميرتفي- كولتوك» منذ صباح الغد، وسيرافقك إلى هناك، أحد الضباط.

- ألا أستطيع البقاء هنا لبعض الوقت، لكي أعود مع جماعة «البوريات» الذين أتيت معهم؟

- كلا، أيتها السيدة، سيكون ذلك مخالفاً للنظام. وعندما يتأكد لي أنك عدت إلى مقر إقامتك، سأطلب من السلطة المركزية أن تخصص لك مكاناً أقل بعداً وعزلة، تقيمين فيه:

«كورغان»، «تورنسك»، بل وربما «ايركوتسك»...

فهزت كتفيها:

- كل هذا سيان بالنسبة لي، المهم هو أن أستطيع في يوم من الأيام العودة إلى روسيا!

فنهض «ليفنسكي» متمهلاً، وهو يبستم، قبل يد «صوفيا» وقال:

- أتمنى لك أن تثبتي لنا أنه من الأفضل أن تكوني فرنسية وليس روسية، لكي تحظي بعفو ورحمة الإمبراطور.

فسألته:

- وهل ستؤيد طلبي، يا صاحب السعادة؟

- بالتأكيد!

ولكنها كانت تعرف أنه لن يفعل ذلك.

★★★

كان الملازم «يوزيريف» وهو جالس في العربة بجانب «صوفيا» لا يحول نظره عنها. فهو لن يطمئن، حتى يكون قد أعادها إلى «متريفي كولتوك» كانت الأحصنة تسرع الخطى، في المرحلة الأخيرة من الرحلة. وأخذت بحيرة «البايكال» تبدو متلألئة، عبر جذوع أشجار الصنوبر. ومع اقتراب «صوفيا» من مقر إقامتها الإجبارية، أخذ يمتزج بغيظها حنو غريب. كما لو أن هذا البلد الذي كانت تريد مغادرته عاد فأصبح عزيزاً عليها، دون علمها. وعندما لمحت، في منخفض مخضوضر، خيام قبيلة «البوريات»، وأبعد منها قليلاً، سطح «الايسبا» المائل، حصل لديها انطباع بأنها عائدة إلى منزل أسرتها.

فهنالك من ينتظرها، صامتاً، وقد نفذ صبره. وشعرت برغبة شديدة بأن تركض نحو قبر «نيقولا». فكم لديها من أمور وأشياء تريد أن تحدثه عنها! رحلتها، زيارتها للجنرال «ليفنسكي»، مشروع عودتها إلى روسيا.. ستنجح بذلك. وسيسافران سوية.. كانت أجراس العربة تملأ

رأسها دوياً، والارتجاجات تهز جسمها، وظلال الأشجار تمر مسرعة على وجهها كمداعبات ريش رمادي اللون. ثم بدت الشمس الساطعة، في زرقة السماء الصافية، عند الظهر، وبدت البحيرة ممتدة على مدى النظر. دون انقطاع.

وصاح السائق:

- تثبتوا جيداً، في مقاعدكم!

وانطلقت الأحصنة، تعدو مسرعة، في المنحدر.

مذكرة بقلم المؤلف

لقد استحوذت الأسطورة بسرعة على متمردي الرابع عشر من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٢٥. وقد تغنى أكبر شعراء روسيا، من «بوشكين» إلى «نيكراسوف» بعذاب وآلام، بل واستشهاد بعض أبطال الحرية، هؤلاء، وبزوجاتهم المدهشات.

وهكذا، فقد ترسخت، من جيل إلى جيل. الفكرة القائلة بأن إقامتهم في المنفى كانت جحيماً. والحال، هي أن- وأرجو ألا يغيظ هذا، بعض النفوس الحساسة- الحقيقة كانت غير ذلك، ومختلفة عنه تماماً. فهنالك بعد شاسع بين «بيت الأموات» المرعب، الذي عاش فيه «دوستويفسكي» مقيداً بالأغلال بين القتلة واللصوص، وبين سجون «السادة» في «تشيتا» و «بيتروفسك»، حيث تواجد ثوار روسيا الأوائل بين أناس طيبي المعشر، تحت إدارة الجنرال «ليبارسكي» الأبوية، والمتعاطفة معهم، صحيح أن آلامهم ومعاناتهم النفسية، كانت شديدة، وأحياناً لا تطاق، ولكن الجوانب المادية في معيشتهم قد انتظمت، شيئاً فشيئاً، وبشكل مريح، تقريباً. وقد ذكروا هذا، هم بأنفسهم في مذكراتهم، كما لو أنهم، وقد توقعوا التمجيد الذي سيحظون به، أرادوا تحذير الأجيال الصاعدة، من الكذب. وباستنادي، بشكل أساسي على شهادات هؤلاء المساجين الاستثنائيين، وغير العاديين، ألّفت كتابي هذا. فظروف اعتقالهم وإقامتهم في سجني «تشيتا و «بيتروفسك» ومناقشات النساء مع حاكم السجن، ومشاريع الهرب، والرحلة سيراً على الأقدام، عبر سيبيريا، كل هذا مطابق

للحقيقة التاريخية. ومغامرة «صوفيا» و «نيقولا»، أي قصتهما الغريبة، هي وحدها، التي اختلقتها أنا، بكاملها.

★★★

والمؤلفات التي تحدثت عن قصة هؤلاء المتمردين، وعالجتها لا يحصى عددها، كما يقول المؤلف، وقد أشار إلى أهمها، في جدول ملحق بالكتاب، وهذه المؤلفات التي يُعَدّها المؤلف مهمة، يربو عددها على الأربعين، ومعظمها باللغة الروسية.

- المترجم-

منشورات دار علاء الدين
سلسلة روايات نور العادلين
من تأليف هنري ترويّا

١- رفاق شقائق النعمان.

٢- النبيلة الروسية.

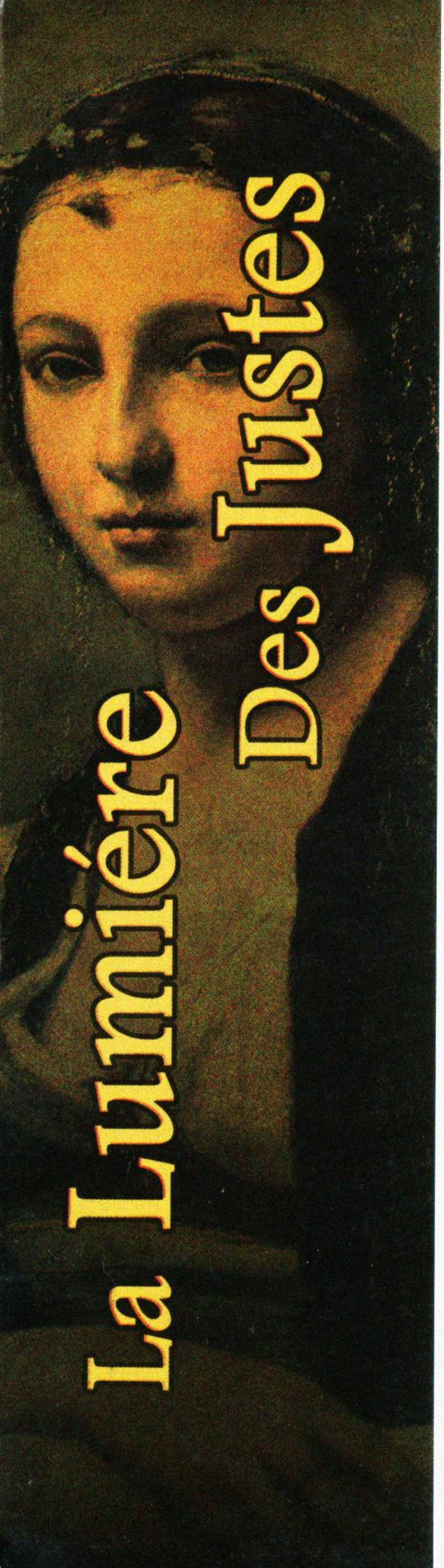
٣- مجد المهزومين.

٤- سيدات سيبيريا.

٥- صوفيا أو نهاية المعارك.

من منشورات دار علاء الدين

- ابنة الكاتب
  هنري ترويا
- الوشا
  هنري ترويا
- محاكمة سقراط
  يوري فانكين
- ذكريات غيشا
  آرثر غولدن
- زنوبيا ملكة تدمر - رقص الآلهة
  أ. ب. دانييال
- الحب المتبادل بين الزوجين
  البرتو مورافيا
- أرخبيل غولاغ
  الكسندر سولجنيتسين
- مساء ذبول الوردة
  اردال أوز
- خبز فوق الماء
  اروين شو
- قرب النهر أبكي
  باولو كويلهو
- محارب النور
  باولو كويلهو
- بؤس الشيطان
  بريم ستوكر
- جاز
  توني موريسون
- أخوية اليقظانين
  جاك اتلي
- مشاهد من حياة كهنوتية
  جورج إليوت
- هيجان محاكمة وقتل لوركا
  جوزيه لويس دي فيلالونغا
- إيفا
  جيمس هادلي شيز
- النطع
  جينكيز إيتماتوف
- مرآة الحبر مختارات
  خورخي لويس بورخيس
- الحجلة لعبة القفز بين المربعات
  خوليو كورتاسار
- نذير بالشر
  دافيد سلتزر
- مذكرات امرأة
  روش بدرخان
- أنماط غريبة من الحب
  سومرست موم
- الرحيل
  طاهر بن جلّون
- فصل الراحة
  غور فيدال
- قصص من حياة دوستويفسكي
  فد جيلزنياك


La Lumière
Des Justes



سيدات سيبيريا

نزوع إنساني متوقِّد، وتكثيف معقَّد لعلاقة وجدانيَّة تكمن خلف جدران الحب والوفاء الزوجي، تفجِّر طاقات التَّحدي لكي تعبر مَفَازات البُعد والنَّفي وغضب الطبيعة والإنسان، وتترك المدى متاحاً لاستطلاع عالم رحب بالقيم يجسِّد الفضيلة والوفاء والتَّحدي في امرأة تشدُّنا إلى تخوم الدَّهشة، وتوقد فينا شعلة الإنسان المقدَّسة.

في هذا الخضم الذي يموج بالحب والواجب والعاطفة، يشرئبُّ الواقع بأحداثه السياسية والاجتماعية ليُضفي على هذه الرواية أطيافه بكل ألوانها، لتكون واحدةً من الرَّوائع الأدبية.

يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين للنشر والطباعة والتوزيع - سوريا - دمشق
ص.ب. ٣٠٥٩٨ - هاتف ٥٦١٧٠٧١ - فاكس ٥٦١٣٢٤١ - بريد إلكتروني ala-addin@mail.sy